مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD
Par Stéphane GSELL

الجزء الثالث

التاريخ العسكري لقرطاجة

الرباط، 2007

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اكْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD
Par Stéphane GSELL

الجزء الثالث

التاريخ العسكري لقرطاجة

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكْس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1413

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-056-[illegible] (الجزء الثالث)

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڭْصيل

الفصل الأول

قرطاجة وإغريق صقلية – حملة أكاطُكْلِس

1

كان امتلاك صقلية يجعل من الفينيقيين سادة على البحر الأبيض المتوسط الغربي. فعندما كان خرشيش Xerxès يهاجم بلاد الإغريق، حاولت قرطاجة الاستيلاء على الجزيرة، ولكنها اندحرت كما اندحر ملك الفرس. ولربما رأت أنها غير قادرة على تجديد المجهود الذي فشل فشلا ذريعا، فأسرعت بعقد الصلح. ومر سبعون عاما قبل أن تعود للصراع ضد الإغريق. وفي بداية هذه الحقبة كوّنت لنفسها منطقة في إفريقيا. ولربما أن هذا العمل هو الذي شغلها عن محاولة الانتقام من الإغريق. كما أن الماگونيّين الذين قادوها من حرب إلى حرب أخرى مدة ثلاثة أجيال، لم يعودوا يتصرفون بالجمهورية حسب هواهم. فبدت قرطاجة وكأنها تخلت عن المطامع العظيمة التي صنعت عظمة هذه الأسرة وعظمتها هيِ. أما المستعمرات التي أنشأها الفينيقيون المشارقة بغرب الجزيرة، فكانت حليفات لها، أو على الأصح كانت تابعة.

وهكذا كان بيد قرطاجة السواحل المقابلة لخليج تونس ولسردانية. وقد كان بمستطاعها – قبل كارثة هيميرا Himère وبعد هذه الكارثة أيضا – أن تقنع بوضع يبدي أن غالبية أهلها لم يكونوا يريدون، ولم يكونوا يستطيعون تغييره. ذلك أنهم لم يعودوا خاضعين لمتأمرين طغاة أقوياء، ومحبين للحرب. كما كان الشأن في عهد جيلون Gélon وتيرون Tèron. وكانت سرقوسة وأكْريجَنْت تتحاسدان، ولم تحافظا على حلفهما. وأخيرا فإن الإغريق كان عليهم أن يواجهوا جيرانهم الأهالي، قبل أن يلتفتوا لخصومهم المبعدين، إلى القاصية الغربية لصقلية.

وقد فكر الغير في نشر سيادتهم على الجزيرة الكبيرة وفي القضاء على القرطاجيين. وكانت هذه المشروعات مما يثار في أثينا في حياة برِكْليس Périclès، وأعلن ألْكِبْيَاد Alcibiade أنه يحققها. فيكون الاستيلاء على سرقوسة مقدمة للحرب ضد قرطاجة، غير أن هذه وقفت موقف الحياد رغما عما قامت به هذه الجهة أو تلك من خطوات للتقرب منها. غير أن اندحار الأثينيين الذي كانت قرطاجة ترجوه أو تتوقعه، قد هيج السرّقوسيين وحلفاءهم. وبذلك يسهل أن نفهم أنهم لن يلبثوا أن يطالبوا بالجزيرة كلها.

ومنذ مدة طويلة كان الإيليميون Elymes أهل ساجسْت Sageste والإغريق أهل سلْنونة Sélinonte يختصمون على إحدى المناطق الترابية. بل كان هذا سببا لتدخل أثينة التي استنجد بها أهل ساجسْت، فهاجمت سرقوسة حليفة سلْنونة. ولما أخفقت حملة الأثينيين توسع أهل سلنونة على حساب أهل ساجست الذين وهبوا أنفسهم لقرطاجة كي تدافع عنهم. وكانوا قبل ذلك ودون جدوى قد طلبوا حمايتها، ولكن طلبهم قبل هذه المرة. وكان حنّيعْل الماكوني ملكا ابداك. فأقر مجموعة من

التدابير الحازمة. وأرسلت إلى ساجِست الجيوش التي صدت السلينونتيين. وفي ربيع سنة 409 أنزل حنيبعل بالقرب من موتيه Motyé جيشا عظيما انظم إليه الإيليميون.

لن نقُصّ تفاصيل هذه الحملة، ولا تفاصيل الحملة التي قام بها القرطاجيون من بعد في صقلية وفي مناطق أوربية أخرى، لأن موضوع كتابنا هذا هو تاريخ الشمال الإفريقي. لكن لكي نقدر المكانة التي احتلتها قرطاجة في إفريقيا، لابد بالطبع من معرفة الأحداث الخارجية التي ضاعفت أو قللت من قوتها بصفة عامة، والتي أثرت في سياستها الداخلية، وأخيرا الأحداث التي شارك فيها عدد كبير من مواطنيها ومن محكوميها على الخصوص. فبعدما أوضحنا نظام جيوشها، لا يليق السكوت عن الحروب التي خاضتها بهذه الجيوش، وإن كنا نظن أن عرضا سريعا لها يمكن أن يكون كافيا. وفوق هذا، فإن دراسات متقنة قد خصصت للصراع الطويل الأمد الذي جرى بين القرطاجيين وإغريق صقلية. لذلك لا يكاد يكون لدينا شيء جديد نضيفه لما رواه من سبقونا.

جاء حنّيبَعْل لمحاصرة سلنونة، فأقام ستة أبراج عالية جدا، وهدمت الأسوارَ كِباشُه ذات الرؤوس الحديدية. وفي اليوم التاسع وقع الاستيلاء على المدينة عنوة، كما وقع نهبها وإحراقها. واخترقت الجزيرة الجيوش البونيقية، يصحبها جمهور الأهالي، حتى وصلو أمام هيميرا التي قاومت قليلا ثم أخذت قهرا وهدمت. ولم تقم لها قائمة من بعد. وقد أمر حنّيبَعْل بذبح 3000 أسير. فكانوا ضحايا غفران بالمكان الذي مات به جده عَمِلْكار سنة 480. ولكنه اهتم بإنقاذ بعض التحف الفينيقية التي بعث بها إلى إفريقيا ثم سرح جيشه. ولم تدم الحملة سوى ثلاثة أشهر. فبتهديم المدينتين اللتين كانتا المركزين الأماميين للهَيْلَنَة Héllénisme،

أرادت قرطاجة إقناع الإغريق بأنها لن تسمح لهم بالسيطرة على صقلية الغربية. ولكنها لم تكن بعد مستعدة للمجهود العظيم الذي ستفرضه حرب الإبادة واحتلال الجزيرة كلها. ذلك أنها قبل بداية الحرب، أبدت مراعاتها لسِرَقوسة. وعرضت عليها أن تكون حَكَماً في الخلاف بين ساجِسْت وسِلنونة. ولكن سرقوسة رفضت، وبعثت إلى السلنونيين والهيميريين نجدة متكونة من بعض الجيوش التي علمت أثناء سيرها بخبر سقوط سلنونة. وبعدما حاولت الدفاع عن هيميرا دون جدوى، لم تستطع سوى أن تتراجع وبصحبتها قسم من سكان المدينة.

في السنة الموالية، فإن هيرْمُكْرات Hermocrate – وهو سِرَقوسي سبق له أن حارب الأثينيين وانتصر عليهم – ذهب صحبة جيش صغير، فاستولى على سلنونة وأقام أسوارها، وعاش في غرب الجزيرة، ودحر الفينيقيين في بالِرْم Palerme وموتية، ثم توجه إلى هيميرا فجمع عظام مواطنيه الذين قتلوا قبل ذلك ببضعة أشهر، وأمر بحمل هذه العظام إلى سرقوسة. ولم تشارك حكومة هذه المدينة مطلقا في تحديات هيرْمُكرات، لأنه كان آنذاك محكوما عليه بالنفي، ولم يلبث أن مات وهو يحاول الدخول لوطنه، ولكنه قدم نفسه كبطل وكمنتقم للإغريق. لذلك خشيت قرطاجة أن يؤخذ عمله مثالا يقتدى به. وأرادت أن تنهي الموقف. فهيأت حملة أعظم من حملة سنة 409، وأسندتها إلى اثنين من الماگونيين هما حنّيبَعْل الذي كان متقدما في السن، وانضم له حملْكون ابن حنّون. تقدما حتى وصلا أمام أگْريجَنْت في ربيع سنة 406. لَكن العدو أحرق لهما أبراج الهجوم التي نصباها، كما أن العرّافين أمروهما – نظرا لظهور بادرة غير موافقة – بالتوقف عن تهديم القبور لبناء المسطحات بأسفل الأسوار. ثم أصاب الوباء جيوشهما ومات حنّيبَعْل به. وترضيةً للآلهة، فإن حملكون قدم أحد الأطفال قربانا. ورمى إلى البحر بعدد كبير من

الضحايا. فتقدم لنجدة أهل أكْريجَنْت جيش متكون من السرقوسيين وغيرهم من إغريق صقلية وإيطاليا ومن السيكوليين Sicules أيضا، وخاض معركة انتصر فيها. وإذا كان هذا الجيش لم يستطع الاستيلاء على معسكر القرطاجيين، فإنه قطع المؤن عنهم، حتى تفشت المجاعة في المرتزقة وهددوا بالتخلي عن الجيش. غير أن حملكون أخرج نفسه من الضائقة بالاستيلاء على قافلة وردت بالبحر من سرقوسة لتموين أهل أكْريجنت المحصورين. فأصابت المجاعة هؤلاء، وتركهم من جاءوا للدفاع عنهم، واستسلم الجنود الكَمْبانيون للقائد الماكوني، وادعى القادة الحلفاء من الإيطاليوتيين Italiotes أن وقتهم في القيادة قد انتهى. وبعد مقاومة دامت سبعة أوثمانية أشهر، سقطت أكْريجَنْت (ديسمبر 406)، وفر معظم سكانها. فوقع من جديد ما سبق أن عرفته سلنونة وهيميرا من تقتيل ونهب وإحراق. أما حملْكون فإنه مكث بهذا المكان إلى بداية الصيف، وهدم المدينة قبل أنَ يغادرها. ولما تولى دونيس Denys السيادة على سرقوسة جلب قوات عديدة، وجرت ثلاث معارك مشتركة ضد الجيش البونيقي، ولكنها أخفقت جميعا وتقرر الجلاء. وفعلا فإن السكان والجيوش أخذوا بالليل طريق سرقوسة، من غير أن يثيروا انتباه الأعداء. وفي الغد لقيت جيلا Géla نفس المصير الذي لقيته أكريجنت، وفر كذلك أهل كمارينا Camarine. وهكذا أصبحت جميع المدن الإغريقية بجنوب صقلية خرائب وركاما. ولربما يكون القرطاجيون تقدموا حتى قاربوا سرقوسة التي يمكنهم سقوطها من السيطرة على الجزيرة كلها. ولاشك أن الحصار يكون عملية بالغة الصعوبة، ولكن سلطة دونيس كانت متضعضعة جدا. ولربما أن خصومه السياسيين قد يقبلون شروطا مضرة بوطنهم. ولكن الوباء قضى على آمال حملكون، لأن الوباء انتزع منه أكثر من نصف جنوده، فاضطر للتفاوض في الصلح مع دونيس. وقد

اعترفت المعاهدة لقرطاجة بتملكها لصقلية الغربية التي تشمل المستعمرات الفينيقية القديمة. وكذلك الأراضي التي يسكنها الإيليميون Les Emyles والسيكانيون Sicanes. كما تركت لها على الساحل الجنوبي أراضي المدن الإغريقية التي سبق لها أن استولت عليها. أما سكانها القدماء فقد سمح لهم بالعودة إليها بشرط أن يؤدوا الأتاوة وأن لا يقيموا التحصينات. بينما على الساحل المقابل، فإن هيميرا حلّت محلها ثرماي Thermai التي وفد عليها معمّرون جلبوا من إفريقيا. غير أنها لم تلبث أن فتحت أبوابها للهيمريين الذين نجوا من كارثة سنة 409. وبعيدا إلى الشرق أسس القرطاجيون على ما قيل مدينة أليصا Alaisa.

صارت قرطاجة إذن ثابتة القدم في صقلية. ولم يعد لها من تحسب حسابه إلا سرقوسة. وطال الزمان أو قصر، فلابد أن ظروفا مواتية قد تساعدها في القضاء على عدوتها القديمة، أو في جعلها محكومة أو تابعة لها. ومع ذلك لم تكن قرطاجة هي التي عاودت المبادأة بالصراع.

فقد استولى دونيس Denys في السنين التي تلت 405 على المدن الإغريقية بالساحل الشرقي. واتحد مع مِسّينة Messine وأخضع قسما من السيكوليين. وصان سِرقوسة بسور جديد له امتداد كبير، كما أنه جند المرتزقة، وصنع الأسلحة والآلات، وضاعف أسطوله ثلاث مرات. وفي تلك الحقبة وقع اختراع المنجنيق. كما تم لأول مرة بناء سفن لها خمسة صفوف من المجدفين. وفي سنة 398 رأى دونيس أنه على أتم استعداد، وأن الوباء الذي كان آنداك منتشرا بإفريقيا سيسبب الضعف لمن سيحاربهم. فقدم مشروعاته للشعب الذي وافق عليها. وفي الحين تم انتهاب متاجر وسفن القرطاجيين الذين كانوا يتعاطون للتجارة في سرقوسة. وكذلك قام بقية إغريق صقلية بمثل هذا العمل. ولاشك أن

دونيس أراد أن يكسو عمله بلباس المشروعية، فبعث إلى قرطاجة رسولا حمل رسالة تدعو الحكومة البونيقية إلى التخلي عن المدن الإغريقية التي تسيطر عليها بالجزيرة، وينذرها بأن أي رفض سيؤدي إلى الحرب حتما. وقد قرئت هذه الرسالة على المشيخة، ثم تليت أمام مجلس المواطنين. ولم تنل الرسالة جوابا، وإنما وقع تعيين بعض المنتدبين الذين رحلوا إلى أوربا لحشد الجنود.

خرج دونيس من سرقوسة وتقدم مسرعا نحو الغرب، فانضم إليه الإغريق الذين استعبدتهم قرطاجة. وحين وصل إلى موتِيَة Motyé كان جيشه يفوق 80.000 رجل. وفي نفس الإبان كان يسير بمحاذاة الساحل 200 سفينة حربية و 500 من سفن النقل المحملة بعدد كبير من آلات الحصار. ولربما أن موتية، المدينة الفينيقية، وقع تعزيزها بمعمّرين قرطاجيين. وقد كانت تقوم وسط جون، على جزيرة صغيرة قريبة جدا من الساحل، كما كانت أقرب الموانيء إلى القارة الإفريقية، وأصلحها لنزول الجيوش البونيقية القادمة عن طريق البحر. أما حِمِلْكون فقد وصل ومعه 100 سفينة ثلاثية، وحاول فك الحصار عن المدينة. فقد ظهر بغتة عند مدخل الجون الذي كان الأعداء قد جذبوا فوق شاطئه قسما كبيرا من قوادسهم. ولكن دونيس أمر بنقل هذه السفن برا إلى عرض البحر. فخشي القائد الماكوني أن يشتبك مع قوات تفوق قواته وانسحب بأسطوله عائدا إلى إفريقيا.

كان أهل موتِيَة قد حطموا الممر الترابي الذي كان يربطهم بصقلية، فعوض عنه دونيس برصيف ابتناه. وتقدمت أبراج خشبية من ستة طوابق محمولة على العجلات حتى اقترب من الأسوار التي نقبتها الكِباش. كما أن المنجنيقات أمطرت المدافعين بوابل من القذائف. ولما

اقتحمت جيوش دونيس السور من إحدى الثغرات، واجهتها مقاومة عنيفة من جانب السكان الذين لم يكن لهم أمل في النجاة. واستمرت المعركة عدة أيام فوق سطوح المنازل العالية المتزاحمة بالجزيرة الضيقة، وفوق الجسور المكونة من الألواح التي كان المهاجمون ينصبونها ليمروا عليها. وأصدر دونيس إذنه بالنهب، كما أمر بالاعتدال في التذبيح لأنه كان يريد الحصول على الأموال بالأسرى الذين بيعوا عبيدا. وقد جاس في هذه السنة وكذلك في 397 بمنطقة النفوذ القرطاجي، وعاث فيها وقطع الأشجار بكل مكان.

على أن بعض المدن كانت لا تزال صامدة عندما أنزل حملكون في بالِرْم جيشا لا يقل عن الجيوش السابقة. وكان للسرقوسيين أسطول مرابط بناحية الجنوب الغربي لصقلية، ولكنه لم يستطع أن يحطم سوى 50 من سفن النقل. وعاد دونيس إلى سرقوسة، لأنه كان يخشى أن يخوض المعركة في أرض لم يستول عليها إلا منذ وقت قليل. ويجد فيها مشقة في الحصول على الأقوات. فاستولى حملكون من جديد على موتية، التي سرعان ما حلت محلها مستوطنة ليليبي Lilybée التي تم تأسيسها على مسافة قليلة إلى الجنوب، في موقع أكثر ملائمة. فركز من جديد السيطرة القرطاجية بغرب الجزيرة. وفي سنة 396 سار بمحاذاة الساحلين الشمالي والشرقي، فاستولى على مِسِّينة التي حوّلها حطاماً، ثم وصل أمام سرقوسة. وبالقرب من كاتان Catane، حطم أسطولُه الذي كان يرافقه قرابة 100 سفينة إغريقية. فتسارع الأهالي جموعا ليحاربوا تحت إمرته، بينما دونيس قد تخلى عنه حلفاؤه. واستقر حملكون على شواطئ الميناء الكبير بجنوب المدينة. فهل كان يظن أن ثورة ستفتح له الأبواب ؟ وهل كان ينتظر النجدات ليحكم الحصار أو ليحاول الهجوم ؟ لقد اكتفى بتخريب الأرياف، وتم نهب معبد لِدِيمِتِرْ Déméter وبِرْسِفون

Perséphone كان يقع أمام الأسوار، الأمر الذي جعل قرطاجة فيما بعد ترى أن هذا الانتهاك للمقدسات هو سبب ما حل بها من شرور. وخلال ذلك كان دونيس يطلب النجدات من الإيطاليوتيين Italiotes ومن لاسِدِمونيا Lacédémone وكورانث Corinthe ويدعو المرتزقة، ويذهب للبحث عن الأقوات. ووسط حرارة الصيف انتشر الوباء بشدة في جيش حملكون الذي كان مستقرا بموقع غير صحي. لذلك قرر دونيس أن يبادئ بالهجوم. فسار بالليل حتى اقترب من معسكر العدو، وفي الفجر بدأ الهجوم. وفي نفس اليوم أغرق الأسطول الإغريقي أو عطب السفنَ العسكريةَ الراسية في الميناء الكبير، بينما اشتعلت النيران في قسم من السفن التي جذبت إلى ساحل اليابسة، ثم انتقلت النار إلى سفن النقل الراسية في الماء. وأحدثت هذه الكارثة الهلع لحملكون الذي لم يكن - بالرغم عنها - في حالة ميؤوس منها، لأن الهجوم على المعسكر قد وقع صده. وكان بمستطاعه أن يتراجع على الأقل، ولكنه لم يفكر إلا في الفرار. وعُقِد اتفاقٌ سري بينه وبين دونيس، سمح له مقابل 300 تالان Talents، أن يرحل مع مواطنيه القرطاجيين. فركب البحر ليلا على ظهر 40 سفينة ثلاثية. أما دونيس، فقد ارتمى على معسكره، فاستطاع السيكوليون النجاة، بينما قبل الإيبيريون العمل كمرتزقة في الجيوش السرقوسية، أما من عداهم فقد أسروا. وقد انتحر حملكون بعد عودته لوطنه.

وثار الليبيون عندما عرفوا أن كثيرا من أبناء جلدتهم قد تُركوا أمام سرِقوسة. غير أن دونيس لم يستفد من انتصاره ومن هذه الثروة لينتزع نهائيا صقلية الغربية من يد الفينيقيين، وإنما انكب على إعادة بناء مِسّينة وعلى جذب الأهالي إليه طوعا أو كرها.

وكان القائد القرطاجي ماكون هو الذي عاد للمبادأة بالحرب في سنة 393. فقد استطاع الحصول على حلفِ قسمٍ من السيكوليين ثم ذهب لتخريب منطقة مسّينة. وفي طريق عودته إلى غرب الجزيرة، هاجمه دونيس وانتصر عليه. لكنه لم يتابع عمله هذا الذي انتصر فيه. غير أن ماكون Magon كان في السنة الموالية على رأس جيش عظيم، فتقدم به حتى الجنوب الغربي من جبل إطنة Etna بأرض السكوليين. وهناك اصطدم بدونيس وبالطاغية القوي المسيطر على مدينة أجيرْيون Agyrion الأهلية. فقطعا عنه طريق المؤن. ويظهر أن دونيس كان يريد الانتصار بتجويع الأعداء، لكن السِّرَقوسيين الذين كانوا يصحبونه وكذلك المرتزقة ألحوا على خوض المعركة. فلما لم يستجب لمطلبهم تخلوا عنه. لذلك قَبِل المقترحات التي تقدم له العدو بها في شتاء سنة 392-391. وكانت شروط الاتفاقية، حسبما يرويه ديودور الصقلي Diodore le Sicilien، تقريبا هي نفس شروط سنة 405. لكن من المؤكد أن قرطاجة لم تسترجع مع ذلك المدن الإغريقية التي بالجنوب.

في سنة 383 وقع نقض معاهدة الصلح، فدُونيس Denys بعدما حشد جمعا كبيرا من المرتزقة، استولى في المقاطعة البونيقية على بعض المدن التي ثارت بإيعاز منه لاشك. ولما أنذرته قرطاجة بإعادة المدن رفض. فأجابت على هذا التحدي بإرسال جيوش أيضا إلى إيطالية الجنوبية، حيث تحالفت مع بعض الإغريق الذين كان لهم نزاع مع السرقوسيين. وجرت بالجزيرة معركة عظيمة في كَبالا Cabala لقي فيها حتفَه ماكون Magon مع كثير من رجاله، كما وقع في الأسر عدة آلاف ممن عداهم. أما الذين استطاعوا النجاة فقد أمكنهم الالتجاء إلى مرتفع يسهل الدفاع عنه، لكن ليس به ماء، فاضطروا للدخول في المفاوضات. ففرض دونيس أن يتخلى القرطاجيون عن صقلية. غير أن

اتفاقا نهائيا من هذا القبيل لا يمكن أن تعقده إلا حكومة الجمهورية. وبذلك وجد الجيش المغلوب متسعا من الوقت، فصار حرا في تحركاته، وأعاد تنظيم نفسه بقيادة ابن ماگون الشاب الذكي الحازم، فلما انتهت الهدنة خاض الجيس المعركة، وأخذ ثأره في موقعة كْرونْيون Cronion التي مات فيها لِبْتين Leptine أخو دونيس ومعه 14000 رجل. ولابد أن يكون جيش ابن ماگون قد قاسى الألم هو أيضا، لأنه عاد إلى بالِرْم وتقدم إلى دونيس بعروض للصلح فقبلها. وهكذا احتفظت قرطاجة بغرب صقلية، بما فيه ثِرْماي Thermai على الساحل الشمالي، وكذلك سِلنُونة وقسْم من منطقة أگْريجنت حتى نهر هاليكوس Halycos على الساحل الجنوبي. وقد دفع له دونيس تعويضا ماليا قيمته 1000 تالان، واحتفظ تحت سيطرته بجميع سكان شرق الجزيرة بما فيهم الإغريق والسيكوليون الذين صاروا شيئا فشيئا يصطبغون بالصبغة الهيلينية. ويروي ديودور أن جميع هذه الأحداث جرت في 383 - 382، ولكن تأريخه هذا غير مؤكد، والمحتمل جدا هو أنها وقعت في مدة زمنية أطول، تتراوح ما بين 383 إلى ما حول 376.

وبعد سنين قليلة اندلعت حرب أخرى لا نعلم من بدأ فيها بالهجوم. هل الحكومة القرطاجية كانت هي البادئة كما يقول جُسْتان Justin، أو دونيس كما يؤكد ذلك ديودور؟ ويبدو حسب هذا الكاتب أن دونيس تعلل بغارات بعض الفينيقيين على القسم الخاضع لسلطته من الجزيرة، ثم هاجم سنة 368 المنطقة البونيقية وعاث فيها. وسرعان ما وصل أمام ليليبي التي كانت لسادة إفريقيا هي بوابتهم إلى صقلية منذ تخليهم عن موتيَة. ولكن دونيس رفع الحصار عن ليليبي لأنها عرفت كيف تدافع عن نفسها. ولما علم أن مصانع السفن بقرطاجة احترقت، ظن أن العدو لم تعد لديه قوادس يصفّها للمواجهة، لذلك أرجع إلى سِرَقوسة عن غير

تدبر، أكثر من نصف 300 سفينة حربية كانت معه بغرب الجزيرة. **وعلى** حين بغتة ارتمت 200 سفينة على الأسطول الإغريقي الراسي في إريكس Eryx وأسرته. ونزل حنّون الكبير Hannon le Grand الجزيرة ومعه جيش. لكن هدنة عقدت في بداية الشتاء، فعاد دونيس إلى سرقوسة حيث مات بعد بضعة أشهر، في ربيع سنة 367. ولم يكن ابنه رجلا يتمم عمل الأب. فعقد معاهدة تؤكد المعاهدة التي أبرمت عقب معركة كرونيون.

إن الصراع العجيب الذي خاضه دونيس قرابة أربعين سنة، من أجل الدفاع عن "الهيلينية" وانتصارها ليكاد ينسي جميع جرائمه. ومع ذلك لم يوفق في طرد القرطاجيين عن صقلية. وإذا كان قد برهن في بعض الظروف على مواهب عسكرية حقيقية، فإنه مع ذلك لم يكن عظيما كرجل حرب. إنه لم يكن يستطيع الاعتماد كثيرا على جيوشه المكوّنَة، إما من مواطنين ذوي المراس الصعب في الغالب، وإما من حلفاء قليلي الحمية، أو من مرتزقة لا ينشطون للعمل إلا بشرط قبضهم الثمن بانتظام. وبرغم مهارته في الشؤون المالية، فإن موارده كانت تنضب. وإذا امتد الصراع أمدا طويلا، أو خانه التوفيق في المعركة، فإنه كان يعرف كيف يؤجل مشروعاته، لعلمه بأنه مبغوض وأن سلطته متزعزعة.

2

لم تهاجم سرَقوسة قرطاجة في عهد حكم الطاغية دونيس الفتى Denys le Jeune، ولا أثناء الحقبة المضطربة التي عقبت سقوطه من الحكم، كما أن قرطاجة لم تحاول شيئا ضد الإغريق.

حول سنة 345 ثارت مدينة إنتيل Entelle، **وهي أحد مدن المنطقة** البونيقية، وكان يسكنها المغامرون من أهل كمّبانيا، **ونجهل سبب هذه**

الثورة. فقدم من إفريقيا أسطول كبير وجيش من 50.000 رجل حسبما قيل. ولم يكن القصد من هذه القوات العظيمة تمهيد غرب الجزيرة فحسب، بل إن ظروفا مناسبة ستساعد القرطاجيين على التدخل في سرقوسة. ولربما أنهم لم يكونوا يفكرون في الاستيلاء على هذه المدينة، ولكنهم كانوا يريدون أن يكون حكمها في أيدي رجال يدينون لهم به، ويكونون بحاجة إلى مساعدتهم للاحتفاظ به.

وكان دونيس قد عاد للحكم حول سنة 346، وركز سيطرته على الرعب. لذلك فإن أعداءه دعوا هيسِتاس Hicétas طاغيةَ مدينة ليونْتينْوي Léontinoi، كما اتجهوا بأنظارهم إلى أمّ سِرَقوسة وهي كورانث، فأسندت هذه إلى تيموليون Timoléon أحد مواطنيها الكبار المهمة الصعبة المتلخصة في إعادة النظام والمشروعية. وكان هيسِتاس يريد في آن واحد أن ينحي دونيس ليحل محله غالبا، وأن ينحي تيموليون كذلك. وقد حصل على مساعدة قرطاجة. بحيث إن قوادس بونيقية اجتهدت – ودون جدوى – لتمنع الكورَنْثي من النزول بالجزيرة. كما أن جيشا بقيادة ماگون تقدم إلى سرقوسة، ومن دون شك فإن هذا هو الجيش الذي بعث به ضد أنْتيل. وكان في ميناء سرقوسة الكبيرة 150 سفينة راسية. أما حصن جزيرة أُرْتيجي Ortygie فقد سلمه دونيس بعد تنازله عن الحكم إلى جنود تيموليون. فحاصره هيستاس والقرطاجيون، ولم يوفقوا في الاستيلاء عليه. وجاء تيموليون نفسه ليعسكر عند المدينة، فأسرع ماگون بالانسحاب. ويقال لنا إنه قد داخلته الشكوك في إخلاص جنوده الإغريق، ولو لم يتأكد وجودهم تحت إمرته، الأمر الذي يظهر معه أن أسبابا أخرى هي التي دفعت به إلى فرار حقيقي. ذلك أنه خشي المكوث وسط السكان الذين كان أكثرهم يميل إلى الكورنثي. ولربما

خشي أيضا أن يخونه هيستاس. ومع ذلك يكون قد خيب آمال الجمهورية، وانتحر لكي ينجو من الحكم عليه بالموت.

ولما سيطر تيموليون على سرقوسة، بعث المرتزقة إلى المقاطعة البونيقية ليحصلوا له بالنهب على المال. فوقع الاستيلاء على أنتيل كما أعلنت عدة مدن أخرى ولاءها للإغريق. فقررت قرطاجة القيام بعمل كبير، ونقلت الجيوش إلى صقلية، وانضمت إلى تلك التي كانت هناك، وتقدم هذا الجيش الموحد باتجاه الشمال الشرقي. فأسرع تيموليون إليه بجيش يقل عنه كثيرا، وأخذ مواقعه غير بعيد عن ساجِسْت، فوق مرتفع يجري بأسفله النهر الذي سماه القدماء باسم كْريمِسوس Crimisos. وعَبَر الأعداء النهر غيرمتوقعين هجوما، ولكن الكورنثي ارتمى عليهم بجرأة. وتفجرت عاصفة من المطر الشديد الذي طفح به النهر، فكان ذلك مما ساعده، لأن الجيش القرطاجي انشطر بهذا إلى شطرين. وكان الذين يشتبكون مع الإغريق يتلقون في وجوههم المطر والبرد، ولذلك لم تدم مقاومتهم إلا قليلا. وغرق الكثير منهم عندما أرادوا عبور كريمِسوس في الاتجاه الآخر. وقتل معظمهم أو أسروا. وأصاب الهلع حتى الذين لم يشاركوا في المعركة. وبذلك استطاع المنتصرون الاستيلاء على مغانم كثيرة. أما تيموليون الذي لم يكن معه عدد كاف من الرجال، فإنه لم يطارد الفارين الذين عادوا إلى ليليبي، بل دخل إلى سرقوسة، ومنها بعث إلى وطنه قسما من الأسلحة التي غنمها في ميدان المعركة، وأمر بوضعها في المعابد مع هذه الكتابة : «إن الكورَنْثيين وقائدهم تيموليْون، بعدما حرروا من القرطاجيين الإغريقَ الساكنين بصقلية، قد وهبوا إلى الآلهة هذه البراهين على شكرهم».

أما في قرطاجة فقد دعي جِسْكون ابن حَنّون من منفاه، لأن شهرته العسكرية كانت كبيرة، وكلّف بتسيير الحرب. ونظرا لأن المواطنين كانوا قد قاسوا الشدائد في الحملة الأخيرة، فإنهم لم يجندوا. وإنما جند المرتزقة، ومن بينهم مرتزقة إغريق أدي لهم المال عن سعة، لأن القادة كانوا يريدون جنودا يساوون جنود القائد الكورنثي.

وفعلا فقد تم الاستيلاء من جديد على المقاطعة التي خلف فيها تيموليون بعضا من الجيش. كما أن بعض المتأمّرين الذين كان لابد أن يحاربهم في صقلية الشرقية قد وصلتهم بعض النجدات. ومع ذلك فإن القرطاجيين عرضوا الصلح سنة 338، إما لأنهم كلّوا من الحرب، وإما ليستغنوا على ما يحتمل عن خدمات جِسْكون. وقد قبل تيموليون المفاوضة، إذ لم يكن له سوى جيش صغير، وكان يجد مشقة في الإنفاق عليه، كما أنه لا يمكن أن يؤمل من جديد مواتاة حظه كما وقع في كريمسوس، وكان على الخصوص يود تتميم المهمة التي التزم بها مع نفسه وهي إنهاض المدن الإغريقية من كبوتها، وذلك بإسكان معمِّرين جدد، وبإعادة النظام الجمهوري. فاحتفظت قرطاجة بالحدود التي تقررت في عهد دونيس القديم، وهي نهر هيمراس Himèras في الشمال ونهر هليكوس Halycos في الجنوب، أما الإغريق الذين فضلوا عدم الخضوع لسيطرتها، فقد أذن لهم بالهجرة إلى سرقوسة. وواعدت قرطاجة أن لا تنجد المتأمِّرين الذين قد يكونون في حرب ضد السرقوسيين. وأعلن أن جميع المدن الواقعة خارج المقاطعة القرطاجية، هي مدن حرة. وهكذا، فإن الدولة التي كان دونيس القديم Denys l'Ancien يديرها بيده القوية، قد عوض عنها تيموليون باتحاد تكوّنه مدن حرة. وهي سياسة من شأنها أن ترضي القرطاجيين لاشك، وتدفعهم لأن يجعلوا حدا للحرب. إذ كان

بمستطاعهم أن يتوقعوا أن هذه المدن ستنهك نفسها في اضطرابات تعسة، وأنها ستنقض الاتحاد الذي لم تكن مرغمة عليه.

لكنهم بعدما اطمأنوا من جهة صقلية، لم يلبثوا أن أصابهم القلق من الأحداث التي كانت آسيا مسرحا لها. ففي سنة 332، وبعد حصار دام سبعة أشهر، استولى الإسْكَنْدر على مدينة صُور Tyr مؤسِّسة قرطاجة. وقد وجد الإسكندر بصُور وفدا مكلفا حسب عادة قديمة، بحمل ولاء المستوطنة الإفريقية للمعبود مِلْقارْت Melqart ربّ المدينة. إن قرطاجة لم تجرؤ على نجدة الصوريين، وإنما اكتفت بإيواء غير المحاربين الذين غادروا مدينة صور. ولقد حل الإسكندر محل ملوك فارس. فهل سيتذكر أن هؤلاء اعتبروا نفوسهم ملوكا شرعيين للمعمّرين الذين هم من أصول فينيقية في أراض صارت مقاطعة من دولتهم ؟ وباعتباره منتقما للإغريق وحاميا لهم، هل سيريد نزع السلاح من أيدي جميع أعدائهم في المغرب كما في المشرق ؟ هل كان يفكر في إخضاع ليبيا التي اخترق صحاريها بعد سقوط صُور بوقت قليل، حين ذهب ليسمع آمون Ammon كبير آلهة الليبيين وهو يناديه أنه ابنه ؟ وإذا أخذت قرطاجة موقف المقاومة، هل سيكون مصيرها كمصير أمّها صُور، التي جرى تذبيح سكانها دون شفقة أو صاروا عبيدا ؟ يقال إن رجلا حصيفا هو عَمِلْكار قد كلف بسَبْر نوايا الإسكندر. فأُدخل على الإسكندر، وادعى أنه مطرود من وطنه، وعرض عليه خدماته. وقد قبل في حاشية الملك، فاستطاع أن يبعث إلى قرطاجة بأخبار مكتوبة على الألواح، ومخفية تحت طبقة من الشمع. وتضيف الرواية قائلة إن عَملكار عاد إلى إفريقيا بعد موت الإسكندر، فاتُّهم بالخيانة وأعدم. وتوجد رواية أخرى أحق بالثقة، هي أن الإسكندر لما عاد إلى بابل، عقب حملته على الهند، اقتبل سفراء عدد كبير من الشعوب كان من بينهم قرطاجيون

وفينيقيون من مدن أخرى بليبيا، وكذلك على ما يظهر من أسبانيا وسردانية. وكلهم كانوا على ما يحتمل يتساءلون بأسى عما سيفعله الرجل الذي لا يمتنع شيء عليه. وبعد موته وقع العثور على مكتوب يقال إنه أبان بأنه كان ينوي بناء 1000 سفينة أكبر من الثلاثيات في كل من فينيقيا وسورية وقيليقيا Cilécie وجزيرة قبرص. وأن هذه السفن تعد لحملة على قرطاجة والاستيلاء على الأراضي الواقعة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط الغربي. وأن طريقا سيقع إنشاؤها في ليبيا على طول الساحل حتى أعمدة هرقل. فلربما إذن تكون الحُمّى التي مات منها الإسكندر في شهر يونيو سنة 323 قد أخرت خراب قرطاجة لمدة قرنين.

3

لمدة سنين طويلة بعد الاتفاقية المبرمة مع تيموليون، لم تجد الحكومة البونيقية الفرصة لمعاودة الحرب. ولم تكن تريد خوض الصراع من جديد للاستيلاء على صقلية. على أنه كان يسهل على قرطاجة التي أرجأت مطامعها أن تميز أنسب سياسة مع مصالحها وأن تتبعها، فتمنع الإغريق من معاودة الهجوم، وذلك بإذكاء الفتن بينهم بتدخلاتها السياسية وحتى العسكرية، وعلى الخصوص بعرقلة تكوين دولة قوية بشرق الجزيرة على رأسها متآمر طاغية، تخلف دولتي جيلون Gélon ودونيس القديم. ولكن يقال مع ذلك إن أگاطُكْليس Agathoclès قد أصبح سيدا على سرقوسة بمساعدة القائد القرطاجي عَمِلكار.

وقد ولد أگاطكليس سنة 360 بمدينة ثِرْماي Thermai بالمقاطعة البونيقية. وكان أبوه خزافا بمدينة رِهجْيون Rhégion. ودخل في صغره مدينة سِرَقوسة حيث تعاطى صناعة أبيه. وارتفع شأنه شيئًا فشيئًا

بفضل جرأته وذكائه الفعال الذي لا تنضب وسائله. وكذلك بفضل بلاغته الشعبية وانعدام وازع الضمير لديه. وهكذا أصبح أحد رؤساء الحزب الديمقراطي. ولما أرغم على ترك المدينة بسبب الشكوك التي حامت حوله بالتطلع للتآمر والطغيان، أنشأ جيشا جعل يشن به الغارات، ويغير به حتى على المقاطعة القرطاجية. وفي سنة 318 وصل إلى سرقوسة. وبعد مفاوضات أجراها مع عَملِكار وقع السماح له بالدخول إلى المدينة متعهدا باحترام الدستور. ولكن لم يمض غير وقت قليل حتى أعمل التقتيل في قسم خصومه سنة 316، مستخدما في ذلك – حسب رواية جُسْتان – 5000 إفريقي بعثهم عَملِكار إليه. فنصبه الشعب وزوده بسلطة غير محدودة. ثم خاض الحرب ضد السيكوليين وضد مسّينة وجيلا وأَكْرِيجَنْت، المدن الإغريقية التي آوت فلول الحزب الأوليغرشي السِّرَقوسي.

كان يهم قرطاجة أن تمنعه من مضاعفة قوته. ولذلك توسط سنة 314 لإعادة السلام بين مسِّينَة وبين الطاغية. ولكن في سنة 313 عُقدت بعناية عَملِكار اتفاقية تعترف له بسيادته على ثِرْماي وسِلْنونة وهيرَكْلِيا Héracléa، وكلها مدن إغريقية كانت تحت سيطرته منذ أمد طويل، كما تنص الاتفاقية على أن الإغريق الآخرين يعترفون – ومن دون أن يفقدوا حريتهم – بسيادة سرقوسة. فكان معنى هذا العمل في الحقيقة تسليمهم ليد أكَاطُكليس. فهل كان عَملِكار قصير النظر؟ يخشى مخاطرة الحروب الصقلية وردود فعلها على الجمهورية، ويريد السلام قبل كل شيء ؟ هل كان يظن مخلصا أنه يضمن سلامة المقاطعة القرطاجية بوضعه حدا للفوضى بين الإغريق ؟ أو كما وقع اتهامه، كان متفقا منذ سنين عديدة مع أكَاطكليس ؟ بحيث إنه كان يريد الهيمنة على وطنه، فساعده، على ما يقال، هذا المغامرُ ليجد فيه مساعدا من بعد. واتهمته قرطاجة بالخيانة

وحكمت عليه بذعيرة مالية حسب ديودور، بينما يقول جستان إن المشيخة حاكمته سرا، ولكنه مات قبل تنفيذ هذا الحكم.

في هذه الاثناء كان أگاطكليس يجيّش المرتزقة، ويبدأ من جديد حملاته بداخل الجزيرة. فاستولى على مسّينة وهدد أگْريجَنْت، وارتمى على المقاطعة البونيقية، وخرب الأرياف، ودخل المدن طوعا أو كرها. لقد كان إذن في حرب علنية ضد قرطاجة. ولكي تحمي أگْريجَنت فإن قرطاجة بعثت إليها أسطولا، وأمرت بالاستيلاء على جبل أكنوم Ecnome بمصب نهر هيراس بين أگْريجَنْت وجيلا، وظهر 50 قادسا أمام سرقوسة. وكان المناصرون للقيام بعملية حازمة، هم الذين بيدهم الحكم. فجهزوا حملة كبيرة، عُيّن لتسييرها عَملِكار ابن جِسْكون. فذهب ومعه 130 سفينة حربية وعدة من السفن الحمالة. وبالرغم عما تكبده من الخسائر بسبب العواصف البحرية، فإن جيشه كان لايزال قويا عند النزول، وقد ضاعف من عدده بتجنيده للصقليين والمرتزقة، حتى كان - على ما قيل - على رأس 45.000 رجل. وتقدم إلى جبل أكنوم، فجاء أگاطكليس ليقوم بمواجهته على الجانب الآخر من نهر هيمراس Himéras. وجرت مناوشة تحولت إلى معركة. لكن بعد تقلبات وتحولات مختلفة، فإن جيوشا قرطاجية قادمة من إفريقيا وصلت ونزلت إلى اليابسة خلف الإغريق. وسببت هزيمتهم في صيف سنة 311. أما عَملِكار فإنه تجول ببعض نواحي الجزيرة حيث كان يعامل بلطف أهل الجهات التي يمر بها، ولذلك فإن الأهالي وحتى الإغريق سارعوا بإعلان خضوعهم له. بينما أگاطكليس عاد إلى سرقوسة بعد أن أقام في جيلا. وحصن سرقوسة لتجابه الحصار الذي كان يظهر وشيك الوقوع، لأن أسطول العدو كان مرابطا بالبحر أمام المدينة.

ولكن حدثا غير منتظر وقع انذاك، وهو أن الطاغية نقل الحرب إلى إفريقيا. ولم يكن هذا العمل جموحا من جانبه. لأن أگاطكليس كان قد بلغ الخمسين من عمره، أي السن التي من المعتاد أن لا يقدم فيها المرء على عمل إلا بعد التأمل. ولئن كان قراره جريئا فإنه لم يكن متهورا على الإطلاق. ويحتمل أن هذا القرار جنّبه الوقوع في كارثة. لقد كان القرطاجيون سادة صقلية كلها تقريبا، وأگاطكلس لم يعد له بها أي حليف. فبمستطاعه أن يطيل أمد الدفاع عن سرقوسة، ولكنه سيخسر المعركة حتما لعدم استطاعته الحصول على المؤن. وفوق هذا، هل الجيوش والسكان يقبلون آلام حصار تكون نتائجه مؤكدة ؟ وهل يبقون على ولائهم له حتى النهاية ؟ إن خصومه السياسيين لا يزال عددهم كثيرا، وهم يتربصون به الفرصة لتنحيته ودعوة المطرودين الذين لم ييأسوا بعد، ويقفون بأسلحتهم في شرق الجزيرة. ثم إن قرطاجة لم تقم بعمل ما لحماية منطقتها الإفريقية. فليس هناك جيش، ومعظم مواطنيها لا يعرفون كيف يحاربون. والمنتظر هو أن محكوميها الذين تقسّوا عليهم قد يبدون المقاومة، كما أن الأهالي الذين لا يزالون أحرارا، قد ينضمون إلى المهاجمين حبا في المغانم. وبالجنود الذين حِرفْتهم هي الحرب سينال أگاطكليس انتصارات سريعة، ويستألف هؤلاء الرجال بتسليمهم منطقة خصبة، اغتنت بعهد طويل من السلام، ومليئة بالخيرات. إن الانتصارات التي سيحرز عليها بإفريقيا، ستعيد الشجاعة إلى المحاصرين في سرقوسة. ولربما تغير مشاعر قسم من الصقليين الآخرين. وهي على كلَ حال سترغم القرطاجيين على تحويل مجهودهم عن الجزيرة في وقت ظنوا فيه أنهم استولوا عليها أخيرا. ولاشك أنه لم يكن يطمع في الاستيلاء على قرطاجة. فالمدينة حصينة جدا. وهو لا يتوفر على وسائل تحطيم أساطيلها ومحاصرتها من جهة البحر. ولكن

بمستطاعه أن يؤمل بأن الجمهورية توافق لتتخلص منه على إبرام اتفاقية تتخلى له بمقتضاها عن صقلية. وبهذا ينقذ الإغريق من خطر دائم. على أن الخطر العظيم في هذه الحملة يتلخص في عبور البحر.

لم يفاتح الطاغية أحدا فيما عزم عليه. ولاحتياجه إلى المال فإنه عمل للحصول عليه بشتى الوسائل، فاستولى على أموال اليتامى بحجة أنه يصونها بأمانة أكثر من الأوصياء، واقترض من التجار، وألزم النساء أن يهبنه حليهن، ونهب المعابد. وفي أحد الاجتماعات الشعبية أبدى مقدما تحسره على الآلام التي سيتكبدها المحاصرون، ودعا الذين لايرون نفوسهم قادرين على تحملها أن يذهبوا لمكان آخر حيث يكونون في مأمن. فحدث أن عدة مئات من الأغنياء خصوم أگاطكلس قرروا العمل بهذه النصيحة، وبمجرد ما تخطوا أبواب المدينة أمر المرتزقة بقتلهم وتجريدهم مما يحملون. ثم قرر أن يأخذ معه بعضا من المواطنين بعدما أبقى أقرباءهم في المدينة، الأمر الذي يجعل من هؤلاء وأولئك رهائن على وجه التحقيق. وضاعف من عدد المدافعين عن سرقوسة بإعطائه الحرية لجميع العبيد القادرين على حمل السلاح. وبعدما أسند الحكم إلى أخيه أَنْتَنْدروس Antandros أركب على ظهر 60 سفينة نحوا من 14.000 رجل، فيهم 3500 سِرَقوسي وأكثر من 10.000 من مرتزقة الإغريق والسمِناتيين Samnites والأَتْروريين والغاليين. ولِضَيْق السفن فإنه تخلى عن حمل الخيول، ولكنه حمل معه السروج ليستطيع الفرسان استخدام المطايا التي قد تقع عليها أيديهم. وشارك في الحملة أبناء أَرْكَگاثوس Archagathos وهِرَكليد Héraclide.

كان الناس يتساءلون بأسى إلى أين يريد أن يقود هذا الجيش، لأنه اكْتفى بأن قال للشعب إنه وجد طريق النصر. فظن البعض أنه سيتجه

إلى إيطاليا لنهبها، وقال الآخرون إنه يفكر في الارتماء على الممتلكات القرطاجية في غرب صقلية، أوعلى سردانية. وكانوا جميعا يلومونه على تهوره الأخرق.

لم يكن بمستطاعه خرق الحصار بمعركة مصفوفة، لأن الأسطول البونيقي كان أضخم من أسطوله. فانتظر الفرصة المناسبة مدة أيام كثيرة. ولحسن حظه فإن انتباه أعدائه تحول عنه لمّا رأوا مجموعة من السفن الإغريقية المحملة بالمؤن تقترب من سرقوسة. فتقدموا لملاقاة المجموعة كي يمنعوها من الدخول وبذلك تركوا مخرج الميناء حرا. فعبرت قوادس أگاطكليس على جناح السرعة قاصدة عرض البحر. وكان القرطاجيون قد اقتربوا من المجموعة. وظنوا أن السفن السرقوسية جاءت لنجدتها، فصففوا سفنهم استعدادا للمعركة. غير أن أگاطكليس تابع سيره سوياً. ولم يعرف الآخرون خطأهم حتى كان قد سبقهم بكثير، فبدأوا بمتابعته، الأمر الذي فسح المجال للمجموعة فدخلت الميناء. وقد كانت المطاردة شديدة، ولكن الإغريق لم يُلحقوا، فنزل الظلام واختفوا فيه.

في نهار الغد حدث كسوف كلي للشمس، أثبت الفلكيون تاريخه بيوم 15 غشت سنة 310. فاعتبر رفقاء أگاطكليس الذين كان قلقهم بالغا أن هذه الظاهرة نذير بالشؤم. أما الفصل الزمني فكان هو الذي اعتاد فيه البحر الأبيض المتوسط على العموم أن يكون هادئا. واستغرق العبور مالا يقل عن ستة أيام وست ليال. فلربما أن الربابنة تجنبوا الطريق المباشرة جدا طلبا للنجاة من المطاردة، أو ربما أنهم ضلوا.

في مجرى اليوم السابع رأى الإغريق على مسافة قليلة منهم قوادس الأعداء التي عثر عليهم، وكانت تصدهم. وكانوا أيضا قد بدأوا يرون السواحل الإفريقية. أما الطاغية فإنه لم يكن يشغل باله بالمخاطرة

بمصيره في معركة بحرية، وإنما اتجه نحو اليابسة بأكثر ما استطاع من السرعة. ولكن القرطاجيين كان لديهم مجدّفون أكثر دربة، فوصلت مقدمة أسطولهم إلى مرمى قذائف السفن الصقلية الأخيرة حين كانت هذه تصل للشاطئ. فجرت معركة شارك فيها القوّاسة والمِقْلاعيون. ونظرا لأن قليلا من السفن البونيقية هي التي شاركت فيها، فإن جنود أگاطكليس تفرقوا بعددهم. فتخلى الأعداء إذن عن المعركة، وتراجعوا بسفنهم إلى الوراء حتى لا تصيبهم القذائف، وتم إنزال الجنود من غير اضطراب.

4

إننا نعرف الحرب التي خاضها أگاطُكليس في إفريقيا من مختلف فصول الكتاب العشرون من ديودور الصقلي [1]، التي يجب أن تنضاف لها بضع صفحات من جُسْتان، مختصِر طروگْ بومْبي [2].

إن رواية ديودور عن هذه الحرب رواية واسعة، وتضم معلومات لا تخص فحسب الأعمال التي قام بها الإغريق أثناء هذه الحملة، بل تحتوي أيضا الأحداث التي جرت في قرطاجة. ولايمكن الشك في أنه أورد في جانب هام من روايته شهادات مباشرة. ومع ذلك فقد سكت عن الكثير، حسب رأي المؤرخين المعاصرين على الأقل. فنحن لا نجد فيما رواه عرضا منهجيا وكاملا للعمليات العسكرية، كما أن المعلومات الجغرافية ضئيلة وغامضة. لقد كان قصده هو أن يفيد بل وأن يسلي القراء الذين قد تنفّرهم التدقيقات الجافة. فيروي أن أوفِلاس Ophelas سار مع ساحل السدْرَتَيْن قادما للاتصال بأگاطكليس، ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليقص خرافة الغول لامْيا Lamia التي كانت مغارتها في طريقه حسبما

قيل. ويتغلغل أوماخوس Eumachos بداخل ليبيا، فيلاقي فِرِدة لها علاقات ودية مع الأهالي، فتوصف هذه العلاقة وصفا مستقيضا. وكذلك فإن المواقف التي يظهر فيها أگاطكليس بمظهر الممثل البارع تحتل عند ديودور مكانة واسعة، ولم يكن ينقص هذه المواقف التمثيلية شيء، لا من المشاهد الجذابة، أو الملابس أو المفاجآت، ولا من صيحات الممثلين الصُّوريين وحركاتهم الجماعية، بل لم ينقصها حتى تصفيق الحاضرين. وإذا كان يسهل أن نفهم كون هذه المواقف قد هيئت بلباقة لتبدو درامية جدا، فإننا نصطدم بكثير من التفصيلات المشبوهة. غير أننا نعترف بأننا مجردون عن الثقة الجميلة التي يتحلى بها أولئك العلماء الذين ليس لديهم من وسيلة للتأكد، ولكنهم ينكرون قطعيا أن يكون الشيء حقيقيا لكونه في رأيهم غير محتمل الوقوع. إذن، فستقُلْ عن ديودور مع تقديم التحفظات الضرورية ومع عدم نسياننا لشيء، هو أن كثيرا من الوقائع التي تملصت من النقد قد تناولها التحريف قليلا أو كثيرا.

إن كثيرا من معاصري أگاطُكليس قد قصوا أخبار حياته. ومنهم مَحْميه كالياس السرقوسي Callias الذي أطراه دون حد. ومن بين الفقرات القليلة التي بقيت لنا من هذا الكاتب، توجد فقرة مأخوذة من الكتاب العاشر من مؤلفه عن تاريخ أگاطكليس. ولعل هذه الفقرة من روايته عن مسيرة أوفِلاسْ للاتصال بأگاطكليس. لكن لاشيء يبرهن على أن ديودور قد استقى من كالْياس مباشرة.

أما تيمي Timée فقد عرض علينا أعمال أگاطكليس في الكتب الخمسة الأخيرة من التاريخ الكبير الذي كتبه أثناء إقامته الطويلة في أثينا. وقد كانت هذه الكتب مليئة بالهجمات القاسية والمعرضة، لأن تيمي أراد الانتقام من الطاغية الذي نفاه. وكان ديودور يُحبّذ إلغاء هذا

القسم من مؤلف تيمي Timée الذي منعه حقده من قول الحقيقة. وقد استشهد به مع ذلك في عدة مناسبات، ولكن ليس في موضوع الحملة الافريقية. وفوق ذلك فليس من المقبول أن يكون اكتفى بنقل تيمي، لأن الرواية التي نقرأها في ديودور، اذا لم تكن مديحا فهي ليست هجوا، بل إننا لنحس فيها بعض الاعجاب بسافل بالغ المهارة.

وكذلك فان دوريس Douris الذي كان طاغية بجزيرة ساموس Samos عند بداية القرن الثالث قد ألف هو أيضا تاريخا لأگاطكليس، وتعرض في الكتاب الثاني منه لحرب ليبيا. ويذكر ديودور اسم دوريس بمناسبة حادثة جرت بإطاليا في حياة أگاطكليس، كما أن الفقرتين اللتين بقيتا لنا من مؤلف الطاغية الساموسي تتفقان مع بعض الفقرات عند كاتبنا ديودور. أما إحداهما فمأخوذة من الكتاب الثاني، وتتعلق بخرافة لاميا lamia التي يذكرها ديودور عند الحديث عن مسيرة أوفلاس. إذن، فيكاد يكون من المؤكد أن الجمّاعة الصقلي (ديودور) قد اعتمد على دوريس في المواضع التي تحدث فيها عن الحملة الافريقية في كتابه العشرين. بل يسوغ الاعتقاد بأنه اعتمد عليه كثيرا، لأن ديودور لم يكن الرجل الذي يتعب نفسه ليمزج بين مصادر متنوعة، ولأن دوريس كان الكاتب الذي حاولنا وصف منهجه الأدبي.

على أننا نذكّر بملاحظة وردت عند ديودور، متعلقة بمعركة جرت في إفريقيا. قال : «ان القرطاجيين ضاع لهم 1000 رجل على الأكثر، أو أكثر من 6000 كما كتب بعض الناس». فلربما يكون رجع في هذا إلى عدة مؤرخين، أن يكون استقى هذا الخبر، كما استقى جميع ماعداه، من الكاتب الذي اختاره لينقل عنه.

من أين استقى دوريس نفسه أخباره عن حرب ليبيا ؟ نجهل ذلك. ولقد افترض الغير، دون برهان أنه اعتمد اعتمادا واسعا على كالياس Callias. أما طروگ بومبي Trogue-Pompée فلا شك أنه نقل عن تيمي Timée، كما فعل في مواضع أخرى من تاريخه.

5

نزل أگاطُكليس بجيوشه في المكان المعروف باسم المحجرات Les Carrières على بضعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من الرأس الطيب. وأقام تحصينات تنتهي من طرفيها عند البحر، وجذب سفنه إلى اليابسة داخل هذه التحصينات.

ثم قام بعمل جريء جديد. فبعدما قدم القرابين لِديميتِر وكوري Coré حاميتَيْ صِقلية أمَرَ الجيوش أن تتجمع، وظهر أمامها بتاج على رأسه، وعليه ملابس العيد. ثم خاطب الجنود قائلا إنه كان أثناء متابعة القرطاجيين له قد أخذ على نفسه العهد بأن يهب للآلهتين جميع سفنه، على أن تكون مشاعلَ تحترق تمجيدا لها. ومن العدل الوفاء بهذا العهد لأنهما أنقذتا الإغريق، وفوق ذلك فإنهما تبشران بالنصر بما تدل عليه القرابين. ثم أسرع أگاطُكْليس فأخذ مشعلا قدم إليه، وبعدما ابتهل لِديميتِر وابنتها صعد على مؤخرة سفينة القيادة، ودعا قادة القواديس الأخرى أن يقتدوا به، وفي وقت واحد أشعلوا جميعا نارا عظيمة يتصاعد لَهَبها إلى السماء، ونفخوا الأبواق، وأرسل الجيش صيحات عالية خالطتها الدعوات بالعودة السعيدة.

إن دوافع سلوك أگاطكليس في هذا الطرف قد ذكرها دِيودور بدقة لاشك فيها. إن أگاطكليس قد نزع عن رفقائه كل أمل في الفرار، بحيث

لم يبق لهم سوى أن ينتصروا أو أن يموتوا. ونظرا لقلة عددهم فإنه لم يرد آن يترك بعضهم خلفه لحراسة الأسطول. ومن ناحية أخرى، كان ترك السفن دون حماية معناه تسليمه للعدو.

فلما التهمت النيران كل شيء خمدت الحمية وحل محلها الخوف وفتور العزيمة. لكن الطاغية سرعـان ما قادهم إلى ميگالوبلُيس Mégalépolis حبا منه في تغيير الحالة الفكرية لرجاله. وكانت هذه المدينة على ملك القرطاجيين. فاخترق الجيش منطقة تملأها الحدائق والبساتين التي تسقيها الجداول. وكانت مساكن الريف يتلو بعضها بعضا، وقد بنيت بترف يشهد بثروة ملاّكها، كما كانت مليئة بكل ما كدسه فيها عهد طويل من السلام لمتعة الحياة، فهنا الدوالي وأشجار الزيتون والفاكهة، وهناك سهول ترعى فيها قطعان البقر والكباش، ومراع ندية تربى فيها الخيول، وفي كل مكان تظهر صورة الثروة في هذه الأملاك التي بيد الأرستقراطية البونيقية. فأعجب الصقليون بما رأو، وعاودتهم الثقة بالنفس لما رأوا هذه الفريسة الجميلة. ومن غير توان، أرسلهم أگـاطكليس على أسوار مدينة ميـگالوبليس. وقد دهش السكان لهذا الهجوم المباغث، وبما أنهم لم تكن لهم خبرة بالحرب، فقد قاموا قليلا ولكن المدينة أخذت عنوة. فأصدر أگـاطكليس الإذن بنهبها. ثم استولى بعدها على تونس البيضاء Tynès la Blanche التي تبعد عن قرطاجة بمسافة 2000 اسْطاد. وكانت الجيوش تود الاحتفاظ بهاتين المدينتين لتضع بها مغانمها. ولكنه تمسك بما عزم عليه في أن لا يترك لديهم أي أمل في التراجع. ولذلك هدم ميـگـالوبليس وتونس، وأقام معسكره بمكان منكشف (3).

أين كانت تقع المدينتان الأوليان اللتان استولى عليهما الإغريق بإفريقيا ؟ إن عدد 2000 اسطاد (وهو أكثر من 350 كيلومترا) الذي ذكره ديودور عدد فيه خطأ، لأن المسافة بين المحجرات وقرطاجة لا تتعدى 25 فرسخا. ثم إن اللقب الذي تحمله تونس البيضاء يميزها على ما يظهر من تونس أخرى هي تونس الحالية. وفي الحقيقة يصعب الافتراض بأنها نفس المدينة، لأن أگاطكليس بعد ذلك بقليل استولى على تونس Tunis المكان الحصين الذي جاء القرطاجيون لمحاصرته، وعلى هذا فإن الصقليين لم يكونوا قد هدموه. أما الاسم الإغريقي ميگالوبليس فكان حتى القرنين الخامس والسابع للميلاد يطلق على مدينة كانت مقرا للأسقفية المسيحية، ولربما أن هذه المدينة كانت تجاور مَكْسولا Maxula وهي رادِسْ Radès (بالجنوب الشرقي لمدينة تونس). لكن ميگالوبليس التي يتحدث عنها ديودور، يظهر أنها كانت مقامة بناحية أخرى، على بعد قليل من المكان الذي أنزل فيه أگاطكليس جيوشه من البحر، ونتيجة لهذا، تكون حول قاصية هضبة الرأس الطيب. ويرى البعض أنها المدينة التي كانت في العهد الروماني تحمل اسم ميسوْا Missua (أي سيدي داوود) على الساحل، بعيدة بثلاثة فراسخ إلى الجنوب الغربي من المحجرات الكبرى "بالهَوْرِية"، كما يرى آخرون أنها "منزل بن قاسم" الواقعة تقريبا على نفس المسافة إلى الجنوب بداخل الأراضي. لكن يجب الاعتراف بأن وصف الأراضي الغنية جدا، التي مر بها الإغريق، هو وصف أحرى به أن يتناسب مع جهة تكون أقرب إلى قرطاجة، كجهة سُليمان" مثلا و"منزل بوزَلْفة" عند قاعدة الهضبة.

وقد غمر السرور العظيم رجال الأسطول البونيقي حين شاهدوا السفن الإغريقية تحترق. ولكنهم لما علموا أن جيش أگاطكليس آخذ في السير، وأنه يتقدم بسرعة، فهموا أن هذه النيران شر على وطنهم وليس

على الصقليين. وإظهارا منهم لحزنهم فقد نشروا الجلود على مؤخرات قوادسهم، ثم التقطوا مهاميز السفن المحترقة، وأرسلوا بعض الرجال إلى قرطاجة ليقصّوا ما جرى. غير أن بعض أهل الأرياف، ممّن علموا بخبر نزول الجيش، كانوا قد سبقوهم وأسرعوا بالدخول إلى المدينة ليخبروا بذلك. وأصاب الذعر أهل قرطاجة الذين ظنوا أول الأمر أن كارثة قد قضت على جَميع قواهم في أرض صقلية وبحرها. وظنوا أن الطاغية، لو لم يكن منتصرا لما غادر سرقوسة أبدا، وأنه ما كان ليجرؤ أبدا على نقل كل هؤلاء الجنود إلى ليبيا لو كان أعداؤه مسيطرين على البحر. فحدث الهرج والمرج في جميع أنحاء المدينة، وتسارع الشعب إلى الساحة العامة، كما اجتمع مجلس الشيوخ. وكانت الجماهير تتحسر وتظن أن أگاطكليس سيظهر قريبا أمام الأسوار. وكان البعض يقول بوجوب بعث الموفدين إليه من أجل التفاوض، وللاطلاع كذلك على ما يقدر أن يفعله، بينما كان غيرهم ينصحون بانتظار ورود الأخبار الدقيقة. وفي وسط هذه الفوضى وصلت الرسل الذين قدموا من لدن أمير البحر، فأنعشت روايتهم القلوب. أما المشيخة فلامت قادة السفن الذين سمح إهمالهم للإغريق بأن يهاجموا إفريقيا، كما وقع انتخاب حنّون Hannon وبوملِكار Bomilcar للقيادة، وكانا ينتميان لأسرتين متعاديتين.

كان الخطر شديدا إلى حد انهما لم يضيعا الوقت في تجنيد الرجال من المقاطعة البونيقية ولا من المدن الحليفة، بل سارعا إلى أخذ الجنود من بين سكان قرطاجة. فجمعا 40.000 من المشاة و1000 فارس و2000 من العربات وسارا بهم جميعا. وكان ذهابهما بقصد الاستيلاء على مرتفع يعبد قليلا عن الصقليين، ثم صففا الجنود للمعركة. وكان الأفارقة مطمئنين إلى تفوقهم العددي بحيث بلغت ثقتهم في الانتصار إلى حد انه وقع العثور في معسكرهم على عربات تحمل 20.000 زوجين

من أغلال الأيدي. ولم يقل ديودور أين جرت المعركة، ولكنها جرت، بقدر ما يسمح الاحتمال بذلك، على قرب كبير من قرطاجة.

كان حنّون على رأس الجناح الأيمن الذي كانت به الفرقة المقدسة التي هي جمع النخبة. وعلى اليسار رتب بوملْكار مشاته على شكل كتائب مكثفة، لأن الأرض لم تكن تسمح بنشرها على مدى واسع. أما العربات والخيالة فقد جعلت في مقدمة الكتائب.

ولما عرف أگاطكليس بالتنظيم الذي اتخذه القائدان العدوان، أسند قيادة جناحه الأيمن إلى ابنه أرْكاگَثوش Archagathos وأصحبه 2500 من المشاة. ثم صفف السِّرَقوسيين وعددهم 3500 رجل ومعهم 3000 من المرتزقة و3000 من السّمْناتيين Samnites والأتْروريين Etrusques والغاليّين Gaulois. وانتصب هو على الجناح الآخر مع من يكونون حرسه وواجه الفرق المقدسة بألف من المشاه الثقال. أما أقصى الجناحين فقد حماهما 500 من القواسة والمقلاعيين. وكاد رجاله لا يتوفرون إلا على الأسلحة الضرورية بل إن بعضهم لم يكن لهم أي سلاح. غير أن أگاطكليس عرف كيف يزيف بهم ويظهرهم بمظهر المقاتلين، وذلك بأن جعل في أيديهم أغشية للتروس مثبتة على الأعواد. ويجب الاعتقاد بأنه رغما عن الخيول الكثيرة التي وجدها في الأرياف وكذلك عن السروج التي وقع نقلها من سِرَقوسة فإنه لم يستطع تكوين فرقة من الخيالة. فديودور Diodore لم يشر إليها مطلقا، بل يقول على النقيض من ذلك أن الجيش الإغريقي لم يكن يخشى كثرة عدد القرطاجيين فحسب وإنما يخشى زيادة على ذلك كثرة خيالتهم. ولكي يطمئن الجيوش فإن الطاغية أطلق في الفضاء طيور البوم التي كان قد

أخذها معه. وكانت هذه الطيور ذات فأل حسن، مكرسة لأثينة Athenes، فجاءت تحط على الخوذات والتروس، فقوبلت على أنها رسل النصر.

وبدأت العربات الهجوم، غير أن القذائف انهالت على الدواب التي تجرها فارتبك قسم منها وسرعان ما لم يعد صالحا للعمل، بينما مر البعض الآخر منها في سلام بين صفوف الإغريق الذين أفرجوا لها ليتلافوها، وأسرع الباقي منها بالتراجع إلى الوراء. وواجهت كذلك جيوش أگاطكليس هجمات الخيالة وأرغمتها على التراجع. وبعد هذه المعارك الأولية اشتبكت في الصراع جميع فصائل المشاة البونيقيين. وكان حنّون يود أن يخص نفسه بشرف هذا اليوم، فارتمى بحماس شديد على الذين يواجهونه وكبدهم خسائر كبيرة، ولكن تكاثرت جروحه فوقع صريعا. فكان موته شؤما على القرطاجيّين. وقد ادعى ديودور أن القائد الآخر فكر في نفسه قائلا : إنه إذا انتصر فلن يحتاج مواطنوه إليه، ولن يستطيع إنجاز مشروعه في الاستيلاء على الحكم، لذلك فالاندحار يكون أفيد له. أما عن أگاطكليس، فإنه سيجد بسهولة الفرصة للإيقاع به. وإنها لمجازفة كبيرة أن نعزو لبوملكار أفكارا سرية لم يكاشف بها أحداً من دون شك. وأياً ما كان الأمر، فإنه أصدر الأمر للصفوف الأولى بالتراجع نحو المرتفع الذي كان الجيش به قبل العمليات. ولكن نظرا لاشتداد ضغط العدو، فإن هذا التراجع لم يلبث أن تحول إلى ما يشبه الفرار، لأن الأفارقة ظنوا أن جبهتهم انكسرت فتشتتوا. أما الفرقة المقدسة التي قاومت بصمود رغم موت حنّون، فإنها تخلت بدورها، لأن فرار الآخرين جعلها مهددة بأن تؤخذ من الخلف. وبذلك كان التراجع الانهزامي في اتجاه قرطاجة. أما أگاطكليس فإنه بعدما طارد الفارين بعض الوقت، عاد أدراجه ونهب المعسكر البونيقي. وقد خسر الإغريق على ما قيل في هذه المعركة

نحو 200 رجل، بينما خسر أعداؤهم 1000 رجل أو 6000 حسب بعض الكتاب. هذه هي الأرقام التي أوردها ديودور، أما جُستّان Justin فيقول أن 2000 من الصقليين و3000 إفريقي قضوا نحبهم.

أحزنت القرطاجيين هذه الكارثة. فعزوها إلى تهاونهم في حق الآلهة، واجتهدوا في ترضيتها بالابتهالات وبالكفّارات غير المألوفة. فبعثوا الهدايا الفاخرة إلى هيركليس حامي صُور Tyr أم مدينتهم، وتقربوا إلى كْرونوس Cronos بخمسمائة طفل من أبناء الأسر الرفيعة، كما ذهب الموفدون إلى عَملِكار الذي كان بصقلية على رأس الجيش وطلبوا منه النجدات، وحملوا معهم مهاميز السفن الإغريقية. فأمر القائد برفعها ليراها السِّرَقوسيون، وكان يريد إقناعهم بأن جيش أگاطكليس جميعه قد وقع تحطيمه، كما تحطم أسطوله، راجيا أن يصيب الوهن السرقوسيين فيسلموا له مدينتهم. لكن قارباً صُنِع بأمر الطاغية عقب انتصاره، وصل بمشقة إلى الميناء، فأذاع من كانوا يركبونه الخبر السعيد الذي حملوه. وقد حاول عَملِكار الهجوم من بعد فأخفق وتراجع لداخل الجزيرة، وبعث 5000 رجل إلى إفريقيا.

استولى أگاطكليس على مواقع مختلفة حصينة بجوار العاصمة. وسلمت نفسها إليه بعض القرى والمدن حقدا على قرطاجة أو خوفا منه. وأقام معسكرا حصينا قرب تونس، مريدا بذلك لاشك أن يبالغ في تثبيط همة الأعداء بوجوده قرب أسوارهم، وربما أن يحدث لهم الصعوبات الكبيرة في التموين من جهة البر، وأن يعزلهم بقدر الإمكان عن محكوميهم وحلفائهم.

وبعدما ترك في هذا المعسكر حامية من الجيش، ذهب في حملة على مدن الساحل الشرقي للقطر التونسي. فانتزع عنوة مدينة نيابوليس

(Néapolis نابل) التي عامل سكانها بالحسنى، ثم زحف على هَدْروميت Hadromète (سوسة) التي بدأ بمحاصرتها، وفي تلك الآونة عقد حلفا مع أحد الزعماء الأهالي وهو أيلوماس Ailymas (ملك الليبيين).

غير أن القرطاجيين، علموا بتغيبه، فوجهوا كل قواتهم نحو تونس. فاستولوا على المعسكر الإغريقي، وقدموا آلاتهم نحو أسوار المدينة التي هاجموها بشدة. وبمجرد ما علم أگاطكليس بخبر اندحار أصحابه، أخذ حرسه مع جمع قليل من الجنود الآخرين، وذهب سرا ليستولي على جبل تراه العين في أن واحد من تونس ومن هَدْروميت. وهناك أمر أصحابه أن يوقدوا النيران ليلاً في أماكن متعددة، وهكذا أوهم القرطاجيين أنه يزحف نحوهم بقوات عديدة، وأوهم أهل هدروميت أن نجدات عظيمة تصل إلى الإغريق، فأحدثت هذه الخدعة النتيجة المزدوجة المرجوة منها، لأن من كانوا أمام تونس مروا إلى قرطاجة، كما استسلم أهل هدروميت.

لقد سلّم تيسّو Tissot بحكاية ديودور، ولاحظ أن "جَبَل زَغْوان" هو الوحيد الذي يمكن أن يُرى من تونس ومن سوسة أيضا. إن أهل هدروميت والقرطاجيين لم يكونوا يستطيعون أن يفرضوا أن جيشا يتقدم على جناح السرعة، سواء من هذه الجهة أو تلك، قد يتحول عن وجهته ليصعد إلى قمة وعرة. ولكن كان بمستطاعهم أن يعتبروا هذه النيران إشارات يقصد بها في الليل توجيه من يسيرون مسرعين. ذلك أن أقْصر طريق بين تونس وهدروميت كانت تمر بمحاذاة جَبَل زَغْوان، من جهة شمال هذا الجبل وشرقه. وإذا كانت الحكاية صحيحة، فلربما أن النيران تكون قد اشتعلت على بعد قليل نحو الشمال الشرقي، قريبا

من الطريق المسلوكة، أي في (مركز الرؤية Poste Optique) الذي يبلغ ارتفاعه 975 مترا، وليس في القمة التي يبلغ علوها 1295 من الأمتار.

بعدما استولى أگاطُكليس على هَدْروميت، استولى عنوة على ثَبْسوس Thapsus (أي الديماس) ثم دخل المدن الأخرى بالناحية طوعا أو كرها، بحيث منذ نزوله وقع في قبضته أكثر من 200 مدينة. (وبالطبع فإن هذا العدد يشمل أيضا الأماكن التي لها أهمية ضئيلة).

ثم اتجه المنتصر، دون أن يعرف الكلل، نحو "الأماكن العالية بليبيا" [4]. ولكنه علم بعد بضعة أيام أن القرطاجيين قد جمعوا القوات التي أرسل بها أخيرا من صقلية مع ما بقي من جيوشهم، وأنهم استولوا من جديد على بعض المواقع الحصينة، وأنهم يحاصرون تونس من جديد، فعاد مسرعا. ولما كان على بعد 200 اسْطاد (35 كيلومترا) من العدو، خيم ومنع على رجاله أن يوقدوا نارا، ثم عاد للسير بالليل. وعند بزوغ الضوء وقع بغتة على جماعة كبيرة من الناس، تركوا تحصيناتهم ليحشوا الكلأ في الخلاء. فقتل منهم أكثر من 2000 رجل، كما أسر عددا كبيرا، واستولى فوق ذلك على بعض ما قد يحتاج إليه استقبالا. كما انتصر مرة أخرى على أيلوماس Ailymas الذي كان قد قطع حلفه معه، فمات هذا الأمير ومعه الكثير ممن كانوا تحت إمرته.

إن هذه الأحداث التي رويت بصفة بالغة في الغموض، قد جرت حسب ديودور في نفس السنة التي هبط فيها الصقليون إفريقيا، بين صيف سنة 310 وصيف 309.

كان القرطاجيون قد مكثوا في صقلية، بل إنهم لم يتخلوا عن عزمهم على الاستيلاء على سرِقوسة. ففي بداية الصيف من سنة 309 اقترب عَملْكار من هذه المدينة بجيش عظيم. لكنه بوغت أثناء السير ليلاً،

فوقع في أيدي الإغريق الذين قتلوه، وبعثوا برأسه إلى أگاطكليس فركب فرسا وتقدم حتى كان على مدى الصيحة من المعسكر البونيقي، ثم أظهر لهم هذه الغنيمة، وأبان للأعداء مصير (ملكهم). فكان حزنهم بالغا وسجدوا على عادة الباربار. ولكن قرطاجة بالرغم عن جميع مآسيها لم تظهر أي استعداد للتفاوض. فقد كان لها كما سبق أن رأينا جيوش خارج أسوارها، قريبة جدا من جيوش الطاغية الذي يظهر أن وضعه كان متزعزعا، إما لأنه لم يكن يريد إغضاب الأفارقة بنهبهم، وإما لأنه لا يجرؤ على مغادرة معسكره خشية تعرّضه لهجوم جديد. فكان هؤلاء لا يخفون استياءهم. وأخذ النظام يتفكك، حتى إن بعض القادة قد ارتكبوا أعمالا تجعلهم يخشون العقاب.

وقد وقعت حادثة بسيطة سببت حدوث الفتنة، إذ أن أحد الضباط، واسمه لوسيسكوس Lyciscos لعبت الخمرة بعقله في إحدى المأدبات فشتم أگاطكليس الذي كان من مصلحته أن يراعي جانب الضابط لما له من مواهب عسكرية، لذلك حول الموقف إلى المزاح. غير أن أرْكاگَثوس، وهو أقل صبرا من أبيه، استشاط غضبا من الضابط قليل الأدب. وعند عودة المدعوين إلى خيامهم بعد انتهاء العشاء، شتم لوسيسكوس الشاب أركاگثوس ولامه على أن يكون عشيقا لألسْيا Alicia التي تزوجها أگاطكليس ثانية. وكان هذا من الشائعات التي يجرى ترديدها. فاحتد غضب أركاگثوس وأخذ حربة من يد أحد الحراس وطعن بها لوسيسكوس. وفي صباح الغد اجتمع أصدقاء الميت، وانضم إليهم عدد كبير من الرجال، وارتفعت أصواتهم بالاحتجاجات الغاضبة. وسرعان ما ألح الجيش مطالبا بتعذيب القاتل، ومهددا بأن يؤاخذ الطاغية نفسه إذا لم يسلمه لهم، وطالب الجيش كذلك بأداء الجرايات المتأخرة، وعين الثائرون عليهم بعض الرؤساء لقيادة المعسكر، كما أن بعضا منهم

ذهبوا للاستيلاء على أسوار تونس، ووضع أكاطكليس وأبناؤه تحت الحراسة المشددة.

لما علم القرطاجيون بما يجري عند الإغريق بعثوا إليهم الموفدين المكلفين بأن يعرضوا عليهم العروض السخية. فتقبل كثير من الضباط هذه العروض قبولا حسنا وتعهدوا بأن يأتو برجالهم. وكان أگاطكليس يتساءل مع نفسه هل سيسلمونه وهل سيموت ميتة الخزي ؟ وقرر أن يخاطر مفضلا ان يموت على يد أصحابه. ونزع من بدنه الرداء الأرجواني، ولبس ملابس الفقراء ثم تقدم إلى وسط المعسكر. فعجب الناس وسكتوا يستمعون إليه. فذكر بأعماله السابقة، وأعلن أنه على استعداد للموت، إذا كان موته يعود بالنفع على رفقائه في السلاح، ولكنه لن يقوم أبدا بعمل دنيء لإنقاذ حياته، وبعدما أشهد الحاضرين ممن كانوا حوله جرد سيفه كما لو كان سيقتل نفسه. فتأثر الجنود وصاحوا يمنعونه من ذلك، وبأنه برأ من التهم الملصقة به. ثم دعي لأن يحمل من جديد شارات القيادة، فأخذها وهو يبكي، ويقول إنه يأخذها استجابة لما طلب منه. وانتهى المشهد بالتصفيق. وهكذا فإن أگاطكليس الذي كان يعلم بأن القرطاجيين ينتظرون وصول عدد كبير من الفارين، ساق إليهم جيشه. وقد كانوا مطمئنين إلى أن هذه الجموع تحدوها نيات حسنة. لكن على حين بغتة نفخ في الأبواق إيذانا بالهجوم فانطلق الإغريق. فأما الذين استطاعوا النجاة فقد دخلوا متسارعين إلى المعركة البونيقية حيث التجأ رؤساء الفتنة والغاضبون الذين ناهزوا 200 رجل.

بعد ذلك نظم القرطاجيون حملة شارك فيها النبلاء مشاركة واسعة. وكانوا يريدون بها إرغام النوميديين الذين انفصلوا عنهم إلى الرجوع لمحالفتهم، فحصلوا في البداية على نتائج حسنة بمساعدة بعض القبائل

الأخري. وبينما هم في أرض الزوفونيين Zouphones [5] علموا أن أكاطكليس في الطريق إليهم. فقد ترك أركاگثوس في تونس، وصحب هو معه 8000 من مشاته الأشداء و800 فارس و50 عربة يركبها الليبيون، ووقاية من أية مفاجأة، فإن خصومه أقاموا معسكرا على مرتفع يحيط به شعاب عميقة. وأمروا النوميديين الذين كانت لهم بهم بعض الثقة أن يذهبوا لمناوشة الصقليين عسى أن يوقفوا مسيرتهم. فواجه الطاغية هؤلاء الأهالي بالقوّاسة والمقْلاعيين، ثم اتجه نحو معسكر العدو بمن معه من الجنود الآخرين. فخرج القرطاجيون من معسكرهم واصطفوا للمعركة. وبمجرد ما تخطى الجيش الإغريقي النهر الذي كان يجري أمام مواقعهم، هاجموه وأكثروا فيه القتل. لقد كان عددهم كثيرا وكان الممر صعبا، ومع ذلك فإن جنود أگاطكليس برهنوا على شجاعتهم. وأثناء ذلك اعتزل المعركة النوميديون الذين يعملون بالجيشين معا، وانتظروا نهاية هذه المعركة الحامية الوطيس. وقد كانوا ينوون الاستيلاء على أمتعة المغلوبين.

وأخيرا استطاع أگاطكليس أن يحدث ثغرة في الصفوف المواجهة له، ففر تقريبا جميع الأعداء الآخرين لما رأوا ذلك. غير أن فرسانا من الإغريق لاندري هل كانوا مساعدين أو مرتزقة بالجيش القرطاجي، وكان يقودهم شخص يدعى كلينون Clinon، قد استمروا في المقاومة، حتى سقط أكثرهم في ميدان الشرف. فصعد أگاطكليس نحو المعسكر حيث كانت الجيوش القرطاجية قد التجأت، وكان يتقدم بحماسة رغما عن العراقل الأرضية. وأثناء ذلك قرر النوميديّون أن الوقت المناسب قد حل، ولكنهم لن يستطيعوا الارتماء على أمتعة القرطاجيين، لأن المعركة كانت تجري في هذه الجهة، ولذلك انتقلوا في اتجاه معسكر الصقليين الذي كان أكاطكليس قد ابتعد عنه كثيرا وتركه من غير مدافعين،

فاقتحموه بسهولة واستولوا على كثير من الأسرى والأشياء القيمة. فأدار الطاغية جيشه على جناح السرعة نحو هؤلاء النهابين [6]. واسترجع منهم بعض مغانمهم، ولكنهم احتفظوا بأفضلها، ثم انتهزوا نزول الظلام وانسحبوا على مسافة بعيدة. فأقام أگاطكليس معرضا لمغانمه Trophée وقسم ما سلبه من القرطاجيين بين جنوده تعويضا لهم عما فقدوه. وكان من بين سجنائه ألف إغريقي، فيهم أكثر من 500 سِرَقوسي. فأمر أن يساقوا إلى مكان حصين. وأراد هؤلاء الرجال النجاة من العقاب الذي يتوقعونه، فهاجموا الحامية ليلا، ولكنهم اندحروا وصعدوا إلى أحد المرتفعات. فتسارع إليهم أگاطكليس وعقد معهم اتفاقية يستسلمون له بموجبها، فلما نزلوا عن ملجئهم واثقين بوعده، أمر بذبحهم جميعا.

6

إن هذه المعركة الناجحة لم تغير شيئا من حالة الطاغية. فهو حتى الآن لم يحرز على انتصار حاسم، وجيشه قليل العدد جدا، بحيث لا يزوده في آن واحد بجيوش المعركة وبالحاميات الضرورية، ومضاعفة عدده أمر ظاهر الصعوبة: لأنه يعلم أن الأهالي الأفارقة هم مساعدون قلّما يثبتون، ثم أن البحر كان مقفلا في وجهه. ولكن عنت له وسيلة للحصول على جنود لهم قيمة.

إن أوفِلاس المقْدوني Ophelas كان من قدماء صحابة الإسكندر، ثم مساعدا لبطلمي في سرنيكا (برقة)، وهو منذ بضع سنين الحاكم الحقيقي للمستعمرات الإغريقية بهذه المنطقة، ولديه قوات هامة. فكلف أگاطكليس أحد السرقوسيين وهو أُرْثون Orthon بدعوته للمشاركة في

حرب القرطاجيين. ووعده مقابل هذا العمل أن يتخلى له عن ليبيا، لأنه شخصيا لا يطمع إلا في الاستيلاء على صقلية التي لن يجد مشقة في السيطرة عليها جميعها، إذا لم يكن له ما يخشاه من القرطاجيين، وإذا أراد توسيع ملكه فستكون إيطاليا أمامه للسيطرة عليها. أما ليبيا التي يفصلها عن صقلية بحر يعسر عبوره، فإنها لا توافقه مطلقا، والضرورة هي التي فرضت عليه القدوم إليها.

فتقبل أوفِلاس بسرور هذه العروض التي تستجيب لرغباته، وبعث موفدين عنه إلى أهل أثينة الذين كانوا ينظرون إليه بعين الرضا، لأنه تزوج بنت سليل مِلْتِياد Miltiade بطل الماراثون Marathon ولأنه فيما سبق أدى لهم بعض الخدمات. فانخرط في جيشه عدد كبير منهم، وكذلك فعل كثير من الإغريق الآخرين، وقبلوا عن طواعية مغادرة أرضهم التي خربتها الحروب، آملين أن يحصلوا على أراض في إفريقيا وأن ينالوا حظهم من المغانم الوفيرة.

أنهى أوفلاس استعداداته، وغادر قورينة Cyrène في الصيف ومعه جيش منهم قوامه أكثر من 10.000من المشاة، و600 فارس، و100عربة على ظهرها أكثر من 300 سائق ومقاتل. وخارج الصفوف كان يسير جمهور من نحو 10.000 رجل وامرأة وطفل يحملون الأمتعة، حتى أن المشاهد ليحسب أنها مستعمرة تسير. وكان لابد للسائرين من ثمانية عشر يوما يقطعون خلالها 3000 اسْطاد (أكثر من 500 كيلومتر) ليصلوا إلى أوتومالا Automala في آخر سَدْرة الكبرى، قريبا من حدود الإمبراطورية القرطاجية. ثم دخل الإغريق في صحراء ممتدة، حيث ترتع الثعابين التي تقتل بلدغاتها. وقد لاقوا العناء الشديد لانعدام الماء والطعام، حتى اضطروا، على ما قيل، لأكل ثمار اللّوتُس مدة أيام

عديدة. وأخيراً، وبعد شهرين من السير المضني، أقام أوفلاس في خريف سنة 309 أو 308 معسكر على بعد قليل من المعسكر الصقلي.

زار أگاطكليس حليفه أوفلاس، وقدم إليه جميع ما كان لازما، وحثه على ترك جيشه يستريح. ويُحْكى أنه لعلمه بميل أوفلاس للمجون بعث إليه بالشاب هيركليد Héraclide [7]. ومرت بضعة أيام، كان أگاطكليس خلالها يراقب ما يجري عند جاره، حتى رأى أن أكثر الجنود قد خرجوا ليجمعوا الكلأ والطعام، وأن أوفلاس لم يكن يشك في شيء فدعا جيوشه، وبيّن لهم أن هذا الحليف المزعوم إنما هو خائن، وأوغر صدورهم حتى تسارعوا إلى السلاح وزحفوا بقيادته على القادمين الجدد. وقد حاول المقدوني أن يدافع عن نفسه، ولكنه سقط صريعا للهجوم المباغت ولكثرة العدد الذي أرهقه.

من الممكن أن لا يكون أوفلاس يساوي أكثر من أگاطكليس، وأنه كان يفكر في التخلص من حليفه من بعد، ومع ذلك فليس لدينا برهان على هذا. أما السرقوسي فقد كان بحاجة إلى الرجال وليس لقائد لا يقبل بالطبع أن يعامل معاملة التابع، ولا يكون وجوده سوى ثقل عليه طوال الحرب. وإذا انتهت هذه الحرب يكون من قلة تبصره، هو أگاطكليس، أن يوافق على إنشاء دولة إغريقية قوية قبالة صقلية. فيمكن الاعتقاد إذن بأنه كان يفكر في جريمته منذ مدة طويلة.

وقد أرغم رجال أوفلاس على أن يحطوا أسلحتهم، ثم جذبهم إليه بالوعود الجميلة وضمهم إلى رجاله. ولقد كانوا مرتزقة مستعدين لقبول أي رئيس كان، بشرط أن يدفع لهم الثمن وأن يمنّيهم بالمغانم. وفوق هذا، فباستثناء انضمامهم إلى القرطاجيين، وهو الأمر الذي عرف أگاطكليس كيف يمنع وقوعه، باستثناء هذا، لم يبق لهم ما يفعلونه سوى

أن يدخلوا في خدمتها هو. أما غير المقاتلين، وهم الذين لا يرجى من ورائهم نفع، فقد أركبوا السفن في اتجاه سرقوسة، ولكن عاصفة بحرية شديدة أغرقت بعضا من هذه السفن ودفعت ببعض آخر حتى خليج نابولي Naples، والبعض القليل هو الذي وصل إلى صقلية.

ويدّعي جُسْتان Justin أن أگاطكليس، بعد مقتل أوفلاس، قد انتصب على رأس جميع الجيوش التي صارت تابعة له، وهاجم القرطاجيين ونال عليهم انتصارا عظيما. وأن الوهن قد بلغ من القرطاجيين إلى حدّ أنه لولا الفتنة التي اندلعت في جيش الطاغية، لقدم عليه بومِلْكار لينضم إليه مع من كانوا تحت إمرته. وقد صلبه مواطنوه عقابا له على التفكير في هذا العمل. بينما ديودور الذي يروي الأحداث بتفصيل يجهل هذا الانتصار المزعوم وهذه الثورة المزعومة كذلك. ولربما أن جُسْتان (أو طروگ بومْبي Trogue-Pompée) أخطأ فأشار هنا إلى الثورة التي سبقت وصول أوفلاس. هذا، وقد سبق أن ذكرنا كيف أن بوملكار حاور الاستيلاء على السلكة العليا وكيف أنه صُلِب بعدما أخفق. غير أن التفصيلات الدقيقة التي يوردها ديودور، لاشك أنه لم يبتدعها، ولكنها لا يمكن التوفيق بينها وبين ما ذكره جُسْتان ذلك أن بوملكار حين أراد القيام بعمله في قلب نظام الدولة، لم يستعن بأگاطكليس الذي كان بمعسكره قرب قرطاجة. ولم يقع إعلام أگاطكليس لا بنواياه ولا حتى بأعماله. وتعذيب بوملكار كان عقابا له على عمله لقلب النظام، وليس على اتفاقه مع العدو. ثم أن ثورة الجيوش الإغريقية ما كانت لتستطيع أي تغيير في الأحداث التي كانت آنذاك تجري في قرطاجة. ويضيف ديودور بأن محاولة بوملكار قد وقعت حين كان أگاطكليس يقضي على أوفلاس، الأمر الذي يتناقض مطلقا مع حكاية جُسْتان. ولربما أن الكاتب الذي نقل عنه ديودور قد ارتكب إهمالا

ليصور الأشياء بصورة درامية، ومع هذا، يمكن الاعتقاد بأنه لم يكن ليسمح لنفسه بهذا التأكيد، لو جرى الحادثان في تاريخين يختلفان جدا.

زاد جيش أگاطكليس بمثل ضعفه، واستطاع إذن أن يسير الحرب بكامل القوة. وكانت مدينة أوتيكا Utique قد بقيت على ولائها لقرطاجة، أو أنها على قول ديودور قد تخلت عن السرقوسي بعد أن كانت قد عقدت حلفا معه فوصل على حين بغتة وأسر نحو 300 مواطن كانوا متفرقين بالبادية، وكان جلهم من ذوي المقام الرفيع. ثم أنذر المدينة أن تستسلم، ووعد بأن يعاملها بحلم، فلما امتنعت أمر ببناء برج وعلق الأسرى فيه، ثم دفع هذا البرج حتى قارب الأسوار، وحمل عليه المنجنيقات والقواسة والمقلاعيين، فاضطر المحصورون، دفاعا عن أنفسهم، أن يمطروا البرج بوابل من القذائف التي كان الكثير منها يصيب أقرباءهم التعساء. ولكن سرعان ما عثر أگاطكليس على موطن الضعف في السور، فاقتحمه مارا. ولشدة حنقه من المقاومة التي واجهته فإنه ذبح أو صلب المغلوبين ولم يبق حتى على الذين التجأوا إلى المعابد. وبعدما خلف بهذه المدينة حامية توجه نحو هِبو أكْرا (Hippou Acra بِنْزَرت)، المدينة المحمية بالبحيرة المحيطة بها. فجد في عمليات الحصار، وبعد انتصار في إحدى المعارك البحرية، استولى على الموقع عنوة. وباستيلائه على مدن أخرى أصبحت له السيادة على أكبر قسم من الساحل ومن السكان الداخليين، وذلك باستثناء جل النوميديين. على أن بعضا من هؤلاء الأهالي تحالفوا معه، بينما انتظر الآخرون الأحداث.

وحسب ما يذكره أپيان Appien الذي ينقل عن پوليب Polybe على ما يحتمل، فإن أگكاطكليس قام بخدمات بالغة الأهمية في بِنْزَرت كالتحصينات والقلعة والموانئ ومصانع السفن. وفي ذلك الإبان أو بعده،

أسكن الصقليين في الفاصية الشرقية من هضبة "الرأس الطيب"، في المكان الذي سمي باسم "أسْبيس" Aspis أي التّرس. ويسوغ الافتراض بأنه جعل هناك مصانع ودارا لبناء السفن، إذ مع طول أمد الحرب، فإن هذين الميناءين الواقعين على المضيق الفاصل بين صقلية وإفريقيا، واللذين أحسن اختيارهما، لابد أن يساعداه على تأمين مواصلاته مع الجزيرة.

7

إن الانتصارات التي أحرز عليها أگاطكليس، لم تنل في صقلية الصدى الذي كان ينتظره. فالإغريق لم يجتمعوا لطرد العدو التقليدي، والمطرودون عن سرقوسة لا يزالون مسيطرين على البوادي بجيش قوي، كما أن أهل أگْريجَنْت يعملون بجد لتكون لهم السيطرة، كما أن انتصاراتهم الأولى فتحت أمامهم باب الأمل في النجاح. أما القرطاجيون، فإنهم وإن كان حلفاؤهم قد تخلوا عنهم بعد كارثة عَملكار، وإن كانوا قد طردوا من بعض المدن التي كانت لهم بها حامَيات، فإن مقاطعتهم لا تزال على مِلْكهم، كما أن أسطولهم لا يزال على حصاره لسِرَقوسَة.

رأى أگاطكليس أنه ليس هناك ما يخشاه من جانب ليبيا، فقرر العودة إلى الجزيرة، حيث أن قدومه يمكن أن يغير الأشياء لصالحه. فبنى سفنا للنقل، وسفنا حربية بخمسين مجدافا، وركب البحر مع 2000 رجل بعدما ترك قيادة الجيش لابنه أركاگثوس.

فكلف هذا الأخير أحد مساعديه وهو أوماخوس Eumachos بأن يسير بقسم من الجيوش إلى الأراضي العالية، فنجحت الحملة. لأن

أوماخوس استولى أولا على طوكاي Tocai وهي مدينة «لابأس بضخامتها»، وحصل على حلف العديد من النوميديين الساكنين بجوارها. ثم استولى على المدينة المسماة فِلّيني Phelliné كما أرغم على الخصوص سكان أرض مجاورة هم الأسْفوديليّون Asphodélodes، الذين يشبهون الأثيوبيين في لون بشرتهم. واستولى أيضا على مدينة عظيمة ثالثة هي مسْكلة Meschela التي أسسها على ما يقال الإغريق عند عودتهم من طَرْوادَة، وكذلك استولى على مدينة أخرى هي أكْراهيبو Acra Hippou التي تحمل نفس الاسم الذي تحمله المدينة التي سبق أن استولى عليها أگاطكليس، وأخيرا على أكريس Acris المدينة الحرة، التي حوّل سكانها إلى عبيد. ثم عاد بعد ذلك إلى أركاگثوس ومعه غنائم كثيرة.

ما هي هذه المدينة التي كانت "لابأس بضخامتها"، وتقع في ليبيا العليا، وسماها ديودور باسم طوكاي Tocai ؟ إن أقرب الافتراضات من الحقيقة هي القائلة بأنها ثوگا Thugga أي دقة Dougga (بالقرب من تبرْسُقْ). وهي مدينة أهلية قديمة بالناحية الجبلية بموسطة تونس. وهناك عدة أمكنة أخرى، ذكرتها وثائق العهد الروماني، وكانت تحمل نفس الاسم، هي : توكا تيربنْثينا Tucca Terebinthina الواقعة بين مَكْثير وتْهَلاَ، وتوكا Tucca التي عند مصب نهر أمساگا Amsaga أي الوادي الكبير بالشمال الغربي لقسنطينة)، وتوكا Tucca أخرى غير بعيد عن ميليف Milève (أي ميلة). ولكن لا يمكن أن تكون المقصودة هي إحدى هاتين الأخيرتين لشدة بعدهما عن تونس. ومن ناحية أخرى ليس هناك من سبب يدعونا إلى تفضيل توكا تيربنثينا T. Terebinthina، وهي مدينة صغيرة خاملة الذكر، على ثوگا Thugga التي كانت مدينة مهمة في أواسط القرن ق.م، وقبل ذلك العهد على ما يحتمل. أما فليني Phelliné مدينة أشجار البلوط Chênes-Lièges فلابد أنها كانت في شمال تونس.

وكذلك الأسْفوديليون المشابهون للأثيوبيين، فيمكن أنهم كانوا يعيشون في أرض خُمِير، حيث يوجد عدد كبير من الناس بشرتهم قاتمة طبعا. ويظهر أن أوماخوس بعدما استولى على طوكاي قد اتجه نحو الشمال الغربي وعبَر نهر مجَرْدة. أما الأسطورة التي تعزو بناء مسْكِلة Meschela إلى بعض الإغريق فإنها تسوغ لنا أن نفترض بأنها كانت مكانا على الساحل. بينما المدينة البحرية أكرا هيبو Acra Hippou المتميزة عن هيبوا أكرا Hippou Acra التي استولى عليها أگاطكليس، يظهر أنها هي التي أطلقت عليها النصوص المتأخرة اسم هيبو ريجيوس H. Regius وكانت تقوم على مقربة أحد الرؤوس البحرية الذي ذكره بطلمي باسم هيبو أكرا. وإذا كان أوماخوس قد مر حقيقة على دقة Dougga، ثم مر بأرض خمير، فإننا نستطيع أن نقبل بسهولة أنه اتجه بعد ذلك نحو هيبون Hippone (بالقرب من بونة أي عنّابة). وعلى النقيض من ذلك، يصعب جدا القول بأن اسم هيبو أكرا قد دل، علاوة على بنزرت وهيبون، على مدينة ثالثة مجهولة تماما. ولربما أن هيبون كانت مستعمرة فينيقية قديمة، وفي نهاية القرن الرابع كانت تابعة لقرطاجة. أما أكْريس Acris فقد قيل إنها كات واقعة في ولاية قسنطينة. ونجهل لماذا هاجم أوماخوس هذه المدينة التي لم تكن خاضعة للقرطاجيين، وعاملها بقسوة شديدة.

إن الحملة التي جرت بسرعة، قد نتج عنها تزويد الإغريق بخيرات نالوها من سلب عدة مدن فينيقية أو أهلية، وضمنت لهم حلف بعض القبائل، كما ضمنت لهم لاشك تخويف البعض الآخر الذي كان يبدي لهم العداوة.

وقد تلت هذه الحملة حملة أخرى قادها أوماخوس أيضا، واتجهت كذلك نحو ليبيا العليا. فقد تعدى المدن التي سبق له الاستيلاء عليها، وارتمى على حين غرة على المدينة التي كانت تسمى باسم ميلتين Miltine ولكنه اندحر في معركة جرت بطُرُقها، وضاع له عدد كبير من رجاله، فاضطر إلى الفرار. ومن هناك، اخترق سلسلة من الجبال، طولها 200 اسْطاد (أي 35 كيلومترا)، وكانت مليئة بالقطط التي تطرد بوجودها جميع الطيور، ووصل إلى أرض تكثر بها القردة التي كانت تعيش مؤتنسة بالرجال. وكانت بهذه الأرض ثلاث مدن، تُرجم اسمها الأهلي إلى الإغريقية باسم (مدن القردة). فاستولى أوماخوس على إحداها عنوة ونهبها، واستسلمت له المدينتان الأخريان. غير أنه لما علم بأن الأهالي يحشدون ضده قوات عظيمة، أخذ أقصر طريق واتجه نحو الساحل.

وهذا الخبر الأخير يبرهن على أنه كان قد تغلغل بعيدا داخل الأراضي. ولكن أين ؟ لا نستطيع الإجابة، ولربما كان ذلك بشرق القطر الجزائري. أما موقع ميلْتين Miltine ومدنها ذات القرود فمجهول، ولا يوجد اليوم قردة مطلقا ببلاد البربر الشرقية. فالكاتب الذي ردد صداه ديودور، قد تعجل بترديد ما قصه عليه أحد رفاق أوماخوس عن هذه الحيوانات وعن القطط المتوحشة، بينما نحن أحوج إلى القليل من التدقيق الجغرافي.

خلال ذلك، رأى القرطاجيون لاشك أن الإغريق، وقد حرموا من قائدهم أگاطكليس، سيكون غلبهم أسهل. ولذلك قاموا باستعدادات كبيرة، فأصدر مجلس الشيوخ قرارا بتكوين ثلاثة جيوش. أحدها يتجه نحو المدن البحرية، أي على ما يحتمل نحو الساحل الشرقي

للقطر التونسي، والثاني يتجه للداخل (تونس الوسطى ؟)، كما يتجه الثالث للأرض العالية (تونس الشمالية وشرق الجزائر ؟). وبذلك يقل عدد الأفواه التي تطلب الطعام في العاصمة التي أخذ الطعام يقل بها نظرا لورود عدد كبير من الناس ملتجئين إليها من جميع الجهات. ولم يكن هناك أي خوف من الحصار لأن قرطاجة كانت حمايتها جيدة بأسوارها وبالبحر. وسيتشجع الحلفاء في وقائهم حين يرون جيوشا عديدة في حملاتها، ومستعدة لنجدتهم. أما الذين انضموا إلى الإغريق خوفا منهم، فسيعودون إلى روابطهم القديمة، وأخيرا فإن الأعداء لابد أن ينقسموا ويبتعدوا عن قرطاجة كثيرا. وقد أكدت الأحداث صواب نظرهم.

وغادر المدينة ثلاثون ألف رجل. فأما الجيش الذي اتجه إلى الأراضي العالية فكان قائده يدعى حيملْكون، وجيش الداخل كان قائده يدعى حنّون، ولم يذكر اسم قائد الجيش الذي اتجه للساحل. وكذلك فإن أركاگثوس بعث بقسم من قواته إلى منطقة الساحل، كما أسند بعض قواته الأخرى إلى أسكْريون Aischrion، وأخذ لنفسه هو قيادة ما تبقى من الجيش، بعدما خلف منه حامية تركها في تونس. وهكذا كانت البلاد تذرعها الجيوش الزاحفة في كل اتجاه.

كان على حنّون أن يقاتل أسكريون Aischrion، فأوقعه في كمين وقتله، ومعه أكثر من 4000 من المشاة ونحو 200 فارس. أما من بقي على قيد الحياة فإن الذين لم يؤسروا منهم فروا عند أركاگثوس الذي كان معسكره على 500 اسْطاد من مكان الموقعة. ونجهل أين أحرز حنّون على هذا الانتصار.

أما حيملكون فقد ذهب ليستولي على إحدى المدن التي يراقب منها سير أوماخوس. وكان هذا عائدا نحو الساحل، وقد أثقلته الأسلاب التي جمعها، فلما اقترب من القرطاجيين تأهب لقتالهم. فترك حيملكون بالمدينة نصف جنوده، وأمرهم أن لا يبرزوا منها إلا عندما يرونه متراجعا، وإذ ذاك يهجمون على من يطاردونه، ثم أخذ النصف الآخر من الجيش وخاض به المعركة. ولكنه لم يلبث أن فر مع رجاله. فلم يحتفض رجال أوماخوس بنظامهم وجروا من خلفه، وفجأة ظهرت الجيوش التي كانت قد مكثت في المدينة، وكان ظهورها على أتم نظام، فحدث الارتباك لدى الإغريق الذين قطع عليهم حيملكون خطر الرجعة إلى معسكرهم. فالتجأوا إلى أحد المرتفعات المجاورة ولم يكن به ماء. فأحيط بهم، وانهالت عليهم القذائف، وأضناهم الظمأ وماتوا جميعا على وجه التقريب، بحيث لم يستطع النجاة سوى 30 شخصا من بين 8000 من المشاة، و40 فارسا من بين 800.

حين علم أركاكثوس بهذه الكارثة، عاد إلى تونس، وجمع ما بقي من جيشه. وبعث الموفدين إلى صقلية ليخبروا أباه وليطلبوا منه النجدة في أسرع وقت ممكن. ولكن شقاء آخر حل بالإغريق، لأن أكثرية حلفائهم تخلت عنهم، واقترب الأعداء من معسكرهم وهددوه، واستولى حيملكون على السبل وأخذ يقتصر طريق المواصلات مع داخل ليبيا، ولم يكن إلا على مسافة 100 اسْطاد، في حين أن قائدا آخر هو أذربَعْل Adhebal كان يعسكر على بعد 40 اسْطادا من تونس. ونظرا لأن القرطاجيين كانوا مسيطرين على البحر، فإن جنود أركاكثوس كان يؤلمهم فقدان المؤن حتى أصابهم الوهن البالغ.

كان أكاطكليس قد نزل من البحر بسِلْنُونة. ولاشك أنه قوى جيشه بالقوات السرقوسية التي سبق لها أن دحرت أهل أكْريجَنْت، وبذلك استطاع أن يخضع عدة مدن، هي هيركَلْيا heraclée، وثِرْماي Thermai وساجِسْت Sageste، ثم أخذ طريقه إلى سرقوسة [8]. فعرض عليه جيش المطرودين، وكان أكثر عددا من جيشه، خوض المعركة ولكنه لم يجرؤ على الاستجابة. ثم إن الأنباء السيئة التي تلقاها من أركاكَثوس جعلته يقرر العزم بالعودة إلى إفريقيا. غير أن أسطولا قرطاجيا متكونا من 30 سفينة كان يحاصر سرقوسة. ولكن هذا الأسطول اندحر وأسر قسم منه على يد 18 سفينة حربية بعثها إلى الطاغية حلفاؤه الأترورين وكذلك على يد 17 قادسا كانت على مِلْكه هو. وبعدما أمر بتقتيل 500 من المواطنين بتهمة ميلهم إلى المطَرودين، ركب البحر ووصل دون عناء إلى مدينة تونس.

لما وصلها وجد بها نحوا من 22.000 من رجال المشاة، أي 3000 إغريقي ومثلهم من الغاليين والسَّمْناتيين والأتْروريين، كما وجد بها نحواً من 10.000 ليبي، وهم رجال مستعدون دائما لتغيير حزبهم، وفوق ذلك، كان بمستطاعه الاعتماد على 1500 فارس، وعلى عدد من العربات بأصحابها من الأهالي. وكان أكاطكليس بحاجة للحصول على انتصار واحد ينبه هذه الجيوش الجائعة والخائرة العزيمة، ولذلك زحف على العدو. ويحتمل أنه اتجه نحو الجيش البونيقي الذي كان شديد القرب منه، وهو جيش أذَرْبَعْل Adherbal. غير أن القرطاجيين كانوا مخيمين بمكان مرتفع صعب المنال، فلم يغامروا بخوض المعركة، ومكثوا بمعسكرهم الذي لم يكن ينقصهم به شيء، وكانوا يرون أن الجوع وطول

الـزمن سيعملان عملهما في الخصوم. ولما رأى أكـاطكليس أنه لا يستطيع التغرير بهم إلى السهل، وأن الظروف لا تسمح بالانتظار، قرر مهاجمة المعسكر. وعندما رآه القرطـاجيون يقتـرب منهم خرجوا له وصدّوا هذا الهجوم مستفيدين في ذلك من طبيعة المكان وكثرة عددهم. وقد حاول من كانوا حول الطـاغية أن يصمدوا ولكـنهـم انساقوا إلى الهزيمة. وضيّق الجيش البونيقي الخنـاق على الفارّين، وإن كان يبقي على الليـبيين ليجتـذبهم إليه، بينما كان يجهز على الإغريق والمرتزقة الذين كانت أسلحتهم تعرف بـهم، فطاردهـم حتى معسكرهم، وخسر أگـاطكليس 3000 رجل [9].

وفي الليـلة الموالية أصابت الغـالبين والمغلوبين نكبـات لم تكن متوقعة، فقد أراد القرطـاجيون أن يشكروا الآلهة، فتـقربوا إليـها بأحسن الأسرى. وبينما النار تلتـهم الضحـايا، هبت الريح وحملت اللهيب إلى بيت القربـان المقدّس القريب من المذبح. ووصلت النـار إلى خيمة القـائد ومنها إلى خيام الضبـاط، ثم انتـشرت بسرعة. وكانت مـأوى الجنود من قصب وتبن، وزادت قوة الريح فتحول المعسكر إلى جمرة ملتـهبـة. واحترق كثير من الناس أحياء وهم يحاولون إنقـاذ أسلحتـهم وأمتعتهم الثمينـة أو عند فرارهـم خلال الممرات الضيقة. أما الذين استطـاعوا النجـاة فقد وقعوا فـي أخطـار أخـرى. ذلك أن 5000 من بـين الجنود الأفـارقة بجيش أگـاطكليس قد تخلوا عنه في نفس الليلة واتجهوا إلى معسكر القرطـاجيين. فظن الحرس الأمامي أنهم الجيش الإغريقي بكامله يسير للمعركة ولذلك نفخوا أبواق الإنـذار. ولم يلبث الخبر المغلوط أن ذاع وأحدث الارتبـاك. فحاول الجميع الفرار. وقد أفزعهم الذعر فأخطـأوا بفعل الظلام وجعلوا يتقـاتلون فيما بينهم ظانين أنهم

يواجهون العدو، بل كانوا يذهبون ويمرون بأنفسهم في المهاوي. وقد مات أكثر من 5000 رجل ونجا الباقون إلى قرطاجة.

في نفس الوقت وقعت جيوش أگاطكليس ضحية لخطأ مماثل. ذلك أن الجنود الليبيين عادوا أدراجهم لما رأوا النيران وسمعوا الضجة. ورآهم بعض الإغريق فحسبوهم قرطاجيين وأسرعوا يخبرون الطاغية، فأخذ الجنود أسلحتهم وغادروا المعسكر على غير نظام. وكانت النيران الملتهبة في المعسكر الآخر وضجيج الأصوات المتعالية تصل إلى الإغريق وتقنعهم بأن جميع القوات البونيقية قد شرعت في الهجوم [(10)]. فأخذوا يجرون هنا وهناك لتلافي الخطر الوهمي، وانضم إليهم الليبيون. وفي الظلام جعل كل من يلقى غيره يقاتله، وهكذا قتل أكثر من 4000 رجل. وأخيرا عرفت الحقيقة وعاد الأحياء إلى المعسكر.

تخلّى جميع الليبيين عن أگاطكليس، ولم يعد معه ما يكفيه من الجيوش لمتابعة الحرب، فعقد العزم على مغادرة إفريقيا. ولكن لم يكن بمستطاعه أن يأخذ جنوده معه، لأن القرطاجيين المسيطرين على البحر لم يكونوا ليسمحوا له بذلك، خصوصا وأنه لم تكن لديه الوسائل الضرورية لنقلهم. ولم يكن يطمع في عقد اتفاق مع خصوم مقتنعين بتفوقهم، ويريدون، على ما يظهر، أن ينتقموا من أولئك الذين كانوا أول من يجرؤ على مهاجمة وطنهم، ولذلك قرر أن يذهب وحْدَه وفي السر.

كان ينوي، حسب ديودور Diodore، أن يأخذ هيرَكْليد Héraclide معه، ولا يأخذ أركاگثوس Archagathos، لأنه كان يخشى من ابنه الكبير وزوجته ألْكِيا Alcia إذا اجتمعا من جديد أن يتفقا على التخلص منه. وكان أركاگثوس يشك في نوايا أگاطُكْليس أبيه، ويغضب أن يكون هو الضحية، فكان يراقب الاستعدادات للرحيل. وحين حلت الليلة

المحددة للسفر، أعلم بعض الضباط، فتسارع هؤلاء ولم يحولوا دون الركوب فحسب، بل شهروا بخسة الطاغية، فألقي عليه القبض ووُضع في السلاسل، وعمت الفوضى الصاخبة بالمعسكر. وفجأة ذاع في الجميع وسط الليل أن الأعداء يقتربون. فحدث ارتباك جديد وتسارع الجميع إلى خارج المعسكر. وأخذ الخوف كذلك مأخذه في نفوس القائمين بحراسة أگاطكليس، مثلهم في هذا مثل غيرهم، وظنوا أنهم قد نودي عليهم، فظهروا ومعهم سجينهم موثقاً في سلاسله. فأشفقت عليه جموع الناس وطالبوا بإطلاق سراحه بأصوات عالية. وبمجرد ما فكّت أغلاله أسرع فركب البحر تاركا ابنه.

ويعطي جُسْتان Justin عن هذه الوقائع صيغة مخالفة تماما، وهي أن أگاطكليس لما عاد إلى معسكره بعد أن هزمه القرطاجيون، ورأى شدة غضب رجاله، فر ليلاً بصحبة ابنيه الإثنين فحسب. ولما علم الجنود بذهابه أخذوا يطاردونه، ولكن لقيهم النوميديون فتوقفوا عن متابعته. ومع ذلك فقد اعتقلوا أركاگثوس الذي كان قد ضل طريقه في الظلام، بينما عاد أگاطكليس إلى صقلية ومعه السفن التي كان قبل ذلك بقليل قد جاء بها إلى إفريقيا.

بعد ذهاب الطاغية قتلت الجيوشُ ابنَه واختارت رؤساء جددا. وجرت مع الحكومة البونيقية مفاوضات اتفق فيها على الشروط التالية، وهي: أن يعيد الإغريق ما بأيديهم من المدن، وأن يأخذوا300 تالان [11]، وأن الذين يريدون الخدمة عند القرطاجيين يقبلون باعتبارهم مرتزقة، وينالون الجراية التي كانوا ينالونها من قبل، أما الآخرون فيحملون إلى صقلية ويقيمون بها في مدينة صُولُنْت Solonte. فوافقت الأكثرية على هذه الاتفاقية. ومع ذلك كانت بعض الحاميات لا تزال

تعتمد على أگـاطكليس، ولذلك قاومت. فوقع الاستيلاء عنوة على المواقع التي كانت بها، وصلب الضباط، وحُوّل الجنود إلى عبيد استعملوا في الخدمات الزراعية.

كان أگـاطكليس قد ركب البحر عائدا في وقت أجول الثّريا، في السنة الرابعة من حرب إفريقيا، أي حوالي 12 أكتوبر سنة 307.

ولكي نحكم على هذه الحملة التي انتهت نهاية سيئة، لابد أن نذكر أن السِّرقوسي لم يعبر البحر كفاتح، كواحد يَقْتدي بالإسكندر، وإنما عبره كلاعب يخاطر بحظه الأخير. إنه كان يريد النجاة من كارثة، ولقد نجح. وكان في إفريقيا يريد أن يفرض على أعدائه صلحا يخلصه منهم في صقلية. ولكن، لا الهزائم العديدة، ولا الأتلاف التي أحدثها الغزو حول قرطاجة وفي بقية المقاطعة البونيقية، ولا فقدان العديد من المدن، ولا تخلي الكثير من الحلفاء، ولا نفقات حرب طويلة الأمد، إن كل ذلك لم يدفع القرطاجيين إلى التفاوض مادام أگـاطكليس بإفريقيا. ورغما عن انقساماتهم، فيظهر أنهم كانوا متفقين على عدم ارتكاب هذا العمل الدال على الضعف، الذي يحطم نفوذهم في عيون محكوميهم وأتباعهم، ويشجع خصوم المستقبل على الاقتداء بما فعله أگـاطكليس. وبفضل بحريتهم وأسوارهم، كان بمستطاعهم أن يتحملون حصارا من جهة اليابسة. ولم يكونوا ليخشوا الهجوم الذي لم يجرؤ الطاغية على محاولته أثناء إقامته سنين عديدة عند أبواب المدينة. ولم يكتفوا بالمقاومة السلبية، بل إنهم لم يتخلوا حتى عن صقلية، وإنما جهزوا في ليبيا عدة جيوش متكونة من المواطنين والأفارقة، ومن المرتزقة الذين كان من بينهم بعض السِّرَقوسيين، وحاربوا بطل "الهيلّينية" المزعوم.

وقد أخذوا يهاجمون وذهبوا ليبيّنوا للأهالي أنه ليس من الحكمة في شيء أن ينضموا للغزوات.

ولمدة ثلاث سنين، عرف أگاطكليس كيف يحافظ على قدراته العسكرية وعلى حصافة ذكائه. ولكن كان يعزوه كل سند قوي. فكان مساعدوه الليبيون والنوميديون يسارعون بالتخلي عنه بمجرد ما يبادئهم الشك في حظوظ نجاحه، وأكثرية المدن الفينيقية لم يكن انفصالها عن قرطاجة طوعا، كما أن قسوة الطاغية لم تكن تحببه إلى النفوس، وكان على حساب الأفارقة يطعم ويؤدي الأموال لجنوده الذين كانوا جيوشاً غير منضبطة بنظام وقليلا ما يطمَئنُّ إليها.

وحيث أن قرطاجة صامدة، فلا أمل له في إرغامها على ما يريده إلا بعزلها من ناحية البحر. فاختار في السنة الثالثة من إقامته بليبيا ميناء بِنْزَرت الجميل لينشئ فيه أسطولا قويا. ولكن الوقت لم يسمح له بما أراد، لأن خصومه انتهزوا فرصة عودته إلى صقلية، وبذلوا مجهودا عسكريا عظيما عجل بإخضاع الإغريق لسيطرتهم. لهذا فإن حملة أگاطكليس تبرهن إذن على أن نقل ميدان الحرب إلى القارة الإفريقية يمكن أن يحدث مصاعب شديدة لقرطاجة، ولكن لا يمكن أن يهدد وجودها جديا إذ لم تكن هناك بحرية تفوق جدا بحريتها.

لقد حاول أگاطكليس بعد عودته إلى الجزيرة أن يدخل في مفاوضات مع دينوكرات Dinocrate رئيس المطرودين. وأعلن استعداده للتنازل عن سرَقوسَة فتعود إليها الحكومة الديمقراطية، وطالب بأن يحتفظ لنفسه بمدينَتَيْ ثِرْماي Thermaï وصيفَلويْديون céphaloidion مع منطقتهما الترابية فحسب، ولكن هذه العروض لم يبد أنها صادقة. فعقد إذن الصلح مع القرطاجيين الذين

كانوا بعد هذا الصراع الطويل يتمنون أن تعود لهم دون حرب المدن التي انتزعها منهم في مقاطعتهم الصقلية. وتعويضا عن إرجاعها لهم فإنهم يؤدون له مقدارا من الفضة و200.000 "مَدِيم" Médimnes من القمح (مديم واحد = 50 ليتراً و200.000 = 10 ملايين ونصف ليتر). فهل كان القرطاجيون يرجون أن أگاطكليس وديِنوكرات سينهك أحدهما الآخر، ليمكن في الأخير أن يصبحوا حكما بين الإغريق المنهوكين ؟ إذا كانوا قد فكروا في هذا فقد أخطأوا. لأن أگاطكليس قد أصبح بعد قليل ملكا وصار السيد غير المنازع على صقلية الشرقية جميعها. في السنوات الموالية استدار نحو إيطاليا الجنوبية، من غير أن يقوم بأي عمل ضد أعدائه السابقين. ومع ذلك، فإنه لم يعدل عن فكرة معاودة الحرب بإفريقيا في يوم من الأيام. فقد صار له جيش كبير، وأنشأ البحرية الضرورية، بحيث كان له 200سفينة كبيرة، كان يعتد بها لحصار قرطاجة ومنعها من تلقي مؤن القمح الواردة من صقلية وسردانية. ولكن الموت فاجأه سنة 289.

9

بغياب أگاطكليس عاد الإغريق إلى خلافهم بصقلية، فعمل القرطاجيون على إذكائها واستفادوا منها. وقد تدخلوا في شؤون سرقوسة، حتى إنهم استطاعوا الحصول على 400 من الرهائن. وبعد ذلك بقليل، حوالي 280 انتصروا على هيصتاس Hicétas طاغية هذه المدينة الذي هاجمهم بعدما انتصر على فَنْتِياس Phantias طاغية أكْريجَنْت. وقد حموا مدينة هنّا Henna بموسطة الجزيرة ضد فنتياس وجعلوا بها حامية. وكذلك استولوا بالجزر الأيولية Eoliennes على ليبارا Lipara التي تفيد أسطولهم في مراقبته لمضيق مِسِّينة. وأخيرا

بعثوا سنة 278 أسطولا من 100 سفينة وجيشا كبيرا أمام سرقوسة التي كان طاغيتان صغيران يختصمان عليها. فهل كان القرطاجيون سيحققون المشاريع التي لم تغب قط عن أذهانهم رغم ما بذلوه من الجهود التي ذهبت سدًى رغماً عن تنازلاتهم المؤقتة ؟

إن بِرهْوس Pyrrhus كان قد وصل إلى إيطاليا استجابة لدعوة أهل تارَنْت، وانتصر على الرومانيين مرّتين. وقد كان يتخذ الإسكندر قدوة، ويحلم بالسيطرة على الغرب بعد أن يقهر رومة وقرطاجة. وهذه الأخيرة باستيلائها على سرقوسة ستنتزع من ملك الإِبير Epire نقطة الارتكاز التي هو في حاجة إليها ليستولي على صقلية، كما أنها بتنحيته عن الجزيرة ستمنعه من العبور إلى إفريقيا.

لذلك تحالفت مع المَامِرْتيين Mamertins، لأن هؤلاء الكَمْبانيين الذين كانوا من قبل في خدمة أگاطكليس، استولوا على مِسّينة Messine، أي على باب صقلية للقادم من إيطاليا.

على أن بِرْهوس استجاب لرجاء الإغريق ونزل بالضفة الشرقية حوالي نهاية الصيف من سنة 278، ودخل سرقوسة، بينما القرطاجيون الذين كانت قواتهم تفوق قواته، لم يغامروا بخوض المعركة التي كانت لبرهوس، كما كانوا يعلمون أن وطنهم لم يكن ليصفح عنهم إذا انهزموا.

وفي السنة الموالية فإن الملك الذي انضمت إليه جميع المدن الإغريقية، استولى على المقاطعة البونيقية وعلى ممتلكات المامِرْتيين. وكانت المدن تستسلم له أو تُقتَحَم عنوة. وحاولت قرطاجة الدخول في المفاوضات، فعرضت أن تتنازل عن صقلية باستثناء ليلبي Lilybée

التي كانت لاتزال محتفظة بها، كما عرضت عليه إعادة سفنها له وتقديم الأموال إليه، قاصدة بهذا دفعه لأن يعود إلى إيطاليا، مع احتفاظها هي بمدخل إلى الجزيرة يمكنها عما قريب من استرجاع ما سبق أن تنازلت عنه. ويبدو أن برهوس كان مستعدا للقبول وللذهاب إلى مكان آخر يبذل فيه طاقته، وذلك لأن هزاجه الصاخب كان غير قادر مطلقا على ترتيب المشاريع العريضة التي كان ينوي القيام بها. غير ان مستشاريه أقنعوه بالمطالبة بمدينة ليلبي أيضا، فتوقفت المفاوضات. وجاء برهوس وحاصر هذا الموقع الحصين، فلم يستطع الاستيلاء عليه، وعاد إلى سرِقوسَة. وقد أخذ يفكر في نقل الحرب إلى التراب الإفريقي. فسلح أسطولا كبيرا وطلب من جميع الجهات رجالا للعمل على ظهر السفن، غير أن كثرة مطالبه والعنف الذي كان يستعمله على الخصوص لتنفيذ أوامره، كل ذلك نفر منه حلفاءه. حتى إن الكثيرين منهم كانوا يودون التخلص من هذا الطاغية، ومالوا نحو قرطاجة والمامِرْتيين. وأثناء ذلك كانت الدعوات الملحة تصله من إيطاليا، فأصغى إليها وقرر أن يعاود في إيطاليا صراع الرومانيين. وقبل أن يركب البحر سنة 276 هزم جيشا كان قد قدم من إفريقيا، بينما لم يسعده الحظ في معركة خاضها في البحر، ضاع له فيها الثلثان من أسطوله. ولم يعد بعد ذلك إلى صقلية.

استعاد القرطاجيون مقاطعتهم، ونشروا على ما خلفها حمايتهم، إن لم نقل سيطرتهم. إذ في بداية الحرب ضد رومة سنة 264 أو سنة 263، فإن أكْريجَنْت التي كانت رسميا حليفة قرطاجة، قد كانت على ما يبدو تابعة لها حقيقة. وفي نفس الحقبة، فإن أشتْلا Echetla، الواقعة بالجنوب الشرقي للجزيرة، بين ليونْتينُوي وكَمارين Camarine، كانت حسب قول پوليب Polybe تقع على حد الممتلكات السرقوسية والبونيقية.

أما مسِينة فقد صارت في الشرق مزاحمة لسِرقوسة، فتركتهما قرطاجة تضعفان من جراء خصوماتهما. وكانت مصلحتها تقضي بأن تكون الضربات بينهما متعادلة تقريبا. لكن في سنة 265 أو 264 أنزل هيرون Hiéron قائد السرقوسيين بالمامرتيين هزيمة شنعاء دفعت بهم إلى أن يقرروا التفويض له في شأن مدينتهم. وكان حنّيبَعْل قائدا لأسطول يرسو بالجوار، فجاء ليهنئ هيرون وليعرض عليه وساطته في نفس الحين. ثم ذهب إلى مسِّينة، فحث السكان على عدم اليأس وترك في القلعة إحدى الحاميات. فكان هيرون بذلك غالبا ومحروما من انتصاره، فعاد إلى سِرَقوسة حيث نال لقب ملك. واشتد من حوله الغيظ على القرطاجيين، بل لربما كان الناس يودون محاربتهم. ولم يلبثوا إلا قليلا حتى طردوا عن صقلية، ولكن شرف هزيمتهم وفائدتها لم يحظ بهما الإغريق.

التاريخ العسكري لقرطاجة

الفصل الثاني
الحرب البونيقية الأولى

1

لقد عرف پوليب، كما عرفنا نحن بثلاث معاهدات عقدت بين رومة وقرطاجة قبل الحرب التي اشتبكت بينهما في صقلية. وقد كانت هذه المعاهدات منقوشة على ألواح من البرنز ومحفوظة في الكابِتول. ويؤكد پوليب Polybe ان أقدمها ترجع (إلى عهد لوكْيوس يونْيوس بروتوس Lucius junius Brutus ومَرْكوس هو راتْيوس Marcus Horatius اللذين كان أول قنصلين بعد سقوك الملكية، اللذين في عهدهما كرّس معبد جوبِتِرْ الكابِتولي Jupiter Capitolin سنة 507 ق.م. ويقول پوليب إن المعاهدة الثالثة كانت معاصرة لحملة برهوس، أما المعاهدة الثانية فلم يذكر لها تاريخا. ويتهم بعدم الضبط فلينوس الأكْريجَنْت Philinos d'Agrigente الذي تحدث عن معاهدة اتفقت الجمهوريتان فيها على أن تكف أحدهما عن الأخرى في صقلية وإيطاليا.

وذكر مؤرخون آخرون معاهدات [12] سبقت في الزمن الحروب البونيقية، وسنوات 348، و306 وأخيرا سنة 279-278. ومعاهدة هذا التاريخ الأخير تقع إبان حملة برهوس، فتكون هي الثالثة التي ذكرها پوليب. أما حسب رواية ديودور الصقلي، فإن معاهدة 348 كانت أول معاهدة عقدت بين رومة وقرطاجة. بينما يذكر تيتْ ليڤْ أن معاهدتي 306 و8/279 هما الثالثة والرابعة. ويروي هذا المؤرخ اللاتاني أن بعثة قرطاجة قدمت سنة 343 لتهيئة الرومانيين بانتصارهم على السمناتيين، وأنها حملت أكليلا ذهبيا وضع في معبد جوبتير الكابتولي. ولكنه لم يذكر ان معاهدة ما قد وقع التفاوض فيها آنداك.

ولقد كتب العلماء المعاصرون الآن كثيرا حول هذا الموضوع، وأكثرهم تابعوا مومْسِن Mommsen ورفضوا التاريخ الذي يعطيه پوليب لأقدم معاهدة. والحقيقة هي أن عدة من النصوص تناقض ما يرويه پوليب، سواء فيما يتعلق بالسنة التي تأسست فيها الجمهورية، أو فيما يخص اشتراك بْروتوس و هُوراتْيوس في منصب القنصلية، أو تكريس المعبد الكابتولي، بحيث إن هذه النصوص تدفع بنا إلى الاعتقاد بأن رومة لم تكن لها المكانة المرموقة في اللَّتْيوم Latium. ومع ذلك فإننا نقرأ في نص المعاهدة ما يلي: «إن القرطاجيين لن يحدثوا أي ضرر بسكان أردي Ardée، وأنْتيوم Antium، ولورَنْت Laurente، وسِرْصيي Circéi، وطِرّاسين Terracine، ولا أي كان من اللاتانيين الآخرين يمتنعون عن أي عمل ضد مدنهم، ولكن إذ استولوا على واحدة منها فإنهم يسلمونها سليمة للرومانيين. ولن يبنوا أي حصن في أرض اللاتانيين» [13] وفي هذا شهادة واضحة بسيطرة رومة على قسم كبير من اللّتْيوم وعلى عزمها على أن تخص نفسها بالباقي منه.

ومع ذلك، فإن تاريخ الأزمنة الأولى للجمهورية الرومانية لا يزال بالغا في الغموض، وهذه البراهين ليست قاطعة فيه. وعلاوة على هذا فإن الجملة المتعلقة بتاريخ المعاهدة ليست مروية عن النص الأصلي الذي لم يورده پوليب بكامله. ولنسلّم أن هذه الجملة اشتملت على أخطاء، ولنسلم أيضا بأن تأويلا مخطئا، استعاره كاتبنا من بعض الرومانيين، جعلهم يعتمدون تاريخاً غير دقيق، إن كل ذلك لا ينتج عنه أن يكون هؤلاء الرومانيون اخطأوا في كونهم استنتجوا من بعض الأخبار، ومن بعض الأسماء الواردة في المعاهدة نتيجة هي أنها كتبت في أوائل عهد الجمهورية. ويحتمل أيضا أن المواد المتعلقة باللَّتْيوم لم تفهم ولم تترجم ترجمة جيدة. فالمتعلمون في رومة، حسب قول پوليب، كانوا يجدون صعوبة في تفسير بعض الفقرات من هذا النص الذي كتب بلغة تختلف جدا عما كان الناس يتحدثون به في زمانه. وهذه ملاحظة تبرهن على أن المعاهدة ترجع لعهد قديم بعيد، حتى ولو أن التاريخ الذي يعطى لها ليس مطابقا للحقيقة تمام المطابقة. ونعتقد أن هذا أحسن برهان لمعارضة الذين يريدون تحويل تاريخ المعاهدة إلى موسطة القرن الرابع، أي إلى سنة 348.

وإذا أخذنا بهذا الرأي، وجب أن نحول المعاهدة التي قال عنها پوليب Polybe أنها الثانية إلى سنة 343 وليس إلى 306، لأن هذه السنة الأخيرة كانت فيها رومة قد نشرت سيطرتها على اللتيوم كله وعلى مابعده بكثير. فكيف يمكن الاعتقاد بأنها في آخر القرن الرابع كانت لا تزال تسمح بنزول القراصنة على اللتيوم ؟ وبأنها سمحت لهم بجمع المغانم والأسرى من مدن لم تكن تابعة لها ؟ وبأنها لم تفرض درج بعض المواد التي تذكر بصفة واضحة النواحي الأخرى الخاضعة لها في إيطاليا ؟ لكن، إذا لم تكن المعاهدة الثانية متأخرة عن الأولى سوى

بخمس سنين، فإننا لا نفهم لماذا يكون الرومانيون في سنة 343 قد قبلوا شروطا أسوأ مما قبلوا سنة 348. فهناك مواد صار بمقتضاها ممنوعا عليهم تعاطي التجارة كلية مع سردانية وإفريقيا، وتمنع عنهم أن يتقدموا على طول السواحل الإيبيرية إلى ما بعد رأس بالوس Cap Palos، بينما المعاهدة الأولى لا تنص على شيء فيما يتعلق بأسبانيا، مع أن قرطاجة كانت قد ركزت فيها أقدامها قبل أواسط القرن الرابع (14) وحسب رأينا، فإن هاتين المعاهدتين ترجعان لعهدين يختلفان جدا، ويبدو لنا أن الصواب هو الفصل بينهما بفاصل زمني من نحو قرن ونصف، فنجعل الأولى منها حول التاريخ الذي يذكره پوليب، ونجعل الثانية في 348.

لقد كانتا معاهدتين قصد بهما تنظيم التجارة، وجعل القرصنة أقل شرا. وليستا معاهدتين سياسيتين ينشأ عنهما حلف حقيقي. وسنعود لهذا الموضوع. ونحن نجهل ما نصّت عليه المعاهدتان اللتان لم يعرفهما پوليب، ولم تحفظا ضمن وثائق الكابتول، واللتان يمكن أن تكون أحدهما قد أبرمت سنة 343، وأخرى سنة 306. وإذا كان فلينوس قد قال صوابا، وهو ما يغلب على الظن، فإن المعاهدة التي ذكرها تكون على ما يظهر هي معاهدة سنة 306. ولربما أن هذه المعاهدة كانت تمنع على الرومانيين كل عمل للسيطرة وكل تدخل سياسي، ليس في صقلية فحسب، بل حتى في كُرْسيكا، الجزيرة التي يبدو أن القرطاجيين أنفسهم كانوا قد واعدوا بعدم احتلالها.

أما المعاهدة التي أبرمت في عهد بِرْهوس، فإنها أكدت المعاهدات السابقة. وعلاوة على هذا، فإن بعض المواد كانت تتعلق بملك الإبير Epire، العدو المشترك للجمهوريتين اللتين تلتزمان بأنهما لن تتفاوضا مع برهوس إلا مشتركتين، وإن أحداهما إذا طلبت من الأخرى

مساعدتها، فكلتاهما تنجد الأخرى في الأرض التي تجري فيها الحرب. ففي هذا إذن مخالفة للمعاهدة التي تبعد قرطاجة عن إيطاليا كما تبعد رومة عن صقلية. «أياً ما كان الذين سيحتاجون إلى العون، فإن القرطاجيين يزودونهم بالسفن للذهاب والإياب، أما المؤن فكل شعب يزود بها رجاله. وفي البحر أيضا فإن القرطاجيين يبدلون العون للرومانيين إذا دعت الحاجة. ولكن لن يرغم أي أحد رجال السفن على النزول إذا لم يريدوا ذلك».

ونعلم من جهة أخرى أن ماگون Magon أمير البحر في هذه الحقبة قد جاء إلى ميناء أوسْتي Ostie ومعه 120 أو 130 قادسا، وأن مجلس الشيوخ اقتبله في رومة. فيحتمل جدا أنه هو الذي أجرى المفاوضات لعقد المعاهدة. ونعلم كذلك أن السفن القرطاجية، بعد إبرام الحلف، حملت الجنود الرومانيين إلى رِهجْيون Rhégion، وأنها مكثت بالمضيق لتمنع بِرْهوس من العبور إلى صقلية.

غير أن هذا الحلف لم تكن له نتائج أخرى. ذلك أن قرطاجة طوال مدة صراعها مع الملك لم تنل أي عون من رومة، ولم تطلبه منها دون شك. فلقد كانت تريد حين وهبت مساعدتها تطويل أمد الحرب في إيطاليا، لكي تتلافاها في صقلية، ولما خاب أملها لم تشغل بالها باجتذاب الرومانيين للجزيرة. وحينما عرضت الصلح على برهوس، أعلنت عن استعدادها لتزويده بالسفن لكي يعود إلى إيطاليا، ومما لاشك فيه أن هذا العمل غير ودي اتجاه رومة. وكذلك فإن رومة أثناء حربها الثانية ضد برهوس لم تطلب من جانبها أي شيء من قرطاجة. ويقال إن أسطولا بونيقيا تقدم بعد ذلك سنة 272 أمام تارَنْت Tarente التي كان

الرومانيون يحاصرونها من جهة البر. ولم يكن الرومانيون هم الذين استدعوهم للقدوم. فلم يكن لمجيء القرطاجيين إذن ما يبرره، وبدت الشبهة على نواياهم.

إن رومة وقرطاجة قد تعهدتا عبثا على أن تكف إحداهما عن صقلية والأخرى عن إيطاليا. فصقلية امتداد (أي بيلوبنيز) لإيطاليا، ورومة التي أصبحت سيدة الهضبة، كان لابد لها من تملك الجزيرة لتتمم ولتضمن فتوحها. وقد سبق لطاغيتَيْ سِرَقوسة الكبيرَيْن : دونيس Denys واكاطُكليس Agathoclès أن قاما بحملات واستوليا على بعض المدن بالساحل الإيطالي. وكذلك قرطاجة، فإنها في اليوم الذي تقع فيه صقلية الشرقية في قبضتها ستقتدي بهما لاشك. وقد رأينا أنها في سنة 265 أو 264 قد وضعت حامية بمسّينَة. وسيكون بمستطاعها إذا أغلقت المضيق ان تمنع على الرومانيين المرور في البحار التي تحيط بإيطاليا من الجنوب ومن الشرق. أما بالغرب، على البحر الترْهوني Tyrrhénienne، حيث تملك سردانية منذ أمد طويل، فإنها رغم وعودها لم تتخل عن كُرْسيكا. فالجمهوريتان وجدتا نفسيهما وجها لوجه، ولا يستطيع سواهما أن يحول بينهما عن المصادمة. ولربما أن سرقوسة كانت لاتزال تأمل، ولكن لم تعد لها أي قوة لطرد القرطاجيين عن صقلية، وفي إيطاليا صار الأترورين محكومين لرومة. بل حتى وقبل تحطيمهم النهائي، أي عند نهاية القرن الرابع، كانت قرطاجة على ما يحتمل قد انفصلت عن حلفائها القدماء الذين لم يعد لها فيهم نفع. فالحرب إذن كانت أمرا لا مناص منه، والذين تنبأوا بها لم يكونوا حقيقة من الأنبياء [15].

كان قسم من سكان مسّينة يود التخلص من القرطاجيين، فاستداروا نحو رومة التي قررت مساعدتهم. وأُسِرَ غدراً حنّون قائد الحامية البونيقية، ولم يقع إطلاق سراحه إلا بشرط إخلائه للقلعة. فحكمت قرطاجة على هذا الضابط بالصلب، وقررت استرجاع مسِّينة، حتى ولو افضى ذلك إلى الحرب ضد الرومانيين (سنة 264 أَو على الأصح سنة 263 ق.م) (16).

فمال إغريق الجزيرة على قرطاجة، حتى إن هيرون Héron نفسه عرض عليها حلفه، رغما عن مآخذه العادلة ضد قرطاجة. إنه لم يكن يريد لا السيطرة القرطاجية ولا الرومانية. ذلك أنه إذا كان يخشى أن يركز الرومانيون أقدامهم بالجزيرة حيث لن يستطيع الإغريق بأنفسهم إخراجهم منها، فإن تجربة القرون العديدة كانت تدفع به إلى أن لا يخاف كثيرا من المطامع المتقطعة للقرطاجيين. وزيادة على هذا، فقد كان يلوح أن القرطاجيين لابد أن ينتصروا. فهم يملكون قسطاً كبيرا من الجزيرة، وكان لهم بها ما يكفي من الجيوش ليدخلوا المعركة حالا، وينتزعوا من يد الرومانيين القطعة الأرضية التي استولوا عليها مباغتة، ثم إن لهم بحرية قوية لا تملكها رومة، وبذلك يستطيعون أن يضيفوا بالجزيرة جيشا إلى جيش، وأن يمنعوا على أعدائهم العبور إليها.

لكن قرطاجة خطأت ظنونه، فقد وقعت في نفس الغلطة التي ارتكبتها أثناء حرب بِرْهوس، وسمحت للفيالق الرومانية بعبور المضيق. وكان القائد حنّون مع هيرون قد ذهبا ليحاصرا مدينة مسّينة، فأخذ أحدهما موقع شمال المدينة والآخر جنوبها، وكانت هي فاصلا بينهما. وقد نالا التوفيق في الجولات الأولى. غير أن هيرون خسر إحدى

المعارك، ولم يستطع خلفاؤه أن يتجدوه فعاد إلى سِرقوسة بالليل. وفي الغد وقع الهجوم على حنّون فانهزم بدوره، وانسحب أيضا. وبعدما انتزع الرومانيون من يد هيرون بعض المواقع الحصينة، ظهروا أمام عاصمته (سرقوسة)، فطلب الصلح فقبلوه، لأن مصلحتهم كانت في الإبقاء عليه. ولقد بقي على وفائه لهم، إذ أنه طيلة الحرب أسدى لهم خدمات كبيرة، فأعطاهم الأقوات وآلات الحصار والسفن والعاملين على ظهرها. وكان عقد الصلح بينهم وبين الرومانيين قد تم إبرامه عندما اقترب أحد الأساطيل القرطاجية من سرقوسة، وعلى ظهره جيوش لمساندة الملك. أما في المقاطعة البونيقية فإن مدينَتَيْ ساجِسْت وهَلِيسي Halicyes قد خضعتا للرومانيين المنتصرين.

ولم تحشد قرطاجة الجيوش المهمة في صقلية إلا بعد مرور سنتين. فكان حنيبَعْل ابن جِسْكون قائدا لجيش اتجه إلى أگريجَنْت كما أن جيشا آخر أكثر عددا من الأول قد وقع تجميعه في ليليبي Lilybée تحت إمرة حنّون. فلم ينتظر القنصلان الروماني حتى يقع الهجوم عليهما، بل قدما ليحاصرا حنّيبَعْل. فاستولى حنّون على المكان الذي جمع به الأقوات، وبعد معركة للخيالة واتاه فيها الحظ، عَسْكَرَ بجانبهما، غير أنه لم يرغمهما على فك الحصار، وفضل أن يخوض معهما معركة مصفوفة. فاندحر فيها وفر ليلاً في اتجاه الغرب. أما حنّيبَعْل الذي كانت تنقصه المؤن لكي يتابع المقاومة في أگريجَنْت، فإنه استطاع أن يخترق صفوف الأعداء بالليل. وهكذا، فإن هذه المدينة الإغريقية القديمة، لم يسعفها الحظ كما أسعف سرقوسة بالتخلي عن الحلف القرطاجي في الوقت المناسب، فوقع اقتحامها ونهبها. وفي قرطاجة، تقرر أن ضعف حنّون يستحق الحكم على القائد بغرامة 6000 قطعة ذهبية. أما الرومانيون الذين دخلوا في هذا الصراع بتردد معقول، فإن انتصاراتهم

جعلتهم يقررون عدم إنهائه إلا بالاستيلاء على الجزيرة. لكن البحرية القرطاجية كانت قوية جدا، تحولهم دون ذلك. وكانت تعيث على شواطئ إيطاليا وتنزل الجيوش بمدن الساحل الصقلي، الأمر الذي دعى رومة آنداك لأن تكوّن لنفسها أسطولا من 100 سفينة خماسية و 20 ثلاثية. وكانت تجربتها الأولى بهذا الأسطول غير سعيدة. ذلك أن قنصل سنة 260، وهو كْنايوس كُرْنيليوس سيبْيو Cn. Cornelius Scipio ذهب إلى ليبارا Lipara ومعه 17 قادسا، ففاجأته عمارة صغيرة قدمت من بالِرْم، وأرغم على الاستسلام لها. فخلفه دويلْيوس Duilius القنصل الآخر على رأس القوات البحرية، وبعد ذلك بقليل جرت معركة كبيرة في عرض ميلِس Myles الواقعة على الساحل الصقلي الشمالي. وكان حنّيبَعْل تملؤه الثقة بنتيجة هذه المعركة، ولذلك بدأ هو بالهجوم، غير أن دويليوس كان هو الذي انتصر فيها، رغما عن انعدام الخبرة عند رجاله، ورغما عن الضعف الواقع في بناء سفنه. وكان انتصاره بفضل الغِرْبان التي غيرت ظروف المعركة البحرية.

صارت رومة حرة في أن تنال عدوتها بكل مكان. فنقلت الحرب إلى كُرْسيكا وإلى سردانية من دون أن توقفها في صقلية. لقد كان لابد أن يصير أمامها البحر الترْهوني Tyrrhénienne "بحراً لها"، قبل أن تطلق هذا الإسم على البحر الأبيض المتوسط بكامله، لذلك استولى لوكيوس كُرْنيليوس سيبْيو سنة 259 على مدينة أليريا Aléria بجزيرة كُرْسيكا. أما في سرداينة فإن انتصاراته كانت عابرة، وإذا كان هو قد احتفل بها في موكب للتمجيد، فإن شاهد القبر الذي وصل إلينا لم ينص عليها. وقد عاد إلى إيطاليا لما علم أن أسطولا بونيقيا كان يقترب منه. وفي سنة 258 هاجم لوكْيوس سُلْبيكْيوس L. Sulpicius سواحل سردانية وغنم منها، وكان يريد أيضا، على ما قيل، الذهاب إلى إفريقيا للاستيلاء على

المغانم، ولكن الرياح المعاكسة أوقفته. وقد باغت حنّيبعل وانتصر عليه، فالتجأ حنّيبَعْل إلى سُلْكي Sulci حيث صلبه جنوده أنفسهم ومات. ومع ذلك فلا يظهر أن الرومانيين استطاعوا تركيز أقدامهم في سردانية.

أما في صقلية فقد كان القائد القرطاجي عَمِلْكار يتجنب خوض المعارك المصفوفة، وربما كان ذلك لأنه لم يزود بما يكفيه من الجيوش. ولهذا فقد كان يقوم، وبمهارة، بحرب المناوشات والمباغتات التي كان يبرع فيها جنوده الأفارقة والأسبان. أما الفيالق الرومانية، فقد كانت تتجدد كل سنة، وكان يرأسها كل سنة قادة جدد حسب صدفة الانتخابات القنصلية، فكانت هذه الفيالق تنهك قوتها في المسير والتولي عنه، وكذلك حصارها لمواقع صغيرة بآلات مستعارة من هيرون Hiéron، تمكنها في الغالب من انتزاع تلك المواقع المحاصرة، الأمر الذي جعل القرطاجيين يحتفظون بمقاطعتهم، باستثناء ساجِسْت Ségeste، وجعلهم يحتفظون أيضا أو يسترجعون المواقع الحصينة الواقعة خلف حدودهم القديمة. وكانت هذه الحقبة (أي سنة 259) هي التي أسكن فيها عملكار في دريبان Drépane بسفح جبل إريكْس Eryx، سكان هذه المدينة التي كان يرى صعوبة في الدفاع عنها. وبذلك صارت دْريبان Drépane محطة بحرية كبيرة.

3

طال أمد الحرب، واقتداء بما فعله أگاطكليس قررت رومة أن تضرب قرطاجة في إفريقيا(17) فأسندت هذه المهمة إلى قنصلَيْ سنة 256 وهما لوكْيوس مَنْلِيوس فُلْسو L. Manlius Vulso وأَتيلْيوس ريگُلوس Atilius Regulus. فتكوّن جيش من 40.000 جندي اتجهوا إلى

جبل إكْنوم Ecnome، ومنه ركبوا البحر عند نهاية الصيف، يحملهم أسطول من 330 سفينة على قول پوليب. وأرادت قرطاجة ان تقف في وجه هذه الحملة، ولو قبل بدايتها، فبعثت أسطولا لا يقل عن السابق إلى ساحل صقلية الجنوبي. وجرت المعركة، واستمرت وقتا طويلا مترددة، ثم انْتَهت بانتصار باهر أحرز عليه الرومانيون، فانفتح البحر أمامهم. ولكنهم عادوا إلى مسّينة لإصلاح سفنهم. وحسب خبر غير أكيد فإن القنصلين رفضا مقترحات الصلح التي عرضها عليهما آنداك أمير البحر حنّون الذي كان يريد ربح الوقت.

كان المنتظر أن يتجها إلى قرطاجة، إذ أن الأسطول البونيقي عاد إليها بعد اندحاره، كما أن جيوشاً برية كانت تقوم بحراسة أحواز العاصمة. ولكن مَنْليوس وريـگُـلوس فكرا أن المغامرة بعمل حاسم بمجرد وصولهما، ودون أن تكون لهما نقطة ارتكاز، عمل يكون من قبيل التهور. فقصدا رأس هِرْمِس Hermès، وهناك تجمعت كل السفن. وبعدما سايرا من جهة الشرقَ قاصية هضبة الرأس الطيب، نزلا قرب مدينة كْلوبيا Clupéa أي أسْبيس Aspis التي اعتبراها صالحة لتكون لهما معقلا ولتؤمن مواصلاتهما مع صقلية، ولاشك أنهما تذكرا أن أگـاطكليس كان قد استولى على هذا الموقع وحصنه. وجذبا السفن إلى اليابسة، ثم أحاطاها بخندق وتحصينات، وحاصرا مدينة كلوبيا التي رفضت الاستسلام، وبعد قليل استوليا عليها وجعلا بها حامية عسكرية [18]، ثم ذهبا بما تبقى لهما من الجيش ليعيشا في الأراضي المجاورة. فأغضى القرطاجيون عنهما، إذ لم يفكروا إلا في حماية مدينتهم وأحوازها التي جمعوا بها قواتهم. وبذلك استطاع الأعداء أن يهدموا العديد من المنازل الريفية الجميلة، وأن يستولوا على عدد كبير من المواشي، وأن يسوقوا إلى سفنهم أكثر من 20.000 أسير.

وبعث القنصلان إلى روما بخبر انتصاراتهما الأولى، ويطلبان التعليمات. فتقرر أن أحدهما يعيد الأسطول إلى إيطاليا، وأن الآخر يحتفظ بالجيوش الضرورية. فذهب مَنْليوس في بداية الربيع ومعه الأسرى والمغانم، وكان عبوره البحر من غير عناء، وترك مع ريگُلوس 40قادسا و1500 من المشاة و500 فارس.

رأى القرطاجيون أن الرومانيين يتأهبون لمتابعة الحرب في إفريقيا، فانتخبوا قائدين هما : حَسدْرُبَعْل بن حنّون وبُسْتار Bostar واستدعوا للقدوم عملكار قائد قوات صقلية، وكان قد مكث في هيراكْليا مينُوا Héracléa Minoa بعد معركة إكْنوم التي شارك فيها. فقدم ومعه 5000 من المشاة و500 فارس، ونال نفس السلطة التي كانت لبُسْتار وحَسدْرُبَعْل.

وكان ريگُلوس قد عاد لغاراته، فكان ينهب الأمكنة التي بدون حماية ويحاصر المواقع المحصنة. ووصل أمام أدون Adyn المدينة المهمة. وأراد الجيش البونيقي إنقاذ هذا الموقع، فقدم واحتل جبلاً له أجراف وعرة، ويشرف على معسكر الأعداء. وكانت العراقل الأرضية تجعل هذا الموقع غير صالح مطلقا لاستخدام الخيالة والفيلة التي كانت قرطاجة تعتمد عليها أكثر من كل شيء. ففهم الرومانيون ذلك ولم ينتظروا أن تعرض عليهم المعركة بالسهل. لذلك تسلقوا المرتفع عند بزوغ الفجر، وبدأوا بالهجوم من الناحيتين معا. غير أن المرتزقة واجهوهم بمقاومة شديدة حتى أرغموا واحدا من الطابورين على الفرار، ثم فروا هم أيضا حين كاد يحيط بهم الآخرون الذين جاءوا من الناحية الأخرى. وهكذا وقع التخلي عن المعسكر القرطاجي. أمّا الفيلة والفرسان فقد نزلوا إلى السهل، وأفلتوا من الغالبين الذين تعقبوا المشاة بعضا من الوقت.

لقد ذكر اسم أدون في غير هذا المكان، وكان ذكرها بهذه الصيغة على الأقل. ولا يظهر أن الجيش الذي حاول نجدتها قد ابتعد كثيرا عن قرطاجة، ومن ناحية أخرى كان ريگُلوس قادما من هضبة الرأس الطيب. فكل هذا إذن يسوغ الاعتقاد بأن أدون كانت على مسافة قليلة إلى جنوب مدينة تونس أو جنوبها الشرقي. والافتراض الذي يرى أنها هي المدينة التي كانت تدعى باسم أوثينا Uthina في القرون الميلادية الأولى، افتراض واهن لاشك، وإن كان ليس مستبعدا. فأوثينا التي هي اليوم أدْنة Oudna كانت توجد على نحو 25 كيلومترا جنوبي تونس، على أحد الروافد لنهر مِلْيان Miliane. وقد استطاع الرومانيون عقب انتصارهم أن يتقدموا حيثما شاءوا، وأن يعيثوا في المدن والأرياف. وعلى غرار أگاطكليس فإنهم استولوا على تونس وأقاموا بها معسكرا.

إن كل الناس يعرفون المقابلة التي جرت على ضفاف نهر بَكْرادا Bagrada بين ريگلوس والتعبان العظيم، الذي قيل أن ريگلوس خاض ضده معركة حقيقية، استخدمت الآلات الحربية فيها، وأن جِلْدَ هذا التعبان قد أرسل إلى رومة حيث مكث معروضا على الأنظار أكثر من قرن [19]. ولقد اطّرح پوليب Polybe هذه الأسطورة جانبا، بينما يقول أحد رواتها [20] أنها جرت بالقرب من مدينة مُسْتي Musti. وكانت إحدى المدن التي تحمل هذا الاسم تقع بعيدا عن نهر مجَرْدة أي في موسطة القطر التونسي بالجنوب الغربي لدُقّة Dougga. فهل كانت توجد مُسْتي أخرى على نهر بَكْرادا ؟ لاندري. وفوق هذا، فلا يستحيل أن يكون ريگُلوس قد تقدم في سيره حتى ضفاف هذا النهر، لأن مجردة يمر على خمسة فراسخ من تونس التي أقام بها.

وحين كان جنود ريكلوس يخربون قسما من المقاطعة البونيقية، كان النوميديون يسارعون للاقتداء بهم، فأحدثوا أضرارا شديدة.

ودخلت جماهير أهل البوادي ملتجئة إلى قرطاجة، حيث بدأت المؤن تقل، وحيث كان توقّع الحصار يحدث في النفوس أسىً عظيما. ولكن ريگلوس لم تكن لديه الجيوش، ولا الأسطول، ولا المعدات الضرورية للقيام بهذا الحصار. وهو، على غرار أگاطكليس، باحتلاله لتونس أراد لاشك دفع الأعداء للمفاوضة. بل إنه دعاهم لذلك، اعتقادا منه بأنهم في ضائقتهم سيقبلون جميع شروطه. لأنه، حسب رأي أورده پوليب، كان لايريد أن يترك للقائد الذي سيخلفه الفخْر بإنهاء الحرب، وأن ثلاثة من صدور الأعيان بقرطاجة قد جاءوا للاتصال به [21] غير أن شروطه كانت قاسية إلى حد أنها أثارت غضب الموفدين، وإلى حد أن مشيخة قرطاجة رفضت حتى المذاكرة فيها. ولا يذكر پوليب تفصيلات أخرى عن هذا الموضوع، بينما يروي كاتب آخر، نقل عنه ديون كاسيوس، أن ريگلوس طمع في أن يفرض على القرطاجيين التخلي عن صقلية وسردانية، وان يعيدوا له من في قبضة الغالبين، وأن يدفعوا لرومة تعويضا ماليا عن مصاريفها، وأن يؤدوا أتاوة سنوية، ويتعهدوا بأن لا يقوموا بأية حرب ولا يعقدوا أي اتفاق إلا بإذن الرومانيين، وأن يجعلوا رهن إشارة لومة 50 سفينة ثلاثية كلما طولبوا بها، وأن لا يستخدمو، هم ، هذه السفن باستثناء واحدة منها.

خلال هذه الماجريات، كان أحد المنتدبين قد ذهب إلى بلاد الإغريق ليجمع المرتزقة منها، فعاد مصحوبا بعدد كبير منهم، ومن ضمنهم القائد اللاّسدموني كْسانْتيب Xanthippe. ويُرجع پوليب Polybe وغيره من الكتّاب إلى كَسْانْتيب جيمع الفخر في الانتصار الذي سريعا

ما ناله القرطاجيون على ريكلوس. ولربما أن دور كسانتيب قد وقعت المبالغة فيه، إما بقلم كاتب إغريقي معاصر يحتمل أنه كانت له بعض الأسباب الخاصة لمدحه، وإما على لسان الرومانيين الذين كانوا على استعداد للاعتقاد بأن أعداءهم ما كانوا لينْتصروا عليهم لو لم يستنجدوا بأجنبي. ومع ذلك، فلا يجب التنقيص من قيمة هذا الإغريقي الذي لاشك أن نصائحه قد أفادت جدا.

يقول پوليب إن كْسانْتيب لما أعلم بتفاصيل الهزيمة الأخيرة، انتقد بشدة التراتيب التي اتخذت. فوقع الاعتراف بصدق انتقاداته، كما صدق فيما برهن عليه من خبرته العسكرية، حتى إن القادة أنفسهم أسندوا إليه أمر تدريب الجيوش التي كانت تتمرن أمام الأسوار. فعاد للقرطاجيين حماسهم وأرادوا خوض المعركة. وقبل أن تنتهي حرارة المصيف غادر المدينة جيش متكون من 12.000 من المشاة، ومن 4000 فارس، وما يقارب 100 فيل، وقد سار هذا الجيش وعسكر في الأراضي المنبسطة.

تقدم ريكلوس لمقابلة هذا الجيش [22]، ومنذ اليوم الأول أقام معسكره على بعد 10 اسْطادات (أي قرابة 1800 متر) من الأفارقة. وقد سبق أن رأينا أنه استقر بتونس. ومع ذلك، فإذا صحت بعض الجزئيات مما رواه كل من پوليب وأپْيان Appien، فإن المعركة لم تقع بين هذه المدينة وقرطاجة. ففي أي جهة كان الجيش الروماني موجودا حينذاك ؟ إننا لا نستطيع الإجابة.

وفي الغد، بينما كان القادة القرطاجيون يتداولون، صاح جنودهم صيحات عالية يطالبون بالزحف على العدو تحت قيادة كْسانْتيب. وقد عرف هذا الأخير كيف يقنع القادة بأن الفرصة مواتية، فكلّفوه بتنظيم

أمر المعركة، فجعل الفيلة على خط واحد. وعلى بعض المسافة من خلفها جعل الفيلق البونيقي، وجعل قسما من المرتزقة على الجناح الأيمن، وفي مقدمة كل جناح جعل المرتزقة الذين يكوّنون الجيوش الخفيفة، وكذلك الخيالة [23].

فلما رأى ريگلوس هذه الاستعدادات قبل المعركة، جعل في الأمام المشاة الخفاف الحاملين للرماح، وجعل في الخلف على شكل كتل متراصة وعميقة معظم مشاة الفيالق، ثم وزع الخيالة على الجناحين. فهو قد جعل خطوطه أقل طولا، كما جعلها سميكة أكثر من العادة. وكان بذلك يريد أن يجعلها أكثر قدرة على تحمل هجوم الفيلة التي كان يخشاها على الخصوص، غير أنه لم يتخذ الوسائل الضرورية لمقاومة الخيالة القرطاجية التي كانت أكثر عددا من خيالته.

وأصدر كْسانْتيب الأمر لموجهي الفيلة أن يتقدموا ويكسروا خط العدو، وللخيالة أن يحيطوا بالجناحين ويهاجموهما. فحدث الاضطراب للرومانيين، ولم تصمد خيالتهم أمام صدمة الخيالة الإفريقية، وولت متراجعة. وعلى النقيض مما حدث، فإن المشاة الذين كانوا على المسيرة، أرادوا أن يتجنبوا الفيلة، فلم يخشوا المرتزقة، واتجهوا إلى الجناح الأيمن البونيقي، وألزموه بالفرار، وطاردوه حتى معسكره وقتلوا منه 800رجل. أما الفيلة فإنها أول الأمر صدّت وداست من لقيتهم، ولكنها لم تستطع خرق معظم الجيش الذي كانت كثافته تحميه. لكن عندما أحاطت الخيالة بالصفوف الأخيرة التي اضطرت لأن تلتفت إلى الوراء لتحارب، وكذلك الجيوش التي كانت قد تقدمت خلال الفيلة فإنها عندما وجدت نفسها أمام المشاة القرطاجيين الذين لازالوا على حالهم سالمين، إذ ذاك فإن هزيمة الرومانيين لم يعد فيها شك. وقد مات

معظمهم في مكانه بالفيلة التي داسته أو بإصابة القذائف التي كان الفرسان يرمونها. وكاد جميع الناجين من المعركة أن يلاقوا نفس المصير، لأن الفيلة والخيول لحقت بهم بيسر وسط السهول. وكان يصحب البروقُنْصل في فراره خمسمائة جندي، فألقي عليهم القبض معه. أما الفرقة التي كانت قد طاردت المرتزقة وابتعدت بذلك عن ميدان المعركة فهي وحدها التي استطاعت النجاة، وكان عددها نحوا من 2000 رجل ساعدهم الحظ في الوصول إلى كلوبيا Clupea.

تلك هي الهزيمة التي سببتها للرومانيين ثقتهم البالغة في تفوقهم العسكري، وكبرياؤهم المتولدة عن انتصاراتهم الأولى. فبعد نزولهم بإفريقيا مكثوا فيها بقوات غير كافية، وبخيالة مزرية. وكانوا على ما يحتمل قد أنفوا طلب المساعدة من النوميديين الذين كانوا مثلهم أعداء لقرطاجة. وكانوا قد جاءوا ليفرضوا الصلح الذي ربما كان خصومهم قد يقبلونه، غير أن ريگلوس كان يظنهم تحت رحمته، ولذلك بدا متشددا في مطالبه حتى استحال أي اتفاق. ثم إنه اعتد بنفسه فخاض المعركة في ميدان موافق للفيلة ولفرسان الجيش البونيقي الذي كان عددهم كثيرا، وكان الأحوط له أن يبقى في موقف الدفاع انتظارا للنجدات التي تبعث بها رومة إليه.

سلب القرطاجيون الموتى مما كانوا يحملون، ثم أخذوا في موكب للتمجيد البروقنصل والأسارى الآخرين. وأقيمت للآلهة حفلات الشكر العديد، كما أن الفرح الغامر قد هيمن على جميع المدينة. وبعد ذلك بقليل غادر كْسانْتين إفريقيا. ويلاحظ پوليب أنه فعل صوابا لأن المجد يثير الأحقاد والتقولات التي يكون الأجنبي أمامها أعزل من كل سلاح. ويضيف المؤرخ أن بعض الشائعات قد ذاعت حول

رحيله، وهي أنه كان ينوي أن يقول رأيه في الخارج، لكن لم يتحد من بعد مطلقا عن ريگلوس.

وقد ذاعت عن هذين الشخصين أساطير مبعثها حقد رومة على مزاحمتها الإفريقية. من ذلك أن القرطاجيين جازوا كْسانْتيب بِسَخاء، غير أنهم كانوا لا يريدون أن يستطيع اللّسِديموني التبجّح بأنه أَنقذهم، فقرروا القضاء عليه. وحسبما يرويه البعض، فإنهم جعلوا رهن إشارته سفينة نخرة، كان هيكلها الخشبي قد طلي بغطاء من القطران الطري، فانتبه كْسانْتيب للحيلة في الوقت المناسب وذهب على ظهر سفينة أخرى. ويروي الغير أنهم أتبعوه برجال رموه في البحر، أو أن ربابنة السفن الثلاثية الذين كانوا سيعيدونه إلى بلاد الإغريق قد صدر إليهم الأمر بإغراقه. أما ريگُلوس فإن القرطاجيين المنتصرين عليه قد عاملوه معاملة غير إنسانية، فكانوا يقتّرون عليه جدا في الطعام، وقد جعلوه مع فيل كان يحدث له ذعرا مستمرا، ثم رموا به في السجن. ومع هذا، فإنهم بعثوا به سنة 251-250 إلى رومة مع بعض الموفدين المكلفين بالحصول على تبادل الأسرى، بل حتى على إنهاء الحرب إذا أمكن. وكانوا يتمنون أن يدافع القنصل السابق عن قضيتهم لصالحه، لأنه أقسم متعهدا بالعودة إلى قرطاجة إذا أخفقت المفاوضات. ولكنه نصح مجلس الشيوخ بمتابعة الحرب. وقد عاد إلى إفريقيا وفاء بوعده، ومات من العذاب الأليم. إن كل هذا، يظهر أنه مختلق لتبرير العذاب الذي ألحقته زوجة ريگلوس وأبناؤه بأسيرين وُكّلا إلى حراستهم، حتى أن النقباء اضطروا للتدخل لإنقاذ أحد السجينَيْن الذي بقي على قيد الحياة (24).

ولكي يتم القرطاجيون انتصارهم، فإنهم ذهبوا لمحاصرة كلوبيا Clupéa التي التجأ إليها من بقوا على قيد الحياة من رجال الحملة

الرومانية. ولكنهم تراجعوا عن هذه العملية أمام المقاومة العنيفة التي لقيتهم. وخلال ذلك كانت روما قد جهزت أسطولا متكونا، على ما قيل، من 350 سفينة يقودها القنصلان م. أيميليوس باولوس M. Aemilius Paullus وسِرْفيوس فُولْفيوس بايتنوس Sr. Fulvius Paetinus وذهب الأسطول سنةَ 254 في بداية فصل الصيف، واستولى في طريقه على كُسّورا Cossura (هي جزيرة بنتلارية Pantelleria). وكانت قرطاجة بدورها قد أصلحت سفنها وأخذت تصنع سفنا أخرى، وبذلك كونت أسطولا من 200 سفينة لم تلبث أن انهزمت وأسرت بعضا بالقرب من رأس هِرْميس. ووصل القنصلان إلى كلوبيا. ولم يشر بوليب إلى إحدى المعارك التي خاضها حسب مصادر رومانية بالقرب من هذا الموقع، وواجها فيها قائدين قرطاجييْن كل منها يدعى حَنّون، ومات فيها 9000 جندي من الأعداء. وقد قيل إنهما لم يتابعا انتصارهما لأن المؤن كانت تعوزهما. وعادا ومعهما فلول جيش ريگلوس. وبينما كانا يسايران الساحل الصقلي من جهة الجنوب ثارت عاصفة بحرية لم يعرفا كيف يتلافيانها فأغرقت كل أسطولهما تقريبا.

وسارعت روما فكوّنت أسطولا آخر، استعملته أثناء صيف سنة 253 في حملة يظهر أنها لم تستهدف سوى النهب. وفي هذه المرة أيضا كانت القيادة لقنصلَيْن هما كنايوس سيرْفيلْيوس كايْبيو Cn. Servilius Caepio وكايوس سَمْبرونْيوس بْلايْسوس C. Sempronius Blaesus اللذان سارا مع طول السواحل الشرقية لتونس، فنزلا عدة مرات للإغارة، ولكن من دون أن يقوما بعملية كبيرة [25] ولما وصلا إلى جزيرة مينَانْكس Meninx (أي جَرْبَة) جنحت السفن في المضاحل، لأنهما غفلا ولم ينتبها للجزر البحري. وكانت سلامتهما في عودة المد على غير انتظار، وفي القرار الذي أخذاه برمي حمولة السفن في الماء لتخف. وبعد نجاة الجميع

بمشقة من هذا الخطر، تراجعوا على صِفة هي أشبه بالفرار. فأرسوا قليلا بمدينة بالِرْم. وأرادوا منها أن يعودوا إلى إيطاليا مخترقين البحر في خط مستقيم، فكان ذلك من جانبهم عملا نحسا لأن عاصفة بحرية ثارت في وجههم وضاع لهم أكثر من 150 سفينة. وإلى نهاية هذه الحرب التي امتدت بعد ذلك اثنتي عشرة سنة، فإن أي جيش روماني لم يعد للظهور في إفريقيا.

لقد سبق أن رأينا أن النوميديين انتهزوا فرصة غزو ريگلوس لينقضوا على المقاطعة البونيقية. وقد عاقبتهم قرطاجة بمجرد ما استطاعت ذلك. فأظهر عَمِلكار الذي كلفته بهذه المهمة شدة وقسوة، إذ فَرَض، حسبما قيل، 1000 تالان فِضّي و20.000 ثور كما صلب رؤساء القبائل الآثمة. وجرت كذلك عمليات عسكرية أخرى ضد الأهالي. ففي سنة 247 كان أحد الجيوش يقوم بحملة تحت قيادة حنّون الذي كان يشفق على مالية الجمهورية، لذلك كان يقوت جيشه على حساب أرض الأعداء. واستولى بعد الحصار على مدينة هيكاتُمْبيلوس Hécatompylos أي ثوفِسْت Theveste هي تبسّة بالجنوب الشرقي للقطرالجزائري)، فتقبل رجاء شيوخها وتنازل عن سكانها وخيراتها، واكتفى بأن طلب 3000 رجل يكونون رهائن عنده. فشكره السكان وأهدوا له الأكاليل والتشريفات الفاخرة، وسارعوا لمقابلة جنوده وأقاموا لهم المأدبات الفخمة. وبالاستيلاء على ثوفسْت اشتهر حنّون بأنه قائد ماهر. ونَجِدُه في سنة 241 حاكما عسكريا على قسم من إفريقيا في ملك القرطاجيين. ويظهر أنه كان يزاول هذه القيادة منذ عدة سنين، ربما منذ الأحداث التي رويناها من قبل، وكان يُعامل الأهالي بقسوة بالغة.

4

كانت الحرب مستمرة بصقلية، حيث أحرز الرومانيون على انتصار كبير عند نهاية سنة 254، فاستولى على بالِرْم، أهم المدن الفينيقية بالجزيرة. وكان السكان الذين استطاعوا أن يدفعوا مِنَيْن اثنين (قدّرها كسيل بمأتي فرنك فرنسي لسنة 1925) أحرارا في أن ينصرفوا تاركين كل ما يملكون، وكان عددهم 14000 رجل، أما الآخرون وعددهم 13000 فقد بيعوا عبيدا، كما استسلمت مواقع أخرى أقل أهمية من بالِرْم.

فقررت قرطاجة أن تبعث إلى صقلية بجيش قوي، يصحبه الكثير من الفيلة، وعلى رأسه حَسدْرُبَعْل. وكانت هذه الوحوش تخيف الرومانيين جدا منذ حملة ريگلوس، إلى حد أنهم صاروا يتجنبون كل معارك الصف. وكذلك فإن العاصفة البحرية التي حطمت الأسطول الكبير الذي كان قد نهب السواحل الإفريقية سنة 253 قد جعلتهم يتخلون بعضا من الوقت عن الحرب البحرية. وغادر حَسْدربَعْل مدينة ليليبي سنة 250 ليحاول انتزاع بالِرْم منهم، فوصل إلى أسوارها حين كان أحد الأساطيل البونيقية أمام مينائها. لكن الفيلة استدارت ضد صفوف حَسْدربَعْل وحطمتها، ففر جنوده لما هاجمهم أيضاً معظم قوات العدو على الجانبين. فقضي على أكثرهم أو غرقوا في البحر عند محاولتهم الالتحاق بالسفن. أما حَسْدربَعْل الذي استطاع الفرار، فقد وجد القضاة بقرطاجة بانتظاره وَصلُب.

لم يبق للرومانيين، لكي يتمموا استيلاءهم على الجزيرة سوى إخضاع ليلبي Lilybée ودْريبان Drépane. فقدم إلى ليلبي أكثر من 20.000 جندي و200 قادس. بحيث إذا لم يرضخ القرطاجيون إلى المفاوضة بعدما يفقدونها، فإنها تكون أنسب موقع لتنظيم حملة جديدة

على إفريقيا. وأغلق ميناؤها بسفن أغرقت فيه، ثم بحاجز متكون من الأحجار والعارضات الخشبية الضخمة. أما من جهة اليابسة فقد حفر المحاصرون الألغام، وأقاموا الأبراج ونصبوا مجموعة كبيرة من الآلات. غير أن حِيمِلْكون، حاكم الموقع، دافع عنه بشدة وبدهاء. وكان معه أكثر من 10.000 جندي، فمنعهم من الانضمام إلى بعض الضباط الذين كانوا يريدون دفعهم إلى التخلي عن الجيش. وقد بعثرت الأمواج العراقيل التي كانت تسد الميناء، واستطاع بعض البحارة المهرة من الدخول إلى المدينة برغم صعوبة الوصول ووجود أسطول الأعداء. وأقيم سور جديد خلف السور الذي هدم قسم منه. وحاول الجيش الخروج للهجوم دفعة واحدة، فلم تكن لمحاولته نتيجة حاسمة. غير أن رياحاً موافقة هبت وساعدت على إحراق أبراج الرومانيين وآلاتهم، الأمر الذي جعل هؤلاء ييأسون من الاستيلاء على ليلبي عنوة، فاكتفوا بمحاصرتها حصارا دام حتى نهاية الحرب. أما حيملكون فقد حل محله، وفي وقت لا ندريه، جِسْكون الذي يظهر أنه كان هو أيضا قائدا بارعا.

أما ميناء دريبان فكان مأوى للأسطول القرطاجي. وفي سنة 249 أراد القنصل كْلوديوس بُلْكير Cladius Pulcher مباغتته ومعه أكثر من 120 سفينة، فلم تنجح محاولته، واستطاع آذَرْبَعل Adherbal بمناورات ذكية أن يستولي على 93 قادسا من أسطوله. وكان هذا العمل أخذا بالثأر لما جرى في ميلِس Myles وأكْنوم Ecnome. كما أن أحد مساعدي آذربعل استولى قرب بالِرْم على طابور يعمل لتموين ليلبي ودْريبان. وكذلك، فإن كَرْتَلون Carthalon، وهو أحد قادة البحر، هاجم هجوما موفقا السفن الراسية أمام ليلبي. ثم ساير بعد ذلك جنوب صقلية، وتقدم لملاقاة عمارة بحرية أخرى وملاقاة أسطول حربي آخر كان قد غادر سِرَقوسة. فلم يستطع الرومانيون مواجهته في عرض البحر، وأوقفوا

سيرهم واصطفوا بجانب الساحل. وأثناء ذلك رأى القرطاجيون، وهم بحارة مهرة، أن البحر سيثور، فأسرعوا بالذهاب إلى الساحل الشرقي للجزيرة، حيث رسوا في أمان، في حين أن أعداءهم لم ينتبهوا للخطر الذي كان يهددهم، فحطمتهم العاصفة.

وهَنَتْ عزيمة رومة، فتخلت عن تعويض أساطيلها الضائعة، واكتفت بأن تعير للقرطاجيين القوادس التي بقيت لها. ويُحكى أن بعض هؤلاء وصلوا سنة 247 إلى بِنْزرت بغتة، وأحرقوا كل ما وجدوا بها من السفن وعدة بنايات. ومع أن مدخل الميناء سرعان ما وقع إغلاقه بالسلاسل، فإنهم استطاعوا النجاة بحيلة فائقة : فقد أطلقوا سفنهم ضد السلاسل، وتراجعوا أولاً إلى مؤخرتها وذلك لترتفع مقدمتها وتعبر الحاجز، ثم انتقلوا إلى أمام لكي تمرّ المؤخرة بدورها. أما في صقلية فإن الجيوش الرومانية استمرت في حصار ليلبي، واستولت على جبل إيركْس Eryx كما عسكرت أمام دريبان.

أصبحت قرطاجة من جديد سيدة البحر، ولم تستفد من ذلك سوى في تخريب بعض السواحل. وقد أهملت الزيادة في بحريتها، بل ربما أهملت حتى تعهد هذه البحرية. وظهرت متعبة مثل رومة، وغير قادرة مثلها على القيام بالمجهودات الحاسمة.

وعلى الأقل كان لقرطاجة في الجزيرة عند نهاية الحرب (منذ 246) قائد شاب هو عَمِلْكار بَرْكا الذي عرف كيف يستفيد من الوسائل الضئيلة فوائد كبيرة. فقد استولى بالساحل الشمالي، قرب بالِرْم على الجبل المنعزل الوعر الذي كان يعرف باسم جبل هيركْتي Héircté. وأقام في مفارج المهاوي بعض الاستحكامات التي كانت كافية لتجعل من هذا الجبل معقلا منيعا. ووجد عَمِلْكار هناك المراعي والأراضي التي يمكن

أن تزرع، كما وجد منابع المياه، والهواء الصحي الذي تطريه نسمات البحر، وكان هناك جون استعمله ميناء لسفنه التي كانت تذهب إلى إيطاليا وتعود منها بالغنائم، وأنهك بالمعارك المستمرة أحد جيوش الأعداء والذي كان معسكرا بالقرب منه بجهة بالِرْم.

وبعد ثلاث سنين، غادر هيركْتي ونزل ليلاً بجبل إيرِكْس Eryx، بجوار دْريبان الذي كان على ما يحتمل يريد فك الحصار عنها. فعسكر بالجند حيث كانت مدينة دريبان، التي أخليت من سكانها قبل ذلك ببضع سنين، وكانت معه جيوش لا يستطيع أداء أجورها، ولا يقوتها دائما بما يكفي لشبعها، ولكنها كانت تحب العمل تحت إمرته كما كانت تطمئن إلى وعوده. وبهذه الجيوش عاود حربه الصغيرة التي كان لا يضاهيه فيها أحد. ولم يستطع مع ذلك أن ينحي الرومانيين عن دريبان، ولا أن يستولي على المعبد الشهير لأفْروديت، الواقع على قمة الجبل.

وأخيرا بعثت رومة بأسطول كبير لتمنع عن دْريبان وليلبي وعن جيش عَملِكار أي اتصال بالبحر. فقد كانت الخزينة فارغة من المال، ولكن بعض الخواص من الناس تعهدوا أن يبنوا السفن ويجهزوها على حسابهم، وقبلوا أن لا يتقاضوا أموالهم إلا بعد الانتصار. وكذلك القرطاجيون، فإنهم كونوا أسطولا، أسندت قيادته لحنّون، ويحمل المقاتلين من جنود عَملِكار. وفي ربيع سنة 241 اتجه إلى جزر إيگات Aegates حيث توقف، ومنها اتجه نحو جبل إيركس. فتقدم الرومانيون رغم الريح المعاكسة لمقابلته بجرأة. وكان رجال السفن قد اتسع لهم الوقت ليتدربوا، بينما القرطاجيون الذين جُندوا حديثا، كانوا على النقيض منهم لا يتقنون حرفتهم. وكانت السفن البونيقية مشحونة ومثقلة

بالمؤن التي كانت تحملها لجيوش صقلية. وفي معركة سريعة أغرق العدو أو استولى على عدد كبير منها. وكان جزاء حنّون الصلب على هزيمته.

وفهم عَمِلكار كما فهم مواطنوه أن التنازل أمر لابد منه، لأن قرطاجة لم تعد بمستطاعها أن تبعث إلى صقلية، لا بالنجدات ولا بالمؤن. أما الرومانيون فقد سارعوا عقب انتصارهم البحري بمهاجمته، وكبدوه هزيمة فادحة. وهم سيذهبون لأخذ دريبان وليلبي، وسيعبرون إلى إفريقيا إن أرادوا. فأعطيت لِبَرْكا Barca جميع الصلاحيات للتفاوض مع القنصل لوتاتيوس كاتلوس Lutatius Catulus الذي كان قد وصل إلى آخر مدته في المنصب، وكان يود أن يخص نفسه بشرف إنهاء هذه الحرب الطويلة. فقبل بَرْكا جميع شروط القنصل، إلا واحدا منها كان مهينا، لذلك تخلى لوتاتيوس عن أن ينتزع الأسلحة من أيدي الجنود، أبطال هيركتي وإيركس، واكتفى بأتاوة قدرها 18 دانقا Deniers عن كل شخص. وقد تأخر قليلا إتمام الصلح، لأن رومة اعتبرت أن الشروط التي فرضها القنصل لم تكن بالغة القسوة. فقدم بعض المنتدبين للقيام ببحث. وبمقتضى العقد النهائي تخلت قرطاجة عن كل مطمع في صقلية، وكذلك عن الجزر الواقعة بين صقلية وإيطاليا (الجزر الأيولية Eoliennes)، ووافقت على أن تؤدّي حالا 1000 تالان أوبويقي، وتؤدى 2200 أخرى على عشر سنين، وسلمت اللاجئين إليها، كما سرحت بدون مقابل الأسرى الرومانيين، بينما فرضت عليها أتاوة تحرير الأسرى القرطاجيين. والتزمت كلتا الجمهوريتين بالامتناع عن القيام بأي ضرر للسيادة، وعن إقامة المنشآت الحصينة، وعن تجنيد الجنود في الأراضي التي هي على ملك الجمهورية الأخرى، وأن أياً منهما لا تزيغ حلفاء الأخرى ولا تهاجمهم.

كانت رومة قد بادأت بالصراع. فأعطت في أول الأمر البرهان على العزيمة بقوة هجومها، وبرهنت على الحصافة بالمعاهدة التي سمحت بعقدها مع هيرون Hiéron. وأنشأت البحرية التي تحتاج إليها. وكانت بمستطاعها بعد انتصارها في ميلس Myles أن تعجل بجعل حد لهذه الحرب، ولكنها تركتها تطول في صقلية، حيث ان قادتها وأكثرهم كانت تنقصهم المهارة والخبرة العسكرية، كان بعضهم يحل محل الآخر دون أن يكونوا قادرين على إنجاز خطة متتابعة. ونقلت الحرب إلى سردانية مع قليل من التوفيق. ونقلتها كذلك إلى إفريقيا بوسائل ضعيفة جدا، حتى إن حملة ريگُلوس Régulus انتهت بكارثة. ولم تعرف كيف تصون سفنها عن العواصف البحرية، كما لم تسارع لاستعادة السيطرة على البحر، التي كانت، هي وحدها تستطيع تمكينها من النصر النهائي.

أما قرطاجة فإنها لم تستعمل أسطولها مطلقا لتسد به صقلية عن أعدائها. ولمّا كوّن هؤلاء بَحْريتهم، فإن قرطاجة لم تضاعف من قسوة بحريتها. وهكذا أضاعت تفوقها البحري. ولما واتتها الفرصة السعيدة واستعادتها، أضاعتها من جديد بسبب تهاونها. أما في الجزيرة، فإنها لم تقف في وجه الرومانيين لما بدأوا احتلالهم لها. وقامت بعد ذلك بجهود كبيرة، ولكنها جهود متقطعة. وكانت تجد مشقة في جمع الأموال الضرورية، ثم كانت تنفقها بسرعة. ونحن نعلم أنها التمست من بطلِمي فيلَديلْف Ptolémée philadelphe قرضا من 2000 تالان، فرفض ملك مصر ذلك، قائلا إنه يريد أن يبقى صديقا للشعبين المتحاربين. والقرطاجيون، حتى عندما حشدوا قوات عظيمة، فإنهم لم يستعملوها إلا على مهل. وقليلا ما كانوا يهاجمون. ولم يبعثوا بسفنهم لإيطاليا سوى للنهب. وفي صقلية لم يخوضوا سوى معركتين كبيرتين من معارك الصف، واحدة قرب أگْريجَنْت Agrigente والأخرى قرب بالرِمْ Palerme. وانهزموا فيهما

معا. ولقد نجحوا في حرب العصابات، ودافعوا بصمود عن المواقع التي لم يحكم الرومانيون حصارها.

ولكن، لم تكن هذه هي الطريقة التي يفرضون بها الصلح. وقد كانوا يَحْذرون مرتزقتهم الذين كانوا في الغالب لا ينضبطون، كما كانوا يحذرون قادتهم الذين عوقب أكثرهم على أنهم خونة، لأن الحظ لم يحالفهم. ومع ذلك فإن عَملِكار بَرْكا أبان لهم عما يستطيع أن يفعله القائد الحقيقي إذا كان معه جيش مهنته هي الجندية. ولكنه جاء بعد فَوات الأوان، لأن الآلاف القليلة من الرجال، والعدد القليل من القوادس التي أعطيت له، لم تكن تكفي لاسترجاع صقلية. وبهذا، فإن أعماله البطولية في هيركْتي وفي أيرِكْس قد كانت أكثر فائدة لمجده الشخصي، منها لوطنه.

الفصل الثالث

حرب المرتزقة
فتوحات البَرْكيِّين في إسبانيا

1

إن الحرب ضد رومة قد عقبتها الحرب التي خاضتها قرطاجة في إفريقيا ضد مرتزقتها ومحكوميها. وهو الصراع الذي أطلق عليه اسم الحرب المبيدة [26].

ورواية پوليب عن هذه الحرب هي مصدرنا الوحيد، وهي قيمة بحق. ولاشك أن الكاتب قد استقاها من كاتب إغريقي كانت له علاقات متينة مع القرطاجيين، و مع حزب عَملكار بَرْكا على ما يظهر. ويحتمل أنه اختصر ما كتبه سابقه، ولربما أنه حذف بعض الإيضاحات التاريخية (التوقيتية Chronologiques) والجغرافية التي كان من شأنها أن تساعد بصفة أحسن على فهم سير الأحداث.

بعد إبرام الاتفاقية التي انتزع بمقتضاها من قرطاجة آخر ممتلكاتها في صقلية، بقي بهذه الجزيرة أكثر من 20.000 من المرتزقة الذين لم تؤد لهم جراياتهم. وقد استقال عملكار بركا من قيادته بعدما أخذ إلى مدينة ليلبي من كان معه من الجنود بجبل أيرِكْس. ووكِلت مهمة بعث جميع هؤلاء الجنود لإفريقيا إلى جِسْكون حاكم المدينة. وقد خشي، كما قال پوليب، ما حدث بالفعل، فكان يرسلهم جماعات جماعات بتفاوت في الزمن، حتى يتيسر للقرطاجيين الوقت ليؤدوا المال لأول الواصلين، ويبعثوهم إلى مساكنهم، قبل وصول الآخرين. ولكن نفقات الحرب أفرغت الخزينة تقريبا. ولسبب انعدام الأموال لم يقع تسريح أي جندي. وفوق ذلك، كان هناك أمل في أن المذاكرة، إذا جرت، مع المرتزقة جميعهم، فإنهم قد يوافقون بسهولة على خصم بعض المقادير. ولكن، حيث أنهم كانوا يرتكبون ليلا ونهارا جميع أنواع المضار، فقد تقرر إرسالهم إلى سِكّا Sicca (أي إلى مدينة الكاف) حيث يمكثون حتى عودة رفقائهم في السلاح، وتكون الدولة قد اتخذت الاستعدادات لأداء يدونها. فوافقوا على ذلك، ولكنهم طلبوا بأن يتركوا في قرطاجة، مثلما سبق أن فعلوا، زوجاتهم وأبنائِهم وأثقالهم، وأنهم يستعيدون هذا حين يأتون لقبض أموالهم. فخشي أهل قرطاجة أن تكون التفرقة بين هؤلاء المرتزقة وأهلهم مدعاة للتعجيل بعودتهم إليهم، لذلك رفضوا لهم هذا الطلب رفضا أغضبهم غضبا شديدا. لكن، بعدما قبض كل واحد منهم قطعة ذهبية أخذوا طريقهم.

وكانت حياتهم في سِكّا مضطربة. فكانوا يتحادثون فيما يجب لهم، ويتذكرون وعود قادتهم في أيام الشدة، وينتظرون بفارغ الصبر تحقيق أمانيهم.

ولما اجتمع العدد وهو 20.000 من المقاتلين بهذا المكان (سِكّا) زارهم حنّون الحاكم العسكري للمقاطعة البونيقية. وعوضا من أن يرضيهم، فإنه حدثهم عن فداحة الغرامة التي فرضتها رومة، وعن شقاء الجمهورية، ورجا منهم التنازل عن قسم من الأموال التي أعطيت لهم الوعود سابقا بأدائها لهم. فجرت في كل جهة التجمعات الصاخبة كما علت الصيحات الغاضبة. حدث ذلك في معسكر الإيبيريين، وعند الغاليين، وعند الليغوريين، وعند أهل الباليار، وفي معسكر أنصاف الإغريق، وعلى الخصوص هؤلاء الرجال الذين تختلف ألسنتهم، حتى إن حنّون لم ير من الواجب أن يكرر نفس الخطة أربع أو خمس مرات، بالاعتماد على التراجمة. لذلك فإن ضباط كل شعب كلفوا بتبليغ آرائه ومقاصده. غير أن هؤلاء الضبّاط لم يكونوا يفهمون دائما ما يقال لهم، أو قالوا لرجالهم خداعا منهم قولا مخالفا لما وقع عليه الاتفاق مع حنّون. وكان المرتزقة زيادة على ذلك، يلومون القرطاجيين لكونهم بعثوا لهم بقائد لم يَقُدهم في معركة، ولم يبعثوا لهم القادة الذين يعرفون الخدمات التي أدوها في صقلية، القادة الذين واعدوهم بالجزاء الحسن. فكان الاحتقار يملأ نفوسهم لحنّون، ويشكون في ضباطتهم، كما كانوا حانقين على قرطاجة، ولذلك زحفوا على العاصمة وجاءوا ليعسكروا قرب تونس.

اعترفت الحكومة البونيقية بعد فوات الأوان بالخطأ الذي ارتكبته في تجميع كل هؤلاء الغاضبين، وخصوصا عندما لم تحتفظ بالزوجات والأبناء وبالأمتعة، فيكون كل ذلك عربونا على وفائهم. ولما رأتهم اقتربوا منها جدا، لم تدخر وسعا لتهدئتهم، بحيث أنها أرسلت إليهم الأطعمة بكثرة وقبلت المقادير المالية التي حددوها بأنفسهم. كما أن عدة وفود مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ، قدموا ليَعِدوهم بإنجاز مطالبهم حسب الإمكان. غير أن الخشية التي كان العصاة يزرعونها في نفوس

الناس، كانت تضاعف من جرأتهم، حتى إنهم اعتقدوا أن أحدا لن يستطيع مطلقا أن يقف في وجه رجال صمدوا أمام الفيالق الرومانية. وبعدما نالوا مبتغاهم في الجرايات، أرادوا أن تؤدى لهم أثمان الخيول التي فقدوها. ثم ألحوا بعد ذلك مطالبين بثمن القمح الواجب لهم منذ مدة طويلة، وبأغلى سعر بلغه القمح إبان الحرب، ثم تلت ذلك مطالب أخرى ليس لها مسوغ مطلقا. ومع ذلك وافق القرطاجيون على أن يكون الحَكَم هو أحد القادة الذين شاركوا في حرب صقلية. فاشتكى المرتزقة من سلوك عَمِلكار الذي استقال، على ما قيل، بمحض إرادته، ولم يأت إلى معسكرهم مع الوفد، بحيث كانوا يظنون أن إهمال قائدهم السابق لهم ساعد على إهانتهم. وعلى النقيض منه، كانوا يشعرون بالود نحو جِسْكون الذي عاملهم بمودة، خصوصا عند رجوعهم، ولذلك اختاروه حكما.

أخذ جِسْكون المال، وعبر البحيرة واتجه إلى تونس وهناك تحادث مع الضباط، ثم جمع الجنود أمّة أمّة. وبعدما وجه إليهم اللوم والنصيحة شرع يؤدي لهم الأموال.

كان يوجد من بين المرتزقة شخص من كَمْبانيا يُدعى سْبانْديوس Spendios. وكان عبدا عند الرومانيين وفر منهم إلى أعدائهم، كما كان ذا قوة بدنية كبيرة، وشجاعة عجيبة. فخشي أن يقع من جديد في يد سيده السابق وأن يسلّم للعذاب، لذلك لم يدخر قولا ولا حِيَلاً ليمنع حصول أي اتفاق. واشترك في ذلك مع إفريقي حر يدعى ماثوس Ma-thos. وكان هذا الأخير أحد كبار المهيجين على الثورة، فكان يخشى الإيقاع به ليكون مثلا وعظة. وقد خاطب ماثوس الأفارقة، وأنذرهم بأنّ قرطاجة ستثأر منهم عندما يكون الآخرون قد عادوا إلى أوطانهم ومعهم

أموالهم، وأنها بعقابها لهم ستنتشر الذعر في جميع إفريقيا. وبهذا أثار غضبا شديداً. وبما أن جِسْكون لم يؤد سوى الجراية، وأرجأ لما بعد ثمن القمح والخيول، فإن المرتزقة عقدوا اجتماعا، واستمعوا بأناة للتهجمات التي أدلى بها سْبانْديوس وماثوس ضد جِسْكون والقرطاجيين جميعا. وكانوا إذا فتح أحد الناس فمه ليتكلم، ينقضون عليه وينهالون عليه ضربا، من غير أن يعلموا هل هو مع المتزعمين أو ضدهما. فمات من جراء ذلك في هذا اليوم وأثناء الاجتماعات التي تلته كثير من الجنود والضباط. وكان الحديث في المعسكر يجري بلغات مختلفة، ولكن كلمة واحدة كان يفهمها الجميع، هي كلمة "اضرب" التي كانت تصحب غالبا بالحركة المفسرة لها، خصوصا عندما كانت الخمرة تأخذ بالعقول. وإذا نطق أحد الناس بهذه الكلمة المشؤومة، فسرعان ما يتجارى القتلة من كل جهة وينهالون على الضحية المعينة لضرباتهم. وبعد أن لم يعد أحد يجرؤ على أخذ الكلمة، وقع انتخاب ماثوس وسْبانْديوس قائدَيْن.

ومع ذلك فإن جِسْكون لم يتخل عن القيام بمهمته، فقد كان يعلم جسامة المخاطر التي كانت تهدد قرطاجة، ولذلك كان يبذل جميع جهوده لتنحيتها. فكان أحيانا يتجه إلى القادة، وأحيانا أخرى يتوجه بالخطاب إلى جنود كل أمة على حدة، ولكن حادثة فجرت العنف الذي كان يعمل لتلافيه. ذلك أن الليبيين الذين لم يتقاضوا بعدُ جراياتهم، قد طلبوها منه بصيغة إجبارية، فدعاهم أن يطلبوها من ماثوس قائدهم. فأغضبهم هذا الجواب إلى حد أنهم عجلوا بالارتماء على الأموال التي كانت قريبة منهم ثم استولوا على جِسْكون وأصحابه. وكان ماثوس وسبانديوس مقتنعَيْن بأن الأعمال المخالفة لحقوق الناس تجعل القطيعة محتمة، فزاد في تهييج الجماهير الثائرة، وجرى نهب صناديق القرطاجيين

وأمتعتهم، كما عومل جسّكون ومن معه معاملة سيئة. فشدت عليهم السلاسل وأدخلوا السجن.

2

أُسِر ماثُوس Mathos فأرسل الموفدين إلى المدن الإفريقية يدعوها إلى التحرر ويطلب منها المساعدة. ولا شك أنه بعث أيضا إلى النوميديين الذين شاركوا في الفتنة كما سنرى. كما أن أغلبية الليبيين من أهل المقاطعة البونيقية قد انضموا إلى المرتزقة. وكان القرطاجيون أثناء الحرب ضد رومة قد عاملوهم معاملة قاسية. إذ فرضوا عليهم نصف المحاصيل الزراعية، كما فرضوا على المدن أتاوات بلغت ضعف ما كانت المدن تؤديه من قبل، ولم يقبلوا أي تخفيض حتى لأشد الناس فقرا. ولم يكن الحكام المفضلون لديهم هم الذين يسلكون بلطف ومروءة، وإنما المفضلون هم الذين لا تلين قسوتهم في تحصيل المزيد من المال لهم، وكان حنّون من هذا النوع الأخير. لذلك فإن الليبيين الذين أنهكهم الابتزاز والعذاب لم يكونوا محتاجين لأن يدعوهم ماثوس، بل إنهم ثاروا بمجرد ما علموا بأحداث تونس. حتى إن النساء اللائي كن يتذكرن ما لقيه آباؤهن وأزواجهن من العذاب، أبين إلا أن يساهمن في نفقات الحرب، وأخذن على أنفسهن العهد في كل مكان أن لا يخفين أي شيء ثمين لديهن، وسلّمن حِلاهنّ من دون تردد. فاجتمع بذلك لماثوس وسباندِيوس Spendios مقادير كبيرة من المال، يؤديان منه للمرتزقة ما تأخر من جرايتهم، ويواجهان به النفقات الضرورية. كان يرد عليهما الرجال والمؤن من جميع الجهات، وانضم إليهما 70.000 ليبي وقد قسما قواتهما. فذهب جيشان لمحاصرة اوتيكا وبنزرت اللتين بقيتا على

وفائهما للقرطاجيين [27]. كما أن جيوشا اخرى كانت مسيطرة سيطرة كاملة على معسكر تونس، وكانت تعزل قرطاجة عن بقية القارة. بل إن الثوار كانوا يقتربون حتى من الأسوار، إما ليلا أو نهارا، وكانوا بِجرأتهم هذه، يحدثون الدعر للسكان.

كان القرطاجيون يأملون أن يصلحوا أحوالهم في وقت السلم، خصوصا بعد الحرب الطويلة التي كانت نهايتها سيئة عليهم. أما الآن فليست الممتلكات البعيدة هي التي عليهم أن يدافعوا عنها، وإنما عن وجود وطنهم، فالمنتجات الزراعية التي كانوا يحصلون عليها من الأرياف المجاورة، والتي كان منها طعامهم، والعائدات التي كانت تدرّها عليهم إمبراطوريتهم الإفريقية، والجنود الأجانب الذين يكونون جيشهم، إن كل هذه الخيرات تعوزهم الآن في وقت واحد، بل إنها تنقلب عليهم. وكذلك فإن مصانع الأسلحة تكاد تكون فارغة، والأسطول الحربي تحطم أكثره، ولم يكن لديهم احتياطي من الطعام المخزون. أما في الخارج فلم يكونوا ليعتمدوا على أي صديق ولا على أي حليف.

ومع ذلك كان لابد من الصمود في المعركة فعين في منصب القيادة حنّون فاتح ثوڤِسْت Theveste، الذي أبدى أثناء الاستعداد للحرب أنه أهل لما أنيط به. فقد جمع المرتزقة، وجند المواطنين الذين كانوا في سن حمل السلاح، وكون من بينهم فيلقا للخيالة، وجهز السفن التي كانت لاتزال موجودة، من ثلاثيات ومن ذوات الخمسين مجدافا، ومن القوارب الكبيرة الأحجام.

ولربما أن حنّون قدم عن طريق البحر لنجدة أوتيكا، فسلم له المحصورون المنجنيقات وغيرها من المعدات التي كانوا يملكونها. وبعد أن استقر أمام المدينة هاجم معسكر الأعداء. وكان معه نحو مائة من

الفيلة التي خرجت بغتة، فقتلت العديد من المرتزقة وطردت الاخرين. فالتجأ هؤلاء إلى تل وعر تكسوه الأشجار، ظنوه موقعا أمينا. وكان حنّون متعودا على محاربة النوميديين والليبيين الذين كانوا كلما انهزموا في معركة يفرون ولا يتوقفون مدة يومين او ثلاث أيام. لذلك ظن أن النصر كامل، ولم يعد له اهتمام بجيوشه ولا بالمعسكر، ودخل إلى أوتيكا يستريح فيها من أتعابه. لقد كان يتحلى بصفات التدبير، غير أنه لم يكن في المعارك ذا عزيمة، ولا قادرا على الاستفادة من الظروف. أما الملتجئون للتل فقد تعلموا على يد القائد المغوار عَمِلْكار أن يوالوا، ولو لعدة مرات في اليوم الواحد، بين الإدبار والرجوع إلى الهجوم. فلما علموا بذهاب حنّون، ورأوا جنوده متفرقين دون خشية في الأرياف، عادوا وأعملوا التقتيل في عدد كبير من القرطاجيين، كما أرغموا الباقين منهم على الفرار المخزي حتى أسوار أوتيكا وأبوابها. واستولوا على جميع الآلات. وبعد أيام كان حنّون يواجه الثوار قرب مدينة گُرْزا Gorza ولكنه بإهماله ضيع فرصة تكبيدهم الهزيمة في معركة مصفوفة أو في معركة مباغتة.

اشتد غضب مواطنيه منه، فانتخبوا عَمِلْكار بَرْكا قائدا. وسلموا له 70 فيلا وكذلك المشاة والفرسان الذين جندوا من المدينة نفسها، والمرتزقة الذين جندوهم وكذلك المرتزقة الذين انفصلوا عن الثائرين، فكان المجموع 10.000 جندي.

إننا نعلم أن التلال الوعرة تمتد خلف البرزخ الذي يربط هضبة قرطاجة بالقارة. وكانت تخترق هذه التلال ممرات من الصنع الإنساني. لكن رجال ماثوس كانوا مستولين على جميع المواقع التي تمكن من إغلاق هذه الممرات. ومن جهتي الغرب والشمال لهذه التلال، يكون نهر

بـگـرادا (نهر مجردة) عائقا آخر، لأن غزارة مياهه تمنع عادة عبوره بالمخاضة. وكان على النهر جسر واحد، ولكن ماثوس أقام عليه حراسة تتكون من قوات عظيمة، إلى حد أن مآوي الجنود كونت ما يشبه المدينة. فكان إذن يستحيل على أي كان، جيشاً أو شخصا منفردا، أن يغادر قرطاجة ولا يراه الأعداء.

ولكن عَملكار عنت له حيلة لطيفة. فقد سبق له أن لاحظ أن مصب نهر بـگـرادا كان عندما تهب بعض الرياح يمتلئ بالرمال، فيتكون هنا على طول البحر حاجزا يمكن عبوره بالمخاضة. فجعل الجيش متأهبا للذهاب، وانتضر الفرصة المواتية من غير أن يعلم أحد بما عزم عليه. فلما واتته الفرصة غادر قرطاجة ليلا، وعند الفجر كان مع جميع رجاله على الجانب الآخر من النهر من غير أن يثير الانتباه. وتقدم مخترقا السهل في اتجاه الجسر.

لما سمع سباندیوس هذا الخبر لم يتردد في خوض المعركة. فانطلق جيشان، أحدهما من 10.000 رجل والآخر يتجاوز 15.000، قادمين على عجل من الجسر ومن المعسكر القائم أمام أوتيكا، وهاجما القرطاجيين مؤملين سحقهم بالإحاطة بهم. وكان عَملكار في سيره، قد جعل الفيلة برأس الجيش يتبعها الفرسان والمشاة اصحاب السلاح الخفيف، ثم يأتي الجنود أصحاب السلاح الثقيل. فلما رأى القائد الاعداء يرتمون بجرأة متهورة، عدل من ترتيب جيوشه. فأمر من كان منها في أمام أن يتراجع بسرعة إلى الوراء، كما امر التي كانت في المؤخرة أن تتحرك الحركة الضرورية ليواجه بها المهاجمين. فظن الليبيون والمرتزقة أن خصومهم خافوا، فأتبعوهم دون ان يحافظوا على صفوفهم. ولكن المتراجعين، عندما اقتربوا من المشاة الثقال توقفوا ثم

واجهوا مطارديهم، الذين تقدم إليهم المشاة في نظام محكم. فاحتار الثوار من هذه المناورات غير المنتظرة. وأخذوا يفرون، ويصدمون رفقائهم ويوقعونهم على الأرض، وتدوسهم الفيلة والخيول التي كانت تحمل عليهم. الأمر الذي أدى إلى موت ستة آلاف رجل وأسر ألفين، أما الآخرون فقد عادوا مسرعين إلى المعسكر. وتقدم عَملكار فاستولى على جسر بكَّرادا الذي تخلى عنه المنهزمون ليلتجئوا إلى مدينة تونس، كما تخلوا أيضا عن حصار أوتيكا. ولم يتوقف بَرْكا Barca عن العمل بعد هذا الانتصار الكبير، بل تابع الحملة صحبة جيشه، فكان يتقبل خضوع المستسلمين له، أو يستولي بقوة على الأماكن الحصينة.

3

كان ماثوس Mathos يحاصر بِنْزَرت التي لم يرد أن يبتعد عنها. فطلب من سبانْديوس ومن اوتاريت Autarite رئيس الغاليين، أن يتتبعا تحركات عَملكار، ولكن دون أن يقوما بمغامرة في السهول، وذلك بسبب كثرة عدد الفيلة والفرسان الذين مع القرطاجيين، وطلب منهما أن يسايرا الجبال، وأن يقوما بالهجوم عندما يأخذ العدو بالسير في أرض وعرة. وفي نفس الحين رجا النوميديين والليبيين أن يبعثوا إليه بالنجدات. فأخذ سبانديوس من مدينة تونس نحوا من 6000 جندي من مختلف الأمم، كما أخذ الألفين من الغاليين، رجال أوتاريت، وقام بما أشار به ماثوس عليه. وكان عَملْكار معسكرا بسهل تحيط به الجبال من كل جهة، وأثناء ذلك قدم الأهالي الذين جاؤوا لمساعدة المرتزقة. وفجأة وجد نفسه في وضع عسير، إذ كان الليبيون أمامه، والنوميديون خلفه، وسبانديوس على جانبه.

كان يوجد من بين الليبيين شخص له مكانة رفيعة، ويدعى نارْفاس Narvas. وقد سبق أن كانت لأبيه علاقة ودية مع القرطاجيين. وكان هو نفسه معجبا بعمِلكار. فرأى أن الظروف مواتية ليستميل القائد إليه، لذلك اتجه نحو معسكره في حرس مكون من نحو مائة رجل. ولما وصل إلى حاجز المعسكر توقف، وأشار بيده إشارة لا تدل على وجل. فعجب بَرْكا من ذلك وبعث إليه أحد فرسانه. فطلب نارڤاس Narvas أن يكلم القائد، فتردد هذا خشية الخديعة. ولكن النوميدي دفع لرجاله فرسهُ وأسلحته ودخل المعسكر منفردا. ولما تقدم إلى عمِلكار، قال إنه يشعر بالعطف على القرطاجيين، ولكنه يود، على الخصوص، ان يصير صديقا له، وأنه جاء ليضع نفسه رهن إشارته، وسيكون رفيقه المخلص في جميع ما يفعله. فأسرع الآخر بقبول هذا العرض، بل إنه واعد الرئيس الأهلي أنه سيعطيه بنته إذا بقي على الوفاء لقرطاجة. فجاء نارڤاس بالفرسان الذين تحت إمرته، وكان عددهم نحوا من الألفين.

كان سباندیوس قد انضم إلى الليبيين، ونزل إلى السهل حيث هاجم عمِلكار الذي كان قد صفف جيوشه للمعركة. وبعد معركة شديدة، كان النصر بجانب القرطاجيين، بفضل فيلتهم، وبفضل المساعدة الفعالة جدا، التي قدمها نارفاس. وقد فر أوتاريت وسباندیوس مخلفين بالميدان 10.000 قتيل، كما أسر عمِلكار 4000 رجل. وقد أذن بالعمل في جيشه لكل من أراد. أما الذين رفضوا، فقد جمعهم وأخبرهم بأنه قد صفح عنهم ما فعلوه من قبل، وأنهم أحرار في الذهاب إلى حيث يشاءون، ولكن بشرط ان لا يعودوا أبدا لمحاربة قرطاجة، وأضاف أن أي واحد منهم إذا ألقي عليه القبض من بعد وسلاحه في يده، فإنه سيعاقب عقابا شديدا.

فتذكر جنود عملكار القدماء الأعمال الباهرة التي قاموا بها وهم تحت إمرته، كما أن هذه الأريحية المتعمدة كانت صالحة لأن تعيد ربط العلاقات التي سبق أن شدتهم إلى مثل هذا القائد. ولكن هذه الأريحية أقلقت كثيراً ماثوس Mathos وسباندیوس Spendios وأوتاريت Autarite الذين أرادوا أن يجعلوا كل تصالح مستحيلا. فاستعدوا الثوار للاجتماع، وأبرزوا لهم شخصا ادعى أنه مبعوث من قبل مرتزقة سردانية، الذين ثاروا هم أيضا، وقتلوا جميع من بالجزيرة من القرطاجيين وكانت الرسالة التي حَملها المبعوث المزوّر تنصح بحراسة جِسْكون والمعتقلين الآخرين حراسة دقيقة، وذلك لأن في الجيش مَنْ يتفاهمون مع العدو قصد إطلاق سراحهم. وسارع سباندیوس فأخذ الكلمة، ونصح من يستمعون إليه بعدم الانقياد لما فعله عَملكار، لأن حِلمه لم يكن سوى خدعة تدفع بهُم لأن يجعلوا نفوسهم بين يديه، وحين يمسك بهم جميعا، فجميعا يكونون ضحية انتقامه. ثم أوضح لهم سباندیوس أن طلاق سراح جِسْكون يكون عملا فيه ضعف وخطأ كبير، لأن هذا القائد الماهر سيحاربهم بحنق لاحد له، بعد المعاملة التي لقيها. وأثناء متابعته الحديث ظهر مبعوث آخر، وأكد أنه مُرسل من تونس، وكان يحمل رسالة تقول بالرأي الذي قالت به الرسالة الأولى.

وإذ ذاك أعلن أوتاريت أنه لا توجد سوى وسيلة وحيدة للسلامة. وهي العدول عن كل أمل في التفاهم مع قرطاجة، وأن كل من فكر على عكس هذا فهو خائن. فلابد أن يلقى جِسْكون حتفه بالعذاب، وكذلك الذين اعتقلوا معه، وسائر القرطاجيين الذين يلقى عليهم القبض في المستقبل. لقد كان لأوتاريت تأثير كبير في التجمعات، لأنه كان يتكلم البونيقية التي تعلمها أثناء حروبه، فكان بمستطاعه أن يتفاهم مع أكثرية المرتزقة الذين حصل لهم إلمام بهذه اللغة خلال السنوات الطويلة التي

قضوها في العمل. فصفق له المستعمرون، غير أن بعض الناس من شعوب عديدة تذكروا حسن معاملة جِسْكون، فتقدموا وطلبوا أن يمنع عنه التعذيب على الاقل. فضاعت أصواتهم في الجلبة، وأخذ كل واحد يتكلم بلُغته الخاصة، فلم يفهم الناس في أول الأمر مغزى كلامهم. ولكن بمجرد ما عرفوا ذلك صاح أحد الحاضرين بكلمة (اضرب) فوقع رجم هؤلاء التعساء، وحمل أهلوهم أجسامهم الممزقة، وكأن الوحوش نهشتها.

أَمَرَ سبانديوس بإخراج جِسْكون إلى خارج المعسكر، وكذلك بقية الأسرى الذين كان عددهم نحوا من سبعمائة. وعلى مسافة قليلة من المعسكر قُطعت أيديهم، بادئين بجِسْكون الذي كان المرتزقة يمجدونه من قبل واختاروه حَكَماً. ثم أجروا عليهم تشويهات، وكسروا سيقانهم ورموا بهم في حفير وهم لا يزالون أحياء.

عندما علم القرطاجيون بهذه الأعمال الفظيعة، بعثوا الموفدين إلى قائدَيْهم عَمِلْكار وحنّون، يرجونهم أن ينتقما، وبعثوا لمعسكر الأعداء مبعوثين عسكريِّين ليطلبوا السماح لهم بنقل جثث المعذبين، فرفض المرتزقة إرجاعها قائلين إذا بُعث إليهم بمخاطبين مرة أخرى، فإنهم سيعامَلون بما عومل به جسْكون. وفعلا قرر إعدام جميع القرطاجيين الذين سوف يعتقلونهم، وقَطْعَ أيدي جميع الرجال الآخرين الذين يعملون في الجيوش البونيقية، وإعادتَهم إلى قرطاجة على هذه الحال. وذلك ما فعلوه من بعد.

كان عَملكار يتمنى ان اجتماع الجيش يعجل بنهاية الحرب، ولذلك دعا حنّون إلى الالتحاق به، وأمر أن لا يبقي على حياة أحد في المعارك فإذا جيئ إليه بالأسرى يرميهم إلى الفيلة ليدوسوهم حتى الموت. وأدرك أنه لن يقضي على الثوار إلا بإهلاكهم.

وأخذ القرطاجيون يستعيدون جرأتهم، غير أن نكبات جديدة حلت بهم. ذلك أن القائدَيْن لم يستطيعا التفاهم بينهما، لأن كراهية أحدهما للآخر منعتها من الاستفادة من الفرص المواتية، بل إنها ساعدت الأعداء على إحراز بعض الانتصارات. فتقرر في قرطاجة أن يترك الجيش أحد القائدين وأن القيادة تبقى لمن تعيّنه الجيوش منها. فاختار الجنودُ عَملِكار. وكانت بعض السفن الناقلة القادمة من الأمبوريات، محملة بالمؤن، وكان الجيش ينتظرها بفارغ الصبر. ولكن الهياج البحري حطمها. وفي ذلك كارثة كبيرة للقرطاجيين، لأنهم لم يعودوا سادة لسردانية التي كانت فيما مضى تسد احتياجهم في مثل هذه الظروف. وأخيرا فإن أوتيكا وبنزرت انفصلتا عنهم. وكانت هاتان المدينتان قد بقيتا على وفائهما حتى عند زحف أگاطُكْليس وريگُلوس، كما كانتا في هذه الحرب الحالية المدينتين الوحيدتين اللتين قاومتا الثورة بجرأة، والآن تنضمان دون سبب إلى الليبيين، ومنذ انضمامهما أظهرتا من الإخلاص لحلفائهما الجدد، بقدر ما أظهرتا من عناد ضد قرطاجة. فقد قتل سكان المدينتين 500 رجل بعثت بهم قرطاجة لنجدتهما، ورموا بهم من فوق الأسوار، ثم فتحوا الأبواب في وجه الثوار، ولم يوافقوا حتى على دفن ضحاياتهم.

ضاعفت هذه الأحداث جرأة ماتُون وسْبِنْديوس، فضيّقا الحصار على العاصمة. غير أن عَمِلكار كان مستوليا على الأرياف، كما كان يستولي على المؤن التي كانت تبعث إليهما. وكان يساعده حنّيبَعْل الذي انتخبه الشعب قائدا عقب إبعاد حنّون، وجعله، حسبما يظهر، تابعا لِبَرْكا Barca، أما نارْفاس، فإنه من جهته أدى له خدمات عظيمة.

وكانت قرطاجة أيضا مهددة بالمجاعة، فاستصرخت هيرون Hiéron الذي عمل جهده لنجدتها، لأن الملك السرقوسي كان يعلم أن الرومانيين لن يعنوا أنفسهم بمراعاة جانبه إذا اختفت قرطاجة. أما الرومانيون فقد حافظوا بأمانة على المعاهدة الأخيرة، بل أظهروا المجاملة، ولو أن جفوة كانت ستقع بينهم وبين الحكومة القرطاجية في أوائل الحرب. لأن هذه الحكومة أعتقلت وسجنت أشخاصا كانوا يأتون من إيطاليا وينقلون الاطعمة للثوار. وبالتأكيد فإن ذلك كان من حق الحكومة القرطاجية، غير أن رومة غضبت وبعثت بالموفدين للمطالبة بإطلاق سراح السجناء الذين يبلغ عددهم نحوا من خمسمائة رجل. فلما تنازلت قرطاجة لمطالبهم، قدروا صنيعها، وأرجعوا لها جميع أسرى الحرب الصقلية الذين كانوا لا يزالون في قبضتهم. ومنذ ذلك الحين، صارت جميع مطالبها تلقى لديهم حسن القبول. بحيث أنهم طلبوا من التجار تزويدها بالأشياء الضرورية، كما منعوا عنهم أي اتصال مع المرتزقة والليبيين، ولم يستجيبوا لنداء ثوار سردانية. ولكي لا يخرقوا المعاهدة، فإنهم رفضوا ما عرضت عليهم اوتيكا الي سلمت نفسها لهم. فبفضل هذه المساعدات استطاع القرطاجيون مواجهة الحصار. وعلى النقيض من ذلك، فإن المحاصرين قد أوقع بهم عَمِلكار مجاعة شديدة إلى حد أنهم تخلوا عما يحاولونه.

4

بعد زمن قصير جمع ماثوس وسبانديوس أكثر من المحاربين شجاعة، وكان من بينهم الجنود الذين كان على رأسهم قائدا من الأهالي يدعى زَرْزاس Zarzas وقد شعرت هذه الجيوش في ملة كانت تطارد عَمِلكار فيها، وهي تتلافى الأراضي المنبسطة التي قد تلاقي فيها خيالة نارفاس والفيلة. ولم تكن هذه الجيوش أقل من خصومها في شدة

الهجوم، ومع ذلك فكثيرا ما تكبدت الهزائم بسبب أخطاء قادتها الذين لم تكن لهم خبرة، ولا يستطيعون مقارنة أنفسهم بقائد له مهارة فائقة. فقد كان بَركا يقضي آنا على الفرق التي يعرف كيف يعزلها ويحيط بها، وآنا آخر كان يجر معظم قوات العدو إلى المكامن، أو كان ينقض على هذه القوات بالليل أو النهار. وكان يرمي إلى الفيلة بمن يقع في يده من المحاربين.

وأخيرا استولى بمناورات لبقة على بعض المواقع التي أفادته جدا إلى حد أن أحاط بجميع جيش المرتزقة. ونظرا لأن الخنادق والتحصينات التي أحاطهم بها كانت تمنعهم من الفرار، لكونهم لا يجرؤون على المغامرة بخوض المعركة فإنهم استهلكوا مؤنهم ثم اضطروا لأكل لحوم البشر. ولم يكونوا يفكرون في الاستسلام بعد الجرائم التي اقترفوها. وفوق هذا، فقد كان رؤساؤهم يخبرونهم بأن النجدات ستاتي من تونس لتخليصهم، فكانوا يتماسكون بهذا الأمل.

وبعد أن أكلوا السجناء، وأكلوا العبيد بعدهم، ولم يروا أثرا للنجدات المنتظرة، هددوا الرؤساء الذين غلطوهم وكانوا مسؤولين عن آلامهم. فاضطر أوتاريت وزرْزاس وسْبانْديوس لمحاولة التفاوض مع عَملكار، فحصلوا على المقابلة معه، وذهبوا إلى المعسكر البونيقي يصحبهم سبعة آخرون من الضباط. وكانت الشروط التي فرضها عليهم عَملكار هي هذه : «أن القرطاجيين سيأخذون من بين الأعداء عشرة رجال يختارونهم، أما الآخرون فيمكنهم أن ينصرفوا ومعهم برداء لا غير». فلما أبرم العقد أعلن بَرْكا أنه يختار الموفدين العشر الحاضرين. وبذلك وقع في يده كبراء الثوار. ولما انتشر خبر اعتقالهم، ظن جنودهم وقوع الخيانة وتسارعوا إلى أسلحتهم لجهلهم بنصوص الاستسلام.

ولكن عملكار أحاط بهم، وأبادهم جميعا بمساعدة فيلته، وكان عددهم 40.000 رجل على قول پوليب.

ويضيف الكاتب أن هذا قد جرى «بالمكان المعروف باسم المنشار لأن مظهره يشبه هذه الأداة»، فالأمر يتعلق بالذرى المسننة، واللفظ يذكرنا بلفظ Sierra (أي المنشار Scie)، الذي أطلقه الأسبان على سلسلات من الجبال. إن الحرب كانت قد امتدت بين الجيشين زمنا طويلا إلى حدما لأن المرتزقة سبق لهم أن اندحروا عدة مرات، الأمر الذي يمكننا من الافتراض بأن المكان المعروف باسم المنشار لم يكن يبعد كثيرا عن تونس التي كان المرتزقة ينتظرون وصول النجدات منها. وكما لاحظ تيسو Tissot، لابد أن المكان «كان له مظهر مستدير، وينفتح إلى حدما ببعض الجهات من دائرته، ولكن يسهل إغلاقه والإحاطة به». فالمجال الذي وقع به تطويق الثوار، كانت عراقله قليلة، لأن عَملكار استعمل فيه فيلته بطريقة فعالة أثناء المعركة. ولكن هذه المعلومات لا تبدو كافية في التعرف على المنشار بصفة أكيدة. فحسب تيسو، يكون ميدان عمليات عَملِكار دائريا، تحيط تلال لها قمم مسننة، وهو واقع بالجنوب الغربي من زَغْوان وبالشمال الغربي للقيروان، على يمين وادي النبعان قرب عين السيف. أما السيد فيث Veith فيرفض هذا الافتراض ويقترح حلا يراه نهائيا. ويقول : على نحو 16 كيلو مترا غربي الحمّامات، على طريق تربط هذه المدينة بزغوان يوجد خط من الذرى تنتهي بقمم كأنها أسنان المنشار (جبل الجديدى، جبل منزل موسى). وهي تحد عند الجنوب حوضا صغيرا ثلاثي الشكل، تحيط به مرتفعات أخرى وعرة من جهة الغرب، متطامنة من جهة الشرق، وتؤدي إليها أربع ممرات تسهل حراستها. فالموقع، كما أوضح ذلك السيد فيث، يستجيب للمعطيات

الضنيلة عن هذه المشكلة. ولكن يبقى، أننا إذا بحثنا في جهة أخرى، هل لا نجد بها أيضا ما يستجيب لنفس المعطيات. فالذرى المسننة، التي هي من الكلكير أو من الشّسْت، ليست قليلة الوجود في المناطق المتجعدة بالشمال الإفريقي.

بعد هذا النصر استطاع عَمِلْكار وحنيبَعْل ونارْفاس أن يجولوا بكل أمان في المقاطعة البونقيقية، حيث تلقوا خضوع العديد من الليبيين، حيث استولوا على الكثير من (المدن). ثم زحفوا على تونس ليحاصروا بها جيش ماتوس. فعسكر حنّيبَعْل بالجهة الموالية لقرطاجة، بينما عسكر عَمِلكار بالجهة المقابلة وجيء بسيانديوس وبالسجناء الآخرين، فصلبوا أمام الأسوار، عى مرأى من رفقائهم في الحرب.

وأثناء ذلك، لاحظ ماتوس أن حنّيبَعْل كان بسبب اطمأنانه الكثير يهمل حراسة نفسه. فهاجم معسكره بغتة، وقتل عددا كبيرا من جنوده، وطرد من بقي منهم، واستولى على الأمتعة. بل إنه ألقى القبض على القائد نفسه، وعجّل بنقله وصلبه في خشبة سباندیوس، بعد إنزال جثته عنها. فقد عذب جنيبعل عذابا شديدا، وربط إلى هذه الخشبة وهو لا يزال حيا، كما أن ثلاثين من النبلاء الكبراء القرطاجيين قد ذبحوا حول جثة العبد الكَمْباني. ونظرا لبعد المعسكرين أحدهما عن الآخر، لم يعلم عَمِلكار بخروج ماتوس إلا بعد حين، وبعد أن أخبر به لم يستطع الذهاب لنجدة زميله بسبب شكلية هذه الأمكنة [28]. لذلك رفع الْحِصار عن تونس، واتجه إلى مصب بكْرادا حيث نصب معسكره.

وفي قرطاجة تم جمع كل الرجال القادرين على الحرب، ممن لم يكونوا مجندين بعد، وأرسل بهم إلى بَرْكا. وفي نفس الحين ذهب وفد

متكون من ثلاثين فردا من أعضاء الهيأة الإدارية او مجلس الشيوخ صحبة حنّون. وكان هذا الوفد مكلفا باستعمال جميع الوسائل الممكنة قصد التوفيق بين القائدين. وقد انعقد اجتماع حضره عَمِلكار وحنّون، واضطرا للعمل بالمواعظ البالغة التي أسديت لهما. ومن ذلك الحين صارا يعملان باتفاق كامل.

بعد أن اندحر ماثوس في عدة من المعارك التي جرى أكثرها غير بعيد من لِبْتيس [29]، قرر أن يخوض معركة تكون هي الحاسمة. وكان القرطاجيون يتمنون هذه المعركة مثلما يتمناها هو. فاستدعي الطرفان المتحاربان جميع حلفائهما، كما نودي على حاميات المدن التي كانت تحت سيطرتهما. ولما تمت الاستعدادات أخذ الطرفان معا في الهجوم في وقت واحد. فانحدر الليبيون، وقتل أكثرهم. أما الباقون منهم، اللاجئون في مدينة... (لم يذكر بوليب اسم المدينة ولا مكان المعركة) فقد استسلموا من بعد. وأُسِرَ ماثوس حياً. واستسلم جميع محكومي قرطاجة الذين كانوا قد انفصلوا عنها. أما بِنْزَرت وأوتيكا، فلم تكونا تنتظران رحمة ولا عفواً، ولذلك استمرتا في الثورة. غير أن حنّون وعمِلكار زحف أحدهما على بنزرت والآخر على أوتيكا. وسرعان ما أرغماهما على الاستسلام. ويبدو أن الشروط التي فرضت على المدينتين لم تكن قاسية جدا، لأن أوتيكا كانت أثناء حرب حَنِيبَعل لا تزال تحتفظ بمرتبة مرموقة، ولأن بِنْزَرت عبرت عن إخلاصها لقرطاجة، بأن صدّت الرومانيين بكل قوة بعد ذلك. وقد احتفل الشباب البونيقي بانتصاره احتفال تمجيد، ظهر فيه ماثون الذي لقي حتفه في عذاب أليم. ويقول بوليب Polybe : «فيما أعلمه، لم تتلطخ مطلقا أي حرب أخرى بمثل هذه الشدائد والجرائم».

إذا كانت خيالة ناقاراس قد أفادت قرطاجة كثيرا، فإن نوميديين آخرين قد انضموا للثوار، ولم يضعوا أسلحتهم بعد هزيمة ماثوس. وقد حاربهم عَملكار وحنّون اللذان أعيد انتخابهما قائدين. ولكن يبدو أن هذه الحرب كانت حربا قصيرة. ولقد أحرز القرطاجيون على انتصارات نجهل تفاصيلها، وربما كانت ترجع لعَملكار على الخصوص. وقد قيل لنا إنه أذن لجيوشه بأخذ المغانم الكثيرة، وأنه أعاد السلام إلى جميع إفريقيا، وأنه وسع حدود إمبراطورية قرطاجة. ونقرأ كذلك في ديودور Diodore أن القرطاجيين عندما أنهوا الحرب الليبية، أي الحرب ضد المرتزقة على ما يحتمل، عاقبوا قبيلة الميكتانيين Micatanes النوميدية، ولم يعفوا لا على النساء ولا على الاطفال، فكيف بالرجال ! وأنهم صلبوا جميع من وقعوا في قبضتهم. لذلك فإن ذرية هؤلاء الأهالي الذين لم ينسوا قسوة الغالبين، مكثوا يحركهم حقد عنيف عليهم.

انتهت قيادة حنّون بانتهاء هذه الحرب، بينما احتفظ عَملكار على النقيض من ذلك بقيادته. وكلف بتسيير أحد الجيوش إلى أسبانيا. وحسب پوليب، فإنه عبر البحر من أعمدة هرقل. فتستنتج من ذلك، وربما لا يبعد عن الصحة، أنه اتجه إلى مضيق جبل طارق عن طريق البر. فتكون المسيرة طويلة وشاقة، ولكنها كفيلة بجعل الأهالي يشعرون نحو قرطاجة بشعور الاحترام.

ولا يتحدث پوليب عن الحرب ضد النوميديين [30]، وإنما يختم روايته عن حرب ليبيا بانهزام ماثوس وبالاستيلاء على بنزرت وأوتيكا على يد عَملكار وحنّون. كما يذكر في مكان آخر أن عَملكار توجه إلى أسبانيا بمجرد انتصاره على المرتزقة. ويقول إن الحرب دامت ثلاث

سنين وأربعة أشهر. ولا شك أنه لابد من إدخال الحملة على نوميديا في هذه المدة من الزمن. فالمرتزقة لم يعلنوا الثورة قبل شتاء سنة 241-240، ثم إن عَملكار كان في أسبانيا منذ سنة 237. وعدا هذا فيستحيل أن نرتب بدقة التاريخ المتسلسل للأحداث التي رويناها من قبل [31].

وقد اندلعت الاضطرابات من جديد في إفريقيا بعد سنة 237 بقليل[32] ذلك أن حَسْدربَعْل الذي صحب صهره (حماه) عَمِلكار إلى أسبانيا قد عاد منها بأمر عَمِلكار ليحارب النوميديين. وفعلا قتل منهم 8000 وأسر 2000. أما الآخرون فقد دفعوا الغرامات.

وهكذا فإن قرطاجة التي انتقصت وكادت تقتصر على ما تضمه أسوارها، والتي هددتها المجاعة بالقضاء عليها، قد ركزت في آخر المطاف سيطرتها ونشرتها. ووسعت مقاطعتها الإفريقية. واستطاع البَرْكيون في السنين الموالية أن يتزودوا عن سعة من عند الليبيين والنوميديين بالجيوش التي كانوا في حاجة إليها لحروبهم في أوربا.

6

لم يستغل الرومانيون أثناء حرب المرتزقة الشدائدَ التي حلت بقرطاجة للقضاء عليها، بل إنهم قدموا لها المساعدات. لقد كانوا يتمنون بعض الوقت من الراحة بعد الصراع الطويل الذي كان ثمنه بالنسبة لهم هو جزيرة صقلية. ويمكن أن نفترض كذلك أن عنايتهم توجهت لجهة اخرى، فقد كانوا قلقين من الموقف المهدد الذي اتخذه الغاليون بوادي نهر الْبُو Pô. وبالإضافة لذلك، فإن الرومانيين في هذه الآونة لم يكونوا يحقدون على القرطاجيين، كما لم يكونوا يخشونهم إلى حد حب القضاء

عليهم. مع ذلك فإنهم لم يضيعوا الفرصة التي واتتهم سنة 237 في الاستيلاء بسهولة على جزيرة سردانية التي سبق أن رأينا أنها انتزعت من السيطرة البونيقية على يد المرتزقة الثائرين. ولقد دخل هؤلاء الثائرون في الحرب ضد الأهالي الذين أرغموهم على الفرار إلى إيطاليا. وإذ ذاك استصرخوا رومة، التي سبق لهم من دون جدوى ان استجدوا بها إبان ثورتهم، ولكنها، هذه المرة، ألقت إليهم بسمعها. وإذا كانت رومة قد أوضحت الأسباب الداعية لقرارها بالاستيلاء على الجزيرة، فلربما تكون قد احتجت بأنها لم تقم بعمل فيه عداء لقرطاجة التي لم تعد لها سيطرة على الجزيرة. غير أن القرطاجيين لم يكن لهم استعداد للتخلي عن حقوق قديمة جدا. لذلك فإنهم بعد تخلصهم من أشد ما كان يقلقهم بإفريقيا، قد هيأوا حملة لاسترداد ما هو ملك لهم. فتظاهرت ولاشك أن هذا العمل لم يكن سوى وسيلة لإرهابهم. وقد نجحت في ذلك. لأن قرطاجة كانت أضعف من أن تقدر على مواجهة حرب مثل هذه. فخلت عن سردانية وتعهدت بأن تضيف 1200 تالان إلى التعويض الذي ألزمت به أربع سنين من قبل. وقد استولى الرومانيون كذلك على كرسيكا، وحاولوا بما استطاعوه أن يبرروا هذا السلوك الذي قال عنه بوليب إنه لا مبرر له.

بعد استيلائهم على الجزيرة الكبيرة العائمة بين حوضي البحر الداخلي، بين إيطاليا وإفريقيا، تقدموا نحو الغرب خلال هذا البحر. إذن فيظهر أن قرطاجة تفقد إمبراطورية البحر الأبيض المتوسط الغربي التي هي مطمحها منذ قرون عديدة، كما أن أولئك الذين هزمتها أساطيلهم في ميلس Myles وإكنوم Ecnome وفي الرأس الطيب وجزائر إيگات Aegates، أصبحوا قادرين على الوصول بحرا في يوم واحد وليلة إلى موانئها.

كان القرطاجيون يحبون وطنهم، وكانوا قلقين من هذا التدهور ومن هذا الخطر المهدد، وكانوا يتمنون أن يتأثروا من الهزائم التي أرغمتهم على إخلاء صقلية، ومن الظلم الذي انتزع منهم سردانية، حتى ان عَملْكار بَرْكا قد كان لا يكف عن التفكير في ذلك. ونحن نعلم أنه عندما اخذ معه إلى أسبانيا ابنه الذي كان عمره تسع سنين، دعاه إلى المذبح الذي كان يقدم عليه القرابين للآلهة الكبرى، لأن يقسم اليمين بأن لا يكون أبدا صديقا للرومانيين. وبعد مضي خمسين سنة استطاع حنّيبَعْل أن يطمئن إلى أنه قد بر بقسمه.

إن فتح أسبانيا سيكون لعَملكار وكذلك لمن ورثوا عنه مشروعاته استعدادا لصراع جديد ضد رومة. وجمهورية قرطاجة باستيلائها في الهضبة الإيبيرية على المناجم الفضية الغنية، لن تعاني من نقصان العملة الذي كثيرا ما شل جهودها خلال حروبها بصقلية. ومن بين الأهالي الذين سيصبحون تحت حكمها، ستجند الجنود المهرة بأكبر سهولة وبنفقة أقل مما يلزمها للشعوب الحرة. وأسبانيا كانت بعيدة عن إيطاليا وعن قرطاجة، فيكون إذن بمستطاع عَملكار أن يؤمل أنه لن يتوقف من البداية بتدخل الرومانيين لشعورهم بالخطر، ولن يتحمل الرقابة المرتابة والغيورة للحكومة البونيقية [33]. ومع ذلك فمهما يكن ما قاله بعض المؤرخين اللاتانيين حول هذا الموضوع، فليس هو الذي نقل الحرب إلى إسبانيا، بعد أن حارب النوميديّين، وحتى الحذرون، أي الذين لم يكونوا يفكرون في القطيعة عاجلا او آجلا مع رومة، قد كانوا لاشك يتمنون تعويضا عن ضياع جزر البحر الأبيض المتوسط، ويتمنون أسواقا تجارية جديدة، كما يتمنون على الخصوص هذه المناجم الفضية التي تساعد، بالإضافة إلى منافع أخرى، على أداء التعويضات اللازمة

للغالبين دون عناء. وقد جد عملكار والقائدان اللذان خلفاه في أن يجعلوا الحرب الإيبيرية حربا شعبية، وذلك بإرسالهم بعض رجال الطبقة الحاكمة الذين لم يجدوا في مصلحة الوطن سببا كافيا لمساندتهم.

كان الفينيقيون من سورية ومن ليبيا، كما قلنا من قبل، قد أسسوا على شواطئ الجنوب الأسباني عدة متاجر وبعض المستوطنات التي كان أهمها هي قادس. ومن هذه المدينة كانت تتطلب سفن التجارة والصيد. وتتقدم إلى بعيد، طوال سواحل المحيط. على أن هذه المدينة لم تكن واسعة المدى، والأغلب على الظن أنها لم تكن تملك شيئا في القارة التي تقابل جزيرتها. وكان الأهالي من سكان الساحل والوادي الأسفل لنهر الوادي الكبير منذ وقت طويل سابق يتلقون بسرور الأشياء التي يصنعها الفينيقيون أو يستجلبونها. ولكن ليس لدينا في أسبانيا ممتلكات ترابية شبيهة بما كانت تملكه في صقلية وإفريقيا (34)، فعَملْكار، بمساعدة صهره حَسدْرُبَعْل، كون لها مقاطعة إيبيرية شاسعة.

ومعلوماتنا ضئيلة جدا عما فعله أثناء مدة السنين التسع التي جرت بين نزوله في قادس وموته. فلقد تحارب وتفاوض، وأخضع العشيرتين الكبيرتين اللتين كانت إحداهما تسكن شعب الوادي الكبير، وتسكن الأخرى الضفة الجنوبية، وهما التُّرْدوليون Turdules المعروفون باسم تُرْدولي Turduli، وتُرْدتاني Turdetani، وتَرْتيسيوي Tartessioi، وثورْسيتاي Thersitai، وكذلك البَسْتوليّون Bastules المعروفون أيضا باسم بَسْتولي Bastuli وبَسْتتاني Bastetani، ومَسْتيانوي Mastianoi. كما انتصر على آخرين، من بينهم الكَلْتيون Caltes. ويؤكد البعض أن زعيما يدعى أنْدُرْتيس Indortès، قد جاء ومعه 50.000 مقاتل، ولكنه فر قبل أن يخوض المعركة. ومع ذلك ألقي عليه القبض، وسَمَل بَرْكا عينيه، وعذبه ثم

صلبه في الأخير. أما الأسرى الذين لهم منزلة أقل فكانت معاملتهم أحسن، لأن القائد كان يأخذهم إلى خدمته حينا، أو يسرحهم لحال سبيلهم حينا آخر ليتألفهم.

أما عن الساحل الشرقي حيث لم يكن للقرطاجيين بالتأكيد موقع وراء رأس بالوس Cap Palos، فإنه أنشأ مدينة بالقرب من رأس لاناو Cap La Nao، حيث توجد مدينة القَنْت Alicante، وجعل منها موقعا عسكريا. وكان هذا المحل أقرب إلى قرطاجة من قادس، كما كان موقعه الأفضل ليستعمل نقطة انطلاق للاستيلاء على النجد الأوسط الإسباني.

في شتاء 229-228، ترك بهذه المدينة فيلَتَه ومعظم جيوشه وذهب لمحاصرة هيليسي Hélicé، بينما كان حَسْدرِبَعْل، على ما يظهر، يقوم بحملة في جهة أخرى ومعه أكثر من مائة فيل. وقد جاء لإنقاد المدينة ملك الأوريسيين Orisses. وهم على ما يبدو نفس الأورْتانيين Oretani الذين كانوا يسكنون المناطق الواقعة إلى جنوب وشمال جبال سيرّامورينا Sirra Morena. وتظاهر بالتفاوض مع القرطاجيين ثم هاجمهم وأوقع بهم الهزيمة. فأما عَملكار فقد غرق أثناء فراره وهو يعبر على فرسه نهرا كبيرا، بينما استطاع أبناه حَنيبَعْل وحَسْدربَعْل أن يصلا لمدينة القنت Alicante.

فوصلها صهره حَسْدربَعْل على جناح السرعة، وعينه الجنود قائدا، وكان تعلقهم بالبَرْكيّين شديدا، ثم صادق شعب قرطاجة على هذا التعيين. وقد جمع جيوشا كثيرة هزم بها ملك الاوريسيين، وأعمل التقتيل انتقاما لهزيمة عَملكار وموته، ثم استولى على اثنتي عشرة "مدينة" لهذا الشعب وعلى كثير غيرها. وجميع شعوب أسبانيا الشرقية حتى نهر الأيبر Ebre اعترف به قائداً عسكريا أعلى. وكان جيشه على ما

قيل يبلغ 60.000 من المشاة، و8000 فارس، و200 فيل. غير أنه كان أكثر مهارة في استخدام الوسائل السليمة. لذلك شرع في الاستيلاء المعنوي على الأسبانيين وتزوج بنت أحد الملوك الأيبيريين. كما أن عاصمة حقيقية، بلغ طول محيطها عشرين اسْطاداً (3 كيلومترات ونصف) قد تمّ تأسيسها على يده، في موقع ألْيَق من موقع الْقنْت، وبالقرب من رأس بالوس، في جون هو أحسن ملجأ بالساحل الجنوبي لأسبانيا، وبالقرب من المناجم الغنية جدا بالفضة. وأطلق عليها اسم قَرْت حَدَشْتْ Carthage، كسم أمها. ولا تزال حتى اليوم تحمل اسم كَرْتَجِينّا [35] Carthagène . وقد أقام بها حَسْدربَعْل معامل كبيرة ومصانع للسفن، وربما داراً لسك العملة أيضا، كما بني بها قصرا بديعا، الأمر الذي جعل أعداءه بقرطاجة الإفريقية يدّعون بأنه كان يحلم بأن يصير ملكا. ولكنه في سنة 221، أي بعد نحو من ثمانية اعوام بعد موت عَملِكار، لقي حتفه بدوره، إذ قتله أحد الكلْتِيِّين.

لم تكن سن حَنيبعل، كبر أبناء بَرْكا، سوى ست وعشرون سنة، ولكن لما كلفه حَسْدربَعْل زوج أخته بقيادة الخيالة، كان قد برهن على مواهبه العسكرية. وعلى غرار حَسْدربَعْل فإنه نال منصب القيادة بتعيين الجيوش له وبتصويت الشعب القرطاجي. وهو أيضا تزوج امرأة من الأهالي، وكانت من كَسْتولو Castulo بأرض الأورتانيين، كما تابع عملية الفتح بالسلاح. فمنذ سنة 221 اقتحم أرض الألْكاديين (Olcades شرقي قشتالة الجديدة)، واستولى على عاصمتهم، وألزمهم دفع مقادير كثيرة من المال. وفي سنة 220 غادر قرطاجنّة، وزحف على الفَكْسيِّين Vaccéenes بالجنوب والشمال من المجرى الأوسط لنهر دورو Douro، حيث استولى على سَلَمَنْقة Salamanque وعلى مدينة أخرى. غير أنه رأى عند عودته كثيرا من الشعوب تنهض ضده، وكان يهيجها بعض

الألكاديين والفكسيين. وكان أهم الثائرين الكربِتانيين (بناحية طليطلة Tolède). فلم يجرؤ على مواجهة هذه القوات التي كانت تفوق قواته جدا، وانسحب على جنوب نهر التاج Tage. فلما عبره أعداؤه من بعده سحقهم بفيلته التي كانت تعدو على طول الضفة، وقتل فيهم بخيالته. ثم عبر النهر من جديد وأحرز انتصارا كبيرا على الباربار الذين لا شك ان هذا الاندحار الأول قدفت في عضدهم. وحسب بوليب فإن عددهم بلغ 100.000 رجل. وعاد بعد ذلك حنّيبَعْل إلى قرطاجنّة من جديد حيث عسكر للشتاء. ويقول نفس الكاتب : «لم يعد يجرؤ أحد فيما قبل نهر الإيبر Ebre على النظر إليه وجها لوجه، باستثناء الساگُنْتيين Sagontins».

ومع ذلك، فكم كان بينه وبين أن يكون جميع الأسبانيين تابعين حقيقة لقرطاجة !! ففي النجد العالي، بين وادي الإيبر، والتاج، والدورو، كان الكَلْتِبيريون Céltibères لا يزالون أحرارا. وكذلك الشأن بالنسبة للأهالي بشمال الهضبة، وكذلك أيضا بالنسبة لأكثر الأهالي الذين كانوا يسكنون أرض البرتغال الحالية. لهذا فيظهر أن السيطرة البونيقية لم تكن متركزة سوى بالجنوب والشرق، أي في الأندلس وفي مقاطعتي مُرْسية وبَلَنْسِية. فقد كان بهذه الجهات سكان لهم حضارة متقدمة، وطبع هادئ نسبيا، وكان أكثرهم على اتصال بالفينيقيين منذ زمن طويل. أما شمال جبال سيرّامورينا فإن الشعوب الشرسة والمتوحشة تقريبا وهي التي هزمها البَرْكيون، وكانوا يطالبونها بالأتاوات وبالرجال. قد كانت تطيع لأنها أعطت الرهائن ولأنها لم تكن تشعر بأنها هي الأقوى، ولكنها كانت على استعداد كبير للثورة. فمنذ سنة 219 كان لابد لحنّيبَعْل أن يبتعد عن ساگونْت Sagonte التي كان يحاصرها، وذلك ليقضي على بداية للثورة عند الأورْتانيين والكَرْبِتانيين.

إذا كان العمل العظيم الذي شرع فيه سنة ٢٣٧، لايزال في بدايته بعد ثمان عشرة سنة، فإن البَرْكيين كان لهم فيما يظهر الوسائل والمواهب الضرورية للوصول به إلى نهايته. وعلى كل حال، فبالاستغلال النشيط للمناجم، وبأموال المحكومين وبالمجندين المأخوذين منهم، وكذلك بالمرتزقة الذين كان يسهل أخذهم من الشعوب التي كانت لاتزال حرة وتجاور الأراضي الخاضعة، بكل ذلك أصبح بمستطاع قرطاجة أن تجعل إسبانيا تساهم مساهمة واسعة في حرب جديدة ضد رومة.

7

لم يهتم الرومانيون بالفتوح الأولى لعَمِلْكار. بحيث أنهم لم يبعثوا إلا في سنة 231 سفارة لترى ما كان يجري في نواحي الغرب البعيدة. وقد استقبل بَرْكا الموفَدين استقبالا حسنا، وطمأن نفوسهم قائلا : كان من الضروري أن وطنه يجد ما يؤدي به التعويض اللازم عليه لرومة. ولكن الغالب على الظن أن أهل مَرْسيلية وأمْبوريس Emporis كانوا ينظرون بأسى للنجاح الذي لقيته القوات القرطاجية. فهل منافستهم القديمة ستحطم تجارتهم في شمال أسبانيا ؟ وهل ستتقدم حتى جبال البيرني، بل وتعبرها ؟ لهذا فيسوغ الاعتقاد بأنهم ناشدوا رومة، التي هي حليفتهم، والتي من مصلحتها، توقعا لحدوث حرب في الهضبة، أن تخص نفسها بمنطقة تستطيع فيالقها أن تنظم فيها نفسها قبل خوض المعركة. وفي سنة 226 بعث سفارة جديدة، حصلت من حَسْدربَعْل على الوعد بأن الجيوش القرطاجية لن تعبر نهر الإيبر Ebre. وكان الرفض معناه المجازفة نحو القطيعة، التي ربما لم يكن مستعدا لها. وفوق ذلك، فإن منع قرطاجة من تخطي نهر الأيبر معناه الإذن لها بالوصول لهذا

النهر، ومعناه القبول الضمني لفتوحاتها السابقة والقادمة في معظم الأرض الإسبانية [36]. وإلى غاية هذا الوقت، لابد أن البَرْكيين تساءلوا هل لن يُحطّم عملهم قبل أن يكونوا قادرين على الدفاع عنه. فهذه المعاهدة، إذا حافظت عليها رومة، ستخلصهم من مخاوفهم. وقد خرقتها رومة، ولكن بعد ست سنين، كان حَسْدربَعْل وحنّيبَعْل قد عرفا كيف يستفيدان منها.

جنوبي الإيبر، بين هذا النهر ورأس لاناوُو Cap La Nao، كانت تقوم قريباً جدا من الساحل مدينة إيبرية قليلة الأهمية، هي ساگُنْت Sagonte التي ترك لها القرطاجيون استقلالها. ولم تكن هذه المدينة تضايقهم، كما كان لابد لهم من مجهود عظيم للاستيلاء عليها، لأنها كانت واقعة على مرتفع وعر ولها أسوار متينة. وعلاوة على هذا، كان بها مجموعة من الوجهاء الذين كانوا يودون أن يعيشوا معهم في سلام. غير أن خلافا حدث بين أهل ساگُنْت وبين إحدى القبائل المجاورة التابعة لقرطاجة. والغالب على الظن أن هذا هو السبب الذي جعل قسما من سكان المدينة يرتأون التماس حماية رومة، وكانت هذه الأخيرة تخوض آنذاك في بلاد الغال القريبة Cisalpine حربا ضروسا ضد الغاليين، فلم يكن لها متسع للتدخل في أسبانيا. غير أن دعوة جديدة قد وجهت لها من بعد ذلك ونالت قبولا حسنا. وعند بداية سنة 219 بعث إلى ساگنت بالموفدين الذين مثلوا دور الحَكَم، ومكنوا الحزب الروماني من إبادة أهم خصومه. ثم توجه هؤلاء الموفدون عند حنّيبَعْل في قرطاجنّة وطالبوه بالتوقف عن أيّ عمل للفتح بشمال نهر الإيبر، وكذلك عن أي عمل معاد لساگُنْت حليفة وطنهم. فأجاب بأنه سيثأر للضحايا الذين وقع عليهم الظلم ثم بادر بطلب التعليمات من قرطاجة. فقرر مجلس الشيوخ أن يترك له حرية اتخاذ القرار، لما وصل الموفدون الرومانيون إلى إفريقيا،

وجاءوا يخاطبون هذا المجلس بنفس اللهجة التي خاطبوا حنّيبعل بها، فإنهم صُرفوا لاشك.

لم تكن رومة على صواب، لأن اتفاقية سنة 226 تركت للقرطاجيين عمليا قسم الهضبة التي كانت تقع به ساگُنْت. ولكنها اعتقدت أنها بعدما قهرت الغاليين بوادي نهر الْبُو Pô، تستطيع الآن أن توجه أنظارها إلى أسبانيا. فقد رأت أن نشوء إمبراطورية بونيقية بين نهر الإيبر ومضيق جبل طارق أمر فيه خطر كبير عليها. فانتهزت الفرصة التي قدمتها ساگُنْت لها لتوقع الإهانة بأعدائها القدماء، لأنها كانت تتمنى أن يتنازلوا، وبذلك يفقدون حرمتهم في أعين الأهالي الذين لم يكن خضوعهم تاما وكانوا لا يزالون يهددون.

لقد فهم حَنيبَعْل أن ثورة عامة ستندلع إذا هو قبل هذه الإهانة. ومن جهة أخرى فقد كان على استعداد لخوض الصراع الحاسم الذي لم يجد عَملِكار وحَسدْرُبَعْل وقتا للقيام به. ولو كان هو الذي أثاره لساور الخوف من تهوره كثيرا من مواطنيه ولعارضوا تنفيذ مشاريعه، غير أن سلوك رومة وحّد النفوس وأعطى للبَرْكيين السبب القانوني للقطيعة. فالاستيلاء على ساگُنْت سيفضي إلى الحرب حتما، إلى حرب تكون فيها العدالة بجانب قرطاجة. لذلك فإن حنّيبَعْل حاصر بضراوة هذه المدينة الصغيرة. وقد قاومته مدة ثمانية أشهر، دون أن ينجدها حُماتها الذين كانوا منشغلين في إيليريا Illyrie، والذين كانوا مقتنعين لاشك بأن أحدا لن يجرؤ على مخالفة مامنعوه، وبذلك لم يتعدوا للعمل على احترامه.

كانت المدينة البَطَلة قد سقطت حين وقفت أمام مجلس شيوخ قرطاجة سفارة رومانية تطالب بإلحاح بتسليم حنّيبَعْل وأهم مساعديه. وقد تجشم أحد أعضاء المجلس عناء البرهنة على أن القرطاجيين كانوا

على حق في مهاجمة ساكنت. ومع أن الاتفاق الذي عقده حسدربعل، كان أقوى حجة يدلي بها، فإنه امتنع عن الاحتجاج بها، لأنها لم يسبق أن عُرضت على موافقة الحكومة البونيقية ولكنه ذكر معاهدة سنة 241 التي نظمت الحقوق والواجبات المتقابلة لكل من قرطاجة ورومة، ولم تذكر فيها أسبانيا مطلقا. فقرطاجة إذن لم تخرق البند الذي بمقتضاه تتعهد الجمهوريتان بالامتناع المتبادل عن أي هجوم ضد حلفائهما، لأن هذه المعاهدة لا تذكر ساكنت التي لم تكن آنذاك حليفة لرومة[37] فاكتفى السفراء بأن أجابوا قائلين : كانت المذاكرات ممكنة قبل تحطيم ساكنت أما الآن فلم يبق للقرطاجيين سوى أن يسلموا المجرمين، ويبرهنوا بذلك على أنهم ليسوا شركاء لهم. ثم ثنى أكبر الرومانيين سناًّ رداءه ثنية عريضة وقال : «لقد جئتكم بالسلم والحرب، فاختاروا ما يجب أن أتركه لكم». فأجاب رئيس المجلس : «اخترْ أنْتَ». فأعلن الآخر أن يترك الحرب، فصاح جُلّ أعضاء المجلس أنهم يقبلون».

التاريخ العسكري لقرطاجة

الفصل الرابع

حرب حَنّيبَعْل

1

قرر الرومانيون أن يبادئوا بإرسال جيش إلى إفريقيا، بينما ينزل جيش آخر في أسبانيا. فيمنعون حَنّيبَعْل إما من إنجاد وطنه، وإما من الذهاب إلى إيطاليا، إذا فرضنا أن أعداءه كانوا على علم بمخططه.

وكان أحد قنصلي سنة 218 وهو تيبيريوس سَمْبرونْيوس لُنْگوس Tiberius Sempronius Longus، هو الذي اختارته القرعة ليقود الحملة على إفريقيا. فأخذ 26.400 جندي، (أي فيلقين من 4000 من المشاة و300 فارس، و16.000 من المشاة و1800 فارس من الحلفاء)، و160 سفينة خماسية. ثم اتجه إلى مِسّينة Messine التي كان الملك هيرون Hiéron قد وصلها في انتظاره، ثم اتجه إلى ليلبي Lilybée. وبينما كانت الاستعدادات تتم في هذا الميناء، ذهب سمبرونيوس ليستولي على مالطة، حيث سلّم له الأهالي الحاكم العسكري البونيقي مع الحامية.

أما القنصل الآخر، وهو بوبليوس كرنيليوس سيبيو P.C. Scipio المكلف بالحملة على أسبانيا، فقد تأخر بسبب ثورة قام بها البويّون Boïens والأنْسُبْرِيون Insubres وهم الغاليون بوادي نهر الْبو، فاضطر لأن يبعث بجيوشه لمحاربتهم، وحشد جنوداً آخرين. وكان هو لا يزال بإيطاليا لما عبر حَنيبعل جبال البيريني متوجهاً نحو نهر الرُّون.

كان ابن عَمِلْكار قد اتخذ منذ فصل الشتاء الوسائل الضرورية لسلامة الإمبراطورية القرطاجية ولتنفيذ خططه. فقد سبق أن بعث إلى إفريقيا بجنود أسبان، واستقدم الأفارقة إلى أسبانيا. وهذه وسيلة ناجحة لتلافي وقوع الثورات، لأن هؤلاء الرجال المبعدين عن ذويهم سيكونون رهائن، كما أنهم لن يتفاهمو مع السكان الذين سيعتبرونهم أجانب. وقد ذهب إلى قادس ليترأس عملية هذا التبادل، وليرجو رضا الرب الكبير ملْقارْت. ولما عاد إلى قرطاجنّة وصله بها خبر إعلان الحرب. وفي ربيع سنة 218، في شهر مايو على ما يحتمل، أخذ معه الجيش الذي كان قد جمعه.

إن حنّيبَعْل سيصبح، على حد قول پُوليب Polybe، روح هذه الحرب. لقد كان خفيف الحركة، قويا، جريئا ولو أنه لم يكن يعرض بنفسه سدى، ويشبه بِرْهوس Pyrrhus في المجازفة الجنونية، ويترفع عن الملذات المبتذلة، قادرا على تحمل الحرمان والمشقات. لقد خلق ليحيى حياة المعسكرات، ويمكن أن يتخذ قدوة لجميع رفقائه، إذ بفضل تشدده في النظام، وأكثر من ذلك بفضل هيمنة عبقريته، كان يوحدهم في طاعة مطمئنة. وكانت المعارك القاسية التي قام بها البَرْكيون ضد الأسبان قد كونت ضباطا مهرة، وجنودا تعودوا على المسيرات الطويلة، وعلى خدع ومناوشات حرب العصابات، وعلى المصادمات في المعارك المصفوفة.

لكن الذي جعل لهذا الجيش قوة على الخصوص، كان هو الخيالة العديدة السريعة، التي كانت لا تتعب، كما كانت صالحة لمختلف المهام. وكان حنّيبَعْل قد تعلم في مدرسة عَملْكار وحَسدْرُبَعْل، ودرس اسْتراتيجية الإغريق. وقد أضاف إلى أمثلة الماضي ترتيبات ومناورات جديدة، مثل ترتيب مُشاته في كَنْس Cannes، وكذلك مثل تنسيقاته للعمليات الالتفافية الكبرى التي ضمنت له النصر في ذلك اليوم، كما في اتْريبيا Trébia. ولم يكن يهمل الوسائل الصغيرة، كما كان أعرف الناس بنصب الكمائن ومخاتلة العدو بالخدع المحكمة. وفي آن واحد، كان بالغ السرعة في التصور وفي التبصر بالعواقب، فكان يهيئ التنفيذ بجميع تفصيلاته، ثم ينجز مخططه بجرأة وصمود لا يقبلان إلا النجاح الكلّي. وإذا جدت ظروف لم تقع في حسبانه، فإنه يعدل مخططه بتوفيق. ولم يحظ غيره من رجال الحرب، باستثناء نابليون، بمواهب غالبا ما ينافي بعضها بعضا وهي : الخيال والرأي والعزيمة.

وكما كان قائدا عظيما، فقد كان أيضا سياسيا ماهرا دفع للتنافس في مساعدته على تحقيق أهدافه قبائل ومدنا جمهورية وملوكا، فعاونته خشونة الباربار والحضارة الناعمة والأغراض والمطامع التي تبدوا متنافرة فيما بينها. ومع علمه الواسع بتفوقه على من كان يريد استخدامهم، فإن هذا القرطاجي اللبق كان يعلم كيف يلاطف كبريائهم وكيف يقنعهم بأن حظه هو وحظوظهم متضامنة.

لقد رأينا في قضية ساگُنْت Sagonte التي سببت الحرب أنه قد عمل باتفاق مع حكومة قرطاجة. وأنه استعمل كما أراد القوات العسكرية التي في أسبانيا وفي إفريقيا. وأن أخاه حَسْدربَعْل هو الذ خلفه بالهضبة الإيبيرية التي فتحها البَرْكيون. وكذلك فإن بعضا من أقرباء حنّيبَعْل

ومن الضباط الذين عينهم، قد نالوا قيادات مهمة، أما تحت إمرته مباشرة، وإما في إسبانيا. وصقلية، وسردانية، وأنه أجرى بعض المفاوضات بمبادرة منه، وعقد أحلافا باسم الحكومة البونيقية، التي اكتفت بالموافقة عليها. وهكذا فقد وكل إليه بمصير وطنه، بينما في إيطاليا كان مجلس الشيوخ يسهر على مصير رومة. ولقد كان الحزب البَرْكي في بداية الحرب هو الذي بيده السلطة، فاحتفظ بها وجعلها في خدمة رئيسه، لأن المعارضين كانوا قلة لا حول لها. لذلك فلا يصح أن نقول، مع بعض المؤرخين الرومانيين، إن قرطاجة لم تحسن مساندة الرجل العظيم الذي كان بعيدا عنها بخوض الحرب لأجلها. فالحقيقة أنها رمت في المعركة بكل قواتها، وبكل ثرواتها، وليس هناك ما يسوغ الاعتقاد بأنها استخدمت هذه القوات والثروات في غير ما أراده حنّيبَعْل.

غير أنها لم تكن تستطيع وحدها أن تقهر رومة. ولم يكن حنّيبَعْل يجهل هذا. لذلك فإنه على غرار ما فعله مثْرِيدات Mithridate من بعد،كان يريد أن يجر جميع الذين هزمتهم رومة، وجميع الذين كانت تهددهم، كشعوب الهضبة الإيطالية الذين لم يمر بعد نصف قرن على مقاومتهم الأخيرة، وكالغاليين أهل وادي الْبُو Le Pô الذين لا يزالون حديثي العهد بالخضوع والذين ثاروا منذ ربيع سنة 218، وكأخوانهم الذين وراء جبال الألب، وكانوا يتلهفون للمغامرات والنهب، وكالمدن الإغريقية بجنوب إيطاليا، وكانت حليفة وهي في الحقيقة تابعة، وكسِرَقسوة التي صارت جيباً رومانياً في ولاية صقلية، وكالسردانيين les Sardes الذين يسئ السادة الجدد معاملتهم، وكملك مَقْدونيا Macédoine الذي عزم على أن لا يسمح للرومانيين بالاستقرار النهائي بسواحل إيليريا Illyrie.

كان لابد من الحصول على انتصارات باهرة لإحياء الآمال والأحقاد في كل مكان، ولتكوين الحلف الواسع حول القائد المعروف بانتصاراته السابقة، وفي ذلك ما يساعده على تتميم انتصار الأعداء الذين يستطيعون بفضل تفوقهم البحري أن يتقووا بحسب احتياجاتهم، والذين يدخلون في حياتهم ثورات للأهالي، إن كل هذا، إذا حدثت هزيمة، معناه الانهيار السريع للإمبراطورية البونيقية. وحتى إذا اندحر الرومانيون فلن يخسروا سوى الجيوش التي استعملوها في هذه الحملات البعيدة. فلابد إذن من الذهاب لمحاربتهم في إيطاليا، وإرغامهم بذلك على ترك خططهم الهجومية، وإرغامهم على الدفاع عن ترابهم، بل وعن وجودهم.

لم يكن للقرطاجيين أسطول بحري صالح لتأمين نقل جيش كبير، ولم يكن لهم على السواحل الإيطالية أي منطقة ولا مدينة يمكن ان ينزلوا بها. فليس هناك إذن سوى الطريق البرية عبر جبال البيريني Pyrénées والألب Alpes. فهي تقود إلى سهول نهر الْبو Le Pô التي ستقدم خيرات أرضها الخصبة، والتي يظهر ان سكانها الغاليين Gaulois مستعدون لينهضوا جميعا ضد الرومانيين. فهناك سيجد حنّيبَعْل ما يريد من الجنود الذين عرفوا بالشجاعة، وهناك سيجد القاعدة الاستراتيجية لعملياته في الهضبة. ولاشك ان اختراقه لبلاد الغال La Gaule سيكسبه حلفاء آخرين، يغريهم هذا الزحف الجريء كما تغريهم المغانم الموعودة. وباتصاله الحر مع أسبانيا فإنه سيأخذ منها ما يريده من الأموال والرجال.

فهل هذا المخطط الذي سيقوم حنّيبَعْل بإنجازه، قد كان أبوه هو الذي وضعه ؟ لن نستطيع متابعة تيتْ ليف Tite-Live في تأكيد ذلك. غير

أن المتأكد هو أن عملكار كان يريد معاودة الصراع ضد رومة، كما يحتمل أنه هو أيضا عمل لإحراز نصر حاسم بالمباداة بالهجوم. وحيث انه لم يعمل لإنشاء أسطول بحري قرطاجي جديد، فيمكن الافتراض بأنه كان ينوي مهاجمة إيطاليا عن طريق بلاد الغال.

وهل كان حنّيبَعْل ينوي تدمير رومة ؟ لاشك أنه لم يكن ليتركها لو تمكن من السيطرة عليها. ولكنه كان يعرف أنها تقريبا يستحيل أخذها. لذلك اكتفى بتركها قائمة شرط أن تصبح غير قادرة على منافسة قرطاجة بشأن البحر الابيض المتوسط الغربي. وحتى بعدما نكبها في كنس Cannes في هزيمة لا يرمم صدعا على ما يظهر، فإنه حسب ما قيل حاول التفاوض من أجل الصلح. وكذلك المعاهدات التي أبرمها بعد ذلك بوقت قصير مع فيلبْ المقدوني Philippe de Macédoine، فإن بعض موادها تبرهن على ان الحليفين لم يقررا فناء الدولة الرومانية (38).

2

إن مصادرنا عن تاريخ الحرب البونيقية الثانية متعددة، فهي: پوليب Polybe الذي وصلتنا روايته عنها كاملة حتى معركة كنس Cannes التي تحدث عنها (الكتاب الثالث)، بينما لم يبق منه سوى نبذ عن بقية هذه الحرب، وكذلك بعض القطع من ديودور Diodore في الكتب 25-27، ومن تيت ليڤْ Tite-Live الكتب 21-30، وكذلك مؤلف أپيان Appien في الأقسام المتعلقة منه بحملة حنّيبَعْل، وأحداث إسبانيا وإفريقيا، وقطع من ديون كاسْيوس Dion Cassius، وخصوصا مختصر كاسيوس الذي وضعه البيزنطي زوناراس Zonaras، وكذلك ما كتبه فالير مَكْسيم Valère - Maxime، وسيليوس إيطاليكوس، وفْرونتان Frontin، وبلْوتارك

Plutarque (في ترجمته لحياة فابيوس مكسيموس وحياة مرسيلوس)، وكذلك فلوروس Florus، وأوتْروب Eutrope، وبول أوزور Paul Orose الذي ينقل عن تيتْ ليفْ.

وماهي الصادر التي اعتمدها الآخرون، وخصوصا منهم پوليب وتيتْ ليف ؟ كثيرا ما بحثت هذه المسألة ولكنها لم تحل. لذلك فسنكتفي هنا بإعطاء بعض الإيضاحات المختصرة.

إن تاريخ حنّيبَعْل قد رواه عدة من الكتاب الإغريق، فقد ذكرت أسماء أوماخوس Eumachos، وكْسينُفون Xénophon، وخيرْياس Chairéas، وسيلِنوس Silénos، وسوسلوس Sosylos (39) . ونعلم أن هذين الأخيرين كانا يصحبان القائد البركي ، وأنهما لم يكتبا عن أعماله الباهرة فحسب، بل رويا أيضا بعض الأحداث التي لم يحضرا فيها. أما خيرياس Chairéas فيبدو أنه على غرارهما كان معاصرا لحنّيبَعْل، بينما ليس لدينا ما نقوله عن أوماخوس وكْسينُفون. وكذلك تحدث عن الحرب البونيقية الثانية كتّاب رومانيون نعرف منهم اثنين هما فابيوس بِكْتور F.Pictor وسِنْسيوس المِنتوس Cincius Alimentus.

ومن دون شك فإن پوليب لم يعتمد إلا قليلا على خَيْرياس وسوسِلوس الذين تحدث عنهما بألفاظ مهينة، وتبرهن قطعة من سوسِلوس بأنه لم يعتمده في عرضه للمعركة البحرية التي جرت عند مصب نهر الإيبر سنة 217. ومع أنه لم يذكر سيلنوس فيما بقي من مؤلف هذا الأخير، فلاشك أنه قرأه بأنه يشير إلى قصة يذكر عنها سيسرون Cicéron أن سيلنوس تلقاها. فأخباره الدقيقة حول ما جرى لدى القرطاجيين، لابد أن معظمها منقول عن هذا الكاتب الذي حضر

معارك حنّيبعْل، أي عن هذا المؤرخ القدير الذي امتدحه سيسرون. ورجع پوليب كذلك إلى بعض الكتّاب الرومانيين، ومن بينهم فابْيوس بِكتور (لأنه يذكره بمناسبة الحرب البونيقية الأولى وبداية الثانية). كما تلقى معلومات شفوية وربما مكتوبة في بيوت الأرستقراطية التي اعتاد زيارتها في رومة.

وسنرى أن تيتْ ليڤ اعتمد كثيرا على پوليب فيما كتبه عن حملة سِپْيون على إفريقيا. أما فيما يخص الأزمنة السابقة فالمؤرخان معا غالبا ما تبدو عليهما مشابهات وثيقة. فهل نقبل أن تيتْ ليڤْ Tite-Live استقى مباشرة من پوليب ؟ وهل يكون تيتْ ليڤ قد استعمل واحدا أو أكثر من المؤرخين الذين نقلوا عن پوليب ؟ وهل كان هناك مصدر واحد أو عدة مصادر مشتركة لپوليب ولكاتب واحد أو لعدة كتاب قد يكون تيت ليڤ نقل عنهم ؟ يبدو جيدا أن أياً من هذه الافتراضات لا يجب أن ينحى، وإنما الصعوبة في تعيين الحالات التي يُفضل فيها أحد الافتراضات عما سواه. فأما فيما يتعلق بنهاية الحرب بإسبانيا، وكذلك فيما يتعلق بأحداث صقلية وبأحداث المدن الإغريقية بجنوب إيطاليا، فإن افتراض النقل المباشر أمر مقبول جدا. وفي مكان آخر، أي في الكتاب 21 من تيت ليڤ نعثر على فقرة لاشك أنها آتية من پوليب. وهي التي تذكر عدد القوات التي تركها حنّيبَعْل في إسبانيا وكذلك التي بعث بها إلى إفريقيا. فالمؤرخ الإغريقي يخبرنا بأنه نقلها بنفسه عن كتابة نقشت بأمر القائد القرطاجي. لكن، وكما هو الشأن بالنسبة لبقية هذا الكتاب، فإن النظرية القائلة بكون تيت ليڤ قد استخدم پوليب مباشرة تثير اعتراضات جادة، لذلك فنحن على صواب حين نتسائل : هل هذه الفقرة الآنفة الذكر لم تؤخذ عن وساطة ؟

لقد قلنا أن سيلِنوس Silénos اعتمد عليه پوليب على الأرجح. لكن ل. كويليوس أنْتيباترِ L. Coelius Antipater، الذي كتب في الربع الاخير من القرن الثاني ق.م سبعة كتب عن تاريخ الحرب البونيقية الثانية، قد استخدم سيلنوس. وهذا ما نعلمه عن سيسرون Cicéron. وكان بدوره أحد المصادر المهمة التي اعتمدها تيت ليڤ الذي ذكره باسمه في عدة مناسبات، فيحتمل إذن أن كثيرا من المعلومات المشتركة بين پوليب وتيت ليڤ ترجع في أصلها إلى ما كتبه رفيق حنّيبَعْل. ولربما أن هناك معلومات أخرى غيرها نقلها كويسليوس عن پوليب وليس عن سيلنوس.

وفوق هذا، فإن كويليوس استخدم مصادر رومانية، ومن بينها على ما يحتمل لابد من ذكر فابيوس بكتور. ومن هذه المصادر استقى كتاب لاتانيون آخرون، رجع إليهم تيتْ ليڤ. فهو يذكر شخصين معاصرين لسولا Sylla، هما فاليريْوس أنْتياس Valerius Antias وكلوديْوس كادْريگاريوس Claudius (Quadrigarius) وكان هذا الأخير قد ترجم الحوليات التي كتبها شخص يُدعى ك. أسيليوس C.Acilius باللغة الإغريقية في أواسط القرن الثاني. ولم يذكر تيتْ ليڤ إلا مرة واحدة الكاتبين المعاصرين لحرب حنّيبَعْل، وهما فابيوس بيكتور وكايوس ألمْنتوس. فهل قرأهما ؟ الأمر مشكوك فيه جدا، إذ يبدو انه لم يعرفهما إلا بوساطة كتاب آخرين.

وتختلط في مؤلفه الروايات التي لها قيمة غير متكافئة، فالبعض منها مستقى من كتاب إغريق كانوا يعرفون مهنتهم وواجباتهم كمؤرخين، والبعض الآخر مستقى من كتاب رومانيين يعوزهم النقد، ويريدون تمجيد وطنهم وعظماء رجالهم، ولو بإخفاء الحقيقة أو تزويرها. فعند هؤلاء الإخباريين تكثر الخرافات والأخطاء والأكاذيب، كما أن نفس

الأحداث تحكي فيها بصيغ مختلفة جدا. فتيت ليفْ The Live لم يعرف كيف يختار، لذلك فهو مرشد غير موثوق به متى لم نجد نصا من پوليب للتمييز بين الصحيح والزائف. ثم إن التناقضات، وما لا يحتمل وقوعه، والروايات المذكورة عن الوقائع المتوالية – بينما يبدو عليها أنها صيغ محرفة قيلا أو كثير لواقعة واحدة –، إن كل ذلك يجعل الارتياب أمرا مشروعا حتى ولو أن الارتياب لا تبرره مقارنة تيتْ ليڤْ بالأقسام التي وصلتنا من مؤلف پوليب.

أما ديون كاسْيوس فقد استخدم بكثرة كاتبا تتردد أصداؤه في تيتْ ليف كثيرا. وهناك علامات تسوغ القول بأنه هو كويليوس. وقد أضاف ديون لِهذا المصدر إضافات وأدخل بعض التصويبات التي استقاها من واحد أو أكثر من الإخباريين الرومانيين.

وبنفس هذه الطبقة من المؤرخين المشبوهين، من المنحازين، وقليلي الاطلاع يلحق ديودور الصقلي وأپْيان، الكاتبان اللذان لهما قرابة ماسة. ويستحيل علينا ذكر بعض الأسماء. وفي أپْيان Appien كثيرا ما نلاقي أخطاء مرجعها إلى إهماله.

3

إن الحرب البونيقية الثانية قد درست كثيراً، وهي معروفة معرفة جيدة. لهذا، فلن نقف إلا عند الأحداث التي جرت بإفريقيا. (انظر الفصلين التاليين).

إن جيش حنّيبَعْل المتكوّن من الأفارقة والأسبانيين لاشك لم يكن كثير العدد. ولاشك أن پوليب قد بالغ في الأعداد التي ذكرها : 90.000

من المشاة و12.000 من الخيالة. وبعدما عبر هذا الجيش نهر الأيبر l'Ebre، وهو الحد الذي فرضته روما للسيطرة البونيقية، أخضع بمشقة الشعوب التي كانت تعيش بين المجرى الأسفل لهذا النهر وبين جبال البيريني، إذ كان لازما أن هذه الشعوب لا توقف في المستقبل الجيوش التي تذهب لتلتحق بحنّيبَعْل في إيطاليا، كما كان لازما أن حملة للعدو لن تجد في أي مكان بإسبانيا قاعدة للعمليات، وأخيرا فقد أمكن التساؤل : هل لم يكن حنّيبَعْل يريد خداع الرومانيين وإقناعهم بأنه أبعد ما يكون عن التفكير في مغادرة الهضبة الإيبيرية، وأنه يريد إتمام فتحها ؟ فكلف حَنّون، أحد مساعديه، بحماية هذه المنطقة، فصرح أو ترك الحرية لعدة آلاف من الإسبانيين الذين كان شعورهم مشكوكا فيه، ثم عبر جبال البيريني. وفيما وراء هذه الجبال كان السير سريعا، لأن أكثرية الشعوب هناك مالت معه بالمال. ثم وصل لنهر الرون Rhône حيث اتخذ إجراءات حاذقة تغلب بها على مصاعب المرور.

غير أن القنصل سِپْيون Scipion وصل عن طرق البحر إلى المصب الشرقي للنهر، وهناك نزل. وكان يعلم أن حنّيبَعْل قد دخل بلاد الغال. فكان عليه إذن أن يحاربه فيها، لا في إسبانيا، لكنه كان يظن أن لن يبارح البيريني إلا بقليل. فلما أخبره كشافته بصفة أكيدة بمجاورة العدو، تقدم حتى المكان الذي عبر منه القرطاجيون نهر الرون. أما حنّيبَعْل فقد أعلن بنزول الرومانيين لكنه لم ينتظرهم. فقد تغلغل نحو الشمال، سائرا مع الضفة اليسرى للنهر. فهل كان يريد، كما قيل، أن يجر خلفه هذا الجيش، خوفا من رجوعه إلى إيطاليا، ليهزمه بعيدا جدا عن مرسيليا، فجعل تراجعه لهذه المدينة مستحيلا ؟ بل يبدو انه كان يود أن يتلافى صراعا يضعفه حتى ولو انتصر فيه، ويبطئ به على الخصوص. وكان الخريف قد حل، والثلوج ستعيق السير في الطرق عما

قريب. ولو لم يسارع حنّيبعل باختراق جبال الألب، ألزمه أن يبقى بدون عمل حتى الربيع في أرض فقيرة وغير مأمونة. بينما تكون رومة قد هيأت على الجانب الآخر من الجبال، دفاعها عن سهول نهر البو. أما سيبْيون Scipion فرأى من عدم الحكمة متابعته وعاد إلى الساحل. قد سلم جيوشه لأخيه كنايوس Cnaeus وأمره أن يعود بها إلى إسبانيا، بينما عاد هو إلى مدينة بيزا Pise، ثم أسرع فالتحق ببلاد الغال القريبة ليأخذ قيادة فيلقين كانا قد أرسلا إلى هناك لمواجهة الغاليين الثائرين.

سار حنّيبَعْل مع نهر الرّون Rhône حتى ملتقاه مع نهر الإيزير Izère الذي صعد مع شعبه. ثم ما هي الطريق التي أخذها من بعد؟ إننا نعلم أن هذه المسألة قد أثارت نقاشا لا حد له، لذلك سنكتفي بذكر الافتراض الذي يبدو لنا أنه هو الأفضل، أي صار مع شعب الموريين Vallée de la Maurienne وممر جبل سينيس Mont Cenis وشعب دْوارْريبْير Doire ripuaire. إن الغاليين قد عبرو جبال الألب أكثر من مرة، وبسهولة كانت على ما يحتمل، أكثر مما حدث للقرطاجيين الذين كان سيرهم في أحوال غير مناسبة، لأن المرشدين لم يكونوا على علم تام بالطريق التي عوض بها، - ربما تلافيا لسِپْيون - عن الطريق التي كانت مقررة من قبل، ثم إن أهل الجبال كانوا يضمرون العداء، كما أن الثلج قد بدأ يتهاطل. وبعد كثير من الأخطار والآلام والخسائر، كان الوصول على الأرض الموعودة. ولم يبق من الذين غادروا قرطاجنّة قبل ذلك بخمسة أشهر سوة 20.000 من المشاة و 6000 فارس. وقد اضطروا بعد وصولهم لنهر ألبو ان ينتزعوا بالقوة، في المكان الذي توجد به تورين Turin، مدينةً لإحدى القبائل الليغورية التي منعتهم من المرور.

أما سپّيون فقد ذهب لملاقاة حنّيبعل على الضفة اليسرى للنهر. فجرت غرب تيسين Tessin معركة بين الخيالة التي صاحبها المشاة الخفاف وبين خيالة الأعداء التي كانت أكثر عددا. وهذه الأخيرة هي التي انتصرت. وقد جرح القنصل وعاد بجيشه إلى جنوب الْپُو Le Pô في اتجاه مستوطنة بليزانْس Plaisance التي عسكر بالقرب منها، وكذلك جاء حنّيبَعْل وعسكر على مسافة قليلة منه.

لما بلغ إلى رومة خبر عبور القرطاجيين لجبال الألْب، ألغيت الحملة المقررة على إفريقيا. واستدعيت على عجل الجيوش المتجمعة في ليليبي، وأعيد تنظيم صفوفها في مدينة أريمينوم Ariminum (هي اليوم رِميني Rimini)، ومن هناك اتجه بها قائدها سَمْبرونْيوس Sempronius يقودها إلى سِپْيون.

ورغما من تحذير زميله فإنه أراد أن يخوض المعركة. وبالفعل فقد جرت على ضفاف نهر تْريبْيا Trébie في يوم برد وثلج. وقد كان الجيشان متساويين تقريبا في العدد (نحو 40.000 جندي)، غير أن حنّيبَعْل كانت معه خيالة أكثر عددا. واستخدم النوميديين في اجتذاب الأعداء، الذين حاربوا في أحوال سيئة جدا بحيث غمرتهم المياه حتى آباطهم عند عبور النهر، وأكثرهم لم يكن قد ذاق الطعام قبل يوم فاستطاع أكثر من 10.000 فارس كانوا بجناحي الجيش البونيقي أن يهزموا بسهولة 4000 فارس كانوا يواجهونهم، وأن يكشفوا جناحي المشاة الرومانيين. وقد كان عددهم يبلغ نحوا من 36.000 رجل يواجهون 20.000 من المشاة الإسبان والأفارقة والغاليين. وقد هاجمت الفيلة أقصى طرفي الجبهة الرومانية، كما أن 8000 من المشاة الخفاف مع الخيالة النوميدية هاجموا الجانبين، وهاجم ماگون من الخلف، إذ خرج

من شعب كان أخوه قد جعله به في الليل، وانقض مع 1000 من المشاة و1000 فارس على أن 10.000 جندي كانوا يكوّنون الصفوف الأولى من الموسطة الرومانية ونجحوا في اختراق الغاليين وقسم من الأفارقة، واستطاعوا بهذا العمل أن يفتحوا لأنفسهم ممرا، وأن يصلوا إلى بليزَنْس Plaisance في انتظام. أما بقية مشاة سَمْبرونْيوس فقد فرّوا، فأودى بهم الفرسان والفيلة وهم يَعْدون إلى النهر.

أصبح حنّيبَعْل مهيمنها على بلاد الغال القريبة Cisalpine، فمكث بها حتى نهاية فصل الشتاء، يهيء حملته المقبلة. وخلال ذلك فإن آلافا من الغاليين قدموا لينضمو إلى بني عمهم الذين كانوا حتى قبل انتصار تْريبْيا قد جعلوا أنفسهم تحت إمرته.

وفي الربيع اقتحم حنّيبَعْل الهضبة. فكان في انتظاره جيشان. أحدهما على ضفاف البحر الأدْرياتي بمدينة أريمينوم، والثاني في أتْروريْا بميدنة أرِّتْيوم Arretium (أريزو Arezzo). وكان يقود الأول القنصل سِرْفيلْيوس Servillius، والثاني القنصل فْلامينْيوس Flaminios. وبرغم مشاق الطريق الذي كان سيسير معه، فإن جنيبعل قرر الدخول في أرض أترورْيا Etrurie، ظنا منه لاشك أن انتصارا جديدا سيعظم أثره في النفوس بقدر ما يكون موقع الإحراز عليه قريبا جدا من رومة. وقد عانت جيوشه آلاما كثيرة في المستنقعات التي كان لابد من عبورها. والقائد نفسه أصيب بالتهاب الأعين وفقد إحدى عينيه. وتابع مسيرته، من فيسول Fiesole خلال تُسْكانْيا Toscane، وهو ينهب الأرض الغنية التي يخترقها. وقد كان يأمل بهذا العمل أن يجر إليه فلامينيوس الذي غادر أرّتْيوم فعلا ليعود نحو الجنوب. وبينما كان القنصل يتقدم في ممر ضيق بين بحيرة تْرازِمان Trasimène والمرتفعات القائمة على جانب هذه

البحيرة في الشمال الشرقي، إذا بحنيبعل يطوقه ويهاجمه من كل جهة في نفس الحين، ويقضي على جيشه. وعلى غرار ما سبق أن فعله بعد معركة تْريبْيا، وما سيفعله بعد معركة كَنْس Cannes فإنه سرح حلفاء روما الذين وقعوا في قبضته من غير أن يطالب بثمن فِدْيتهم، قائلا إنه لا يحاربهم هم، بل على النقيض من ذلك إنه جاء ليحرر الإيطاليين الذين يجب أن يخطبوا ودّه إن كانوا عاقلين.

وكان المظنون أنه سيسارع بالتوجه نحو روما. غير أن أسوار هذه المدينة كانت تجعلها في مأمن من أي هجوم. ثم إن حنّيبَعْل لم يكن لديه بعدُ الجيوش الوافرة العدد لمهاجمة المدينة، كما أن خيالته، وهي قوته المهمة، لم تكن لتفيده في الهجوم، وكان سيناله عناء كبير في جمع المواد الضرورية لصنع الآلات، كما كان يعوزه الأسطول الذي يمكنه من مراقبة مصب نهر التّبر Le Tibre وعزل الرومانيين من جهة البحر، ويكون قد عرض نفسه للوقوع بين حماة المدينة العاصمة وبين الجيش القنصلي الآخر الذي كان لا يزال سليما تقريبا. وطوال الأشهر التي يفرضها هذا الحصار، فإن الشعوب التي كان حنّيبَعْل يتوخى حلفها، ستشهد عجزه وتتردد في الانضمام إليه.

لذلك انعطف نحو الشرق واتجه إلى مقاطعة بيكنوم Picenum، حيث أراح جنوده وخيوله، وزوّد مشاته الأفارقة بأسلحة انتزعت من الأعداء الذين قتلوا أو أسروا. فكان بهذا يستعد ليهزم الجيش الروماني الثاني. وفوق ذلك، فهو باستيلائه على الساحل الأدْرياتي، يقترب من فيليب Philippe ملك مَقْدونيا الذي يود طرد الرومانيين من الساحل المقابل بهذا البحر، وكأن حنّيبَعْل كان بهذا العمل يدعو فيليب للمحالفة.

وقع تعيين فابْيوس ماكْسيموس F.Maximus في منصب دكتاتور وأخذ القيادة بعد كارثة ترازِمان. وكان يعرف تفوق الخيالة القرطاجية، ويعرف أيضا أن التهور الكبير هو في وقوفه وجها لوجه مع قاهر سِپْيون، وسَمْبرونْيوس، وفْلامينوس، لذلك رفض خوض المعركة، وبقي مع ذلك قريبا من حنّيبَعْل. فكان يقطع عنه وصول المؤن، وينقض على فرقه، من غير أن يعرض بنفسه لمخاطرة كبيرة، كان يحدث العراقل الكبيرة له، ويلحق به الخسائر الظاهرة، حتى إنه في أحد الأيام حاول الإحداق به والقضاء عليه في أحد المضايق بين الجبال. أما القائد القرطاجي فكان يعمل لإفساد خطة خصمه، بحيث إنه جاب في شمال أبوليا Apulia، واخترق السامنيوم Samnium، واقتحم غرب كَمْبانيا Campanie. وكان بعملياته في الانتهاب يريد إرغام فابْيوس على خوض المعركة الحاسمة، وفيما إذا لم يوفق في جره لخوضها فإنه يفصل عن رومة الحلفاء الذين تبدو غير قادرة على الدفاع عنهم. ولكن الدكتاتور بقي متصلبا فيما قرره، لا يلقي سمعا لتشكيات الفلاحين الذين أصابهم الإفلاس، أو النقّاد الذين يعتبرون حذره جبنا. وكان إخفاقه في إحدا الهجمات الذي أرغم على القيام بها برهانا على صواب رأيه.

كان حنّيبَعْل قد قضى شتاء سنة 217-216 والشتاء الموالي له في أبوليا Apulie أرض القمح والعلف. وكان في وضع متزعزع، إذ لانتصاراتُه في بلاد الغال القريبة وأترووريا، ولا محاولاتُه لاجتذاب الشعوب إليه، ولا عملياته التخريبية، كل ذلك لم يدفع بأي شعب ولا أي مدينة بالهضبة الإيطالية إلى إعلان العداء ضد رومة. فالغاليون كان لهم إقدام، ولكن تحملهم للمشاق قليل، ولذلك لم يكونوا يؤدون كل الخدمات التي كان القائد البرْكي ينتظرها منهم. ثم إن حماسهم قد خف كثيرا،

ولم يصل مجندون جدد ليملأوا الفراغ الحاصل. لأن الجيش البونيقي لم يستطع الحفاظ على مواصلاته مع وادي نهر البو، ولم تصل لهذا الجيش النجدات المنتظرة من إسبانيا. وكذلك، فإن كنايوس سِپْيون أنزل في أمبوريس Empories الجيوش التي أسندها بوبْليوس Publius إليه، وبهزيمته لِحَنّون أصبح المسيطر على الأرض الواقعة شمال مصب نهر الإيبر، فحقق بهذا ما كان حنّيبَعْل يريد منع حصوله. إن الرومانيين إذن أصبحت لهم قاعدة قوية لعملياتهم العسكرية في الهضبة. ولم يستطع حَسْدربَعْل ان يزحزحهم عنها. وفي 217 كان مجلس الشيوخ قد بعث بولْيوس إلى إسبانيا، فأخذ مع أخيه بالتقدم إلى ما بعد النهر، الأمر الذي فرض على القائد القرطاجي حَسْدربَعْل التفكير في الدفاع على فتوحات البركيين عوض قيادته الجيش إلى إيطاليا، ولقد كان سِپْيون وأخوه على صواب في عدم التخلي، ورغم زحف حنّيبَعْل، عن الحملة التي تقررت منذ بداية الحرب، بحيث أنهما الآن يمنعان غازي إيطاليا من حرية التصرف بالاحتياطي الذي كان يعتمد عليه أكثر من أي شيء آخر.

إن الرومانيين هم الذين تكفلوا بإخراج حنّيبَعْل من الضائقة وذلك حين أتوا يعرضون عليه خوض المعركة التي طالما انتظرها. وقد جرت بالقرب من كَنْس Canes، على نهر الأوفدوس Aufidus بأحد السهول، حيث الأرض صالحة لخيالة حنّيبَعْل. وقد جعلها على الجناحين حسب العادة، وكان الإيبيريون والكِلْتيون بالجناح الأيسر، والنوميديون بالجناح الأيمن، بالموسطة جعل المشاة الغاليين والإسبانيين، ليس في خط مستقيم، بل على شكل يتكون منه على شكل يتكون منه شِبْه هلال، تقابل حدبته الجيش الذي سيحاربه، وبين طرفي هذا الهلال والجناحين جعل المشاة الأفارقة مقسمين إلى جيشين متساويين. فأما فرسان الجناح الايسر فقد هزموا الخيالة الرومانية التي كانت تقابلهم، وكانت أقل منهم

بكثير، فأعملوا فيها التقتيل. ثم مر الفرسان أمام العدو، وانقضوا على جناحه الأيسر المتكون من خيالة الحلفاء. وقد صمدت هذه الخيالة في وجه النوميديين، ثم فرت لما هددت من الجانبيين. وبذلك دمر معظمها النوميديين الذين أخذوا يطاردونها. وأثناء ذلك تقدم المشاة الرومانيين إلى الغاليين والأسبانيين، إذ اجتذبهم الشكل المحدب للموسطة القرطاجية. نتيجة لتوجههم جميعا لهذه الموسطة، فإنهم قللوا من طول جبهتهم، وردوا إلى الوراء الخط المحدب القرطاجي، وطاردوا جنوده الذين تخلوا أمام التفوق العددي. وبهذا اقتربوا من الأفارقة الذين كان حنّيبَعْل قد جعلهم على يمين ويسار موسطته، والذين أمرهم حينئذ بعملية التفاف لينقضوا على جناحي المهاجمين الرومانيين. وفي نفس الحين، وقع على المشاة الرومانيين هجوم من الخلف، قام به الفرسان الذين كانوا في بداية المعركة يكونون الجناح البونيقي الأيسر، وهزموا الجناحين الرومانيين أو أرغموا جنودها على الفرار. لقد وقع تطويق جيش المشاة من كل جانب، وصار مزحوما ومنحصرا أكثر فأكثر، وبذلك سهل الإثخان فيه بالذبح. إن القوات التي كان القنصلان يقودانها بلغت نحوا من 80.000 من المشاة و6000 فارس. ولم يشارك في المعركة 10.000 رجل كلفوا بحراسة المعسكر. أما الآخرون، فإنهم تقريبا قد أبيدوا جميعا، وعددهم 70.000 على ما قال پوليب. بينما لم يَضِع لحنّيبَعْل سوى 5700 رجل من بين 50.000.

ومثلما جرى عقد معركة الترازمان، فإنه بعد كَنْس Cannes لم ير نفسه قادرا على الاستيلاء على رومة. لكن، حيث إن المغلوبين لم يكونوا مستعدين لقبول هزيمتهم، فلابد من توسيع العمليات الحربية، ولابد من انتهاز فرصة هذا الانتصار لمطالبة قرطاجة ببذل مجهودات جديدة،

وللحصول في إيطاليا وغيرها على التحالف والمساعدات التي طال انتظارها. أما الحكومة فإنها وافقت دون عناء على أن تبعث إلى حنّيبَعْل بالجيوش التي جاء ماگون Magon يطلبها منها، كما قررت أن ترسل بجيوش إلى إسبانيا بقصد الاستيلاء على هذه الأرض والدفاع عنها بعد مغادرة حَسْدربَعْل لها، لأنه كان سيتوجه إلى إيطاليا وسيقوي جيشه بتجنيد الغاليين. وكان هؤلاء قد دمروا فيلقا رومانيا في بلاد الغال القريبة عند نهاية سنة 216، ومن شأن الانتصار أن يشجعهم. كما قررت قرطاجة القيام مرة أخرى بحملة على سردانية التي ثار فيها الأهالي ورجوها أن تساعدهم.

انفصل في الهضبة الإيطالية عن رومة بسبب يوم كَنْس Cannes قسم من الأبوليِّين Appuliens، وكذلك اللوكانيون Lucaniens والبروتيون Bruttiens ومدينة "كابو" Capone العظيمة التي اقتدت بها جل مدن كَمْبانيا، كابو التي كان القائد البَرْكي يحلم بجعلها معارضة لرومة ومنافسة لها بواسطة إيطاليا. وفي سنة 215 وقد جاء سفراء فيليب المقدوني ليبرموا مع حنّيبَعْل معاهدة تحالف، تنص على أن المقدونيين سيساندون القرطاجيين، وأن الجمهورية الإفريقية والملك المقدوني لا يبرمان صلحا منفردا مع أعدائهما المشتركين، وأن هؤلاء إذا هاجموا في المستقبل أحد الحليفين فالآخر يتقدم لنجدته. وكان لفِيلب جيوش ممتازة يكون عونها بحنّيبَعْل ثمينا. ووقع التحرك في صقلية حول هيرون Hiéron الملك الشيخ الذي عاجلته الوفاة، تاركا خلافته لشاب يافع هو هيرونيم Hiéronyme. وقد كان للأوصياء عليه ميل إلى قرطاجة، فذهب الموفدون للاتصال بحنّيبَعْل، الذي بعث عنه ضابطين إلى مدينة سِرَقوسة، هما هِبوكْرات Hippocrate وأُبِيسيد Epicyde المنحدرين من أحد المواطنين

السّرقوسيين. فأبرم في نهاية سنة 215، على ما يظهر، عقد يعد هيرونيم بالنصف الشرقي من صقلية، ولكنه لم يلبث أن طالب بصقلية كلها. وحيث أن الوقت لم يكن مناسبا لمناقشة مطالبه فقد قبلتها حكومة قرطاجة، إذ رأت لاشك أنه يسهل رد الملك الشاب إلى الصواب بعدما يتم طرد الرومانيين عن الجزيرة، فأسرع السرقوسيون بالدخول إلى المعركة.

4

تخلى عن رومة قسم من محكوميها، وهوجمت من جميع الجهات، ولكنها رفضت كل تفكير في السلام المهين. وكل المواطنين نَسُوا خلافاتهم حباً في سلامة الوطن وائتلفوا حول مجلس الشيوخ الذي استمر محافظا على مبدئه الأساسي القاضي بعدم التفاوض بعد هزيمة، ولا مع عدو معسكر بالتراب الإيطالي، بحيث إن العزيمة الهادئة والمتصلبة لهذا المجلس قد حافظت على الدولة، وجددت لها قوّتها ومكنتها من مواجهة جميع الهجمات.

ثم إن هذه الدولة أقوى مما ظنه حنّيبَعْل. فبعيدا عن التراب الحقيقي للمدينة الماجدة، كانت هناك مستعمرات متناثرة بلغت ضفاف نهر ألْيو Le Pô، وبلغت قنال أُتْرَنْت Otrante، وكلها مراكز للحياة اللاتانية، ومراكز حصينة ومستعدة للمقاومة العنيفة، ومواقع ارتكاز للجيوش. وفي الجنوب تذكرت المدن الإغريقية أنها لم يكن لها ما تحمده من حماية بِرْهوس Pyrrhus، هذا القائد الآخر المنتصر على رومة، وكانت قلقة من تحالف حنّيبَعْل مع الشعوب ذات الأصل السّمْناتي Samnites، أما الخوف من الغاليين، والحاجة لإيجاد دفاع فعال ضد اعمالهم في النهب، كل ذلك ساعد كثيرا على جعل السيطرة الرومانية مقبولة بالهضبة

الإيطالية. والآن فإن هؤلاء الغالبين أنفسهم أصبحوا حلفاء للقائد القرطاجي. وفي جل المدن كان الخصام يجري دون هوادة بين حزب أرستقراطي وآخر ديمقراطي. فالأول الذي كانت السلطة عادة بيده، أبدى ميلا للمحافظة على الإخلاص لروما التي كانت حكومتها بيد الارستقراطية.

إن منطقة الجمهورية وكذلك الأراضي التي ما تزال تعترف بسيطرتها عليها، قد كانت من السعة وكثرة السكان بحيث تزود روما بالعديد من المقاتلين ولمدة سنين طويلة. وإذا كان هؤلاء الرجال أقل ممارسة في المجال العسكري من جنود القائد البَرْكي المحنكين، فإنهم لا تعوزهم الخاصيات الخلْقية والخُلقية التي تكوّن الجنود الصالحين. وصحيح أن قادة الرومانيّين كانوا أقلّ حنكة من حنّيبَعْل. ففي حرب لها مثل هذه الأهمية وهذه السعة، كانت عبثا تلك القاعدة القاضية بإسناد تسيير الجيوش إلى وُلاة سَنَويّين. (يُنتخبون في كل سنة) لذلك جرى إصلاح هذه القاعدة إما بتجديد انتخاب الولاة وإما بتمديد أمد قيادتهم. وغالبا ما وقع التخلي عن إسناد القيادة في إحدى الحملات إلى قائدين متساويين في السلطة. ومع مرور الزمان استفاد بعض القادة من دروس التجربة ومن أمثلة الخصم، وتعلموا القيام بمناورات غير التي ترتكز على الدفع بالمشاة قدماً، وعلى محاولة خرق صف العدو بالتصدي له بالمواجهة. إنّ سِپْيون الإفريقي لم يكن مديناً للحظ السعيد وحده في انتصاراته العظيمة بأسبانيا وزاما، وإنما لأن الرومانيين بعد كارثة كَنْس لم تعد لهم أي رغبة في مجابهة حنّيبَعْل في معارك مصفوفة، إذ عادوا إلى خطة فابْيوس المترويّ le Temporisateur، وقرروا أن يوهنُوا الجيش البونيقي، مع منعه من الحصول على النجدات.

لقد كان حنيبعلْ في حاجة إلى جيوش عديدة جدا لمحاصرة المواقع المسلحة التي كان يلقاها بكل مكان، ولانتزاع المعسكرات الحصينة التي كان الرومانيون يهاجمونها أثناء انشغاله هو في جهة أخرى، وكذلك لتأمين مواصلاته وتموين جيوشه. ونحن نعلم مقدار صعوبة عمليات الحصار في العصور القديمة. فلقد جرب القرطاجيون ذلك أمام مواقع صغيرة مثل كاسيلنوم Casilinum بمقاطعة كَمْبانيا، وأمام بِتيلْيا Pételie في مقاطعة البروتيوم Bruttium، حيث لم يحصل حنّيبَعْل إلا على نجاح متوسط وغالي الثمن، لعبت فيه خيالته دورا لا يكاد يذكر. وقد صار ثقلا على أنصاره الذين لزمهم أن يطعموا جيشه، والذين قلّتْ حمايته لهم، إذ أصابه ضعف شديد بسبب الحاميات التي تركها بكل مكان.

لذلك فإن كثيرا ممن سبق أن والوه بعد كَنْس Cannes قد بدأوا يندمون على ما فعلوه، بل إن بعضا منهم عادوا إلى الرومانيين. على أن غير هؤلاء لم يعلنوا موالاتهم لقرطاجة إلا بعد تردد طويل وبتأثير الضرورة. فمن بين المدن الساحلية، فتحت مدينة لُكْريس Locres أبوابها لأحد مساعدي القائد البَرْكي سنة 215، لكن تارنْت Tarente وهي أهم هذه المدن، وكذلك ميتابُنت Métaponte وثوريوي Thurioi لم تقرر إلا بعد مرور سنتين أو ثلاث، بينما بقيت نابولي Naples ورِهْجيون Rhégion على وفائهما لرومة. وكان حلفاء حنّيبَعْل يريدون منه أن يضمن سلامتهم، غير أنهم كانوا يريدون ان يحددوا، هم وحسب مشيئتهم، ما يقدمونه من تضحيات في الرجال والأموال للقضية المشتركة، فخيب أكثرهم آماله.

ومع ذلك كان يبذل الجهود في القيام بالهجوم والدفاع في آن معا. كان يتنقل بسرعة مدهشة، وحيثما ظهر فإن قراراته السريعة ومناوراته الماهرة غالبا ما كانت تبطل خطط الأعداء وتنقذ الأوضاع الحرجة. لكن

جيشه كان يذوب شيئا فشيئاً، إذ أضعفته المشاق، والمناوشات، والاستسلامات والأمراض.

لم تصله النجدات عن طريق البر، لأن أهل بلاد الغال القريبة Cisalpine كانوا غير قادرين على اختراق الطرق التي يقطعها الأعداء. ولم يستطع الاستيلاء على المدن الساحلية بمقاطعة كمبانيا. وإذا كانت عدة موانئ بالجنوب الإيطالي في قبضة يده، فإن الوحيد الصالح من هذه الموانئ، وهو تارَنْت Tarente قد كانت تتحكم فيه قلعة تمركزت بها حامية رومانية. كما أن النقصان الحاصل في الملاحة البونيقية يجعل العمليات الكبرى لنقل الجيوش محفوفة بالمخاطر. ومع ذلك فإن الحكومة القرطاجية، كما سبق لنا قَولُه، قررت بعث النجدات إلى إيطاليا، ولكن لسوء الحظ لزم إرسال هذه النجدات إلى جهة أخرى، ولم ينزل على ساحل البروتيوم سوى بضعة آلاف من النوميديين ومن الفيلة. أما فيلب Philippe فخاض بضع معارك في إيليريا Illyrie، ثم في بلاد الإغريق حيث حصلت رومة على حلف الرابطة الإيطولية Etolienne، بينما لم يعبر البحر الأدرياتي الجيش الذي كان حنّيبَعْل موعودا به. وفي أسبانيا كان حَسْدربَعْل يتجه إلى إيطاليا، فالتقى بسِپيون Scipion وأخيه قرب نهر الإيبر l'Ebre، فانهزم وتراجع. وكانت نتيجة هذه الهزيمة الشديدة أن بعث على الهضبة الإيبيرية بالقوات التي كان ماگون Magon سيذهب بها إلى أكبر إخوته. إن الأحداث التي جرت بهذه المنطقة بين 215-212 غير معروفة جيدا، لكن المتأكد هو ان حَسْدربَعْل لم يجدد محاولته، بل لربما يكون قد دعي إلى ليبيا. وهكذا فإن الجيوش التي كان حنّيبَعْل ينتظرها، لم يلتحق به أي واحد منها.

وكذلك الجيش الذي غادر إفريقيا في ربيع سنة 215 قاصدا سردانية Sardaigne، فإن الرياح دفعت به أول الأمر إلى جزر الباليار Baléares. ولما نزل بعد ذلك على الساحل السرداني، كان الأهالي الذين أراد مساعدتهم قد تم اندحارهم، وبذلك ناله نفس المصير وأسر قائده.

أما صقلية فكانت الحرب فيها في بدايتها حين وقع اغتيال هيرونيم Hiéronyme، الأمر الذي جعل الرومانيين يظنون أن الحلف المبرم بين هذا الملك وقرطاجة لن يكون له مفعول. لكن بعد حقبة من الفتن استطاع هِبوكْرات Hippocrate وإِبِسيد Epicyde اللذان ساندهما الجنود أن يسيطرا على سرقوسة، فقدم لمحاصرتها مَرْسيلوس Marcellus أحد القادة الرومانيين الممتازين. وفي سنة213 نزل بالساحل الجنوبي للجزيرة جيش بونيقي قوي تحت إمرة حيمِلْكون Himilcon، واستولى على مدينة أكْريجَنْت Agrigente، وتقدم هذا الجيش حتى اقترب من سرقوسة. وفي نفس الوقت قدم امير البحر بومِلْكار بأسطول أمام هذه المدينة. ولكن، لا هو ولا حيملكون تجرأ على خوض المعركة، لأن أحدهما عاد إلى قرطاجة كما عاد الآخر إلى أكْريجَنْت، حيث قضى فصل الشتاء. وقد استمرت سرقوسة في مقاومتها، تحميها على الخصوص الآلات العجيبة التي ابتدعتها عبقرية أرْخميد Archimêde، ومع ذلك فإن مَرْسيلوس Marcellus استطاع عقب إحدى الهجمات أن يحتل الأحياء الخارجية من المدينة. وفي صيف 212 عاد للظهور حيمِلْكون وبومِلْكار. أما الجيش القرطاجي الذي كان معسكرا في منطقة للمستنقعات في وقت اشتداد الحر، فقد أباده الوباء، وأما بومِلْكار فعاد من جديد إلى قرطاجة، التي غادرها من جديد على رأس 130 قادسا هذه المرة. ولما وصل إلى طرف الجنوب الشرقي من الجزيرة أوقفته الرياح

المعاكسة، ثم رفض خوض المعركة ضد أسطول أقل عددا من أسطوله هو، وابتعد. وبعد ذلك بقليل أدخل أحَدُ الخونة الرومانيين إلى سرقوسة.

لم يعد للقرطاجيين أي أمل في الحصول على الانتصار في صقلية غير أنهم بتملكهم لمدينة أكْريجَنت، استمروا في الصراع طيلة سنتين من بعد. أما هيبوكْرات الذي مات أمام سرقوسة، فإن حنّيبَعْل أرسل عوضا عنه مساعدا آخر من بين مساعديه، هو "موتين" Muttine. وجاء جيش آخر من إفريقيا فانضمت إليه جموع من السيكوليين Sicules. وقام "موتين" بمهارة على رأس الخيالة النوميدية بحرب من السلب والنهب والمباغتات. لكن، عقب خيانة هذا الضابط استولى الأعداء على أكْريجَنت وأبادوا الجيوش البونيقية.

هكذا انتهت حرب صقلية، بنفس الإخفاق الذي عرفته الحملة على سردانية. لقد كان حنّيبَعْل موافقا على عملية بصقلية، والمعتقد أن الجيش ما كان ليبعث به إلى سردانية دون رضاه. إنه كان يريد إنهاك القوات المناسبة والقضاء عليها، بإثارة قوات أخرى ضدها بكل مكان. ولا يمكن الشك في كونه تألم عند رؤيته الرومانيين يستولون على الجزيرتين اللتين سبق أن سيطرت عليهما قرطاجة طويلا جدا، كما لايشك في إنه قلق من السهولة التي يخولها لهم استيلاؤهم على مدينة ليليبي للعبور إلى إفريقيا. غير أن الجيوش التي ضاعت في سردانية وصقلية، كان الأحسن استخدامها في إيطاليا حيث كان يجري الدور الحاسم.

في سنة 211 استولى الرومانيون على كابو Capone. وكانوا منذ عدة سنين قد شرعوا في الهجوم معتمدين على المواقع التي احتفظوا بها في كَمْبانيا أو استعادوها بهذه المقاطعة، فكانوا يخربون مناطق المدينة الثائرة وأخيرا طوّقوها بدائرة من الخطوط الحصينة. ولم

يستطع حنّيبعْل افتكاكها. ولما كانت على وشك أن تسقط جوعا، اجتهد في إنقاذها بعملية جريئة. إذ اخترق السامْنيوم متوجها بخطى سريعة نحو رومة. ولاشك أنه لم يكن في حسبانه احتلالها عنوة، وإنما كان يحاول بتهديده لها أن يجتذب الجيش المحاصر لِكابو Capone، وأن يقضي عليه. ولكن المدينة الكَمْبانية لم يقع عنها الحصار، كما أن رومة كانت متهيئة للدفاع، فتراجع القائد القرطاجي. أُرْغِمت كابو على الاستسلام وعوقبت بشدة، وفي ذلك : «برهان ساطع على أن الرومانيين كانوا من القوة بحيث يعاقبون المتخلين عنهم، بقدر ما كان حنّيبَعْل ضعيفا عن مساندة حلفائه» (40) فانمحى بذلك تأثير انتصاراته. ولقد مكث مسيطراعلى إيطاليا الجنوبية التي أحرز فيها على انتصارات أخرى، ولكنه أضاع تارَنْت Tarente التي سلمها سنة 209 بعض الخونة. وانتظر المقدونيين وحَسْدربَعْل.

لم يأت المقدونيون. لأن فيلِب، زيادة على محاربته لأسطول روماني، كان عليه أن يحارب قسما كبيرا من الإغريق، وملك برغْامة Pergame والباربار الذين اقتحموا حدود أراضيه من الشمال. كان يواجه كل هؤلاء الأعداء، ولكن لم يكن يستطيع معارضة قرطاجة التي أضعفت نفسها لصالحه بإرسالها سفنا حربية إليه. وفي سنة 206 تفاوض مع الإيطوليين Etaliens، ثم مع رومة بعد بضعة أشهر.

أما في الهضبة الإيبيرية، فإن الجيوش التي كان يقودها حَسْدربَعْل وأخوه ماگون وقائد آخر باسم حَسْدربَعْل بن جِسْكون أحرزت على انتصارين كبيرين سنة 211. فافترق سِپْيون وأخوه لمهاجمة هذه الجيوش ولكنهما ماتا مع الكثير من رجالهما. وكان الرومانيون يدافعون

بعناء كبير شمالي نهر الإيبر. أما الجانب القرطاجي فكان يستعد من جديد لحملة على إيطاليا.

وفي نهاية سنة 210، وصل قائد شاب هو بوبْليوس كُرْنيلْيوس سيبْيو Publius Cornélius Scipio ابن بُوبْليوس الذي لقي حتفه في السنة السابقة، فقوم الحالة التي كادت تكون ميئوسا منها. كان بوبْليوس يطمئن إلى حسن طالعه، أو كما كان يقول، إلى إلهام الآلهة، وكان محبوبا عند جنوده الذين يعاملهم بتسامح يفوق الحد أحيانا، وكان سياسيا بارعا وقائدا يفيض جرأة، وإن كان قادرا على التخطيطات المحكمة. وقد ابتدأ بعملية بدت وكأنها تهور جنوني غير أن نجاحه بررها. كان القادة الثلاثة (حَسْدربَعْل، ماگون، حَسْدربَعْل بن جِسْكون) لم يعودوا يخشون الرومانيين مطلقا، فافترقوا وعسكروا بعيدا عن قرطاجة التي لم يمكث بها سوى حامية قليلة العدد جدا. فزحف سِپْيون بكامل السرعة على هذه المدينة واستولى عليها. فوجد فيها معدات حربية بالغة الأهمية، وسفنا ضمها إلى أسطوله، ومقادير ضخمة من الأموال، استطاع مضاعفتها بما تنتجه المناجم المجاورة، كما وجد رجال البحر الذين استخدمهم مجدفين، وصُنّاعاً استعملهم في إكمال تسليحه، وأخيرا وجد العديد من الرهائن الأسبانيين الذين سرحهم ليعودوا من حيث أتوا، بشرط أن تصبح أسَرُهم حلفاء له. وهكذا قطعت رأس الإمبراطورية البَرْكية في إسبانيا.

لم يعامل القرطاجيون الأهالي بالحسنى، بل كانوا يفرضون عليهم الأتاوات الفادحة، ويطلبون منهم الجنود باستمرار، ويسيطرون بالرعب وبطريقة أخذ الرهائن، ويعاملون أقواما ذوي أنفة بعجرفة مهينة. لذلك استسلمت عشائر كثيرة للرومانيين. بينما غيرها ممن كانت لا تستطيع

أن تتخلى بعد، لم تكن تخدم السادة الممقوتين إلا على مضض. ولم يكن التفاهم حاصلا بين أخوي حنّيبَعْل وابن جِسْكون، وهذا الاختلاف أفاد سِپْيون. فتقدم سنة 208 إلى شعب الوادي الكبير Guadalquivir، وانتصر في معركة جرت في بايكولا Baecula على حَسْدربَعْل البركي الذي لم يلحق به القائدان الآخران في الوقت المناسب.

ومع ذلك فعقب هذا الاندحار حقق حَسْدربَعْل التصميم الذي أرجىء منذ عدة سنين. فلقد أفلت من بوبْليوس الذي كان من الممكن أن تصبح غلطته مشؤومة على رومة. واتجه حَسْدربَعْل نحو الشمال مخترقا جبال البيريني من ناحية المحيد، لتلافي الجيوش العدوة التي كانت مستولية على البلاد الواقعة بين المجرى الأسفل لنهر الإيبر وهذه الجبال. ولاشك أنه لم يصحب معه سوى جيش صغير، ولكن كان في حسبانه أنه سيجر معه الكثير من الكِلْتيّين في بلاَدِي الغال البعيدة Transalpine والقريبة Cisalpine. وقضى شتاء 208-207 في جنوب بلاد الغال. ثم اخترق في الربيع جبال الألب دون عناء، وتقدم عبر وادي نهر الْپو Le Pô حتى تجاوز مدينة ريمِني Rimini. الساعة إذن كانت خطيرة على رومة. فالأخوان، إذا وحدا قوتهما وحصلا على انتصار كبير فإنهما يستطيعان تأميل الحصول على أحلاف بإيطاليا الوسطى. والناس هنا قد سئموا هذه الحرب التي امتدت إحدى عشرة سنة، كما سئموا التضحيات التي تتطلبها، وبعض المستعمرات إن لم ترفض جهارا بذل مساعدتها، فإنها على الأقل أبدت عدم رضاها، كما اندلعت الفتن في أتروريا. غير أن الرسالة التي يضرب فيها حَسْدربَعْل لحنّيبَعْل موعدا للقاء في أمْبرِيا Ombrie كشف أمرها في الطريق. ولذلك فإن القنصل كايوس كْلُودْيوس نيرو C. Claudius-Néro الذي كانت مهمته أن يُثبِت حنّيبَعْل بالجنوب، قام

بتنفيذ خطة جريئة. فقد ترك قسما من جيوشه في مواجهة حنّيبعل، وذهب بالقسم الآخر للالتحاق بزميله ليفْيوس Livius المكلف بسد الطريق أمام حَسْدربَعْل. فجرت المعركة على ضفاف نهر الميطور Métaure بين ريمِني وأنْكون Ancône. وقد كانت عنيفة، إلا أن نيرون انتصر فيها بمناورة لبقة، فقُتل حَسْدربَعْل، وأسرع نيرون بالعودة إلى معسكره. وكان حنّيبَعْل يجهل تغيبه، فلم ينتهز الفرصة للهجوم. ولما أعلم بالكارثة [41] تراجع إلى قاصية الهضبة في مقاطعة البروتيوم Bruttium.

في السنة الموالية أنهى سِپْيون الحرب في أسبانيا. وكان القرطاجيون قد أعادوا فيها تنظيم نفوسهم بعد معركة بايْكولا وذهاب حَسْدربَعْل. وبعثت من إفريقيا نجدات تحت إمرة قائد يدعى حَنّون، وقد ذهب صحبة ماگون إلى أرض الكلْتبيريين Celtibérie لجلب المرتزقة. وفي بيتِكا Bétique جعل حَسْدربَعْلَ بن جِسْكون الحاميات في المواقع الحصينة. صحيح أن جيوشا رومانية أوقعت الهزيمة بماگون وحنّون، وتشتت الرجال الذين جمعاهم، وأسر حنّون. لكن في بداية سنة 206 كان حَسْدربَعْل وماگون يقودان جيشا عظيما، ربما يتجاوز 50.000 رجل. فزحف عليها سِپْيون وأوقع بهما قرب إيلِبا Ilipa هزيمة قاضية. فتسارع الإسبانيون الذين بالجيش البونيقي بموالاة الرومانيين. أما القائدان المنهزمان فقد فرا إلى قادس التي عاد منها حَسْدربَعْل إلى قرطاجة. وقد اجتهد أخو حنّيبَعْل في متابعة الصراع باستدعائه لبعض الجيوش من إفريقيا، من موريتانيا على ما يحتمل، وبتجنيده الأهالي بناحية المجرى الأسفل للوادي الكبير، غير أن أحد مساعدي بوبْليوس قضى على محاولات التجنيد هذه. وفي الخريف عبَر ماگون Magon المضيق، إذ كان له أسطول صغير، وساير الساحل الإيبيري، وحاول دون جدوى أن يستولي على قرطاجنة، ثم عاد إلى قادس. لكن هذه المستعمرات

الصورية القديمة، التي لم تحتفظ إلا بما يشبه الاستقلال، كانت تنطوي ربما على حسد وعلى حزازات تجاه أختها الإفريقية. إذ كان لا مناص لتجارها من الإفلاس إذا لزمهم التخلي عن أي متاجرة مع إسبانيا التي ضاعت الآن من يد القرطاجيين. وحتى قبل ذهاب ماكون فكر بعض أهل قادس بأن الوقت قد حان للتفاهم مع الغاليين، لكن القائد اطلع على ما عزموا عليه، وأمر باعتقالهم ونقلهم إلى قرطاجة. وفي غيبته اندلعت الثورة، ولما عاد رفضت المدينة السماح له بالدخول. فانتقم بأن صلب الشوفيطين les Sufètes والمتصرف المالي الذين كان دعاهم لمقابلته. ثم اتجه إلى جزيرة يابسة Ibiça، ومنها إلى الباليار، فصدّه الأهالي عن ميورقة Majorque، ولكنه استطاع النزول بمنورقة Minorque، حيث قضى فصل الشتاء. أما قادس ففتحت أبوابها للرومانيين.

لم يبق أي شيء من فتوحات البَرْكيين، ولا من مشاريع حنّيبَعْل الواسعة. ومع ذلك فقد مكث حتى 203 في البروتيوم Bruttium بجيش يتضاءل يوما بعد يوم، وفي مجال يضيق أكثر فأكثر. وأخيرا انحصر في كروتون Crotone والأراضي المجاورة لها. وبينما هو يتشبث باستيلائه على هذه الزاوية من جنوب إيطاليا، غادر أخوه مينورقة في صيف سنة 205 ونزل بجنوده في جِنَوة Gènes، وتمسك أكثر من سنتين بليغوريا Ligurie وبلاد الغال القريبة. بل ويدعي البعض أنه كان له مناصروه بأتروريا Etrurie. ولكن ليس لدينا مع الأسف عن هذه العمليات سوى روايات تبدو خرافية. إن هذه الحملة التي قررتها حكومة قرطاجة لابد أنها جرت بموافقة حنّيبَعْل. فهل كان يعتمد على النجاح في خطة مماثلة للخطة التي أخفقت سنة 207، عندما كان له ولأخيه الآخر وسائل أكبر وأوسع ؟ يسوغ الشك في ذلك. ولربما أن حنّيبَعْل ومواطنيه

كانوا يظنون أن رومة، مادامت الجيوش البونيقية موجودة في إيطاليا، لن تجرؤ على نقل الحرب إلى إفريقيا، وأنها، لكي تتخلص من هذه الجيوش، ستوافق على الصلح الذي لن يكون معاكسا لمصلحة وطنهم. فإذا كان هذا تفكيرهم فقد أخطأوا. لأن الرومانيين كانوا قد عقدوا العزم على أن لا يتفاوضوا قبل التحرير النهائي للتراب الإيطالي. وقد جهز الحملة الإفريقية سِپْيون Scipion الذي انتخب قنصلا بعد عودته من أسبانيا. ولما أفهمت انتصاراتُه بليبيا القرطاجيين بأنهم في حاجة إلى جميع قواتهم ليواجهوا بها المهاجم، فإنهم استدعوا حنّيبَعْل وماگون للقدوم عند نهاية صيف سنة 203. ولاشك ان آلام حنّيبَعْل قد كانت كبيرة عند مغادرته لهذه الأرض الإيطالية التي سبق له منذ خمس عشرة سنة أن دخلها يحمل آمالا كبيرة. ولكن لا يحتمل مطلقا أن عودته تكون قد أغضبته، لأنه لم يكن يجهل أن سلامة قرطاجة كانت تفرض هذه التضحية. وحسب تيتْ ليڤْ Tite-Live، فإن ماگون توفي بالبحر من جرح أصابه في إحدى المعارك. وبعد ذهابه، فإن ضابطا يدعى عَمِلْكار جمع، على ما قيل، بعض الليغوريين والغاليين وقاوم الرومانيين سنين عديدة في بلاد الغال القريبة، ولكن يصعب أن نعرف ما إذا كان هناك شيء صحيح في الحكايات التي تحكي عنه.

الفصل الخامس

شمال إفريقيا إبَّان حرب حنّيبَعل

1

سبق أن رأينا أن الحكومة الرومانية قررت في بداية الحرب سنة 218 أن تبعث بجيش إلى إفريقيا، ثم وقع التراجع عن هذا المشروع لما علم خبر اختراق حنّيبَعْل لجبال الألْب. ولقد مرت بعد ذلك ثلاث عشرة سنة قبل أن يعود هذا المشروع للظهور. وخلال ذلك فإن بعض الأساطيل العدوّة ظهرت على طول سواحل ليبيا، غير أن ظهورها لم يكن سوى تجريدات سريعة بقصد النهب. ففي سنة 217 غادر القنصل كْنايوس سِرْفيلْيوس گَيمِنوس Cn. Servilius Geminus مصب نهر التبر le Tibre على رأس 120 سفينة خماسية. وبعدما أبعد عن إيطاليا أسطولاً قرطاجيا كان قد ظهر أمام بيزا Pise، تقدم ورسا بميناء ليليبي Lilybée، ومنها اتجه إلى جزيرة ميناكس Meninx أي جَرْبة. فعاث فيها تخريبا، ثم وقف بجزيرة سِرْسينة، أي قَرْقَنّة، التي لم تسلم من تخريبه إلا مقابل أتاوة بلغت عشرة تالانات Talents فضية. بل إنه أنزل إلى اليابسة

بالقارة بعض الجيوش التي تفرقت، فوقعت مباغتتها. ولقي حتفه المتصرف المالي تبيريوس سمْبرونْيوس بْلايْسوس Ti. Sempronius Blaesus ومعه نحو ألف من الجنود. أما الباقون فتسارعوا بالعودة إلى السفن. وقبل رجوع سرْفيلْيوس إلى ليليبي استولى على كُسّورا Cossura التي هي جزيرة بَنْتِلارية Pantelleria وترك بها حامية.

وتشير بعض الفقرات من تيتْ ليفْ Tite-Live الذي نجهل مصادره فيها، إلى رحلات بحرية أحدث عهدا، ويحتمل جدا أن تكون هذه الفقرات مشتملة على أخطاء وعلى تكرار مغلوط. ولكن لانرى أنها يجب تركها جملة. وهي أن الأسطول الراسي في ليليبي، كان عليه أن يبحث عن الفرص ليقوم بنشاطه وأن يحصل على المغانم، لأن ضعف الملاحة البونيقية كان يساعد على القيام بهذه العمليات دون عناء كبير.

وفي سنة 216، أذن مجلس الشيوخ على ما قيل لتاتْيوس أوتَكيلْيوس كْراسوس T. Otacilius Crassus، وهو المكلف بعمالة (بروبريطور) صقلية، بالذهاب إلى إفريقيا إذا ظهرت له مصلحة في ذلك. ومن جهة أخرى فإن تيتْ ليف يشير إشارة سريعة إلى حملة إفريقية قام بها الحاكم (البريطور) (42) Préteur بوبلْيوس فوريْوس فيلوس P. Furius Philus بعد كارثة كَنْس Cannes. فقد عين على رأس أسطول بحري مهم، ولكنه عاد إلى ليليبي متخنا بجروح خطيرة.

من سنة 215 إلى 211 كانت قيادة الأسطول في ليلِبي بيد أوتَكيليوس كْراسوس هذا. وقد ذكر له تيتْ ليف حملتين بحريتين قام بهما على السواحل الإفريقية. ففي سنة 215 قام (بتخريب المقاطعة القرطاجية). وفي 212، قبل سقوط سرقوسة ببضعة أيام، قاد 80 سفينة خماسية إلى أوتيكا Utique، ودخل الميناء ليلا، واستولى على سفن مليئة

بالقمح، ثم نزل إلى الأرض ونهب الأرياف حول أوتيكا، ونقل إلى سفنه المغانم المتنوعة. وقد عاد ومعه 130 من سفن النقل إلى ليلبي [43] التي كان قد غادرها بثلاثة أيام من قبل. وبمجرد وصوله بعث إلى سرقوسة بالقمح الذي حصل عليه. وكان وصول هذا القمح في الوقت المناسب لإنقاذ الغالبين والمغلوبين من المجاعة.

وبعد سنتين، أي في 210، أصدر القنصل م. فاليرْيوس ليفينوس M. Valerius Laevinus أمره إلى م. فاليريوس ميصالا M. Valerius Messala قائد أسطول صقلية بالذهاب إلى إفريقية، مصحوبا بقسم من سفنه بقصد إحداث الإتلاف فيها ومحاولة الاطلاع على استعدادات القرطاجيين. فأخذ 50 سفينة، ونزل بغتة قبل طلوع النهار، وهاجم منطقة أوتيكا وأحدث فيها أتلافا على مدى واسع، وبعد أن أسر كثيرا من الناس وجمع مغانم كبيرة، عاد إلى ليليبي التي كان قد غادرها قبل ذلك بثلاثة عشر يوما. فنحن نرى أن شجاعة ميصالا Messala لم تختلف في شيء عما كان عليه سلفه. ولكن ربما أنها ليست برهانا قاطعا لتأكيد أن أحد الإخباريين قد اختلقها.

وفي سنة 209 تقررت حملة جديدة على الساحل الإفريقي، ولكن لم يقع تنفيذها. كما أن البروقنصل، م. فاليرْيوس ليفينوس عبر في السنة الموالية من صقلية إلى ليبيا ومعه 100 سفينة. فنزل قريبا من كلوبيا Clupea، بالجنوب الشرقي للرأس الطيّب فسارع إلى سفنهم عند اقتراب أسطول قرطاجي متكون من 83 قادسا، وحدثت معركة بحرية في مياه كلوبيا (القليبية) كان الحظ فيها إلى جانب الرومانيين الذين استولوا على 18 سفينة عدوة، وأرغموا الأخريات على الفرار، ثم عادوا إلى ليلبي.

ونجد في تيت ليف رواية تكاد تشبه هذه، وتتعلق بحملة قال إنها جرت سنة 207. فقد غادر فاليريوس ليفينوس مدينة ليلبي مع أسطوله، وقام الرومانيون هذه المرة بتخريب مقاطعتَيْ أوتيكا وقرطاجة، وتقدموا إلى أسافل أسوار اوتيكا. وفي طريق عودتهم اصطدموا بأسطول من 70 سفينة، استولوا من بينها على 17، وأخرقوا 4، وأرغموا الأخريات على الفرار.

ولقد استطاعت هذه الحملات المختلفة أن تحدث للقرطاجيين أضرارا متفاوتة الخطورة، ولكنها لم تهدد مطلقا سيطرتهم على إفريقيا.

2

لقد كان عليهم أن يخشوا خطرا أكبر من ذلك. وهو عداء بعض الملوك الأهالي الذين كانوا يستطيعون منعهم من استخدام كل قواهم ضد الرومانيين، وأن يعطوا لهؤلاء نقطا للارتكاز حين يشعرون بقدرتهم على نقل الحرب إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط.

ويحتمل أن إحدى هذه الدول قد تكونت من عهد باكر في بلاد البربر، وذلك بتجمع قبائل مختلفة تحت سلطة واحدة مشتركة. فعندما ثار حَنّون Hannon ضد قرطاجة حوالي منتصف القرن الرابع، دعا لنجدته ملك الموريين. وفي نهاية نفس القرن ذكر اسم أيلْماس Ailmas ملك الليبيين الذي كان على التعاقب حليفا وعدوا لأگاطُكليس Agathoclès. ولا نعلم شيئًا أكثر من هذا عن هذين الملكين، ولا عن مملكتيهما اللتين ربما لم يكن فيهما سوى ترابط غير تام، ولمدة عابرة.

في القسم من شمال إفريقيا الذي لم يكن خاضعا مباشرة لقرطاجة، والذي كان يسكنه الأهالي الذين سمتهم النصوص باسم نومادس Nomades ونوميداي Numidae، نلاحظ في عهد الحرب البونيقية الثانية وجود ثلاث ممالك كبرى. هي مملكة الموريين Maures، ومملكة الماسيسيليين Masaesyles، ومملكة الماسيليين Massyles. ولربما أنها تأسست كما تأسست الدولة البربرية في العصور الوسطى، أي أن إحدى القبائل فرضت بعد حروب ناجحة سيطرتها على قبائل أخرى، وكانت هي النواة والدعامة لدولة بدائية، وأطلقت اسم نفسها عليها : الدولة الماسيلية والدولة الماسيسيلية... ويكون رئيس القبيلة أصبح ملكا، ومؤسسا لأسرة حاكمة إذا وافقته الظروف. ونكتفي هنا بذكر هذا الافتراض، الذي سنعود للحديث عنه عندما ندرس الممالك الأهلية بالخصوص.

فملك الموريين المذكور في أواخر القرن الثالث، كان يزاول سلطته بالمغرب الشمالي، بالقرب من المضيق.

ويذكر سْترابون Strabon، نقلا على ما يحتمل عن كاتب من نهاية القرن الثاني، أن نهر مُلُوشات (أو ملوخة Molochath) وهو اليوم نهر مَلْوِيَّة [44]، كان مصبه يكون الحد بين أرض الموريين وأرض الماسيسيليين منذ عهد مَسِنيسّا Masinissa المتوفى سنة 148 ق.م. فيحسن إذن أن نقبل أن الحدود قد أثبتت قبل ذلك، أي في العهد الذي كانت فيه مملكة الماسيسيليين لا تزال موجودة. ويقولون لنا إن الماسيسيليين جيران الموريين كانوا يواجهون الجانب الإسباني الذي تقع فيه مدينة قرطاجنّة Carthagène، وهذا يتطابق مع مقاطعة وهْران. وفي سنة 206 كان سيفَكْس Syphax ملك الماسيسيليين يقيم في

سيـكـا Sigga قريبا من مصب نهر تفنة Tafna على نحو عشرين فرسخا شرقي ملْوِيّة. فقد كان إذن يسيطر على غرب القطر الجزائري الحالي. ولكن سلطته كانت تمتد بعيدا نحو الشرق. فحسب سترابون، كان الحد بين الماسيسيليين والماسيليين هو رأس تريتون Cap Tréton الذي هو رأس بوقَرْعون اليوم شمال قسنطينة. وفي داخل التراب كان سيفَكْس مسيطرا على سِرْتا Cirta (قسنطينة) سنة 203 ق.م بالتأكيد، وسنة 206 على وجه الاحتمال. فتيتْ ليفْ Tite-Live يذكر أن هذا الموقع كان قسما من أراضيه القديمة وليس مما استولى عليه حديثا.

أما مملكة الماسيليين، فكانت أقل سعة، وكانت تحدها من جهة الشرق ممتلكات قرطاجة، التي كانت تشمل سيكا Sicca [(45)] (أي مدينة الكاف) سنة 241، والسهول الكبرى على نهر مجردة إبان الحرب البونيقية الثانية. على أن الحدود بين الماسيسيليين والماسيليين، كثيرا ما حدث فيها التغيير. وسنذكر النصوص التي تؤكد ذلك، وإن كانت كثيرة الغموض بكل أسف.

ليس لدينا أي داع لنفترض أن قرطاجة تدخلت في تكوين هذه الممالك. ولاشك أنها وجدت فيها ما يفيدها. فكان من الملائم لها، عند احتياجها للجنود، أن تطلبهم من أمراء يتوفرون على قوات عديدة عوض أن تطلبهم من مجموعة من الرءساء الصغار. ثم إن هؤلاء الأمراء، إذا عرفت كيف تجذبهم إليها، يستطيعون القيام بعمليات الحراسة حول مستعمراتها وحول مقاطعتها الإفريقية. كما يسهلون تغلغل تجارتها في ممتلكاتهم. ولكنهم لم يعودوا أتباعا متواضعين وطيّعين، بل كانوا حلفاء لابد من مراعاتهم. وأحيانا كانوا أعداء يقتطعون لأنفسهم جزءا من

الإمبراطورية البونيقية. ولقد رأينا أنهم استولوا، ولا ندري متى وكيف، على عدة موانئ بالساحل الجزائري.

أثناء حرب حنّيبَعْل، كان ملك المسيليين هو گايا Gaïa أبو مَسِنيسّا الشهير. وقد كان حليفا للقرطاجيين في السنين الأخيرة من حياته. (تقريبا بين 213-208). ولكنه حاربهم قبل هذا العهد وانتزع منهم منطقة ترابية التي نجهل موقعها.

وقد زود الماسيسيليون حنّيبَعْل سنة 219-218 ببعض الجيوش. غير أن حربا اندلعت، حسب رواية تيتْ ليڤ وأپْيان Appien، بعد ذلك بسنين قليلة بين قرطاجة وسيفَكْس ملك هؤلاء النوميديين.

يقول أپْيان : كان حَسْدربَعْل أخو حنّيبعل يحارب سپْيون وأخاه في إسبانيا، ولكنه دُعي مع قسم من جيشه ليحارب سيفَكْس الذي هاجم القرطاجيين. ثم أبرم هؤلاء الصلح مع الملك، وردوا حَسْدربَعْل إلى الهضبة. وحسب سياق الرواية فإن هذه الأحداث تكون جرت بين 217-212.

أما رواية تيتْ ليڤ فهي أكثر وضوحا : إن سپْيون وأخاه علما سنة 213 بأن سيفَكْس قد اصبح بغتة عدوا لقرطاجة. فقررا أن يعرضا عليه محالفتهما، وأرسلا من إسبانيا ثلاثة من القواد Centurions ليعدوه بأن مجلس الشيوخ والشعب الروماني سيعرفان، إذا هو تابع الحرب بعزم، كيف يعبران له عن اعترافهما البالغ. وقد سُرّ الملك الباربار لهذا المسعى ورحّب بالموفدين. ومن خلال المذاكرات التي جرت بينه وبين هؤلاء الجنود المحنكين، اقتنع بضعف عمله في العسكرية واتضح له تفوق الخطط الرومانية. لذلك طلب منهم أن يبرهنوا على إخلاصهم في الصداقة بالاستجابة لمطلب عبّر لهم عنه، وهو أن يبقى أحدُهم عنده

ليدرب جيشه، بينما يعود الآخرون إلى سِپْيون. وقال لهم : إن النوميديين فرسان مهرة. ولكنهم لا يحسنون الحرب على أقدامهم. وعلى النقيض منهم أعداؤه الذين لهم ثقة في قيمة مشاتهم. فالرجال لا ينقصونه ولكن يجب صنع جيش حقيقي من هذه الكتلة المشوشة. فاستجاب الرومانيون لطلبه، بشرط أن يبادر بإعادة القائد الثالث إذا لم يوافق رؤساؤهم على مسلكهم. وكان اسم الذي مكث هو: ك. سْتاتوريْوس Q. Statorius، بينما عاد الآخران إلى أسبانيا صحبة موفدين مكلفين بأخذ التعهد من سِپْيون وأخيه، ومكلفين كذلك بأن يدفعوا للهروب الجنودَ النوميديين العاملين في الجيش البونيقي.

جمع ستاتوريْوس عددا كبيرا من المشاة، ودربهم على الطريقة الرومانية. وبعد قليل تجرأ الملك على خوض معركة مصفوفة ضد القرطاجيين وهزمهم. وخلال ذلك كان رُسُله قد أدوا مهمتهم. ولما علم القرطاجيون باتفاقه مع الرومانيين بعثوا بسفارة إلى گايا، ليوضحوا له أن هذا الحلف سيجعل سيفَكْس أكثر قوة وأكثر خطرا على الأمراء وعلى الشعوب الإفريقية. فمن مصلحتهم جميعا أن يتحدوا بأسرع ما يمكن للقضاء عليه، قبل أن يستطيع التحرك بالاتفاق مع أصدقائه الجدد إما في ليبيا أو في أسبانيا. فاقتنع گايا بسهولة، بعد إلحاح ابنه الذي كان لايزال شابا، وإن كان ذا طموح كبير. وهاجم سيفَكْس القوات البونيقية ومَسِنيسّا، فخسر معركة ضاع له فيها 30.000 جندي على ما قيل. ففر مع بعض الفرسان عند الموريين. ولكن شهرته لم تلبث أن جذبت إليه العديد من الأهالي واستطاع تكوين جيش جديد. وكان يتأهب للعبور إلى أسبانيا عن طريق المضيق، لكن مَسِنيسّا باغته بجنوده المنتصرين. ومن دون مساعدة القرطاجيين، وأوقع به هزائم كبيرة.

لاشك أن تيتْ ليف وأپيان، قد اعتمدا في هذا على مصادر مختلفة نجهلها ونجهل قيمتها، لذلك يحسن الاحتياط، لأننا نلاحظ أن الكاتبين، حيثما أمكننا أن نراقبهما، قد أدخلا في تاريخ الحرب البونيقية الثانية عددا من الأساطير والأكاذيب. ورواية تيتْ ليف تشمل الكثير مما لا يصدق. بحيث إذا كان سيفَكْس في سنة 213 قد تلقى دروسا في الفن العسكري من أحد قواد المائة (centurion)، فالمظنون أن يتذكرها بعد ذلك بنحو عشر سنين، لكن لاشيء يشير إلى أنه في سنة 203 قد حارب سِپْيون الإفريقي ولايلْيوس Laelius ومَسنيسّا بمشاة نظموا على مثال الفيالق الرومانية، وحاربوا على منوالها. كما أن رسله المتوجهين عند سِپْيون وأخيه صحبة اثنين من الرومانيين، لا نرى مطلقا بأي وسيلة أنهم دفعوا للفرار النوميديين الموجودين في معسكرات الأعداء. ومن الممكن أن شهرة سيفَكْس كانت عظيمة، ولكنه حينما فر وكأنه وحيد خارج حدود مملكته، كان على ماقيل لنا قد أصابته الهزيمة. لذلك فالمتطوعون الذين قد يكونون جاءوا جماعات ليضعوا أنفسهم تحت إمرته، كانت لهم في حظه ثقة عمياء. لماذا أهمل آنذاك استعادة أراضيه، وفضّل نقل الحرب إلى جنوب أسبانيا حيث كان القرطاجيون قادرين على صد أي هجوم ؟ ومن أين له بسفن النقل الضرورية لحمل جيشه كله عبر المضيق ؟ ومن أين له كذلك بالسفن الحربية القادرة على حماية هذه الحملة من الأسطول البونيقي ؟

ومع ذلك فلا يستحيل أن يكون أَپْيان وتيتْ ليفْ، قد احتفظا لنا بنُتَف من الحقيقة. فمن الممكن أن حربا قد جرت حوالي 213 بين ملك الماسيسيليين وقرطاجة، وأن هذه دعت آنذاك إلى إفريقيا قسما من جيوشها بأسبانيا وربما حتى قائدها حَسْدربَعْل، وأن سِپْيون وأخاه سَعِدا بهذا التحول ودخلا في اتصالات مع سيفَكس، ووقع تبادل الوفود،

ولابد أن الماسيليين والماسيسيليين كثيرا ما كانت تقع بينهم خصومات الجيران. ويتحدث تيتْ ليف في مكان آخر عن منطقة واقعة على حدود المملكتين وكثيرا ما اختصم بشأنها سيفَكس Syphax وگايا Gaïa مرة بالمطالبات ومرة بالسلاح. ويقول أيضا، دون أن يحدد التاريخ أن سيفَكْس انتزع مقاطعة من گايا الذي كان انتزعها من قرطاجة. ويمكننا أن نقبل كون ملك الماسيليين قد بادر بانتهاز الفرصة للانضمام إلى القرطاجيين ضد الماسيسيليين، وأن مَسنيسّا الذي كان عمره نحوا من خمسة وعشرين عاما (لاسبعة عشر كما يدّعي ذلك تيتْ ليف) قد شارك في هذه الحرب. ولربما أن سيفَكْس قد تعاقب عليه النصر والهزيمة، ولكنه في نهاية الحرب، بقي سيد مملكته، لأنه كان بعد سنين قليلة يملك سيگا Sigga وسِرْتا Cirta في آن واحد.

وحسب أپْيان Appien، فإن الصلح عاد بين هذا الأمير وقرطاجة حول سنة 212، أي قبل موت سيپْيون وأخيه بزمن قليل [46]. على أن تيتْ ليف يشير لسفارة بعث بها سيفَكْس إلى رومة سنة 210. وقال إن رسله ذكروا أعضاء المشيخة بعلاقاته مع سِپْيون وأخيه، وأنهم قدموا لهم عرضا بانتصاراته على القرطاجيين، ثم أكدوا لهم أن قرطاجة ليس لها عدو أشد لدادة منه، كما ليس لرومة حليف أوثق منه. فلم يكتف مجلس الشيوخ باقتبال الرسل بحفاوة، بل عين بدوره ثلاثة من الموفدين، هم لوكْيوس گَينوكْيوس L. Genucius وبوبْلِيوس بوتِلْيوس P. Poetelius وبوبْليوس بوبيلْيوس P.Popilius ليحملوا إلى ملك الماسيسيليين الهدايا التي كانت عبارة عن شملة، ورداء من الأرجوان، وكرسي من العاج، وكوب ذهبي يزن خمس لبرات، كما كلف هذا الوفد بالذهاب لزيارة بعض الأمراء الأفارقة الآخرين ليهدي لهم أكوابا ذهبية تزن ثلاث لبرات وشملات مذيلة (Toges prétextes).

برغم هذه التفصيلات الدقيقة، فإن رواية المؤرخ اللاتيني لا تستحق أن نثق بها، لأن تقديم مثل هذه الهدايا لا يماثل الأخطار التي كان السفراء معرضين لها في البحر أو أثناء تجولهم خلال إفريقيا. وعلى كل فإن سيفَكْس كان بعد أربع سنين ذا علاقات ودية مع القرطاجيين. وتيتْ ليڤْ نفسه قال إنه كان حليفا لهم، ثم إن سيفَكْس لم يكن يرى أنه ملتزم بأيّ التزام تجاه الرومانيين، لأن بوبْليوس سِپْيون كان آنذاك يخطب التحالف معه.

بقي گايًا على وفائه لقرطاجة، وزودها بالجيوش التي ذهبت إلى أسبانيا. وقد أقام مَسنيسّا رئيسا لهذه الجيوش بأسبانيا من 212 أو 211 إلى خريف سنة 206. وكثيرا ما تردد خلال هذه المدة على إفريقيا طلبا لوحدات جديدة من الجيش أو لأسباب أخرى. وقد أدى وهو على رأس فرسانه خدمات عديدة للجيوش البونيقية.

ويظهر أن فقرة لديودور الصقلي Diodore de Sicile تشير إلى أن القرطاجيين حاربوا الميكَتانيين Micatanes بين سنة 212 و207، لأن هذه العشيرة الإفريقية لم تنس المعاملات القاسية التي تحملتها قبل ذلك العهد بنحو ثلاثين سنة، وقد عوقبت بسرعة على ثورتها الجديدة [(47)].

غير أن الصراع الكبير كان يتحول لصالح رومة. فحَسْدربَعْل لقي حتفه على نهر الميطور سنة 207 ق.م، كما بقي أخوه حنّيبَعْل منزويا في البروتْيوم Brutium. وفي أسبانيا، فإن الانتصار الذي ناله الرومانيون قرب إيليبا Ilipa سنة 206، لم يدع لقرطاجة سوى قادس التي ستنفصل عنها عما قليل. وإفريقيا هي التي أصبح سِپْيون الآن يريد أن ينقل إليها الحرب لينهيها. وكان لابد من إيجاد حلفاء بها. لأن القوات التي ستنزل على سواحل ليبيا ستنتصر دون مشقة، إذا ساعدتها قوات مملكتي

الماسيليين والماسيسيليين. لذلك فإن بوبليوس قبل مغادرته الهضبة الإيبيرية عائدا إلى إيطاليا، قد حاول كسب سيفكّس، كما ضمن لنفسه مساعدة مَسِنيسا.

كان بوبْليوس في طَرَّكونة Tarragone، ومنها بعث إلى ملك الماسيسيليين مساعده العسكري لايْلِيوس Laelius. فأبدى سيفَكْس كثيرا من الاستعداد، ولكنه صرح بأنه يريد محادثة القائد نفسه. فلم يتراجع سِپْيون أمام مخاطر عبور البحر، إذ ذهب مع لايلْيوس إلى قرطاجنّة Carthagène (ربما خلال صيف سنة 206) حيث أخذ سفينتين خماسيتين، وأبحر إلى سيگا مقر سيفَكْس. وشاءت الصدفة أن يصل فيتراءى له الميناء حين كانت سبع من السفن الثلاثية البونيقية تلقي مراسيها فيه. ذلك أن حَسْدربَعْل بن جِسْكون كان بعد حدوث كارثة إيليبا Ilipa بوقت قليل قد ذهب إلى قادس ليبحر منها عائدا إلى قرطاجة، وفي طريق العودة توقف في سيگا. ولم يشك رجال قوادسه بأن السيفينتين اللتين تقتربان هما من سفن الأعداء، فاستعدوا لمطاردتهما، ولكن الريح التي كانت تهب قوية من عرض البحرن مكنت الرومانيين من الدخول للميناء قبل أن تقلع سفن حَسْدربَعْل. وبذلك أصبحت السفينتان في حماية سيفَكْس، ولم يجرؤ القرطاجيون على مهاجمتهما. فنزل حَسْدربَعْل، ثم نزل سِپْيون ولايلْيوس إلى البر وتقدموا إلى الملك. وكان وصول قادة الدولتين الكبيرتين في وقت واحد، تشريفا افتخر به سيفَكْس. وقد أكرمهم الملك، وأدت به الحال إلى العمل للجمع بينهم عسى أن يتبادلوا الرأي في الوسائل التي تضع حدا للحرب، غير أن سِپْيون رفض هذا الطلب، قائلا إنه لا يشعر شخصيا لحَسْدربَعْل بأي كراهية تفرض المصالحة بينهما كما أنه إذا لم يأمره مجلس الشيوخ، لا يستطيع الدخول مع أحد الأعداء في مذاكرات في الشؤون العامة. أما

سيفكْس الذي أبى إلا أن يعامل زواره بنفس الحفاوة، فقد دعاهم جميعا إلى مائدته ورجاهم أن يقعدوا على نفس الفُرش. ويقال إن سِپْيون بكياسته ولباقته وروعة حديثه لم يخلب لب الملك الباربار فحسب بل حتى حَسْدربَعْل. ويقال إن القرطاجي قد أسرّ إلى سيفكْس بعد ذلك ببضعة أيام قوله : يظهر أن هذا الرجل، يعني سيبْيون، أشد خطرا في الحديث منه في الحرب. ثم عاد سيبيون إلى قرطاجنة بعد عبور شاق دام أربعة أيام بسبب هبوب الرياح المعاكسة.

عقد سِپْيون، حسب تيتْ ليف، حلفا مع سيفكْس. وبالطبع فإننا لا نستطيع تخمين الأحاديث التي تبادلاها، ولا التعهدات الصادقة أو غير الصادقة التي اتخذها الملك. ولابد أنه كان متحيرا في أمره، بحيث يكون ارتكب خطأً فاحشا إذا رفض عروض الرومانيين المنتصرين في إيطاليا وفي صقلية وأسبانيا، والذين ربما سينتصرون في إفريقيا حتى ولو وقع رفض مساعدتهم، غير أن قرطاجة من جهة أخرى كانت تحتفظ بنفوذها الكبير في نفوس الأهالي. ونظرا لعدم تأكده من نتيجة الحرب فإنه كان يود أن لا يشارك فيها. بل أكثر من ذلك، فإنه كان يتمنى لو أنها بفضل توسطه تنتهي قبل أن يقع نقلها إلى القارة الإفريقية. ولكي يلعب دور الحكم، الذي لم تكن رومة ولا قرطاجة مستعدتين لتخويله القيام به، كان لابد له من أن يكون صديقا للجمهوريتين معا. ومهما تكن الوعود التي أعطاها لسِپْيون فإنه لم يقاطع القرطاجيين. وسنرى أنه بعد بضعة أشهر استقبل حَسْدربَعْل من جديد في زيارة، وأنه أصغى لنصائحه.

أما مَسِنيسّا فأخذ في أسبانيا يتعرف على قيمة الجيوس الرومانية وقائدها، وحتى خيالته التي كانت مخشية الجانب فقد أصيبت بهزيمة كبيرة في إحدى المعارك التي سبقت معركة إيلبا Illipa [48] وشاهد

انهيار السيطرة البونيقية في الهضبة، وكان يتوقع أن رومة ستنتصر أيضا في ليبيا. ولربما أنه كان غاضبا على قرطاجة التي كانت تستخدمه ولكنها كانت تحذر طموحه ومواهبه، والتي يحتمل أنها لم تكن تريد أن يصير هذا الفتى ملكاً، وهو ابن ملك. ولابد أنه كان يعلم أن سِپْيون يودّ التفاهم معه، فتيتْ ليڤْ يروي أن ماسيڤَا Massiva وهو أحد حفذة كَـايا [49]، كان قد صحب عمه إلى أوربا، وأنه قد أسر، فسارع القائد الروماني إلى إطلاق سراحه [50]. وفي ربيع سنة 206، بعد معركة إيلِبَا جرت على ما يظهر مقابلة سرية بين مَسنيسّا وبين يونيْوس سيلَنوس Junius Silanus. الذي ترك له بوبْليوس، عند عودته إلى طَرَكُونة، القيادةَ على الجنوب الأسباني.

بعد ذلك عاد إلى إفريقيا، وقضى مدة قصيرة في وطنه، ثم قفل إلى قادس. أما المذاكرات التي أجريت مع سيلَنوس، فلم تفض إلى النتيجة المؤملة. وعلى غرار سيفَكس، كان مَسنيسّا يريد أن يتفاوض في الموضوع مع سِپْيون نفسه، فأخبر بذلك لوكيوس مَرْكيوس L. Marcius الضابط الذي كان يوجد على مقربة منه. وكان بوبْليوس في شمال نهر الإيبر، ولاشك أنه رأى أن عمله مع مَسِنيسّا لا يجب أن يقل عن عمله مع سيفَكْس، ولذلك ذهب للالتحاق بمَرْكيوس. ولما وصل الخبر إلى الأمير الماسيلي بواسطة مَرْكيوس، ادعى أن فرسانه متعطلون عن العمل، وذلك أمر يحزنه، وأن خيوله يصيبها الهزال بجزيرة قادس التي تستنزف مراعيها الهزيلة، وحصل من القائد القرطاجي ماگون على الإذن بالعبور إلى اليابسة حيث يقوم ببعض الغزوات. إذ ذاك عجل بإرسال ثلاثة من القادة النوميديين لتحديد مكان الالتقاء ووقته، وطلب من سِپْيون أن يحجز اثنين منهم كرهائن، وأن يردّ إليه الثالث وهو الذي سيصحبه بنفسه إلى المكان المعين. ولم يشهد الاجتماع سوى بعض رجال

الحرس. فأعلن مَسنيسا بأن الرومانيين إذا عبروا إلى إفريقيا فبمستطاعهم الاعتماد عليه، أما سِپيون الذي كان يعلم ما استفاده الأعداء من الخيالة الماسيلية، فقد قبل العرض بسرور، ولعل الأيمان وقع تبادلها. ثم أخذ بوبْليوس طريقه إلى طَرَكونة، بينما قام مَسنيسّا من جهته، ودون أن يلقى معارضة، في الأرياف المجاورة ليبرر بذلك حملته على القارة، ثم عاد إلى قادس. وقد وصلته أنباء عن بلاد الماسيليين دفعت به إلى أن يقرر بسرعة مغادرة هذا المكان (51).

3

وقبل ذلك بقليل توفي گَايَا. ولكن مَسِنيسّا لم يرث ملك أبيه. وإنما ورثه، حسب القاعدة المعمول بها عند النوميديين العضو الأكبر سناً في الأسرة المالكة، وهو أوزَلْكيس Oezalces أخو المتوفى، وكان شيخا مسناً، وتزوج أوزَلْكيس إحدى القرطاجيات، وكانت بنت أخت حَنيبَعْل. ولهذا فيحتمل أن الحكومة البونيقية اعترفت به بسرور كبير، ولاشك أنها لم تكن لترضى بعمل عسكري يقوم به مَسنيسّا للاستيلاء على السلطة العليا. فابن گَايَا بقي إذن وليا للعهد. وعاجلت الوفاة أوزَلْكيس سنة 206، وترك ابنين هما كبوسا Capussa الذي تولى الملك بعده مصداقا للقاعدة المعمول بها في الأسرة المالكة (لأنه كان أكبر سناً من مَسِنيسّا)، والثاني طفل صغير هو لكومازيس Lacumazès. ولم يكن للملك الجديد هيبة في النفوس، فثار عليه شخص يدعى مازايْتُلوس Ma-zaetullus، الذي ينتمي لنفس الأسرة مثل جميع هؤلاء الأمراء، غير أنه ينحدر من الفرع الذي كان دائما يجاهر الفرع المالك بالعداوة، وينازعه على السلطة بحظوظ مختلفة. وقد انضم إليه العديد من الأهالي. ولكن

كَبوسا مات في إحدى المعارك، وأصبح غالبه مازايتلوس سيدا على جميع البلاد الماسيلية. ومع ذلك فلم يتقلب بلقب ملك، وإنما أضفاه على الطفل لَكومازيس، وأعلن نفسه وصيا عليه. وكان بحاجة إلى حلفاء ضد مَسنيسّا الذي كان أكبر سناً من لكومازيس، وعلى حق في المطالبة بميراث كَبوسا. وترضية للقرطاجيين فإن مازايْتلوس تزوج بأرملة أوزلكيس التي هي بنت أخت حنّيبَعْل، كما بعث عنه الموفدين إلى سيفَكْس الذي كانت تربطه به علاقات الضيافة [52].

علم مَسنيسّا وهو بإسبانيا موت عمه، ثم موت ابن عمه، فغادر قادس، ومر في طريقه بموريطانيا (عند خريف سنة 206 ق.م). وكان لابد له في عودته لوطنه من الرور بأراضي سيفَكْس الذي كان ينطوي له على ضغن. وبدون شك، فإنه لم يكن برفقته سوى القليل من فرسانه النوميديين. فالتجأ إلى باكا Baga ملك الموريين الذي لم يكن يريد أن يزج بنفسه في حرب، ولكنه لبى رجاءه الملحّ وأعطاه حرسا متكونا من 4000 رجل. وبذلك استطاع بلوغ حدود المملكة الماسيلية. وكان قبل ذلك قد أعلم أصدقاءه وأصدقاء أبيه، فوجد منهم نحوا من 500 نوميدي ينتظرونه بمكان وصوله، فسرح الموريين ليعودوا طبقا للوعد الذي قطعه على نفسه. وقد كان عدد الذين لبوا دعوته أقل بكثير مما كان يأمله. ومع ذلك قرر أن يضرب ضربة جريئة، مقتنعا في ذلك بأن نجاحه سيجلب إليه الانتصار. وكان لَكومازيس قد غادر ثَبْسوس Thapsus (هي مدينة فِيلبْفيل على الساحل) في زيارة إلى سيفَكْس الذي كان في سِرْتا على ما يحتمل. فانقض عليه ابن گايا فُجْأة. فبادر قسم من رفقاء الملك بالدخول إلى المدينة التي تقفاهم مَسنيسّا إليها، أما الذين أرادوا أن يقاوموا فقد قتلوا واستسلم الباقون. على أن لكومازيس استطاع وسط الهياج أن ينجو مع معظم حرسه وأن يتابع طريقه حتى وصلوا عند سيفَكْس.

انتشر خبر هذا العمل الجريء في القرى والبوادي. فتوارد من كل مكان جنود گايا القدماء يعرضون خدماتهم على مَسنيسّا ويحثونه على استرجاع مملكة أبيه. أما مازيتلوس فكان في الحقيقة على رأس جيوش عديدة جدا، تتكون من الجيش الذي انتصر به على كَبوسا، ومن جنود كبوسا نفسه الذي وضعوا أنفسهم تحت إمرة مازيتلوس بعد اندحارهم، وتتكون أخيرا من جيوش أخرى جاء بها لكومازيس من عند سيفَكْس. فكان جميعها 15.000من المشاة و10.000 فارس. ومع ذلك تجرأ مَسنيسّا على خوض المعركة. وقد انتصر بفضل شجاعة الرجال الذين كان يقودهم، وبفضل الخبرة التي حصل عليها في الحرب بين القرطاجيين والرومانيين. وقد فر لكومانيس والوصي عليه وبعض الماسيسيليين داخل التراب البونيقي. وبهذا أصبح ابن گايا ملك الماسيليين. ولكنه توقع أنه سيخوض ضد سيفَكْس حربا أشد قسوة، فارتأى أن الأصوب هو مصالحته مع ابن عمه. فبعث إذن عنه الموفدين إلى لكومازيس يمنونه، إذا هو استسلم لحسن نية مَسنيسّا، بالتكريم الذي كان أوزليكس يحظى به في حياة گايا، كما واعد مازيتلوس بنسيان الماضي وإعادة جميع أملاكه إليه. وكان الاثنان يودان الرجوع إلى وطنهما، فقبلا هذه العروض برغم ما بدله القرطاجيون من جهود لتحويلهما عنها.

أما سيفَكْس، وهو ذو مزاج متردد، فقد بدا عليه قبول الأمر الواقع، وفي الحقيقة كان يرى أنه لا يعنيه في شيء أن تكون المملكة المجاورة له تابعة للكومازيس ولمسنيسّا. ولكن حَسْدربَعْل عاد لزيارته واجتهد في تغيير رأيه. وأوضح له أن مَسنيسّا لن يكتفي بميراث گايا وأوزلكيس، وأن قرطاجة وسيفَكْس يهددهما معا هذا الطامع الذي سبق له – وهو في إسبانيا – أن خبر قدرته التي قل مثيلها، فيجب عليهما تنحيته قبل أن يجد الوقت لمضاعفة قوته. فانصاع الملك وقرر الاستيلاء على منطقة

كان من قبل ينازع كـايا عليها. بحيث إذا أبدى مسنيسا المعارضة، فتكون الحرب العاجلة، وإذا تخلى خوفا، فإن الماسيسيليين يتغلغلون إلى قلب أراضيه، وإذ ذاك يستسلم رعاياه أو ينهزمون. غير أن مَسنيسّا لم يتقاعس، ولكن جيشه انهزم منذ اللقاء الأول، واستولى سيفَكْس تقريبا على كل البلاد الماسيلية.

فرّ مَسنيسّا من ميدان المعركة صحبة جيش من الفرسان والتجأ إلى جبل بِلّوس Mont Bellus. ونجهل موقع هذا الجبل الذي كان على مسافة قليلة من التراب القرطاجي، وغير بعيد عن البحر، والذي كانت تمتد بالقرب منه سهول عريضة يمر بها أحد الأنهار. ويبدو جيدا أن المكان يقع في الشمال الشرقي للقطر الجزائري أو بالشمال الغربي للقطر التونسي. ولربما أن النهر هو مجَرْدَة، ويمكن الافتراض بأن السهول هي سهول "دَخْلة أولاد سالم" (هي السهول الكبرى عند القدماء) ويكون جبل بِلّوس قائما في أرض خُمِير Khoumirie، حيث تكثُر المراعي وعيون الماء. وقد جاءت بعض الأسر لتنضم إلى الهاربين ومعها أكواخها المحمولة وماشيتها التي هي كل ثروتها، وتعيش على لبنها ولحومها. ومن هنا صار رفقاء مَسنيسّا ينطلقون لنهب البلاد المجاورة، في غارات ليلية أول الأمر ثم بالنهار بعد ذلك. وكانوا يفضلون العيش في المقاطعة البونيقية حيث الغنائم أكثر والخضرة أقل مما في أرض النوميديين. وقد دفعت بهم الجرأة إلى حد أنهم جعلوا يبيعون بالساحل مغانمهم إلى التجار الذين كانوا يحملونها بالبحر.

أما القرطاجيون الذين كانت هذه الغارات تكبدهم من الموتى والأسرى تقريبا أكثر مما يتكبدونه في حرب نظامية، فإنهم دعوا سيفَكْس ليجعل لها حدا. واعتبر هذا الأخير أنه لا يليق به أن يطارد في الجبل

أحد قطّاع الطرق، وكلف بوكار Bucar، وهو أحد ضباطه، بهذه المهمة وسلم له 4000 من المشاة و2000 فارس، وواعده بجائزة سنية إذا جاءه برأس مَسنيسّا، أو جاءه به حيا لأن هذا يسره أكثر.

قام بوكار بهجوم مباغث، واستولى على عدد كثير من المواشي ومن الناس الذين كانوا متناثرين بعيدا عن حماية الرجال المسلحين، ودفع بمَسنيسّا وبعدد قليل من رجاله إلى قمة جبل بِلوس. ثم رأى أن الحملة بلغت نهايتها، فأعاد إلى سيفَكس معظم جيوشه، ولم يحتفظ إلا بخمسمائة من المشاة وبمائتين من الفرسان. وضايق الماسيليين الذين نزلوا من المرتفعات، وأحدق بهم في مختنق حمى مخْرجَيْه ثم قتلهم. لكن الملك وخمسين من فرسانه استطاعوا الفرار من بعض الممرات الوعرة التي كان العدو يجهلها. غير أن بوكار استطاع التعرف على أثره، فلحق به في سهول عريضة قرب مدينة كلوبيا. وهناك أحاط به وقتل له جميع رفقائه، إلا أربعة منهم استطاعوا الفرار، وهم يحفون بمَسنيسّا الجريح. ولكن عدة فرسان لم يغفلوا، وتابعوا الرجال الخمسة الذين وصلوا إلى نهر كبير ألقوا فيه بنفوسهم دون تردد. فجرفت المياه مطاياهم، وغرق اثنان منهم على بصر الماسيسيليين الذي اعتقدوا أن مَسنيسّا أيضا قد غرق. غير أنه مع الاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة استطاعوا الوصول إلى الضفة المقابلة والاختفاء في النبات العكش. فتوقف بوكار لعجزه عن عبور النهر، ولاقتناعه أيضا بعدم الجدوى في التعرض لهذا الخطر. وعاد عند سيفَكْس وأخبره بموت مَسنيسّا، بالنبأ الكاذب الذي أبلغه سيده إلى قرطاجة، حيث قوبل بسرور عظيم، وذاع في جميع إفريقيا.

مكث مَسنيسّا بعضا من الوقت مختفيا في إحدى المغارات، يداوي جراحه بالنباتات ويأكل مما كان النوميديان الآخران يسرقانه. وبمجرد

ما التآم جرحه ورأى نفسه قادرا على تحمل حركة الفرس، كون مشروع استعادة مملكته. وبعدما جمع في الطريق 40 فارسا على الأكثر، تقدم إلى الماسيليين وعرفهم بنفسه. فكان ذلك لرعاياه مفاجأة سارة. وخلال بضعة أيام تجمع حوله 6000 من المشاة و4000 فارس، وذلك لشدة ما أثاره من عطف عليه. ولم يستعد مملكته فحسب، بل قام بالغارات على أراضي حلفاء قرطاجة وعلى حدود الماسيسيليين. وبهذا فقد تحدى سيفَكْس، ثم استولى بين هيبون Hippone وسِرتْا على بعض المرتفعات التي رأى أنها مواقع صالحة للحرب.

أسند ملك الماسيسيليين قيادة قسم من جيشه إلى ابنه الشاب قِرمينا Vermina، وأمره أن يأخذ مَسنيسّا من الخلف، بينما يأتيه هو من الأمام. فانطلق قرمينا ليلاً ليخفي سيره، أما سيفَكْس فذهب بالنهار وتقدم جهارا مبديا عزمه على خوض المعركة. ولما ظن أن فرمينا فُقد اتسع له الوقت لتنفيذ الحركة المقررة، قاد جيوشه للمرتفعات التي يحل بها العدو. وكذلك، فإن مَسنيسّا الذي كانت الأرض تساعده، دفع برجاله إلى الأمام. كانت المعركة قاسية وملتبسة أمدا طويلا، لأن الماسيسيليين إذا كانوا أكثر عددا، فالآخرون كانوا أكثر جرأة. ولكن سيفَكْس تغلب بهجومه المزدوج. ولم يستطع الماسيليون حتى الفرار، بحيث إن جميعهم تقريبا بما فيهم الفرسان والمشاة قتلوا أو أسروا. وبقي حول مَسنيسّا نحو 200 فارس قسمهم إلى ثلاث فصائل، وأمر كل فصيلة منها أن تشق لنفسها طريقا، وعين لهم مكانا يلتقون فيه جميعا. واستطاعت الفصيلة التي كان هو على رأسها أن تتخلص برغم النبال التي كانت تنهال عليها، بينما الفصيلة الثانية فقدت جرأتها واستسلمت، وكذلك الفصيلة الثالثة فإنها انهزمت بعد مقاومة عنيفة. أما قِرْمينا فقد طارد مسنيسّا، ولكنه

نجا منه بعمليات متعددة من اللف والدوران، استطاع بها الملك المغلوب أن يصل إلى ساحل سَدْرة الصغرى مع 60 فارسا. واستقر بين المدن البونيقية الساحلية وأرض الـگـارَمَنْطيين Garamantes، بالجبل الطرابلسي لاشك. وكانت سنة على الأقل قد مرت منذ أن غادر إسبانيا، لأن جل الأحداث التي رويناها، وقعت في سنة 205 ق.م.

ويحتمل أن سيفَكْس، على غرار الملوك البربر في كل زمان، اضطر أيضا لمحاربة بعض الرعايا المشاغبين والجيران الناهبين. ولكنه، وقد ضم مملكة الماسيليين إلى مملكته صار بمستطاعه أن يقول عن نفسه إنه سيد المنطقة الشاسعة الممتدة من نهر ملْوِية إلى الحدود البونيقية. وكان القرطاجيون يهمهم أن يحافظوا على هذا الحليف القوي. ومع أن سيفَكْس لم يعد شابا [53]، فإن حَسْدربَعْل بن جِسْكون قد زوجه بابنته سوفُنِسْبي Sophonisbé [54]، التي كانت لها، حسبما أكدوا، ثقافة واسعة، وكانت موسيقية بارعة، ولها جمال وعقل لا يقاومهما بصر الرجل ولا سمعه مهما استعصى على الحب. وكان الملك النوميدي موعودا بها من قبل [55]، وقد تزوجته عند نهاية سنة 205 أي عندما كانت استعدادات سِپْيون بصقلية تحدث لقرطاجة القلق الشديد، وتعرفها أكثر من كل وقت مضى بثمن صداقة سيفَكْس. ولكي ينال الملك الحظوة لدى صهره حَسْدربَعْل، فإنه أرجع للقرطاجيين إحدى المناطق التي كان گَايَا قد انتزعها منهم من قبل.

الفصل السادس

سِپْيون وحَنِيبَعْل

1

فيما يتعلق بالأحداث التي جرت أثناء السنين الثلاث الأخيرة من حرب حنّيبَعْل، فإن پوليب Polybe هو مرجعنا الوحيد. وليس لدينا، بكامل الأسف، سوى مقتطفات من هذا القسم مما كتب [56]. ونجهل الكاتب الذي اعتمد عليه پوليب. إذ لم يتأكد أن سيلَنوس وسوسلوس، الكاتبين الإغريقيين اللذين أرخا للقائد القرطاجي وصاحباه في إيطاليا، قد شاهدا حربه في أفريقيا وكتبا عنها. أما من ناحية الغالبين فالروايات عن حملة بوبْليوس سِپْيون لم تكن قليلة، ولكننا لا نستطيع أن نعيّن منها ما استعمله پوليب Polybe. فقد كان بمستطاعه أن يتحقق منها مباشرة بأخبار شفوية أثناء إقامته الطويلة في رومة (من 167-150ق.م) حيث آلف العيش في أسرة آل سِپْيون، واستمع على الخصوص لذكريات لايليوس مساعد بوبْليوس وموضع ثقته. واستطاع أيضا محادثة مَسنِيسّا الذي كانت مساعدته بالغة النفع للرومانيين، كما استمع حتى لبعض

القرطاجيين. ولقد كان قادرا على معرفة قيمة ما يروى له. كما كان ذا خبرة واسعة في الشؤون العسكرية، لذلك فهو يستحق كل ثقتنا. وإن الإعجاب الذي له ما يبرره، والذي كان يكنه لسِبْيون الإفريقي، وكذلك الروابط التي كانت تربطه بأسرة هذا الرجل العظيم، كل ذلك لم يجعله يحرف الحقيقة.

أما تيتْ ليڤ Tite-Live فقد خصص لحرب أفريقيا قسما من كتابه التاسع والعشرين وكل الكتَاب الثلاثين. ويشير أحيانا إلى الكتّاب الذي رجع إليهم، وإن كان عددهم يبدو أقل مما توهمنا به إشاراته الغامضة. ويصرح في الفصل الأخير من الكتاب الثلاثين باسم پوليب، ويصفه بأنه «الكاتب الذي لايجب إغفاله». وقد نأسف لكون هذا المديح غير كاف، لأن المؤرخ اللاتاني مدين بالكثير لسلفه. وإننا نعترف له على الأقل بترسمه لخطى مرشد بارع. وهو بهذا، يمكننا إلى حد ما من سد الثغرات الموجودة في نص پوليب. إذ أنه نقل عنه جيمع ما يرويه من الأحداث العسكرية. وهو عادة ما يترجمه، مع بعض التحريفات الناتجة عن السهو الذي يحصل للقارئ المتعجل أو مع بعض الأخطاء الصغيرة في فهم النص. كما أنه يضيف هنا وهناك إضافات صغيرة، هي عبارة عن صيغ مستقاة من مصادر رومانية، مثل كُويلْيوس Coelius وفاليرْيوس أنيتاس V. Anitas اللذين يذكرهما صراحة. وكذلك، فإنه استقى من بعض الأخباريين الرومانيين ما تبسط في ذكره عن الاستعدادات للحملة وعن الوقائع التي جرت أثناء هذه الحملة في إيطاليا. وفي هذا، فإن روايته تتقارب إلى حدّ ما مع ما يرويه كل من أپْيان Appien وديْون كاسْيوس Dion Cassius.

وهذان الكاتبان مستقلان تمام الاستقلال عن پوليب. ولهما عدة أخبار مشتركة تختلط جدا بغيرها من الأخبار التي لا تتطابق فيما بينها. ولدينا عدة أسباب وجيهة لنفترض أن مؤلّف كْويلْيوس كان المصدر الأهم لِدْيون كاسْيوس حول الحرب البونيقية الثانية. فيحتمل إذن أن دْيون لم يتخلّ عن كويليوس عندما وصل للحديث عن الحملة الإفريقية، ولكن يبدو لنا أن من المستحيل تأكيد ذلك. أما أپْيان Appien فلاشك أنه يرتبط بعدة كتاب وسطاء، أي بمصدر مباشر أو غير مباشر لديودور الصقلي، كما تشهد بذلك الفقرات التي بقيت لنا من ديودور. هذا وقد أُلقيَ سؤال : هل أپْيان نقل من "التاريخ الروماني" الذي كتبه الملك يوبا الثاني ؟ إنه افتراض لا يعتمد على أي برهان قوي. وكذلك يجب إلغاء الافتراض الذي يعين فاليرْيوس أَنْتياس على أنه مصدر أپْيان. لأن هذا الأخير لا يورد بعض المعلومات التي نَسَبها بالتأكيد تيتْ ليڤْ إلى فاليريوس. وأخيرا لم يقم برهان على أن الكاتب الذي اتبعه أپْيان قد رجع إلى الكاتب الذي استقى منه ديون كاسيوس، لأن التطابقات الحاصلة بينهما يمكن تفسيرها بكونها صدى مشتركا من كتاب واحد أو من عدة كتب سابقة في الزمان. ونجد أيضا في الملخص القصير لأوتْروب Eutrope أصداء لروايات لها قرابة بما تلقاه أپْيان، ولكن مع بعض التغييرات. أما نقد الحوليات الرومانية التي كان لها مناح فكرية متعددة ومختلطة، فلا يكاد يعرفنا بشيء سوى أسماء بعض الكتاب وبعض النصوص الهزيلة. فلا جدوى إذن في محاولة الصعود إلى النبع. والقيمة التاريخية لهذا الأثر الفكري ضئيلة. ويكفي برهانا على ذلك مقارنة رواية پوليب عن معركة زاما Zama بما كتبه عنها أپْيان.

عاد سِپْيون إلى رومة عند نهاية سنة 206 ق.م، وجرى انتخابه قنصلا، وتولى مهامه يوم 15 مارس من السنة الموالية. ونعلم أنه حتى قبل مغادرته لأسبانيا كان قد فكر في نقل الحرب إلى أفريقيا، وحاول باتصالاته مع سيفَكْس ومَسنيسّا، أن يهيء لنفسه بها بعض الحلفاء. وقد عـرّف بمشروعه بمجرد عودته. ويبدو حسب بعض الكتّاب، أنه لاقى بمجلس الشيوخ معارضة شديدة. فلربما أن بعض رجال الدولة كانوا يفضّلون تخليص إيطاليا من حنّيبَعْل قبل أي شيء، ولم يكونوا يعتقدون كما يعتقد سِپْيون أن أحسن وسيلة لإخراجه عنها هي مهاجمة وطنه. ولربما أن بعض القادة الشيوخ لم يكونوا يأنسون للقائد الشاب الذي يكسف مجده أمجادهم، والذي يبدو أنه قليل الاهتمام بالمحافظة على النظام الشديد المعروف سابقا، وأخيرا ربما أن ذكرى الكارثة التي تعرض لها ريـگُـلوس كان يوحي بالمخاوف. ومع ذلك فإن روايات تيت ليڤ وما رواه مؤرخون آخرون تُعدّ موضعاً للشك (57). والمتأكد هو أن الشغل كان مع بوبْليوس، كما يحتمل أن أكثرية المشيخة كانت توافقه.

أُسْندت إليه ولاية صقلية، حيث كانت ستتجمع القوات الضرورية، وأذن له بالذهاب إلى أفريقيا، إذا هو استحسن ذلك. ولما انتهت مدته في القنصلية، مددت له القيادة لسنة، لأن بقية سنة 205 مرت مع قسم من سنة 204 في الاستعدادات. ويصعب علينا التصديق بأن سِپْيون عندما لم ينل الإذن للقيام رسميا بحشد الجنود، اضطر لتجنيد المتطوعة، وأنه بسبب انعدام المال لجأ إلى كرم الكثير من الحلفاء الإيطاليين ليضع وليجهز السفن التي كان يحتاج إليها، وأنه احتال على بعض الأغنياء الصقليين في تسليح وتدريب فيلق من نخبة الخيالة. إن الحملة – وقد

تقررت أصبح المهم هو نجاحها. ولا شك أن جميع الناس فهموا هذا. ولكن بعد مرور ثلاث عشر سنة في صراع أنهك الخزينة، ولم يكن من السهل تكوين الأسطول والجيش والمؤن التي تفرضها عملية كبرى.

يقول تيت ليف إن سِپْيون أرسل في سنة 205 كايوس لايْلِيوس C. Laelius ليقوم بأعمال تخريبية في أفريقيا، وبعث معه قسما من السفن الحربية. فوصل الرومانيون ليلا إلى قريب من هيبوريجْيوس Hippo Regius، وعند بزوغ الفجر نزلوا لينهبوا أحوازها، وكان ذلك سهلا عليهم لأن مجيئهم لم يكن ينتظره أحد، ولما نقل الخبر على جناح السرعة إلى قرطاجة، أحدث فيها أثرا عميقا. وحيث إن مبلغي الخبر لم يكن بمستطاعهم ذكر عدد السفن ولا عدد الجنود الذين نزلوا لليابسة، وقع الظن بأن سيبيون قد هاجم التراب الإفريقي بجيشه، فتقرر حشد الجنود حيثما أمكن ذلك، وجعل المدينة في حالة الدفاع، وتجهيز القوادس وبعثها إلى هيبون Hippone لمهاجمة أسطول العدو. ولكن سرعان ما علموا بأن لايليوس هو الذي كان يقود هذا الأسطول، وليس القنصل نفسه، وأنه صحب معه قوات قليلة العدد جدا، يقصد بها العيث في البوادي فحسب، وأن معظم الجيش لا يزال بصقلية، وبهذا سري عن الناس.

لما علم مَسنِيسّا بمجيء عمارة بحرية رومانية، ذهب لموافاة لايليوس ومعه بعض الفرسان. وأبدى أسفه من تباطئ سِپْيون في العبور إلى أفريقيا، وقال إن سيفَكْس مشغول بمحاربة بعض جيرانه، ويجب أن لا يترك له الوقت لاستعادة حريته كي يستخدمها ضد رومة. أما هو فمع أنه مطرود عن مملكته فسيأتي صحبة الكثير من الفرسان والمشاة. وأخيرا حث لايليوس على عدم المكوث وقتا طويلا، لأنه على علم بأن

أسطولا قد غادر قرطاجة. وبعد ذهاب الملك، ركب لايليوس البحر من الغد حاملا معه مغانم كثيرة وعاد إلى سِپْيون.

ويذكر تيتْ ليڤ في مكان آخر أن مَسنيسّا آنذاك كان يوجد بين ساحل السَّدْرَتين وأرض الْگَرامنْطيين، أي بداخل الأراضي الطرابلسية على نحو 600 أو 700 كيلومتر من هيبوريجْيوس. فكيف استطاع الملك المنفي أن يعلم بوصول الرومانيين ؟ ذلك ما لم يبلغْ إلينا. على أن مَسنِيسّا في المسيرة الطويلة التي قام بها ليتصل بلايليوس، كان في كل وقت معرضا لخطر الاعتقال، وقد لا يجد لايليوس الذي لاشك أنه لم يكن ينوي التأخر في ليبيا بسبب عدم توفره على ما يكفي من الجنود والسفن لخوض المعركة في البر أو البحر. ولاشك أن حملة مساعد سِپْيون قد وقعت قبل فصل الشتاء، غير أنه من الصعب قبول كون جميع الأحداث التي رواها تيتْ ليڤ، منذ عودة مَسنِيسّا من إسبانيا (حول خريف سنة 206) إلى فراره في المقاطعة الطرابلسية قد تتابع وقوعها في مدى لا يعدو عشرة أيام.

على أنه ربما لا يجب رفض هذه الرواية كليا، لأن الرحلات البحرية السريعة التي يقوم بها الأسطول الصقلي على طول السواحل الإفريقية، بإمكانها كما سبق لنا القول أن تفيد فائدة كبيرة دون أن تكون فيها مخاطرة جسيمة. كما أننا لا نعتقد أيضا بأن مدينة هيبو ريجيوس Hippo Regius (أي بونة التي هي مدينة عنابة)، قد ذكرت هنا خطأً في محل هيبوديارهيتوس Hippo Diarrhytus التي هي بِنْزَرت. وهيبوريجيوس المستعمرة الفينيقية البونيقية كانت تقع في مقدمة أرض الماسيسيليين وعلى بعد قليل من أرض هؤلاء الماسيسيليين نفسها. وبهذا فالرومانيون حين أنزلوا ضربتهم بهذه الناحية، أرادوا على ما

يظهر إقناع الأهالي بضعف قرطاجة. وإذا كان مسنيسا – كما يؤكد ذلك تيتْ ليف – ملكا بدون مملكة فيمكن أن نفترض أنه كان مستوليا على جبل بِلّوس Bellus المجاور للساحل وكذلك لهيبون على ما يظهر. ومن هنا كان يسهل عليه المجيء للاتصال مع لايليوس.

قلق القرطاجيون جدا من خطر الهجوم، فأنشأوا مراكز للمراقبة على جميع المرتفعات. والتجأوا إلى مختلف الأمراء الأفارقة يطلبون مساعدتهم، وكانوا على الخصوص بحاجة إلى ملك الماسيسيليين الذي استطاعت سوفُنِسْبي، زوجته الشابة، وصهره أن يتغلبا على آخر تردداته[58]. وعند ربيع سنة 204، بعث سفارة إلى سِپْيون الذي كان حينذاك بسرَقوسَة، وأعلمه بتحالفه مع قرطاجة وبعزمه على الانضمام إليها ضد الرومانيين إذا عبروا البحر ونزلوا بأفريقيا. فبادر بوبْليوس بصرف المبعوثين قبل أن يخبروا غيره بسبب قدومهم، ثم أعلن في جيشه أن هؤلاء الرجال كلفهم سيفَكْس بلومه على بطئه الطويل، وبدعوته دعوة ملحة ليعبر البحر[59].

من بين الأميرين النوميديين اللذين أراد سِپْيون أن يستخدمهما، كان أحدهما قد سلبت منه أراضيه، وكان الآخر في آن واحد سيداً على مملكة الماسيليين ومملكة الماسيسيليين، ويجاهر بموالاته للقرطاجيين، ويقول إنه سيعمل لإخفاق الحملة التي تقررت منذ أكثر من سنة. غير أن بوبْليوس وثق بحظه، وبرغم خيبته في أمله، ذهب إلى ليلبي Lilybée حيث أنهى استعداداته، من غير أن يلقي بالاً للإنذار المتكبر الوارد عليه من سيفَكْس. وبعد قليل ذهب خلال الصيف مع 40 قادسا و400 من سفن النقل[60]. وقد أورد بعض الكتّاب الذين رجع إليهم تيتْ ليف أرقاما مختلفة عن جيوشه البرية، مثل 10.000 من المشاة و2200 من الفرسان،

كما ذكروا 16.000 فارس، وذكروا أيضا مجموع 35.000 رجل من المشاة والخيالة. وربما أن هذا العدد الأخير ليس مبالغا فيه، بينما يظهر أن الأرقام الأخرى ضعيفة جدا في حملة بمثل هذه الأهمية. وكان ممن رافق سِپْيون أخوه لوكْيوس Lucius، ومرْيوس بورْكيوس كاتو M. Porcius Cato المتصرف المالي آنذاك، ولايْليوس Laelius.

ونعثر في تيتْ ليف على بعض التفصيلات حول عملية العبور. منها أن القائد حمل على ظهر السفن الماء والمؤن لخمسة وأربعين يوما ومؤنا مطبوخة لخمسة عشر يوما. وتقدم الركب العظيم يحميه من كل جانب 20 سفينة حربية، وكان على اليمين بوبْليوس وأخوه، وعلى اليسار لايلْيوس وكاتو. وبالليل، وتلافيا للاصطدامات وللانحراف عن الطريق، كان لابد لهذه القوادس أن يحمل كل واحد منها مصباحا، باستثناء قادس سِپْيون الذي كان له ثلاثة منها، كما يوقد مصباحان على كل واحدة من سفن النقل. وأصدر الأمر للربابنة بالتوجه نحو الأمبوريات Emporia، أي في اتجاه سدْرَة الصغرى (خليج قابس)، لأن هذه الناحية خصبة جدا وغنية بكل أنواع الخيرات، ويسكنها أناس مسالمون، لذلك يسهل إخضاعهم قبل أن تنجدهم قرطاجة.

هبت ريح شديدة، ولكنها موافقة، فابتعد الأسطول عن الساحل الصقلي وسريعا ما غاب عن الأنظار. وعند منتصف النهار غشى الأسطول ضباب كثيف لقيت منه السفن العناء في تلافي المصادمات، واستمر هذا الضباب أثناء الليل، ولم ينكشف إلا مع طلوع الشمس. أما الريح التي كانت قد خفت فإنها عادت للهبوب بشدة. ولم تلبث الأرض أن تراءت. وبعد ذلك بقليل، أخبر الربان قائده سِپْيون أن أفريقيا إنما تبعد بخمسة أميال، وأنه يرى أمامه مرتفع مِرْكور Mercure، وإذا صدر له

الأمر بالتوجه لهذه الجهة، فسرعان ما يكون الأسطول جميعه بالميناء. ولكن بوبْليوس أمر بنشر القلوع وبالذهاب إلى أسفل. وكانت نفس الريح تدفع السفن، غير أن البحر غشيه ضباب حال دون رؤية الساحل، وخفف من هبوب الريح، كما حدث تقريبا في نفس الوقت من اليوم السالف. ومع الليل تضاعف القلق، فألقت كل سفينة بمرساتها حتى لا يندفع بعضها ضد بعض أو إلى الساحل. ومع الصباح عادت الريح، وانقشع الضباب، وظهر ساحل طويل ممتد. فسأل سبيون عن اسم أقرب رأس مجاور، فأجيب بأنه الرأس الطيّب Pulchri Promunturium، فصاح قائلا: «هذا فأل حسن، إلى هنا يجب أن نذهب». فاتجه الأسطول إلى الرأس، ونزلت جميع الجيوش إلى الأرض.

إن رأس "الإله" الجميل أو رأس أَبولون كما يسمّي دِيون كاسْيوس المكان الذي أرست به السفن، هو رأس "سيدي علي المكي"، أو "رأس الطرفة"، وهو من جهة الشمال الغربي يحد خليج تونس الذي يحده "رأس الدار" أو "الرأس الطيّب" الذي هو مرتفع مرْكور Mercure من جهة الشمال الشرقي.

يقول تيتْ ليف [61] : «إني أذكر أن العبور جرى بنجاح، دون خوف ولا فوضى، وهذا حسب شهادة عدد كبير من الكتاب الإغريق واللاتانيين. وكْويلْيوس Coelius هو وحده الذي يروي أن الأسطول إذا كان لم يفقد ولو سفينة واحدة فإنه مع ذلك صارع صراعا عنيفا البحر والسماء، وأن الهياج البحري أبعده عن الساحل الإفريقي ودفع به إلى جزيرة إيجيمور Aegimure (هي جزيرة زمْبَرَة غربي الرأس الطيب)، وأنه عاد لسيره في عناء، وأن الجنود لما رأوا السفن يحدق بها الخطر لم

ينتظروا أوامر قائدهم، وتسارعوا دون أسلحة إلى القوارب كما لو كانوا منكوبين حقيقة، ثم وصلوا إلى الشاطئ على حال من الفوضى كبيرة».

هل كان سِپْيون ينوي حقيقة التوجه إلى الأمبوريات ؟ لقد كان بمستطاعه أن يرجو الاستيلاء بسهولة على هذه المدن البعيدة من قرطاجة والاحتفاظ بها. وهي مدن يظهر أنها قامت بتجارة نشيطة، كانت الدولة البونيقية تأخذ منها ضرائب عالية، كما أن الزراعة بأحوازها كانت حسنة، لهذا فإن بوبْليوس سيحرم العدو من مداخيل مهمة. لكن ساحل خليج قابس بعيد جدا عن صقلية. والطريق المباشرة بينهما تمر طوال عدة أيام من السير البحري، على طول الساحل الذي يملكه القرطاجيون، والذي - زيادة على ذلك - لا توجد به موانئ حسنة. فلا يجد الرومانيون نتيجة لذلك مأوى من الهياج البحري، ولا ملجأ من الأساطيل البونيقية، وقد يعرّض سِپْيون نفسه لقطع مواصلاته. ومن ناحية أخرى، لم تكن المدن البحرية بالسدْرَتَيْن سوى واحات، تمتد خلفها وحتى فيما بينها، أرض تكاد تكون جرداء. فيكون لابد من الاستيلاء عليها واحدة بعد واحدة، وهكذا يضيع الوقت في تأمين قاعدة لعمليات كثيرة الرداءة. وخلال ذلك يكون القرطاجيون قد استعدوا لمقابلة الجيش الغازي عند زحفه للشمال ليضربهم الضربة الحاسمة. على أن أخبار تيتْ ليڤ نفسها تناقض ما زعم. فلماذا حَصَل أن الربّان الذي أمره سِپْيون عند الذهاب بالتوجه إلى سدرة الصغرى، يقترح على سِپْيون الرسو بجوار الرأس الطيب ؟ ولماذا صدر إليه الأمر بالرسو إلى أسفل (Plus bas)، أي على مسافة قليلة ؟ فلو كان المقصود محلا واقعا على خليج قابس، بعيدا بعدة مئات من الكيلومترات عن الرأس، لاكتفى القائد على ما يظهر، بالإجابة بأن عليه أن يتابع سيره. ولماذا وقع التخلي عن المشروع الأول ؟ إن

التأخر بيوم واحد والانحراف عن الطريق المقررة أمران لم يحدثا أي اضطراب في شيء، لأن السفن كانت تحمل، كما أكدوا ذلك، المؤن والماء لشهر ونصف. فالروايات التي نقلها تيتْ ليف لا تسوغ الاعتقاد بأن بوبْليوس منعه هياج بحري شديد من الذهاب إلى حيث كان يريد أن يذهب. فهل يجب أن نفضل على هذه الروايات تلك التي يعزوها كاتبنا إلى كويليوس ؟ [62]. ولكن شاء الحظ أن يحفظ لنا فقرة من هذا المؤرخ، ترجع تقريبا بالتأكيد إلى وصول سبِيون لأفريقيا : «اقتربوا جميعا من اليابسة في آن واحد مع الأسطول (الحربي). وغادروا السفن والقوارب وخططوا المعسكر ونصبوا الأشعرة» [63]. فالرومانيون نزلوا للبر إذن في نظام حسن، وفي جو جميل لاشك. وتيتْ ليف يكون قد ارتكب غلطا يصعب تفسيره عندما جعل كويليوس يقول النقيض تماما.

يظهر أن سبِيون لم ينو المضي حتى الأمبوريات، وإنما كان يريد النزول إلى البر غير بعيد عن قرطاجة، مثلما فعل أگاطوكليس وريگلوس من قبل، فيوطد استقراره في مكان ما على الساحل، تكون فيه مواصلاته سهلة مع صقلية، ويصلح استخدامه قاعدة لحملة تجري بسرعة في قلب المقاطعة البونيقية، وحتى أسوار العاصمة. ولم يكن هناك من خطر يدفعه لخوض المعركة حالا وفي ظروف غير ملائمة، لأن الأعداء يجهلون أين سينزل، ولربما أنه كان على علم بعدم وجود قوات كبيرة في المنطقة التي كان سيضع فيها أقدامه.

إن "رأس الدار" في أفريقيا هو أقرب مكان إلى ليلبي Lilybée. وقد رأينا أن الأسطول الروماني قد بلغ دون مشقة لأحواز هذا المرتفع. فهل كان بوبْليوس يريد النزول قرب هذا المكان، في هضبة الرأس الطيب، إما بالجنوب الشرقي نحو "القليبية" كما فعل ريگلوس، وإما بالجنوب

الغربي كما فعل أكاطوكليس، ثم دفع به دون إرادة منه حتى رأس "سيدي علي المكي" ؟ إننا نفضل الاعتقاد بأنه إذا كان الضباب قد أبطأ به، فإنه لم يتحول عن قصده بسبب الرياح، وأنه كان يود اتخاذ أوتيكا Utique قاعدة للعمليات. ولذلك قرر من بداية رحلته النزول بقرب هذه المدينة. ويحتمل أن السفن لم تلق بمراسليها في الرأس نفسه، ولكن على بعد نحو عشرة كيلومتارت إلى الغرب، عند بورتوفَرينا Porto Farina، في مرفأ يصونه بعض الشيء رأس المرتفع عن رياح الشمال الشرقي التي تسيطر في الصيف، والتي رافقت الأسطول منذ ليلبي.

3

بعدما أقام سِپْيون معسكره فوق الساحل، استولى على المرتفعات المجاورة، وبعث بالفرسان ليقوموا في آن واحد بمراقبة الأحواز وبنهبها. واستولى على حلة Bourg كبيرة، وأسر فيها 800 رجل من الأحرار والعبيد، وأخذ مغانم كثيرة حملتها بعض سفن النقل إلى صقلية. ثم اتجه بعد أيام قليلة إلى أوتيكا واستقر على نحو 1500 متر من أسوارها، من جهة الجنوب الغربي دون شك، فوق خط التلال المعروفة باسم "جبل منزل الغول" الذي تقع المدينة في قاصيته. وكان أسطوله قد سبقه.

ما كاد سِپْيون ينزل للبر حتى استطاع مَسنِيسّا الالتحاق به، ومعه 200 فارس على الأكثر حسب قول البعض، و2000 على قول آخر. ونجهل متى غادر المقاطعة الطرابلسية، وكيف حشد رفقاءه الفرسان، وكيف استطاع الوصول إلى الرومانيين.

وبالطبع فإن خبر نزول الأعداء قد انتشر بسرعة، فازدحمت الطرق بالهاربين، رجالا ونساء وأطفالا، وهم يسوقون أمامهم قطعانهم، ذاهبين

ليزرعوا الذعر في المدن. وفي قرطاجة خشي الناس من وقوع هجوم سريع، فبادروا إلى أسلحتهم، وأغلقت أبواب المدينة، وامتلأت الأسوار بالمدافعين. وكلف حَسْدربَعْل بن جِسْكون بتكوين جيش، لاشك أنه لم يكن مهيأ من قبل. وعلى كل حال، فإنه قبل الذهاب بجيشه لمناهضة سِپْيون، أراد التريث حتى يأتي سيفَكْس بجيشه. وكان معسكره على مسافة قليلة من العاصمة، بوادي نهر مْجَرْدة على ما يحتمل. أما الرومانيون، فإنهم قبل أن يأخذوا موقعهم بقرب أوتيكا، لم يخوضوا سوى معركة صغيرة. ففي اليوم الموالي لنزولهم، كان 500 فارس يقودهم شخص يدعى حَنّون في جولة استطلاعية، فاصطدموا مع البعض من فرسان سِپْيون، وقد هزموا واضطروا للفرار، وقتل معظمهم ومعهم قائدهم.

وفي انتظار أن يشرع حَسْدربَعْل وسيفَكْس في خوض المعارك التي كانا يتلقيان الدعوات الملحة للشروع فيها، فإن فرقة جديدة من الخيالة قد وقع تجنيدها وأسندت إلى حنّون ابن عَملكار. وقوى هذا الضابط هذه الفرقة بما جمعه من النوميديين على الخصوص، حتى توفر له نحو 4000 فارس. وعوض أن يدخل المعركة في الحال، فإنه مكث في حلة Bourg تدعى باسم سَلايْكا Salaeca على نحو خمسة عشر ميلا (22 كيلومترا) من المعسكر الروماني [64]، الأمر الذي أوحى إلى سِپْيون على ما قيل بهذه الكلمة الساخرة : «خيالة في الاصْطبلات في الصيف ! فليكونوا أكثر عددا، على أن يحتفظوا بقائد في هذا الشأن !» وإذ ذاك نظم بوبْليوس عملية لقيت كل التوفيق. فقد أمر مَسِنيسّا بالذهاب ليظهر نفسه على رأس فرسانه عند أسوار سَلايْكا، وأن يتحدى الأعداء بهذا، ولكن عليه أن يتراجع شيئا فشيئا أمامهم عندما تشتبك المعركة، وسيتدخل هو نفسه في الوقت المناسب. وفعلا فقد سار مع الخيالة الرومانية، وتقدم دون أن

تراه الأعين. وقام الملك بفعل ما اتفق عليه، فخرج رجال حنّون من الحلة بعضهم وراء بعض، وجاؤوا لمهاجمته. فكان يتراجع أمامهم وهو يقاوم، حتى جرهم إلى التلال التي كانت تخفي خيالة سِپْيون. فظهرت هذه وأحاطت بالأفارقة الذين قد تعبوا بالصراع والمتابعة. وفي نفس الوقت عاد مَسنيسّا وشارك في المعركة. فمات حنّون وألف من رجاله، وفر الآخرون يطاردهم الغالبون، بحيث إن نحو 2000 قد أسِروا أو قُتِلوا، وكان من بين القتلى 200 من القرطاجيين كان بعضهم من الأغنياء ومن ذوي الأصل الرفيع.

وذهب سِپْيون لأخذ سَلاَيْكا التي بقيت فيها حامية. ولربما أن هذه الحلة هي التي يسميها أپْيان باسم لوشا Locha والتي وقع، كما يقول الكاتب، تذبيح سكانها على يد الجنود رغما عن قائدهم [65]. وطاف بعد ذلك الرومانيون بالأرض المجاورة، ودخلوا بعض الحلل الأخرى. ثم عادوا لمعسكرهم بعدأسبوع ومعهم مغانم كثيرة، بُعثت كسابقتها إلى صقلية، لتكون برهانا على النجاح الذي لاقوه.

ومنذ ذلك الحين استعمل بوبْليوس جميع قواته ضد أوتيكا، التي لاشك أنه كان يريد أن يمضي فصل الشتاء فيها. فقد حاصر المدينة برجال الأسطول من جهة البحر، وبالجيش البري الذي استقر على مرتفع قريب جدا من السور. وكانت الآلات قد جيء بها من صقلية، كما تمّ صنع أخرى. غير أن عدة هجمات قد أخفقت، وبعد أربعين يوما تخلى سِپْيون عن عمليته.

كان يرى نفسه مهددا مِن قِبَل بحَسْدربَعْل وسيفَكْس، اللذين اقتربا في الأخير من أوتيكا ومعهما جيشان عظيمان. وكان فصل الخريف يشرف على نهايته. فكان لابد لقضاء فصل الشتاء من اختيار موقع

يكون على الساحل، ويسهل الدفاع عنه، ولا يخشى فيه أن يقع بين أوتيكا وبين هذين الجيشين، ويمكن أن تتجمع فيه الجيوش والأسطول. فذهب بوبْليوس للاستيلاء على إحدى الأراضي العالية التي تقوم اليوم في قاصيتها قرية "قلعة الأندلس". في هذه الناحية جعلت الرواسب التي يجرفها نهرُ مَجَرْدة الساحلَ البحريَّ يتقدم إلى الأمام. أما في عهد سِپْيون ويوليوس قيصر فكان يوجد هنا مرتفع طوله ثلاثة كيلمترات، ضيّق ووعر، ويتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وكانت قاعدته على نحو 3000 متر من أوتيكا، وما بينهما شرق هذه المدينة وخلف الشاطئ، كان يوجد به منخفض فيه مستنقعات، يمر به اليوم النهر الذي غيّر مجراه. ولم يُقِم معسكر المشاة في أقصى الطرف الذي كان ضيقا جدا، بل أقامه في قاعدة المرتفع. أما في الشمال على الجانب الغربي من اللسان الترابي (إذن في مواجهة أوتيكا)، حيث المنحدر أقل وعورة من الجهات الأخرى، فقد وقع جذب السفن إلى اليابسة، وقام رجالها بحراستها، وأقيم تحصين ليحمي في آن واحد هذا المعسكر البحري والمعسكر الآخر، وفي الجنوب، تحت المشاة عسكرت الخيالة.

أما حَسْدربَعْل وسيفَكْس، فقد أقاما معسكريهما للشتاء على نحو أحد عشر كيلومترا من معسكر سِپْيون، كما يبتعد معسكر كل منهما عن الآخر بنحو 1800 متر. ويحتمل جدا أن هذين المعسكرين كانا من ناحية قرطاجة والوادي الأسفل لنهر مَجَرْدة، بحيث يكون الاتصال سهلا مع المدينة الكبيرة ومع أراضي الملك النوميدي. ولابد أن معسكر حَسْدربَعْل كان إلى قرطاجة أشد قربا من معسكر الآخر، وبالتالي كان بشرق هذا الأخير الذي يقول عنه پوليب Polybe إن الدخول إليه كان أكثر سهولة. وقد استطاع ابن جِسْكون بما استعمله من شدة بالغة في التجنيد أن يجمع تقريبا 30.000 من المشاة و3000 فارس. وزيادة على

هذا، كان لديه عدد من الفيلة. أما سيفكس فقد صحبه 50.000 من المشاة و10.000 فارس.

وهكذا فإن سِپْيون لم يجن أي فائدة من هذه الحملة الأولى سوى احتلاله لمرتفع صخري أمام مدينة صدته عنها. وكان مراقبا، بل كاد يكون محاصرا بجيشين سالِمَيْن تفوق قواتهما المتجمعة قواته بكثير، وكان عليه أن يخشى الأسطول الذي كان في قرطاجة يتجهز في أمن وأمان، والذي يستطيع أن يعزله من ناحية البحر. أما فيما يخص تموينه، فكان تقريبا يقتصر على المؤن التي يتلقاها من صقلية وسردانية، وحتى من إيطاليا وأسبانيا، وذلك في فصل زمني فيه من رداءة أحوال الطقس ما يكفي ليجعل الرحلات البحرية محفوفة بالمخاطر، حتى ولو لم يكن هناك عدو. ولربما أن القائد، الذي كانت سلطاته تنتهي في الربيع، كان أحيانا يتساءل بأسى عما ستقرره روما في شأنه وشأن الحملة التي كان هو أراد القيام بها. ومع ذلك فإن قيادته قد وقع التمديد في أجلها.

4

خلال فصل الشتاء جرت مذاكرات بين سِپْيون وسيفَكْس. وكان بوبْليوس حسب قول پوليب، هو البادئ بها، لأنه كان يريد فصل ملك الماسيسيليين عن القرطاجيين. لكن الملك كان في قبضة سوفنيسبي Sophonisbe، ولم يكن ينوي مطلقا التخلي عن حلفائه. ومع ذلك كان يتمنى العودة إلى دور الوسيط المصالح الذي سبق له التفكير في القيام به أثناء الاتصال بمدينة سيگّا Sigga، وبهذا يتلافى مخاطر الحرب. وحسب رأيه، فإن القرطاجيين كان يجب عليهم الجلاء عن إيطاليا، كما

يجلو الرومانيون عن أفريقيا، ويبقى لهؤلاء وأولئك سيادتهم على ما يملكون خارج هاتين المنطقتين. تلك هي شروط الصلح التي لم يفتأ يقترحها على سِپْيون. وهي شروط مقبولة من جانب قرطاجة التي لن تستطيع قهر منافستها بانتصارات حاسمة في إيطاليا، والتي حتى بعد انتصار كامل في إفريقيا، فإنها نظرا لإنهاكها لن تكون قادرة على أن تسترجع في الحال كلا من أسبانيا وصقلية وسردانية. وهي أيضا شروط مقبولة لدى رومة المنهوكة كذلك، لأنها تتخلص من حنيبعل ومن مَاگون وتحتفظ بثمن عن الحرب هو الهضبة الإيبيرية. غير أن هذه الشروط لم توافق بوبْليوس. فلربما أنه رغما عن وضعيته الحرجة لم يكن ينقاد لمغادرة القارة الإفريقية قبل أن ينجز فيها أعمالا حربية تكسبه مجدا، ولربما كان من رأيه أنه لابد من فرض معاهدة على قرطاجة تفقد من جرائها كل أمل في الانتقام.

ومع ذلك تابع المفاوضات مع سيفَكْس، تاركا له الأمل في الوصول إلى الاتفاق. غير أنه لم يكن صادقا، ولم يكن يفكر إلا في أن يتم بسهولة كبرى تنفيذ المشروع الذي خطط له. وكان مبعوثوه قد أخبروه بأن القرطاجيين قد اتخذوا في معسكرهم الشتوي لأنفسهم أكواخا من الخشب وعيدان الأشجار، وأن النوميديين قد بنى بعضهم مأوي من قصب، وبعضهم الآخر ممن وصلوا متأخرين بنوا أكواخا عادية من أعواد الأشجار، وأن الكثير منهم قد استقروا بخارج الحفير والتحصينات بسبب عدم وجود محل يسعهم في المعسكر. فقرر سِپْيون المباغتة بالهجوم وإحراق المعسكرين. وكان لابد له من أن يعرف بدقة هيأة الأمكنة، فساعدته على ذلك ثقة سيفَكْس البالغة. ذلك أن الملك، حبّاً منه في إبرام الاتفاق، تبادل مع بوبْليوس عدة من الوفود التي كانت أحيانا تمكث عدة أيام عند العدو، دون أن تثير أي ريبة. وكان القائد

يحرص على أن يصحب مبعوثيه برجال أذكيا،، متنكرين في زي العبيد، فكانوا يتفحصون في أمن السبل المؤدية للمعسكر النوميدي والبونيقي.

عند اقتراب الربيع أعاد سِپْيون السفن إلى الماء، وجهزها بالآلات، وأوقف 2000 من المشاة بمواقفهم، وأنشأ تحصينات هامة فوق التل المقارب جدا لأوتيكا، وهو الذي نزل به قبل الشتاء. وكان بهذا يعمل ليوهم أنه يريد معاودة حصار المدينة، بينما الحقيقة هي أن هذه الأعمال كان المقصود بها منع حماة أوتيكا من الانقضاض على المعسكر الروماني أثناء غياب الجيوش التي كان سيذهب بها. وفي وسط هذه الاستعدادات، بعث إلى سيفَكْس وفدا جديدا ليستخبره هل إذا قبل هو، أي سِپْيون، الشروط المقترحة، سيبادر القرطاجيون كذلك لقبولها، أو سيزعمون أنهم سيتداولون فيها بدورهم. وأمر مبعوثيه أن لا يعودوا إليه إلا ومعهم الجواب القاطع. ولما علم سيفَكْس بهذا الأمر اقتنع بأن بوبْليوس يريد حقيقة ان يتفاوض. فبادر إذن بإخبار حَسْدربَعْل ودعاه للعمل لإنهاء الحرب. فأعطى القرطاجيون موافقتهم التي سر بها الملك، وأخبر بها الرومانيين الذين انصرفوا عائدين إلى قائدهم. ولكن بعد بضع ساعات رأى سيفَكْس مبعوثين جدداً يصلون حاملين نبأ مزعجا، هو أن سِپْيون يريد السلام دائما، ولكن مجلسه على رأي مخالف ويرفض مشروع المعاهدة. لقد كان بوبْليوس يعمله هذا يريد أن يريح ضميره كما يقول بوليب، إذ سبق أن أبرمت هدنة من أجل التفاوض في المعاهدة، فالقصد من الخبر المبلغ إلى سيفَكْس هو إفهامه أن عقد الهدنة صار الآن مُلْغىً.

ذهب ملك الماسيسيليّين واتصل بحَسْدربَعْل وأبلغه هذا الخبر الذي كان يحزنه جدا، وتداولا طويلا دون أن يرتابا في الخطر الذي يهددهما.

وفكرا في اجتذاب الرومانيين إلى السهل لإيقاع الهزيمة بهم في معركة مصفوفة. أما سِپْيون فكانت استعداداته وتعليماته ترمي لإقناع جنوده بأنه سيهاجم المدينة المجاورة، ولكن عند منتصف النهار استدعى إليه القادة الذين يثق بهم كثيرا وكشف لهم عن خطته، وأمر بإخراج الجيوش بعد تناول طعام العشاء، في الساعة التي جرت العادة أن ينفخ في جميع الأبواق أمام خيمة القائد. ثم اجتمع مع الجواسيس الذين كان بعثهم إلى معسكري الأعداء. وبالمقارنة بين تقاريرهم، وبالاستعانة كذلك بآراء مَسنِيسّا الذي كان يعرف الأمكنة، عرف المداخل والمخارج بدقة.

في نهاية الساعة الأولى (هي الساعة التاسعة) ذهب بعد أن ترك عددا كافيا من الرجال لحماية مواقعه. وحول منتصف الليل اقترب من النوميديين والقرطاجيين. وهناك أسند نصف جيوشه وجميع الماسيليين إلى لايلْيوس ومَسنِيسّا وأمرهما بمهاجمة معسكر سيفَكْس، بينما اتجه هو بمن بقي معه إلى معسكر حَسْدْرِبَعْل. ولكنه سار متمهلا، لأنه لم يرد القيام بأي عمل قبل أن تشب النار في مخيمات الأهالي. وكان ذلك أمرا سهلا، لأن النار التي أوقدها الجنود الذين سبقوا الآخرين اندلعت بسرعة كبيرة في الأكواخ المتزاحمة، والمصنوعة من المواد القابلة جدا للالتهاب. وتقاسم لايلْيوس ومَسنِيسّا قواتهما بينهما، ثم توقف الأول وهو على أهبة للتدخل في الوقت المناسب، بينما ذهب الملك ووقف حيث توقع أن الهاربين سيمرون. أما الأعداء فلم يشك منهم واحد في الحقيقة، إذ كانوا جميعا يعتقدون أن النار شبت بالمصادفة. فتركوا أكواخهم متثاقلين بالنوم أو بالسكر، فمات منهم البعض وسط اللهيب، وكثير غيرهم ماتوا متضاغطين على أبواب سور المعسكر، وأخيرا فالذين استطاعوا الابتعاد سقطوا تحت ضربات الماسيليين، وهم لا يعلمون ما حدث لهم.

وكذلك القرطاجيون، فإنهم لما رأوا النيران القوية تلتهم المعسكر المجاور ظنوا أنه أمر عابر، وبادر البعض منهم لنجدة حلفائهم. ولكن أكثرهم خرجوا بدون سلاح، ووقفوا عند التحصينات جامدين ينظرون هذا المشهد مبهوتين. وإذ ذاك انقض عليهم سِبْيون، وأعمل فيهم القتل، وتقفاهم إلى معسكرهم حيث أوقد النار. ولم تكن النكبة هنا أقل مما عند النوميديين. وإذ ذاك فهم حَسْدربَعْل أن النارَيْن معاً أوقدهما الرومانيون، ولم يعد يفكر إلا في النجاة من الموت. فنجا بمشقة كبيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لسيفَكْس، وفر كل منهما في اتجاه خاص مع بعض الفرسان. ولكن معظم جيوشهما قضي عليه بالنار او بالحديد، بحيث مات آلاف من الجنود ومن الخيول ومن دواب حمل الأثقال. وعلى غرار ما حدث في قرطاجنّة Carthagène بست سنين قبل ذلك، فإن الحظ ساعد جرأة بوبْليوس. ويقول پوليب (66) : «من بين جميع أعماله الحسنة، كان هذا حسب رأيي، أحسنها وأكثرها جرأة».

التحق حَسْدربَعْل بأَنْدا Anda (67) التي كانت أقرب مدينة إليه، والتي تسارع إليها الفارون أيضا. وكانت موقعا حصينا، ظن القائد القرطاجي أول الأمر أن بمستطاعه المكوث به، لكن سِبْيون غادر المعسكرين المحروقين منذ بزوغ الفجر، وأخذ يقترب. وبدا على سكان "أندا" Anda استعدادهم للاستسلام، فترك حَسْدربَعْل إذن هذا المكان ودخل قرطاجة مع نحو 500 فارس و2000 من المشاة الذين هم فلول جيوشه. وقد استسلمت المدينة للرومانيين، فعفا عنها سِبْيون، ولكنه سمح بنهب حلّتين مجاورتين. وبعد عودته إلى معسكره ذهب ليستقر أمام أوتيكا التي ضيق عليها الحصار. أما الجنود الذين قسمت عليهم أسلاب معسكر الأعداء والحلل، فإنهم باعوا ذلك بثمن بخس لبعض التجار، لأن

هذا الانتصار جعلهم يؤملون ثروات أخرى في المستقبل. وكان سيفكس قد توقف في أبا Aba [68]، وهي موقع حصين يقع على نحو ثمانية أميال من أندا، وفيها التحق برجاله الذين نجوا من الكارثة. ولكنه لم يلبث أن اتفق مع أصدقائه وقرر الرجوع لمملكته.

وأصاب الذهول القرطاجيين، فاجتمع مجلس الشيوخ وتداول فيما يجب عمله. فاقترح البعض أن تُطلب هدنة من سِپْيون وأن يشرع معه في مفاوضات السلام. وأراد آخرون دعوة حنّيبَعْل من إيطاليا مؤكدين أن ذلك هو الحظ الوحيد الباقي للسلامة. وقال آخرون لابد من التدرع بالشجاعة ومن حشد الجنود ومن بعث الموفدين إلى ملك الماسيسيليين. وكان هذا هو ما استقر عليه الرأي في الأخير. فكلف إذن حَسْدربَعْل بحشد الجنود من جديد، وأرسل وفد إلى سيفَكْس يرجوه أن يستمر على حسن استعداده، ويخبره بأن صهره سيأتي في وقت قريب جدا للاتصال به مع جيوشه.

فظهر على الملك الاقتناع خصوصا بعد توسلات سوفنيسبي، وبعد اللقاء الذي حصل له قرب أبا Aba مع جيش يفوق 4000 رجل من الكِلْتيبريين Celtibères الذين انخرطوا في الجيش لخدمة قرطاجة، وكانوا قادمين من الغرب، بحيث إن هؤلاء الرجال - وهم شجعان وسلاحهم حسن - قد بعثوا في نفسه ثقة كبيرة، فتخلى عن أن يحيد بنفسه في نوميديا. وحتى القرطاجيون أنفسهم كانوا يتنادرون ببسالة المرتزقة الإسبان ويضخمون أعدادهم، لأن الأمل كان ينتعش في صدورهم، فتقررت العودة إلى الحرب. وبعد ثلاثين يوما، عسكر جيش من 30.000 جندي بونيقي ونوميدي وإيبيري في السهول الكبرى، أي في "دخلة أولاد

بوسالم" (بناحية سوق الأربعاء وسوق الخميس). ولاشك أن مكان هذا التجمع الذي يبعد على الأقل بنحو 35 فرسخا عن قرطاجة، قد وقع عليه الاختيار ليمكن سيفَكْس من تلقي النجدات بسهولة، وليمكن إتمام الاستعدادات في أمان، بعيدا عن الرومانيين.

أما سيِپْيون فأراد أن يسحق حَسْدربَعْل وسيفَكْس قبل أن يهاجماه، فعمل بالحصافة التي أسعفته اكثر من مرة. وبعد أن أصدر التعليمات الضرورية إلى الأسطول وإلى الجيوش البرية التي تركها أمام أوتيكا، ذهب بما بقي من قواته، التي لم تكد تكون لها أمتعة. وفي اليوم الخامس وصل إلى السهول الكبرى، وأقام معسكره على تل يبعد بثلاثين اسْطاداً (أكثر من خمسة كيلومترات بقليل) عن الأعداء. وفي الغد نزل إلى الأرض المنبسطة، وتقدم فأخذ مكانه على سبعة اسْطادات فحسب من الملك حَسْدربَعْل. وطيلة يومين لم تقع سوى مناوشات تافهة، لأن الجيشين مكثا في مواقعهما. وأخيرا خرج هؤلاء وأولئك من المعسكر واصطفوا للمعركة (في أواسط أبريل سنة 203).

رتب بوبْـليوس مشاة الفيالق حسب النظام المعمول به عند الرومانيين، على ثلاثة خطوط هي أولاً : الـهَسْتاتي Hastati، أي الأوائل، ثم البرِنْكِبس Principes أي المثاني، ثم الترياري Tariarii أي المثالث(69). وجعل الجناح الأيمن من الخيالة الإيطالية، بينما خيالة مَسنيسّا كونت الجناح الأيسر، أما سيفَكْس وحَسْدربَعْل فجعلا القلب من الكلتيبيريّين Celtibères، وجعلا النوميديين على الجناح الأيسر، والقرطاجيين على الجناح الأيمن، وبمجرد الصدمة الأولى تقهقر النوميديون أمام الخيالة الإيطالية، كما تراجع القرطاجيون أمام

مسنيسّا. أما الكلتيبيريون فقاتلوا بصمود كبير. فقد كانوا يعلمون بأن الفرار لن ينجيهم في هذه الأرض التي يجهلونها، وأنهم إذا أسروا فلن يلقوا عفوا، لأن سيِپْيون الذي لم يكن أبدا في إسبانية عدواً لشعبهم، لن يغفر لهم مجيئهم لمحاربته في جيش بونيقي. غير أن تقهقر الجناحين عرى جانبيهم، فأحاط بهم رجال المثاني والمثالث الذين أمرهم بوبْليوس، في مناورة ماهرة، بالتقدم على يمين ويسار خط الأوائل. فقتلوا على وجه التقريب جميعا في نفس المكان. ومن جراء مقاومتهم العنيفة استفاد القرطاجيون والنوميديون فائدة كبيرة، لأنهم استطاعوا الفرار من غير أن يقلقهم شيء. أما سيفَكْس فدخل أرضه مع خيالته، بينما قاد حَسْدربَعْل إلى قرطاجة من بقي له من الجنود.

وعقد سيِپْيون مجلسا حربيا، قرر أثناءه الغالبون تقسيم قواتهم، بحيث يأخذ لايلْيوس ومَسنِيسّا النوميديين وقسما من الرومانيين ويتابعون سيفَكْس، ولا يتركون له متنفسا ليستعد لصراع جديد، أما سيِپْيون فيجوب المنطقة التي جرت فيها المعركة ويستولي على المدن (لاشك أن أكثرها عبارة عن قرى وحلل). وقد استسلم بعض هذه المدن لأن سكانها لم يجرؤوا على المقاومة، أما الأخرى فقد سهل انتزاعها عنوة. وفوق هذا لم يكن للسكان ميل إلى قرطاجة، لأنهم طوال هذه السنين التي استمرت فيها الحرب كانوا يتحملون الضرائب الفادحة وأنواع التنكيد. وقد جمع سيِپْيون دون مشقة مغانم عظيمة أمر بحملها إلى معسكره الشتوي المجاور لأوتيكا. وعلى غرار ما سبق أن فعله أگاطُكْلِس وريگُلوس من قبل، فإنه ذهب بنفسه للاستيلاء على تونس، التي تخلت عنها الحامية المكلفة بالدفاع عنها. وكان قصده مضاعفة الوهن والذعر في نفوس القرطاجيين بإقامته قريبا من أسوارهم.

كان لابد من اجتماع مجلس شيوخ قرطاجة لمداولات جديدة بعد كارثة السهول الكبرى التي وقعت بعد إحراق المعسكرين بأسابيع قليلة. فأما الذين لم يصب الوهن عزيمتهم فأشاروا بدعوة حنيبَعْل للعودة على عجل. واقترحوا أيضاً إرسال أسطول ضد الرومانيين المحاصرين لأوتيكا، ليفك الحصار عن هذه المدينة، وليدمر أعداء غير مستعدين للحرب البحرية. وقال آخرون إن الوضع لا يحتمل التفكير في الهجوم، فلابد من جعل قرطاجة في حالة تمكنها من مجابهة الحصار، ومن انتظار عودة الحظ الحسن، كما طالبوا ببحث الشروط التي قد تمكن من إبرام عقد للسلام. وبعد مذاكرات طويلة قرر المجلس هذه الاقتراحات المختلفة. فأسرع الموفدون المكلفون بالذهاب إلى حنّيبَعْل بركوب البحر، كما أن أمير البحر أنهى تجهيز الأسطول، واتخذت التدابير لصيانة سلامة المدينة.

ومع أن پوليب Polybe لم يشر على ما يظهر لتغيير حَسْدربَعْل، فليس من المستحيل أن يكون قد وقع تغييره - كما يؤكد ذلك أپْيان Appien وديون كاسيوس Dion Cassius - بأحد رجال الحرب المجربين، وهو حنّون الذي سبق أن كان مساعدا لحنّيبَعْل. وقد يكون حنّون هذا عُيّن - على نحو ما - قائدا بالنيابة في انتظار عودة القائد البَرْكي.

كان سِپْيون قد أخذ موقعه في تونس، عندما خرج الأسطول القرطاجي وتقدم إلى أوتيكا. فساوره القلق على أسطوله ولذلك بادر بالرحيل لنجدة أصحابه. وقد كانت السفن الحربية الرومانية آنذاك تحمل الآلات المستخدمة لحصار المدينة، ولا يمكنها مطلقا أن تخوض المعركة. فقرر بوبْليوس إذن أن لا يغامر بها في عرض البحر. وقد

جمعها وأحاطها بثلاثة أو أربعة صفوف من سفن النقل بعد أن نزعت عنها صواريها وأدقالها التي وضعت من بعد معترضة بين سفينة وأخرى، وربط بعضها إلى بعض بالحبال. وبهذا صار كل خط من سفن النقل وكأنه سور يصعب تفكيكه. وخلال الخطوط وفقت سفن كبيرة، ووضعت ألواح خشبية تأمينا للمواصلات، فتكونت بذلك جسور تساعد المراكب الخفيفة على المرور، إما ذاهبة إلى العدو أو راجعة لتحتمي. وصدر الأمر إلى نحو 1000 من جنود النخبة ليحاربوا على ظهر سفن النقل، التي جمعت فيها كمية كبيرة من الرماح حتى لا تعوزهم فيما إذا طال أمد المعركة. وكل هذا جرى بسرعة، ومع ذلك، فلو أن القرطاجيين أسرعوا، لأمكنهم الوقوع على الرومانيين وهم في فوضى، ولسحقوهم. ولكن اندحاراتهم الأخيرة سببت لهم الفزع. لذلك تمهلوا في سيرهم البحري، ولم يهاجموا في نفس اليوم، وعند مغيب الشمس ذهبوا للرسو في ميناء روسُكْمون Rusucmon عند بورْتوفارينا Porto Farina. وفي صباح الغد خرجوا لعرض البحر وصففوا سفنهم في نظام المعركة ظنا منهم أن الأعداء سيأتون لملاقاتهم. لكن بعدما انتظروهم طويلا دون جدوى، قرروا الهجوم. فكان حصارا حقيقيا لا معركة بحرية. وكانت إصابات المقذوفات الرومانية أشد، لأن سفن النقل كانت أعلى من القوادس البونيقية، بينما القوارب التي كانت تمر تحت جسور الألواح الخشبية، كانت تغرقها بسهولة مهاميز السفن الحربية، أو نظرا لاختلاطها بهذه السفن فإنها كانت تعوق المدافعين الذين على ظهر سفن النقل، إذ كانوا يترددون في استعمال رماحهم خشية إصابة رفقائهم في السلاح. وأخيرا جعل القرطاجيون يرمون السفن الرومانية بكلاليب لها براثين من حديد مربوطة إلى سلاسل من نفس المعدن، يستحيل قطعها نتيجة لذلك. وهكذا كان القادس إذا نشبت كلاليبه بإحدى السفن يتراجع

إلى الوراء ليجرها. وهنا كان يحدث التفكك في السور المكون في سفينة النقل، وهناك كانت السفينة التي نشبت فيها الكلاليب، تنجر ومعها كثير غيرها إذا لم تستطع أن تخلص نفسها. أما المقاتلون بالخط الأول فقد لاقوا عناء شديدا في الالتجاء إلى الخط الثاني. وبهذا فإن نحو 60 من سفن النقل وقع جرها إلى قرطاجة. وقد كان هذا نجاحا هزيلا، ولكنه بعدما لقيته قرطاجة من الشقاء، أحدث فيها سرورا عظيما.

أما سِپْيون فيبدو أنه مكث أمام أوتيكا بعض الوقت من غير أن يقدر على الاستيلاء عليها. ولربما يكون قد قام بإحدى المحاولات غير المجدية ضد بِنْزَرت التي لو استولى عليها لكان له ميناء يأمن فيه على أسطوله.

خلال ذلك كان لايْلْيوس ومَسنيسّا قد توجها نحو الغرب. ويظهر أنهما تخليا عن متابعة سيفَكْس الذي لم يستطيعا اللحاق به، لذلك دخلا بعد خمسة عشرة يوما إلى نوميديا بمملكة الماسيسيليين. فعبّر هؤلاء عن سعادتهم باستقبال أميرهم العزيز، أما الحكام والحاميات الذين نصبهم سيفَكْس فقد وقع طردهم. وأصبح ملك الماسيسيليين مقتصرا في حكمه على أراضيه الأولى. ولكنه لم يكن ينوي أن يخلد فيها للراحة. فقد كانت زوجته تدفعه للأخذ بالثأر، وكان له من الرجال والخيول ما يؤمل به الانتصار. فجمع جيشا لا يقل عدده عن سابقه، وإن كان عبارة عن كتلة من المجندين حديثا، وزحف بهذا الجيش على العدو. وأقيم المعسكران بحيث كان كل منهما قريبا جدا من الآخر، وعلى مسافة قليلة شرقي سرْتا على ما يظهر. وحدثت مناوشات بين بعض الكشافة اجتذبت الخيالتين. وكان الماسيسيليون سينتصرون لا محالة بسبب تفوقهم العددي الكبير، غير أن المشاة الرومانيين قدموا متراكضين،

وأخذوا مواقفهم بين كوكبات خيول الماسيليين، وساندوهم وحدوا من تدفع الباربار الذين كانت حملاتهم تقع على غير انتظام. فتحير هؤلاء، وكبحوا خيولهم أول الأمر، ثم خارت قواهم واقتحمهم الفرسان الماسيليون الذين استرجعوا جرأتهم لما ساعدهم المشاة. فانقض سيفَكْس آملاً أن يرد رجاله إلى الميدان، غير أن فرسه جرح جرحا بالغا فوقع على الأرض وأوقعه معه. فقبض عليه وسلم حيا لِلايلْيوس. إن هذه المعركة التي خاضها الماسيسيليون بخيالتهم فحسب، لم تكن دامية جدا، إذ لم يقتل فيها - حسب قول تيتْ ليف - سوى 5000 رجل. كما أسر فيها نحو 2500 من النوميديين في المعسكر الذي التجأوا إليه لما علموا بأنهم فقدوا ملكهم. وكثير غيرهم التجأوا إلى سرْتا عاصمة سيفَكْس. وحسب إشارة واردة عند أوفيد Ovide الشاعر [70]، فإن هذه المعركة جرت يوم 24 يونيو بالتقويم الروماني، الذي ربما لم يكن يبتعد كثيرا عن السنة الفلكية في ذلك العهد.

أحرز مَسنيسّا من لاَيلْيوس على الإذن ليعجل بالذهاب مع خيالته إلى سرْتا، على أن يستفيد من الاضطراب الحاصل للعدو فيستولي على المدينة، بينما يتبعه لايليوس والمشاة من غير سرعة. ولما وصل إلى الأسوار طلب إحضار رؤساء المدينة، غير أنهم نظرا لجهلهم بالمصاب الذي حل بملكهم لم تفلح في إخضاعهم لا رواية ما جرى ولا التهديد أو النصح. فكان لابد من إظهار سيفَكْس مغلولا بالسلاسل، لأن مَسنيسّا كان قد أخذه معه. وإذ ذاك فتحت له أبواب المدينة فدخلها مسرعا إلى القصر. وكانت سوفُنِسْبي على العتبة تنتظر، فلما عرفت الملك من مظهره وأسلحته ارتمت على أقدامه متوسلة إليه أن لا يدعها تسقط في يد أحد من الرومانيين. وقد كانت هذه المرأة الشابة ذات جمال باهر،

إلى حد أن مَسنيسّا - وهو كجميع النوميديين ذو حمية بالغة، وقع فجأة في حبها وواعدها بما طلبت. ولكي يفي بوعده، فإنه لم يجد وسيلة أحسن من التزوج بها في نفس اليوم، وبهذا فلن تبقى أسيرة يتوقف مصيرها على لايلْيوس أو سيْپيون. وكانت حفلة الزواج تجري لما دخل لايليوس إلى سرْتا. فلم يُخْف غضبه، بل فكر في الاستيلاء على سوفُنسْبي وإرسالها إلى القائد مع سيفَكْس والأسرى الآخرين. ولكنه انصاع لرجاء مَسنِيسّا وقرر أن يترك لبوبْليوس تقرير أي الملكين ستقاسمه سوفُنسِبي مصيره. وتقبل بمساعدة مَسنِيسّا استسلام بعض الحلل التي كانت تقيم بها حاميات عسكرية.

في معسكر سِيْپيون بلغ الفضول أشده عندما وصل سيفَكْس، هذا الأمير الذي بولغ في تفخيم قوته إعلاء لقيمة الانتصار الروماني. وقد تأثر بوبْليوس عندما رأى هذا الذي كان هو ضيفا عليه، وعامله بإحسان. ويقال أن سيفَكْس اعتذر عن سلوكه قائلا بأن المرأة القرطاجية أفقدته رشده، وأضاف قوله إنه بقي له عزاء واحد، وهو علمه بأن عدوه اللذوذ قد تلقى هذه المرأة المغوية التي ستسبب هلاكه.

ولما عاد مَسنِيسّا بعد ذلك مصحوبا بلايليوس، أثنى عليه القائد ثناء كبيرا أمام الناس، ثم لامه بشدة من بعد في مذاكرة سرية على الزواج المذكور بامرأة هي بنت لأعداء رومة، وعلى الخطأ الذي ارتكبه في اختلاسه سوفُنسِبي من الغنيمة التي هي ملك للشعب الروماني. فدخل النوميدي خيمته، وتألم وحيدا بعض الوقت، ثم نادى أحد العبيد وأمره بحمل كأس من السم إلى سوفُنسِبي. فأخذت الكأس وشربتها دون أن ترتاع. ومهما كان رأي الذين يجتهدون ليزيلوا عن التاريخ القديم كل

واقعة درامية أو مثيرة، فإنه يصعب وربما لا يهم مطلقا معرفة الجانب الحقيقي من الجانب الخرافي من هذه الرواية الشهيرة لتيتْ ليڤ.

وفي الغد جمع سِپْيون جيوشه، وأثنى على مَسنِيسّا أمامها، ولقبه لأول مرة بلقب الملك.

ذهب لايلْيوس ليوصل إلى رومة سيفَكْس مع بعض الرؤساء النوميديين الذين أُسِروا أيضا. وفي نفس الوقت ذهب الموفدون الذين بعث بهم مَسنِيسّا، والتمسوا من مجلس الشيوخ أن يؤكد لسيدهم منصب الملك وسيطرته على أراضي أبيه. أما سيفَكْس فقد أرسل للاعتقال في الْبافوكِنْس Alba Fucens ثم نقل من بعد إلى تيبور Tibur حيث مات (71).

قرر القرطاجيون أن يطلبوا الصلح بعد هزيمة حليفهم وأسره. فقدم ثلاثون عضوا من المجلس موفدين إلى تونس التي كان بوبْليوس قد عاد إليها. فسجدوا أمامه وقبلوا أقدامه حسب العادة التي جاء بها أجدادهم من المشرق، والتي كان الشمم الروماني لا يحبها. وأعلنوا بألفاظ متواضعة أن وطنهم أخطأ في حق رومة أخطاءً كبيرة، وأن حنّيبَعْل على الخصوص هو المسؤول عنها، ثم طلبوا عفو الغالبين، وإذ ذاك عرّفهم سِپْيون بما يجب عليهم، وهو : إعادة الأسرى والهاربين من الجيش والعبيد الآبقين، وسحب جيشهم من إيطالا الجنوبية ومن بلاد الغال القريبة Cisalpine، والتخلي عن إسبانيا وعن جميع الجزر الواقعة بين إيطاليا وإفريقيا، وتسليم جميع سفنهم الحربية باستثناء عشرين منها، وأداء تعويض من 5000 تالان، وأن يعطوا للجيش الروماني – علاوة على ما ذكر – 50.000 بواصو من القمح و300.000 بواصو من الشعير (72).

وتبرهن هذه الشروط على أن بوبليوس لم يكن له أي أمل في الاستيلاء على قرطاجة وتدميرها. ولأن الاستيلاء عنوة على هذه المدينة كان يبدو مستحيلا في عين القائد الذي لم يستول على أوتيكا، كما أن إخضاعها بالتجويع عملية ستكون طويلة الأمد، في حين أن جميع الرومانيين كانوا يتمنون إنهاء الحرب. ويضاف لهذا أنه كان لابدّ من السيطرة المطلقة على البحر، بينما أوضحت إحدى المعارك الأخيرة أن الأسطول البونيقي ليس مما يستهان به. ورومة - بعد الكوارث التي خلفت ذكريات لا تنسى - يمكنها الآن الرضى بمعاهدة تحرر إيطاليا وتعيد قرطاجة إلى مقاطعتها الإفريقية التي تحدها أراضي ملك يعاديها، وهي معاهدة تحرمها من أسطولها الحربي، أي من الأداة الضرورية لحماية مستعمراتها البعيدة في إفريقيا، ولمحاولة النزول من جديد في غيرها من أراضي البحر الأبيض المتوسط. وفي الأخير معاهدة تمنع عليها إصلاح ماليتها التي أنهكت وصارت محرومة من خيرات إسبانيا.

وأعطيت للقرطاجيين مهلة ثلاثة أيام يردون الجواب بعدها، فقبلوا الجميع. وحتى الذين لم يرضخوا لمثل هذه المعاهدة، فإنهم أرادوا باستسلامهم الظاهر تسكين حدة الرومانيين حتى يعود حنيبَعْل. وأبرم بعض الموفدين عقدا للهدنة مع سِپْيون، بينما ركب البحر آخرون منهم ليحصلوا من مجلس الشيوخ ومن الشعب الروماني على صلح نهائي.

وتفارق مَسنيسّا مع سِپْيون الذي أرسل معه بعضا من الضباط وعشر سريات من المشاة وعشر كوكبات من الخيالة، لتعينه هذه القوات على إتمام استرجاع مملكته وفي الاستيلاء على مملكة سيفَكْس(73). أما القائد نفسه فلا نعلم هل غادر تونس أم لا. وليس من المحتمل أن يكون قد تخلى عن هذا الموقع المهم، لكننا نلاحظ أنه كان بعد بضعة أشهر

يوجد هو نفسه بالمعسكر الواقع على المرتفع، حيث المواصلات أسهل مع صقلية وسردانية وإيطاليا، فلربما أنه قضى به فصل الشتاء.

6

بعد معركة السهول الكبرى دُعي حَنيبَعْل للرجوع إلى إفريقيا. فلم يستطع بالطبع أن يركب البحر عاجلا، إذ كان لابد من عدد كبير من سفن النقل لحمل جيوشه، ومن السفن الحربية لحمايتها. فأرسل إليه أسطول بقيادة حَسْدربَعْل، والغالب على الظن أن هذا جرى بعد معركة أوتيكا. وقد سبق أن رأينا أنه كان لايزال بإيطاليا أثناء المذاكرات الأولية للصلح، وأن عودة القائدَيْن البَرْكِيِّين كانت من جملة ما اشترطه سِپْيون. بل، ولربما أن يكون اشترط ذهابهما العاجل، لأن الرومانيين أرادوا التمسك بمبدأ عدم التفاوض مع أعداء يقيمون فوق التراب الإيطالي. وقد عبر حنّيبَعْل عائدا في نهاية الصيف أو بداية الخريف. ولابد أن يكون قد صحب معه جميع من بقي لديه من الجنود المحنكين. وكان نزوله للبر في لِبْتيس الصغرى (مدينة لَمْطة)، على مسافة قليلة من هَدْروميت (سوسة) التي دخلها مع جيشه.

ونفهم جيدا لماذا لم ينزل في قرطاجة. فإذا حان نشوب الحرب من جديد، فإن وجود جيوشه بمدينة محمية بأسوارها العظيمة وتنقصها المؤن، يكون له من المساوئ أكثر مما له من المنافع. فلن تستطيع هذه الجيوش الخروج منها، لأن سِپْيون سيقطع بسهولة السبل المؤدية لداخل البلاد. أما في هَدْروميت فإن حنّيبَعْل كان له كامل الحرية في تلقي النجدات والمؤن وفي القيام باستعداداته بعيدا عن مراقبة العدو، وبعيدا أيضا عن الحكومة التي لم يكن مستعدا لقبول أوامرها ولا حتى رقابتها،

وأخيرا كان حرا ليتجه حيث يريد عندما يدخل الحرب. أما الرومانيون الذين كانوا يعتقدون أن الهدنة هي بداية السلام، فيمكن تفسير هذا القرار لهم بأسباب وجيهة وهي أن إبعاد جيش حنّيبعل إلى مقاطعة الْبيزاكْيوم Byzacium، بعيدا عن معسكرهم بخمسين فرسخا، برهان على حسن النية نحوهم، ثم إنه عمل تبرره صعوبة حفظ النظام في مدينة قرطاجة الكبيرة.

وكذلك، فإن الجيوش التي كانت تقاتل تحت قيادة ماگون بشمال خليج جِنَوَة قد عادت هي أيضا إلى إفريقيا، وانضمت إلى جيوش حنّيبَعْل. وقد سبق لنا القول بأن قائد هذه الجيوش مات على ما يحتمل أثناء عبور البحر. ولا داعي للقول بأن حنّيبَعْل قد عين في منصب القائد الأعلى للقوات البونيقية. وبهذا خضع حنّون لرئيسه السابق، وذلك إذا صح أنه – أي حنّون – قد حل محل حَسْدربَعْل بن جِسْكون على رأس فلول الجيش الذي انهزم في السهول الكبرى.

أما السفراء القرطاجيون الذين صحبهم كِنْتوس فولْفيوس جيلو Q.F.Gillo فقد نزلوا بميناء بوزول Pouzzoles ومنه ذهبوا إلى رومة. ونجهل الأسباب التي أخرت إبرام الصلح. والمعلومات التي ذكرها الكاتب في هذا الموضوع لا تستحق الثقة. وأخيرا فلربما بعد تولي قنصلي سنة 202 لمنصبهما (15 مارس بالتوقيت الرسمي) قبل مجلس الشيوخ والشعب الشروط التي أعلنها سِپْيون في اجتماع تونس وقبلها القرطاجيون. وعاد إلى إفريقيا وفد المفاوضين وفولْفيوس ولايْلْيوس.

كانت المعاهدة قد تم إبرامها في رومة، عندما جرت بقرطاجة أحداث أشعلت نار الحرب.

فقد تكون موكب من السفن لتموين الجيش الروماني، أحدهما كان يسيره البريطور بوبْليوس كُرنيليوس لنْتولوس P.C. Lentulus، ويتكون من 100 سفينة للنقل تحرسها 20 من السفن الحربية. وقد مرت هذه المجموعة دون عناء من سردانية إلى إفريقيا، بينما المجموعة الأخرى ذهبت من صقلية، وكانت تضم 200 سفينة للنقل و30 قادسا، وكان يقودها البريطور السابق كنايوس أوكتافيوس Cn. Octavius. وقد جرت عملية العبور بصفة حسنة إلى ما يجاور الساحل. فسكنت الريح، ثم تفجرت زوبعة عاصفة من الجنوب الغربي وشتتت الأسطول، ولكن السفن الحربية قاومت العاصفة، وبقوة التجديف استطاع أوكتافيوس أن يقودها إلى رأس أبولون (رأس سيدي علي المكي). أما سفن النقل فمعظمها رمت به الزوبعة على جزيرة إيجيمور Aegimure (زمبرة) بمدخل خليج قرطاجة، والبعض الآخر اندفع إلى المياه الحارة على الساحل الغربي بهضبة الرأس الطيّب أمام المدينة التي تُرى منها هذه الكارثة المزدوجة.

كان رجوع حنّيبَعْل قد أنعش كثيرا من الآمال. ولربما أن المحاصيل الزراعية كانت من جهتها في الصيف الماضي أقل وفرة بالمقاطعة البونيقية التي غُزيت وحُرمت من عدد كبير من العمال. وبرغم الهدنة فمواصلات قرطاجة مع الداخل ومع الموانئ لابد أنها كانت صعبة جدا، لذلك فتموين العاصمة كان يتعثر في الصعوبات، ومن المحتمل أن السكان الذين تضاعف عددهم باللاجئين كانوا يخشون المجاعة.

فتجمع الناس صاخبين بالساحة العامة يلحون في الاستيلاء على مجموعة السفن. فاجتمع مجلس الشيوخ بدعوة من الشوفيطين، وأراد المداولة في الأمر. فذكر بعض أعضائه بأن الصلح قد وقعت المطالبة به، وأن الهدنة المبرمة مع سِپْيون لم تنصرم. فلم يجد هذا الكلام شيئا.

وتحت ضغط الشعب الذي كان يصرخ في الممرات المؤدية لقاعة الاجتماع، قرر المجلس أن يذهب أمير البحر حسّدربعل ومعه 50 قادسا ويستولي على الناقلات التي جنحت بإيجمور وعلى السواحل. وبالفعل فقد جرت إلى ميناء قرطاجة هذه السفن التي كان رجالها قد تركوها.

علم سِپْيون تقريبا في نفس الحين أن القرطاجيين نقضوا تعهداتهم، ووردت من رومة رسائل تخبر أن الصلح قد أبرم. ورغما عن غضبه فإنه لم يسارع باتخاذ قرار القطيعة. ولكن بعث من معسكره بالمرتفع ثلاث موفدين إلى قرطاجة ليخبر بالتوقيع على المعاهدة وليطالب بالتعويض عما جرى. وتقدم المبعوثون أمام المشيخة ثم أمام الشعب وتكلموا بصراحة كبيرة، وذكروا بموقف أعضاء المجلس وبكلامهم في تونس وقالوا كيف تجرأ القرطاجيون وبمثل هذه الخطورة على أن يخنثوا في أيمانهم بعد كل ما برهنوا عليه من الخسة ؟ إنهم إذا كانوا يعتمدون على حنّيبَعْل وجيشه فقد أخطأوا، لأن حنّيبعْل غادر إيطاليا مغلوبا، وهو الآن يجد أمامه جيوشا سبق لها أن انتصرت عدة مرات. إن حنّيبَعْل وجيشه سينهزمون من جديد، ولن يكون لهم أمل في رحمة أو عفو.

سببت هذه الأقوال المتعالية غضبا كبيرا، فكان القليل جدا من بين أعضاء المجلس هم الذين أشاروا بإرجاع السفن والمؤن. لأن الشعب لم يكن ليرضى بذلك، كما أن معظم الولاة وأعضاء مجلس الشيوخ لم يعودوا يريدون المعاهدة، لشدة يقينهم بأن حنّيبَعْل سيكون المنتصر، بينما مجلس المواطنين اتفق على أن يترك المبعوثين يرجعون من غير جواب.

أما الحكّام فقد دبروا من جانبهم مكيدة تجعل اندلاع الحرب من جديد أمراً لا مناص منه. وذلك أن مبعوثي بوبْليوس عادوا إلى المرتفع

على ظهر سفينة خماسية، وكان القرطاجيون قد أصحبوها بسفينتين ثلاثيتين، بقصد حراستهم وحمايتهم من كل خطر، حسب قولهم. ولكنهم في نفس الحين أعطوا بعض التعليمات لأمير البحر حَسْدربَعْل الذي كان أسطوله راسيا قرب أوتيكا، في روسكِمون Rusucmon على ما يحتمل. فدعوه لأن يوقف غير بعيد من معسكر سِپْيون بعض السفن التي تقوم بمهاجمة وإغراق السفينة الخماسية، بعد مفارقة سفينتي الحراسة لها. وصدر الأمر لربانَيِ الثلاثيتَيْن، بالرجوع بعد اجتيازهما مصب بَكْرادا Bagrada، الذي تمكن منه رؤية المعسكر. وذلك ما جرى. فلما رأى المبعوثون أنهم تخلوا عنهم اغتاظوا من هذا العمل الذي اعتبروه عدم مراعاة لهم، ولكنهم لم يرتابوا في شيء، وفجأة فإن ثلاث سفن ثلاثية قرطاجية كانت مختفية، فظهرت وهاجمت سفينتهم. وقد عرف الرومانيون كيف يتحاشون صدمة المهامز، ودافعوا بشجاعة حتى منعوا العدو من اقتحام سطح سفينتهم، غير أن الكثير منهم قتلوا أو جرحوا. وأخيرا لما رأوا بعض الجنود ممن كانوا قد ذهبوا لحش الكلأ خارج المعسكر وهم يتجارون لمساعدتهم، دفعوا بسفينتهم لتجنح على الشاطئ، فنجا المبعوثون من الموت بأعجوبة.

لم يتردد سِپْيون في اعتبار المعاهدة منقوضة، وبادر باتخاذ الترتيبات لسلامة أسطوله، وأسند حراسة المرتفع إلى بايْبيوس Baebius أحد مساعديه، ثم شرع في الحرب.

بعد أيام قليلة، عاد السفراء القرطاجيون من إيطاليا، ونزلوا إلى اليابسة في المرتفع صحبة الرومانيين الذين رافقوهم. وأسرع هؤلاء الرومانيون باللحاق بالقائد وأخبروه بالتفصيل عما جرى بروما. أما القرطاجيون فقد استبقاهم بايبيوس عنده. فلما أعلموا بالاعتداء الذي

قام به مواطنوهم، داخلهم قلق شديد، بسبب توقعهم أن يكونوا ضحية اقتصاص مستحق. ولكن سِپْيون أمر مساعدة بإخلاء سبيلهم، لأنه لم يرد أن يكون عدم وفاء العدو مثالا ينهجه وطنه.

7

حسب إحدى الروايات الرومانية التي تلقاها أپْيان، فإن حنّيبَعْل كان قد بدأ الحرب. فهو أثناء قيامه باستعداداته في هَدْروميت Hadrumète، وشرائه للخيول وتوفيره للقمح، ضمن لنسفه، على قول هذا الكاتب، حلف عدة أمراء نوميديين كرئيس الآرياكيين Aréacides، وأحد الميزوتيليّين Mésotyle الذي أتاه مع 1000 فارس (المقصود هنا شخص ذكره تيتْ ليڤ باسم مازيتُلوس Mazaetulus)، وأخيرا فَرْمينا Vermina ابن سيفَكْس، الذي لايزال يملك معظم أراضي أبيه، وانضم أيضا للجيش البونيقي [74]. وكان أربعة آلاف فارس قد انضموا إلى مَسنيسّا بعد أن كانوا في خدمة سيفَكْس من قبل، فتركوا مَسنيسّا واتجهوا للمعسكر القرطاجي. غير أن حنّيبَعْل كان يحذر مثل هؤلاء الهاربين من جيوشهم. لذلك فقد أمر بالقضاء عليهم بالرماح ووهب خيولهم لجنوده. ثم اقتحم مملكة مَسنِيسّا، وتقبل استسلام بعض المدن، كما استولى عنوة على بعض آخر منها، بينما وقع الاستيلاء بالخيانة على واحدة منها وهي نَرْصي Narcé.

جرت هذه الحملة، على ما يبدو، قبل الاستيلاء على سفن النقل، وقبل الاعتداء على مبعوثي بوبْليوس ومع ذلك، فيظهر أنه لا يمكن قبول كون مَسنِيسّا قد وقع استثناؤه من عقد الهدنة، ليس فحسب لأنه كان حليفا لرومة، وإنما لأنه كانت معه جيوش رومانية. فمهاجمته يكون

معناها إثارة سِپْيون، والتغلغل في أرض الماسيليين، بعيدا عن هَدْروميت. يكون معناها المخاطرة بتمكين سِپْيون من المهاجمة على الخلف، ومعناها أيضا سد طريق الساحل الذي هو المنطلق الضروري للعمليات. وما كان حنّيبَعْل ليرتكب هذا الخطأ، والدليل على أنه لم يرتكبه، هو أن سِپْيون لم يؤاخذ القرطاجيين على شيء قبل قضية مجموعة السفن. كما أن تذبيحه 4000 جندي هارب يكوّن جريمة خرقاء ينفّر بها القائد البَرْكي عنه النوميديّين الذين هو في أمس الحاجة إليهم. وسنرى أن أخبار النصوص القديمة عن فَرْمينا هي أخبار متناقضة. فأپْيان من جهته، لم يقل أي شيء عن النجدة التي قد يكون الأمير الماسيسيلي أمد بها حنّيبَعْل، ومع ذلك يكون فرمينا قد قام بدور مهم أثناء معركة زاما Zama. لذلك فلا محل للأخذ بهذه الرواية.

أما ما يأتي بعد، فهو أيضا لا يستحق الثقة، وهو أن الشعب دعا حنّيبَعْل بعدما خرقت الهدنة، فجاء إلى قرطاجة مع جيشه الذي تضاعف بجيوش حَسْدربَعْل ابن جسْكون، وأن سِپْيون أراد تجويع المدينة فحاصرها بأسطوله، وأن خيالته تلاقت مع خيالة حنّيبَعْل فهزمتها قريبا من زاما. وعقب بعض المناوشات أحرز الرومانيون على انتصار جديد : إذ بناء على أمر صادر عن بوبْليوس، فإن القائد ثيرْموس Thermus كمن ليلاً في الطريق التي يمر منها رِتْل يحمل المؤن للأعداء، وقتل 4000 إفريقي وأسر مثلهم، كما استولى على الرتل وجاء به إلى رئيسه. وخارت عزيمة حنّيبَعْل فطلب من مَسنِيسّا أن يتوسط في الحصول على الصلح، فقبل الملك. وأملى سِپْيون شروطه التي قبلها حنّيبَعْل، وأبرمت الهدنة. ولكن شعب قرطاجة يرغم المشيخة على رفض الانصياع للتعقل، وأصدر الأمر إلى القائد بخصوص المعركة دون توان، لأن المجاعة تهدد. فألغيث الهدنة.

واستولى بوبليوس على مدينة كبيرة هي برثوس Parthos (أو برثون Parthon)، وأقام معسكره بالقرب من حنّيبَعْل الذي انسحب.

لقد سبق لنا القول بأن حنّيبَعْل لم يعد إلى قرطاجة قبل المعركة المعروفة باسم معركة زاما Zama، وأنه لم يكن الرجل الذي يستجيب لأوامر الشعب، وأن الدور الذي عزي لمَسنيسّا غير معقول، لأن هذا الملك كان آنذاك بعيدا عن سِپْيون. وأوضحنا أيضا أن حنّيبَعْل كانت له أسباب وجيهة لعدم مجيئه بجيشه إلى قرطاجة. ولقد أهمل أپْيان أن يبين كيف قدمها حنّيبَعْل، وكيف خرج منها، ولماذا كانت خيالة هذا وذاك موجودة بناحية زاما، على مسافة عدة أيام من العاصمة الإفريقية ومن معسكر بوبْليوس. أما المعارك التي يتحدث عنها، فتبدو كأنها انتصارات حقيقية نالها الرومانيون، ومع ذلك فإن پوليب لم يذكرها حتى بالإشارة. فالمعتقد أنها اختلاقات، بحيث ان إحدى المعركتين ارتبط بها على ما يبدو اسم زاما الذي يكوّن قسما من الذكريات المتبقية لدى الكثير عن هذه الحرب.

إذن فإننا نُنَحي رواية أپْيان (75) لنتابع ما يقوله پوليب. فلقد غادر سِپْيون معسكره وتقدم مخترقا المقاطعة البونيقية. ولشدة غضبه من غدر القرطاجيين، لم يعد يقبل أي استسلام، وصار بكل مكان يدخل المدن عنوة ويحوّل سكانها إلى أرقاء، وبعث إلى مَسنيسّا رسالة تلو أخرى يخبره بالأحداث الأخيرة، ويدعوه ليحشد ما يستطيعه من الجيوش، وليسارع بالقدوم عليه، الأمر الذي يبرهن على أنه لم يكن يرى نفسه قادرا على الشروع في مهاجمة عدوه اللذوذ قبل أن تصله النجدات.

أما الحكومة البونيقية فقد رجت حنّيبَعْل بالزحف حالا على العدو ليضع حدا لهذه التخريبات. فكان جواب القائد للمبعوثين الذين قدموا إلى هَدْروميت أن عليهم أن يشتغلوا بمهام أخرى، وأن يتركوا له أمر

اختيار ساعته. فمن المحتمل أن استعداداته لم تكن قد تمت نهائيا. ولاشك أنه لم يستطع أثناء مدة الهدنة أن يتخذ جميع الترتيبات الضرورية بكامل الحرية، وقد اتجه إلى أحد أقرباء سيفَكْس أو أحد أتباعه، ويسميه پوليب باسم توخايوس Tuchaios، وكان فرسانه أشهر فرسان ليبيا. فلم يتمنع هذا الرئيس عن بذل مساعدته للقرطاجيين، لأنه كان يخشى أن يصير ضحية لمطامع مَسنيسّا إذا انتصر الرومانيون، فقدم ومعه 2000 من المقاتلين على خيولهم. وبعد أن مرت أيام قليلة على حديث حنّيبَعْل مع مبعوثي قرطاجة الذين أفهمهم أنه يريد العمل حسب رأيه هو، غادر هَدْروميت وذهب ليعسكر قريبا من زاما.

لقد عرفتنا نقوش من العهد الروماني موقعين لمدينتين بالشمال الإفريقي تحمل كل منهما هذا الاسم. فكانت إحداهما تقع على نحو خمسين كيلومترا في خط مستقيم، بالشمال الغربي من القيروان، بالمحل المعروف باسم "سيدي عمرو الجديدي"، على بسيط له منحدرات قوية شيئا ما، يسار وادي معروف أي النهر الذي يحمل بعد هذا المكان اسم "وادي النبعان"، ويذهب لينتهي في بحيرة مجاورة للقيروان. والثانية كانت تقع إلى الغرب بنحو أربعين كيلومترا، في الجَمة Jama (فالاسم القديم حوفظ عليه إذن)، على صهوة وعرة بالشمال الشرقي لجبل مَسّوج Massuge، يسار نهر سَلْيانة رافد مَجَرْدة. وقد خلفت لنا الثانية خرائب أوسع من الأولى، وإن كان اتساعها هذا لا يبرهن على أنها في العهد البونيقي قد كانت ذات أهمية أكبر. وفي النقش الذي اكتشف بالجمة، نجد اسم زاما Zama يتلوه وصف يبتدئ بحرف M، أما بقية اللفظ فضاعت. ويذكر الجغرافي بطِلْمي Ptolémée في إفريقيا مدينة اسمها زاما الكبيرة، وبهذا فإحدى المدينيتين لابد أن اللاتانيين وصفوها بكلمة مايور Maior (أي الكبرى) والأخرى لاشك بكلمة مينور Minor، (أي

الصغرى). فإذا كانت إحدى هاتين الكلمتين هي المنقوشة على الحجرة المتهشمة اليوم، فبإمكاننا الاعتقاد أنها هي "Maior الكبرى" لأن هذا الوصف الذي من شأنه أن يرضي كبرياء سكان الموقع، يكون بمحله في تكريس قاموا به لأحد المعابد بينما يسكتون غالبا عن صفة "صغرى Minor" إذ كانت هذه الصفة تطلق على مدينتهم.

ومن جهة أخرى فإن مدينة اسمها زاما الملَكِية Zama Regia كانت موجودة بالناحية التي توجد بها الجمة. فمن الطبيعي القول بأن زاما الملكية هي زاما التي كانت عاصمة للملك يوبا الأول، معاصر يوليوس قيصر، وبأنها أيضا هي التي كانت عند نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، حسب سالُسْت Salluste، مدينة كبيرة وقلعة في الجهة التي كانت توجد بها من المملكة. ويؤكد سالُسْت أن زاما كانت تقع بالسهل وكانت محصنة بفعل الإنسان أكثر مما حصنتها الطبيعة. وهذا لا يتطابق مع الوعورة الموجودة بالجمة Jama التي تحيط بها أرض محفرة جدا، ولا مع بسيط "سيدي عمرو الجديدي" الذي أحوازه القريبة متجعدة بكثرة. فإذا أردنا أن لا نلغي شهادة لوال قديم على إفريقا الجديدة Africa nova، أي الولاية التي كانت تضم مدينتَيْ زاما المعروفتين اليوم، فلابد من قبول وجود مدينة ثالثة تحمل نفس الاسم، واقعة بأحد السهول بتونس الوسطى، وتكون على الأغلب بعيدة عن سيكا Sicca أي مدينة الكاف، وعن مَكْتَريس Mactaris أي مَكْثَر، وعن أَسُّوراس Assuras أي زَنْفور Zanfour، وغير بعيدة كذلك عن أوزابا Uzappa أي "قصور عبد الملك"، ولا عن زاما التي بالجمة.

أما پوليب فلا يورد سوى خبر واحد عن زاما التي أقام حنّيبَعْل بقربها معسكره. فيقول إنها كانت على مسيرة خمسة أيام من قرطاجة

في اتجاه الغرب. بينما يقع "سيدي عمرو الجديدي" على نحو 115 كيلومترا بجنوب الجنوب الغربي، كما تقع الجمة على 140 كيلومترا بالجنوب الغربي لقرطاجة. فإذا لزم الاختيار بين هذين الموقعين فإن الاتجاه والمسافة يتناسبان مع الجمة على الأصح.

إننا في حالة من التردد لا تسمح لنا بتخمين الأسباب التي دفعت بحنّيبَعْل لمغادرة هَدْروميت إلى زاما والتوقف قرب هذه المدينة الأخيرة. وقد أهمل پوليب أن يقول لنا أين كان سِپْيون آنذاك. فهل كان يجوب الوادي الأوسط لنهر مجردة ؟ لقد توقف حنّيبَعْل قليلا من الوقت وتلقى أثناءه أخبارا دقيقة، فهل كان ينوي التقدم لمواجهته مسايرا "وادي سلْيانة" الذي هو أحد الروافد اليمنى لنهر مجردة ؟ أو بعيدا إلى الغرب مسايرا وادي تاسة Tessa ؟ هل كان يود أن يهزمه قبل أن يلتحق به مَسنيسّا ؟ أو أن سِپْيون في عمليته لنهب المقاطعة البونيقية كان قد سار بعيداً في اتجاه الغرب أو الجنوب الغربي ؟ وأمام تهديد حنّيبَعْل، هل قرر سِپْيون أن يعجل اتصاله بمَسنيسّا فتوجه نحو نوميديا لملاقاة الملك ؟ فمن الهضبة الوسطى التونسية Massif Central، كان بمستطاع حنّيبَعْل اللحاق به إما بالسير في اتجاه الشمال الغربي أو الشمال، وذلك في حالة ما إذا أخذ العدو اتجاه أوتيكا Utique خوف أن تسد عنه طريق تراجعه. لقد قيلت هذه الافتراضات مع ثقة بها، ولكن يمكن مع ذلك تقديم افتراضات أخرى واهنة مثلها.

يقول سِپْيون إن حنّيبَعْل بعث من زاما ثلاثة جواسيس لمعرفة أين كان يوجد المعسكر الروماني، وكيف كان مقاما. وقد ألقي القبض على هؤلاء الرجال، وعوضا عن عقابهم، فإن سِپْيون أذن برؤية كل شيء بإرشاد أحد القادة العسكريين، ثم ردهم إلى قائدهم طالبا منهم أن

يخبروه بدقة بكل ما رآوه. وليس أكيدا أن هذه الحكاية واقعية، لأنها تشبه إلى حد العجب قصة ثلاثة من الجواسيس عاملهم خَرْشيش Xerxès بنفس المعاملة كما روى ذلك هيرودوت Hérodote. ويضيف پوليب أن حنّيبَعْل أعجب بما برهن عليه سِپْيون من الأخلاق الكريمة ومن الثقة، فساوره الرجاء في المذاكرة معه، وكلف أحد الرسل بالذهاب ليطلب منه هل هو موافق. فأعطى بوبْليوس الجواب بالموافقة، وأضاف بأنه سيختار مكان الالتقاء ووقته ويخبر حنّيبَعْل بذلك وفي الغد التحق به مَسنيسّا الذي صحب معه نحوا من 10.000 نوميدي. فارتحل وذهب ليقيم قريبا من مدينة مَرْگرون Margron بموقع حسن، يوجد به الماء في مكان لا يبلغه رمي السهام. ثم أخبر القائد القرطاجي بأنه على استعداد للمقابلة. فنقل حنّيبَعْل بدوره معسكره، وتقدم حتى كان على مسافة ثلاثين اسْطاداً (أي أكثر من خمسة كيلومترات بقليل) من الرومانيين، ونزل بتل ذي موقع حسن، وإن كان لابد فيه من الابتعاد قليلا لجلب الماء، وهي الصعوبة التي تألم منها الجنود كثيرا. فمن هذين المعسكرين خرج في الغد سِپْيون وحنّيبَعْل للتفاوض، وبعد الغد للقتال.

يسمي المعاصرون هذه المعركة باسم معركة زاما Zama، بينما كاتب واحد من القدماء هو الذي ذكرها بهذا الاسم، وهو كُرْنيلْيوس نيبوس C. Nepos (76) الذي ليس حجة قاطعة. على أن رواية پوليب يفهم منها أن وقتا ضئيلا قد مر بين قضية الجواسيس الثلاثة وبين الوقت الذي نصب فيه حنّيبَعْل معسكره بالقرب من معسكر سِپْيون، ونتيجة لذلك يكون القائد القرطاجي قطع طريقا قصيرة بعد ذهابه عن زاما. أما بوبْليوس فعندما التحق به مَسنيسّا وتضاعفت بهذا الاتصال قواته بعدد 10.000 رجل، لابد أنه تمنى الحل السريع والزحف على العدو بدون توان.

وذهب حنّيبعْل لمقابلته، ومن الواضح أنه اختار لنصب معسكره الموقع الذي رأى أنه الأحسن من الوجهة الستراتيجية. وأياً ما كانت الآمال التي علقها على الملاقاة التي قبلها سِپْيون، فإنه لم يدفع بجيوشه إلى موقع غير مناسب، بل دفعها لغاية واحدة هي حضوره الموعد المحدد في الوقت المضبوط.

لقد جرت المعركة في سهل فسيح، انتشر فيه جيشان، جعل أحدهما في صفه عدة من الفيلة، واستطاع الفرسان أن يتحركوا بسهولة وأن يتابعوا الفارين بهذا السهل. وإذا كانت زاما التي يذكرها پوليب هي إحدى المدينتين اللتين نعرفهما، فلابد من البحث عن مكان المعركة على بعض المسافة من "سيدي عمرو الجديدي" أو من "الجمة" حيث الأراضي المحيطة بهما ليست منبسطة. ولكننا نعثر على سهول بغرب زاما الشرقية (في الوادي الأعلى لنهر سليانة)، وعلى الخصوص بالشمال الغربي وبالجنوب الغربي لزاما الغربية.

إن المدينة التي خيم سِپْيون بجوارها تحمل اسم مَرْگرون Margaron في نص پوليب كما وصل إلينا. وفي تيتْ ليڤ الذي نقل عن پوليب تعطينا المخطوطات اسم نَرْكارا Narcara، وأحسن هذه المخطوطات يعطينا اسم نارگَارا Naraggara. وبالفعل فإن نارگارا كان اسماً إفريقيا لأحد المواقع. هكذا كانت تسمى إحدى المدن التي لا تزال خرائبها تشاهَد في "سيدي يوسف"، بالحدود الجزائرية التونسية بين مَجَرْدة ووادي مَلاك. ويمكن أن نتردد بين افتراضين : فإما أن تيتْ ليڤ قد حافظ على الصيغة الحقيقية للاسم كما وردت عند پوليب، وهي التي يكون أحد الناسخين من الإغريق أو غيرهم قد حرّفها، وإما أن مَرْگَرون Margaron، وهو الاسم الصحيح الذي ذكره پوليب، قد وقع تغييره تعسفاً

باسم آخر. وعلى ما يبدو، فإن من الخطأ نسبة هذا التغيير المفترض إلى كويلْيوس Coelius المتقدم زمنا على تيتْ ليڤ. فقبل كل شيء لم يتأكد أن كُويلْيوس استعان بپوليب في روايته عن الحملة الإفريقية، بينما تأكد على النقيض منه أن تيتْ ليڤ اعتمد مباشرة على پوليب في هذه الفقرة. وفوق هذا فإن كويليوس لم يكن يعرف لا ناركَارا Naraggara ولا مَرْگَرون Margron. وكذلك تيتْ ليڤ الذي قد نغْرى فَنَنْسب إليه هذا التصويب. ولابد أن مدينة ناركارا لم تحرز على شهرة مطلقا حتى في القرنين الثاني والثالث للميلاد، عهد ازدهارها. والمعتقد هو أن وجودها كان مجهولا في رومة على عهد الأخوين الـگـرَاكيّين Les Gracques وعهد أغُسْطس، على فرض وجودها آنذاك. فلابد إذن من إلقاء التهمة على أحد نساخ أو قراء تيتْ ليڤ، على رجل ربما كانت له أسباب خاصة لمعرفة ناركارا، إما لمولده بها أو لغير ذلك من الأسباب، ويكون أقحم هذا الاسم في أحد المخطوطات.

وحتى إذا أخذنا بالافتراض الأول، فيجب أن لا نستنتج منه أن المعركة جرت قرب "سيدي يوسف". لأن هذا المكان يبعد بنحو 100 كيلومترا عن "الجمة"، ويبعد على الأقل بنحو 140 كيلومترا عن "سيدي عمرو الجديدي". وإذا افترضنا أنه لا "الجمة" ولا "سيدي عمرو الجديدي" يتطابق مع زاما التي يذكرها پوليب، فإنه بالتأكيد كان يقع على مسيرة عدة أيام من هذه المدينة، لأن المؤرخ يذكر خمسة أيام بين قرطاجة وبين زاما، بينما كان يوجد ثمانية أيام بين قرطاجة وناركارا. فيحسن إذن أن نبحث عن ناركارا التي تعنينا، بعيدا نحو الشرق وليس بسيدي يوسف. فمثال زاما – ولا داعي لذكر غيره – يبرهن على أن في إفريقيا كما في غيرها، كانت توجد بقاع كثيرة تحمل نفس الاسم.

في أپّيان نعثر على معلومة طبغرافية، ربما لها من القيمة أكثر مما لروايته. يقول إن حنّيبَعْل كان ينوي إقامة معسكره على تل مجاور لمدينة كيلاّ Killa، ولكن سِپيْون سبقه واحتله قبله، الأمر الذي جعله يقضي الليلة المتقدمة على المعركة وسط سهل قاحل، وقد حفر به الآبار فلم يطلع منها سوى الماء العكر. إننا نأسف لعدم معرفتنا أين كانت تقع هذه المدينة. وقد قال بعضهم إنها المكان الذي كان سكانه في العهد الروماني يعرفون باسم الشلنْسِيّين النوميديين Chellenses Numidae، والذي كان دون شك يقع في سهل الزوارين Zouarines، على نحو 40 كيلومترا إلى الجنوب الغربي من "الجمة". ولكن التشابه في الاسمين ليس واضحا، ثم إن Chellenses يمكن أن تكون صيغة خاطئة لكلمة Cellenses من Cellae، أي مخازن القمح، وهو لفظ لاتاني صميم، استُعمل طبعا لتسمية المواقع في شمال إفريقيا في عهد السيطرة الرومانية، بعد المعركة بزمن طويل. وزيادة على ذلك، فإن سهل الزوارين غزير المياه، خلافا لما قاله أپْيان.

ونفس الكاتب ومعه كُرْنيليوس نيبوس C. Neppos، يذكر أن المسافة التي قيل إنها كانت تفصل ميدان المعركة عن مدينة هَدْروميت، والتي يؤكدان بأن حنّيبَعْل بعد هزيمته قد قطعها في يومين وليلتين، ولكنهما لا يتفقان. فحَسَب أپْيان كانت المسافة نحوا من 3000 اسْطاد (532 كيلومترا) وحَسَب نيبوس كانت نحوا من 300 ميل (نحو 450 كيلومترا)، الأمر الذي ينقلنا تقريبا نحو سطيف وقُسنطينة. وكلا الرقمين غير صحيح. أولاً، أي إنسان مهما بلغت قوته لا يستطيع قطع هذه المسافة على ظهر فرسه في 48 ساعة، خصوصا بعد يوم من المتاعب والانفعالات العنيفة، ثم إنه يستحيل قبول كون المعركة جرت بعيدا جدا عن زاما الواقعة على خمسة أيام من قرطاجة، وبعيدا جدا عن معسكرَيْ سِپْيون وحنّيبَعْل، كما يستحيل تفسير السبب الذي يكون دفع بالروماني

للذهاب إلى قلب نوميديا للبحث عن مسنيسا. إذ أنه حسب پوليب دعاه للقدوم إليه، وفعلا فإنه جاء والتحق به. ومن جهة أخرى فإن "سيدي عمرو الجديدي" واقع على 90 كيلومترا من هدروميت (سوسة) كما أن "الجمة" تقع على نحو 140 كيلومترا منها. وقطعُ هذه المسافة أو تلك في يومين وليلتين لا يكون مسيرة خارقة للعادة، لأن تيتْ ليڤ يقول نقلا عن پوليب دون شك أن حنّيبَعْل بعد ذلك بسبع سنين قطع على ظهر فرسه نحو خمسين فرسخا في مدة 13 أو 14 ساعة، إذن فكلام كل من أپْيان ونيبوس لا يفيدنا بشيء عن موقع المعركة.

وتاريخ المعركة مشكوك فيه أيضا كموقعها. إن دِيون كاسْيوس يتحدث عن كسوف كلي للشمس حدث قبل المعركة وسبب هلعا كبيرا للقرطاجيين. لكن الكسوف الذي حدث يوم 19 أكتوبر سنة 202 والذي يراد ربطه بهذا الخبر، لم يكن كسوفا كليا، بل كان ضعيفاً في شمال إفريقيا. فَدِيون Dion إنما روى لنا خرافة بينما رواية پوليب تساعدنا على الافتراض بأن الحملة لم تدم إلاّ بضعة أسابيع. فهو ينبئنا بأن سِپْيون في بداية هذه الحملة دعا مَسنِيسّا للحاق به في أسرع وقت، وأن المعركة وقعت تقريبا بمجرد وصول الملك. وعلى ما يظهر فإن سِپْيون كان غادر معسكره بالمرتفع عند بداية شهر أبريل، ويكون هزم حنّيبَعْل إذن عند نهاية الربيع. لكن السنة، حسب تيتْ ليڤ، كانت متقدمة جدا، إذ بعد معركة زاما بوقت قصير هزم الرومانيون الأمير النوميدي ڤِرْمينا Vermina، وذلك أثناء الأعياد الساتُرْنية Saturnales، أي في شهر ديسمبر بالتقويم الروماني الرسمي. وصحيح أن الأخبار المتعلقة بفرمينا مشكوك فيها كثيرا، ولكن يسوغ الاعتقاد بأن الصلح الذي طلبه القرطاجيون بعد اندحارهم لم يتم عقده إلا في سنة 201، بعد دخول القنصلين الجديدين لمنصبهما، غير أن هذا لا يفسر مطلقا أن انتصار سِپْيون قد حصل في

شهر مايو أو يونيو. فهل يجب إذن الرجوع بهذا الانتصار إلى الخريف ؟ إذ لا يعقل أن يكون حنّيبَعْل غادر هدروميت وقت اشتداد الحر. وبهذا تكون عدة أشهر قد مرت بين الدعوة الملحة التي وجهها سِپْيون إلى الملك مَسنيسّا وبين ورود هذا الخبر عليه، بين بداية عمليات النهب التي قام بها سِپْيون وبين قرار حنّيبَعْل بالزحف عليه. وأثناء هذا يكون القائد القرطاجي قد هاجم الرومانيين مستفيدا من الإبطاء الطويل لمَسنِيسّا في المجيء. ويبدو لنا أن إيضاح هذا الموضوع أمر يستحيل علينا.

ولقاء بوبْليوس مع حنّيبَعْل، هل هو واقع تاريخي ؟ لاشك أن الحقيقة حول هذا الموضوع كانت معروفة في بيت آل سِپْيون الذي كان پوليب كثير التردد عليه. ولكنه لا يبدي أي شك في حقيقة هذا الاتصال الشهير الذي تحدث عنه أيضا مؤرخون آخرون. أما الأسباب الحقيقية التي دفعت حنّيبَعْل لطلب الاجتماع بسِپْيون، فالغالب على الظن أنها كانت غير ما ذكره پوليب. إن اندحار القرطاجيين في إحدى المعارك – خصوصا وقد صاروا غير قادرين على تكوين جيش جديد – معناه فرض الخضوع للشروط التي ترى رومة فرضها عليهم، كما أن انتصارهم في إحدى المعارك لن يضمن لهم سوى تحرير مقاطعتهم الإفريقية. إذن أليس من الممكن محاولة الحصول على هذه النتيجة دون مخاطرات ودون خسائر ؟ ألا يمكن عقد معاهدة لا تحطم القوة العسكرية القرطاجية، وتدع الأمل في الأخذ بالثأر للمستقبل ؟ لاشك أن حنّيبَعْل اعتقد أن صيته الذائع من شأنه أن يرهب سِپْيون عن أن يتواجه معه ويعرض نفسه لانكسار لا يجبر (لأن تراجع الجيش الروماني في اتجاه الساحل يكون بالغ الصعوبة حينذاك). وكذلك بوبْليوس فإنه من جهته لم يكن متأكدا من انتصاره إلى حد يجعله يرفض حتى سماع مقترحات الصلح.

لم يأخذ القائدان معهما إلا بعض الفرسان الذين لم يلبثوا أن توقفوا، بحيث لم يحضر الاجتماع سوى ترجمانين اثنين. وأعلن حنّيبَعْل أن وطنه مستعد لأن يتخلى نهائيا لرومة عن أسبانيا وصقلية، وسردانية، وبقية الجزر الواقعة في إيطاليا وإفريقيا. وكانت هذه الشروط أقل شرا على القرطاجيين من التي سبق لهم قبولها، بل التي التمسوها من مجلس الشيوخ ومن الشعب الروماني قبل خرق الهدنة. والآن لم يعد لهم استعداد لتسليم أسطولهم الحربي ولا أن يؤدوا التعويض الفادح. إذن فهل يجب أن ينالوا الجائزة على غدرهم ؟ لقد رفض بوبْليوس هذه الدعوة، وأوجب أن تضع قرطاجة نفسها تحت رحمة رومة. وبهذا انتهى الاجتماع.

8

وفي فجر اليوم الموالي اصطف الجيشان في نظام المعركة. ويحتمل أن حنّيبَعْل كان معه ما يقرب من 50.000 رجل، وهو العدد الذي ذكره أبْيان. وكان حسب بوليب يضم نحوا من 12.000 من المرتزقة الليغوريين، والغاليين، وأهل الباليار، والموريين، الذين يحتمل أن أخاه ماگون جندهم جميعا ما بين سنة 206 إلى 203. أما مشاته فكان فيهم أيضا القرطاجيون والليبيون الخاضعون لقرطاجة، وكان قسم كبير من هاتين المجموعتين قد جنده حَسْدربَعْل بن جِسْكون، وأخيرا كان في المشاة الجيوش التي عاد بها من إيطاليا إلى إفريقيا، ومحاربون قدماء أسبانيون وأفارقة بقوا على قيد الحياة من الجيش الذي غادر قرطاجنّة Carthagène قبل هذا العهد بست عشرة سنة. كما كان فيهم الغاليون الذين جندوا في شتاء سنة 218-217، كما كان فيهم الإيطاليون أيضا.

وقد سبق أن رأينا أنه كان ينقصه الفرسان، وأنه حصل منهم على 2000 من أحد الرؤساء النوميديين الذي قادهم له حتى هدروميت. وكان معه أيضا فريق من الفرسان القرطاجيين، وربما حتى بعض النوميديين الآخرين الذين زوده بهم بعض الأمراء الحلفاء. أما الفِيلَة فكان معه منها أكثر من 80 حيوانا.

يقول پوليب إن مَسنِيسّا ورد على معسكر سپْيون، ومعه نحو 6000 من المشاة و4000 فارس. ويذكر أپْيان رئيساً نوميدياً آخر اسمه داكَماس Dacamas جعل رهن إشارة الرومانيين 600 فارس. ويؤكد أن بوبْليوس اجتمع له ما يقارب 23.000 من المشاة و1500 فارس روماني وإيطالي. والعدد الأخير ضعيف جدا، ثم إنه فوق ذلك لا يتفق مع قول آخر لنفس الكاتب، وذلك أن أپْيان يزعم أن سپِْيون بعدما جعل الخيالة النوميدية على الجناحين، وجعل الخيالة الإيطالية بالمؤخرة، أبقى بجانبه 2300 فارس من بينهم 300 وصفوا صراحة بأنهم إيطاليون.

وختاما فإن النصوص لا تشفي غليلنا فيما يخص أعداد الجيشين. ومع ذلك، فبناء على ما نعرفه عن المعركة، لا مجال للشك في أن سپِْيون قد كانت خيالته أكثر عددا من خيالة حنّيبعْل. وعلى النقيض من ذلك، كان المشاة القرطاجيون متفوقين عدداً، وإن كان هذا التفوق ربما بالغ فيه أپْيان.

ولدينا نصان مسهبان عن معركة زاما، نص پوليب الذي تابعه تيتْ ليف، ونص أپْيان، وهما مختلفان جدا. فأما نص أپْيان فهو مستقى من إخباري روماني نجهل اسمه. وهو نص مضطرب ومليء بما لا يمكن تصديقه. فالمبارزات بين بوبْليوس وحنّيبَعْل، وبين حنّيبعْل ومَسنِيسّا تذكرنا بمبارزات الأبطال في الألياذة. وهناك أفترض بأن ذلك من

مبتدعات الشاعر إنْيوس Ennius الذي تغنى في حولياته بانتصار سيِپْيون، كما يحتمل جدا أنه تمدح بها أيضا في تصنيف آخر له. وبهذا فإن الأسطورة البطولية التي ابتدعها شاعر على مذهب هوميروس سرعان ما أصبحت تاريخا. أما رواية پوليب فهي الوحيدة التي يجب اعتبارها. وإذا أمكننا أن نتأسف على أنها لا تعطينا التفاصيل الموجودة، فلا يوجد برهان على أنها اشتملت على أخطاء.

جعل حنّيبَعْل الفيلة على جبهة جيشه، ومن الخلف جعل المرتزقة، وأبعد منهم، على خط ثان، جعل الليبيين والقرطاجيين. وأخيرا، على مسافة أكثر من اسْطاد (نحو 200 متر) جعل قدماء الحرب الإيطالية، وجعل نفسه هو وسطهم. أما الخيالة فكونت الجناحين، بحيث على اليسار كان الحلفاء النوميديون، وعلى اليمين كان القرطاجيون.

ماذا كانت خطة حنّيبَعْل ؟ لا نستطيع بالطبع أن نقدّم حول هذا الموضوع سوى الافتراضات. إن النقص العددي في خيالته لم يكن ليسمح باستخدامها لمحاولة تطويق الجيش الروماني. وعلى ما يبدو، فإنه لم يكلفها إلا بدور ثانوي، هو قيامها بشغل الفرسان الأعداء. وإذا تغلب هؤلاء – كما هو متوقع – فيجب الانسحاب أمامهم، وجرّهم بعيدا عن المعركة طوال الوقت الذي يبدو ضروريا لسحق مشاة سيِپْيون، حتى إذا عاد هؤلاء الفرسان من بعد للهجوم، أمكن صد هجومهم دون عناء. إذن كان لابد من دحر المشاة الرومانيين بسرعة. غير أن حنّيبَعْل، علما منه بأن جيش مشاته نفسه كان متكونا من عناصر غير متجانسة، وذات كفاءة غير متساوية، لم يرد أن يرمي به في الملحمة دفعة واحدة. وحيث إن له ميزة التفوق العددي قرر أن يخوض عدة معارك متتابعة، وأن لا يدفع كل مرة إلا بقسم من قواته. وبهذا فإن المشاة الأعداء بعدما تختل

صفوفهم بحملة الفيلة، يهاجمهم المرتزقة الذين جعِلوا بالصف الأول، ويكون الأعداء قد أصابهم الإرهاق الشديد حين يضطرون لمقاومة الأفارقة الذين بالصف الثاني. أما الصف الثالث المتكون من أحسن جنوده، فإن حنّيبَعْل لن يدفع به إلا في نهاية العملية، للقضاء على الرومانيين المنهوكين. فحتى ذلك الحين، يبقى هذا الصف على مسافة ما إلى الخلف، مع استعداد على كل حال للتدخل إذا حاول بوبْليوس أن يرمي بخيالته أو بقسم من مشاته على جوانب الجيوش التي تخوض المعركة، ومع استعداده أيضا ليفهم هذه الجيوش أن من ورائها حرابا مسنونة تتلقاها إذا تولت للفرار.

ورتب سِپْيون جيشه الضخم من المشاة على ثلاثة صفوف هي : الأوائل (حملة الرماح) Hastati، والمثاني Principes، والمثالث Triarii. وجعل الفرجات المعتادة بين هذه الصفوف وبين السرايا Manipules التي تكوّن كل خط. ولكنه تخلى عن الترتيب المعتاد المعروف بالتخميس Quinconce، أي عوض أن يجعل سرايا الخط الثاني خلف فرجات الخط الأول، فإنه رتبها جميعا وراء خط الأوائل (الذي هو خط حَمَلَة الرماح). وبدون شك فإنه اتخذ نفس الترتيب لخط المثالث، ولو أن پوليب لم يذكر ذلك. وهكذا فتحت ممرات كانت تنزل من الجبهة عموديا على الدربين اللذين يفصلان بين الخطوط الثلاثية. وكان القصد من هذا التنظيم هو اتقاء هجوم الفيلة. وفي فرجات الخط الاول، وقف جنود بسلاح خفيف. وهم الذين عليهم أن يبدأوا المعركة. فإذا أرجعتهم الفيلة إلى الوراء، فإن أشدهم خفة يسلكون الممرات في تراجعهم السريع ويتحولون إلى الخلف. أما الذين تزحمهم الحيوانات عن قرب فيلتجؤون إلى يمين ويسار الدربين من الفرجات المفتوحة بين الخطوط. وعلى الجناح الأيسر وقف لايليوس Laelius ومعه الخيالة الإيطالية. بينما

الجناح الأيمن كان عليه مسنيسا مع جميع النوميديين الذين كانوا تحت إمرته، (فيكون إذن مع جميع مشاته وخيالته إذا لم يخطء بوليب).

ولاشك أن خطة سِپْيون قد أسندت للخيالة مهمة مزدوجة أحسنت القيام بها. وهي أولاً : تعرية جناحي العدو، إما بالقضاء في عين المكان على الفرسان الذين يكونون هذين الجناحين، وإما بطردهم ومتابعتهم إلى بعيد حتى يصيروا غير قادرين على تدخل جديد. وثانياً : الانقضاض بعد ذلك على جوانب جيش مشاة حنّيبَعْل ومؤخراته. وأثناء ذلك لابد أن يصمد المشاة الرومانيون في وجه قوات تَفُوقُهم. هذا ولسنا على كامل الاستعداد للتصديق بأن سِپْيون فكر في العمل مرة جديدة بالمناورة المزدوجة الدوارة التي نجحت له في السهول الكبرى. وهي الدفع بالمثاني والمثالث على يمين ويسار الأوائل، والرمي بها على جانبي المشاة القرطاجيين. فهو لم يكن لديه العدد الكثير من المشات لمقاومة الهجمات الأمامية التي سيلاقيها.

بعدما ألقى القادة خُطَب التشجيع على الجيوش، أو كلفوا مساعديهم بها، بدئت المعركة بمناوشات بين الفرسان النوميديين من كلا الجيشين. ثم أمر حنّيبَعْل أن تتقدم الفيلة. ولكن هذه ذعرت من ضجيج الأبواق التي تعالت أصواتها من كل جهة، فتراجع بعض منها إلى الوراء وانقض على النوميديين المكوّنين للجناح الأيسر البونيقي. فبادر مَسنِيسّا وانتهز فرصة الفوضى التي أحدثتها الحيوانات، وهاجم هؤلاء النوميديين هجوما سبب فرارهم. أما بقية الفيلة فإنها وقعت على الجنود الخفاف Vélites، وأحدثت فيهم ضررا كبيراً أول الأمر، مع أنها تضررت كثيرا هي أيضا. ثم ارتاعت بدورها، فاندفع بعضها في الدربين اللذين فتحهما سِپْيون، ومرت بين الصفوف الرومانية بسلام. والبعض

الآخر منها فر إلى اليمين متخنا بالجراح التي أحدثتها فيها سهام الفرسان، وغادرت ميدان المعركة، وكما فعل مَسنيسّا، فإن لايليوس انتهز الفوضى التي أحدثتها وانقض على الخيالة القرطاجية التي أرخت العنان مولية، فانطلق هو والملك يطاردان الفارين بقوة.

الغالب على الظن أن حنّيبَعْل كان ينتظر هزيمة جناحيه. لكن نهاية هجوم الفلية كانت إخفاقا له بالطبع، لأن الصفوف الرومانية بقيت سالمة. وتقدم مشاة الجيشين بالخطو بعض نحو بعض، باستثناء قدماء الحرب الإيطالية الذين تركهم حنّيبَعْل في موقعهم. فاشتبك المرتزقة مع حملة الرماح (الأوائل). فأنزل المرتزقة - وهم أصحاب جرأة وخفة - ضربات قاسية بخصومهم. غير أن هؤلاء الخصوم كانوا يتقدمون إلى الأمام بفضل نظامهم الحسن وتفوق سلاحهم، كما كانوا متحمسين بالتشجيعات التي يتلقونها ممن خلفهم. بينما القرطاجيون والليبيون الذين بالصف الثاني، لم يكونوا يقتربون من المرتزقة أو يساعدونهم لخوفهم كما قال پوليب. ولكن هذا غير صحيح، لأنهم بعد ذلك بقليل أظهروا شجاعتهم، أو بأمر من حنّيبَعْل إذا سلمنا أنه أراد إنهاك مشاة سِپْيون بإرغامهم على خوض صراع متتابع، فقرر لذلك أن يضحي قبل كل شيء بصفه الأول. وأخيرا تقهقر بالمرتزقة، وظنوا أن أصحابهم خانوهم فاشتبكوا في العراك مع جيوش الصف الثاني. وقد اضطر القرطاجيون والليبيون أيضا لمحاربتهم، بينما الرومانيون مستمرون في تقدمهم. فواجهوا نوعين من الأعداء، وقتلوا منهم عددا كبيرا، ثم أشاعوا الفوضى في صفوف حملة الرماح (الأوائل Hastati) الرومانيين. ولحسن حظ هؤلاء فإن ضباط المثاني Principes أبصروا ما يجري وأمروا رجالهم بالتقدم لمساندتهم. وهكذا فإن معظم المرتزقة والقرطاجيين أبيدوا إما بتقاتلهم فيما بينهم، وإما بسقوطهم تحت ضربات الرامحين.

ويبدو - كما سنوضح ذلك - أن پوليب بالغ حين عبر بكلمة "**معظم**"، وإن كان الصحيح هو أن خسائر الصفين الأولين قد كانت مرتفعة جدا. ولم يأذن حنّيبَعْل للناجين من المذبحة بالدخول في صفه الثالث، بل أمر أشداءه بإبعادهم. فتنحوا إلى المجالات المكشوفة التي كانت تمتد على يمين ويسار هذا الخط.

كان السهل مغطى بالقتلى والجرحى، وكانت هذه الأجسام المتراكمة، والمشتبكة مع الأسلحة، وبِرَك الدم التي تنزلق فيها الأرجل، كان كل ذلك يعوق الجيوش عن التقدم محتفظة بصفوفها. أما سِپْيون فإنه، بعدما أمر بنقل جرحاه إلى الخلف، أمر بنفخ الأبواق ليرجع الرامحون Hastati الذين كانوا يطاردون الفارين، ثم جعلهم أمام المجال الذي جرى فيه القتال، أي أمام موسطة العدو، ثم أمر المثاني والمثالث بتخطي الجثث والذهاب للوقوف بالجناحين، مع رص الصفوف بهما، وأن يكونوا عند جانب الرامحين. وبهذا كون المشاة صفا واحدا متراصا.

حدثت إذن فترة توقف. ولم يكن بوبْليوس يستعجل الانتصار، إذ كان من مصلحته انتظار عودة خيالته التي ستأخذ الجيش البونيقي من الخلف. وعلى النقيض، فإن الخوف من هذه الخيالة بعث لابد في حنّيبَعْل أمل الحصول في أسرع وقت على النصر الحاسم. وإذا كان هو أيضا قد أوقف هجومه بعضا من الوقت، فلأنه على ما يظهر رأى من الضروري إعادة تنظيم جيشه بعد انهزام صفيه الأولين. ولا نجد حول هذا الموضوع أي خبر عند پوليب. ولكنه يقول إن القائدين كان لهما في المرحلة الأولى من المعركة نفس العدد تقريبا من الجنود. ومهما كان التفوق العددي لمشاة حنّيبَعْل في بداية العملية، فيصعب علينا التصديق

بأن خطه الثالث وحده قد كان عدد الجنود به يعادل جميع مشاة الفيالق عند سِپْيون. وكنتيجة لهذا كان لايزال لديه مقاتلون آخرون. ويسوغ الافتراض بأنه استطاع أن يمنع من الفرار جنود الخطين الأولين الذين بقوا على قيد الحياة، وهم انسحبوا كما رأينا من قبل عن يمين ويسار جنود إيطاليا، وأوقفهم إلى جانب جيوشه. ولربما أن بوبْليوس أعاد تنظيم جبهته ليجيب بهذا التنظيم على الترتيب الجديد الذي اتخذه خصمه. وبهذا يكون الجيشان اقتصرا على خطين لهما نفس المدى.

فشلت خطة حنّيبَعْل، لأن المشاة الرومانيين قاوموا الهجمات التي كان عليها أن تحطمهم قبل أن يقضي عليهم نهائيا قدماء القائد البَرْكي. وقد كانت خسارتهم قليلة، حتى إن المثالث Triarii لم تتدخل. أما هذه المعركة التي ستبتدئ، وتصطدم فيها جبهة بجبهة، فإن الحظ الوحيد لسلامة حنّيبَعْل كان هو أن يخرق بسرعة خط العدو بواسطة جنوده القدماء، بما لهم من شجاعة وسلاح متين. وهم حتى الآن لم يخوضوا الملحمة.

كان الإقدام متساويا في كلا الطرفين. وكان المقاتلون يسقطون ولا يتراجعون، وبقيت النتيجة مشكوكا فيها. وفجأة عاد لايليوس ومَسنيِسّا من عملية المتابعة، وارتميا على مؤخرات الجيش البونيقي، وكان ذلك نهاية للدرامة الكبيرة. فأبيد معظم جنود حنّيبَعْل في عين المكان. أما الذين فروا خلال السهل، فقليل منهم نجوا من الخيالة. ولم يخسر الرومانيون حسب قول پوليب سوى 1500 رجل. ويعطينا أپْيان، خلافا لعادته، رقما يحتمل أنه لا يبعد عن الحقيقة، وهو 2500، ويضيف أن مَسنِيسّا خسر أكثر من ذلك.

وعاد بوبْليوس إلى معسكره بعدما نهب المعسكر **القرطاجي**. أما حنّيبَعْل فانطلق مسرعا إلى هردوميت، صحبة بعض الفرسان، ولم يتوقف حتى بلغها.

ويعترف له پوليب بأنه عمل كل ما استطاع عمله بالوسائل التي كانت لديه. ثم يضيف قوله : «لكن، هناك أيام يطيب فيها للصدفة أن تعاكس إرادات ذوي الحصافة، وهناك أيضا أيام يلتقي فيها، كما يقول المثل، الرجل المقدام برجل آخر أكثر إقداما منه. وحنّيبِعْل قد عرف هذا الاختبار». إن التنظيم الذي اتخذه كان تنظيما محبوكا. بحيث إنه، من جيش غير منسجم، قد صنع بعزيمته ثلاث جيوش، وحدد لكل واحد منها المهمة التي كان يبدو صالحا لها، ورتبها بكيفية جعلت الجيوش المشتبكة مرغمة على القيام بواجبها خوفا من التي تتبعها من الخلف. ولكن الانتصار برر خطة سِپْيون. فهو قد عرف كيف يحسن تجنب هجوم الفيلة، ويحفظ خطيه الثاني والثالث سالمين إلى الوقت الذي صار فيه تدخلهما ضروريا، وفهم أن التوفيق مرهون على الخصوص بخيالته، فاختار لها أنسب أرض لتخوض فيها المعركة، وهي السهل الفسيح. أما جنود الفيالق الرومانية Légionnaires فقد خاضوا صراعا بالغ العنف، وذلك بفضل تماسكهم القوي الذي لا يتنافى مع خفة الحركة، وبفضل شجاعتهم ومتانة سلاحهم. وباطمئنانهم إلى رفقائهم وإلى قائدهم توفر لديهم ما كان ينقص خصومهم، وهو عزمهم على العمل لتنتصر قضية عزيزة على نفوس الجميع. بينما القدماء الذين جاء بهم حنّيبَعْل من إيطاليا، لابد أنهم كانوا لا يشعرون إلا بالتنقيص للجنود الشبان الذين كانوا هم المكلفين بمنعهم من الفرار. أما المرتزقة فظنوا أن القرطاجيين خانوهم، فاستداروا إليهم بسيوفهم ولم يرضخوا لدور الضحية الذي ربما خصهم به، وبهدوء نفس قائدهم. وكان حنّيبَعْل قد ظن أن الخشية يمكن

أن تحل محل الثقة المتبادلة، لكن الأحداث برهنت على أنه أخطأ. فانهار ما صممه. وحيث إنه لم يستطع في الوقت المناسب أن يهزم مشاة أعدائه، فقد هزمته خيالتهم. أما مَسنيسّا الذي كان رجاله النوميديون على ما يحتمل أكثر بكثير من الفرسان الإيطاليين فقد كان له نصيب حاسم في اندحاره، إذ في هذا اليوم أدى عن سعة لروما دينها عليه. ولقد وجد سِپْيون في إفريقيا حليفا قادرا على أن يبذل له مساعدة ذات فعالية حقيقية، فكان بذلك أسعد حظا من القائد البركي في إيطاليا.

9

بادر بوبْليوس بالعودة إلى المعسكر المجاور لأوتيكا، وأرسل لايليوس إلى روما مبشرا بالنصر.

ولربما أن مجلس الشيوخ لما علم بنشوب الحرب من جديد، قرر أن يبعث بالنجدات إلى إفريقيا. وحسب قول تيتْ ليڤ، فإن القنصل تيبرْيوس كْلوديوس نيرو Ti. Claudius Nero كلف بالذهاب إليها على رأس 50 سفينة خماسية. فطال جدا أمد استعداده، ولما ركب البحر اضطر لمقاومة إعصار شديد عند ساحل أتروريا. فلما ساعدته الأحوال البحرية عرج بالتتابع على جزيرة ألب Elbe، وكرسيكا وسردانية. ثم حدث هياج بحري جديد، سبب له عطبا كبيرا في سفنه، فاضطر من أجل إصلاحها للتوقف في ميناء كارليس Caralis (هي اليوم كاڭلْياري Cagliari)، حيث استوقفه فصل الشتاء. وهكذا انتهت مدته في القنصلية، وحيث إن ولايته لم يمدد فيها، فإنه عاد بالأسطول إلى إيطاليا. ويعطي زوناراس Zonaras عن هذه الحملة التي أجهضت معلومات لا تتفق بدقة مع ما ذكره تيتْ ليڤ عنها [77]. ويستحيل علينا تبين ما هو صحيح في هذه الروايات.

على أن أسطولا آخر من 50 قادسا تحت قيادة البريطور الأسبق بوبْليوس لنْتولوس P. Lentulus قد وصل إلى معسكر المرتفع قبل أن يصل إليه سِپْيون، وكان هذا الأسطول يصحب 100 من سفن النقل الشحونة بالمؤن.

تجمعت لبوبْليوس قوات بحرية كبيرة، قوامها 50 سفينة حربية هي التي ورد بها عليه لنتولوس، مع 30 كان كنايوس أُكْتافيوس Cn. Octavius قد جاءه بها عند بداية الربيع، وأخيرا 40 سفينة أخرى كانت لديه منذ مغادرته لصقلية. فاستعمل كل ذلك في مظاهرة تهدف إلى الزيادة في إرهاب القرطاجيين الذين أنهكتهم كارثة زاما، وهي أن جميع الفيالق زحفت على قرطاجة بقيادة أكتافيوس، بينما اتجه هو نحو هذه المدينة على رأس أسطوله بكامله.

كان حنّيبَعْل بقرطاجة، لأنه لم يمكث إلا قليلا بهدروميت. وأشار بطلب الصلح. فخرجت سفينة تكسوها أغصان الزيتون وشرائط الثوب وتقدمت لمقابلة السفن الرومانية. وكان على ظهرها عشرة موفدين اختيروا من بين كبراء المواطنين، وكانوا يلوحون بإشارات التوسل ويناشدون الغالب رأفته. فكان الجواب أن صدر إليهم الأمر بالذهاب إلى تونس التي سيذهب بوبْليوس ليعسكر بها. ثم توقف سِپْيون أمام قرطاجة لا ليرى، لكن ليعرض نفسه على الأنظار. وبعد ذلك عاد إلى المرتفع، حيث استقدم أكتافيوس أيضا. ثم ذهب ليحل في تونس بالموقع الذي كان مقيما به من قبل.

إن تيتْ ليف وحده يحكي أن سِپْيون وصله أثناء توجهه لتونس خبر انتصار كبير أحرزت عليه جيوشه. وذلك أن فرمينا ابن سيفَكْس كان في طريقه لإغاثة القرطاجيين، وكان معه من الفرسان أكثر مما يصحبه من

المشاة، فهاجمتهم في اليوم الأول من الأعياد الساترنية Saturnales جميع الخيالة الرومانية مع قسم من مشاتها. وقد أحيط بالنوميديين وهزموا دون عناء، ولم يستطع معظمهم الفرار. وقتل منهم 1500 رجل، وأسر 1200، كما غنم 1500 فرس نوميدي مع 72 من الألوية. أما الملك فقد استطاع الفرار صحبة عدد قليل من رجاله.

إن ذكر الأعياد الساترنية التي كانت تقع يوم 17 ديسمبر بالتقويم الرسمي، يبرهن على أن تيتْ ليڤ استقى معلوماته هذه من أحد الأخباريين الرومانيين لا من پوليب، كما أن العدد الضخم من القتلى والألوية التي انتزعت من الأعداء، كلها تفاصيل تليق بفاليريوس أنتياس، وهو كاتب غير أهل للثقة، وربما أن هذا المشهد كله ليس من التاريخ في شيء.

وحسب زوناراس، فإن فرمينا وقع أسره سنة 203، ونقل إلى إيطاليا مع سيفَكْس وبعض الرؤساء الأهالي، وأن الرومانيين قد يكونون أعطوه من بعد مملكة أبيه وأعادوا إليه النوميديين الذين كانوا لديهم في الاعتقال. ويؤكد أپْيان من جهته قائلا إن أحد ابني سيفَكْس قد أسر في نفس الوقت مع هذا الملك وأرسل به إلى سيبيون، ولكن لا يبدوا أن أپْيان يعني فرمينا. وفي مكان آخر يقول إن هذا الأمير كان في بداية سنة 202 يملك معظم أراضي أبيه. وقد رأينا من قبل، وحسب نفس الكاتب أن فرمينا يكون أتى والتحق بحنّيبَعْل في هدروميت، الأمر الذي لا يبدو ممكنا تصديقه. ويذكره أپْيان مرة أخرى بعد معركة زاما بأنه الأمير الذي كانت مساعدته للقرطاجيين ربما تمكنهم من متابعة الحرب. ويرد ذكر فرمينا مرة أخرى عند تيتْ ليڤ سنة 200، فقد بعث آنذاك السفراء إلى مجلس الشيوخ ليعتذر عن هفوته التي تعزى إلى شبابه، ويلتمس أن

ينال لقب ملك، وحليف، وصديق للشعب الروماني. فأجيب بأن عليه أن يطلب الصلح قبل التطلع إلى التشريفات التي تجازي الخدمات المقدمة إلى الجمهورية، وفوق هذا فإن مبعوثين عن مجلس الشيوخ سيفدون قريبا وسيُملون عليه شروط هذا الصلح. ويضيف تيتْ ليڤ أن المبعوثين لما وصلوا، ذهب فرمينا لاستقبالهم بحدود أراضيه، وأنه رضخ طوعا لشروطهم، وبعث إلى رومة سفارة جديدة لتوقيع المعاهدة.

لاشك أن فرمينا قد كان ملكا لإفريقيا، كما تبرهن على ذلك نقود كتب عليها باللغة البونيقية : (فرمينا الملك Verminad Roi) وهي تشبه نقود سيفَكْس [78]. وقد افترط البعض أنها ضربت قبل سقوط سيفَكْس الذي قد يكون أشرك معه ابنه وهو لا يزال حدثا صغيرا. إن هذا الافتراض يمكن قبوله، ولكنه لا يبدو لنا ضروريا. ومهما يكن قول پوليب فمن المشكوك فيه أن يكون مَسنِيسّا خلال الأشهر القليلة التي انصرمت بين أسر سيفَكْس ومعركة زاما قد استطاع الاستيلاء على مملكة الماسيسيليين كلها. ولربما أن فرمينا الذي نجا من نكبة أبيه احتفظ بقسم من المملكة، هو غرب الجزائر. فلابد إذن من رفض أقوال زوناراس. وعلاوة على ذلك لا نفهم لماذا قد يعامل الرومانيون فرمينا معاملة حسنة جدا، ويأذنون له بالذهاب لتولي الملك في نوميديا، في حين أنهم كانوا يأذنون لمَسنِيسّا، بل ويساعدونه في الاستيلاء على مملكة سيفَكْس. إن الرواية الضعيفة التي نجدها عند زوناراس مختصر دِيون كاسْيوس، يمكن تفسيرها بأسر واحد من ابني سيفَكْس، وأن أحد الكتاب ظن خطأ أن المأسور هو فرمينا، ولما علم أن هذا الأخير قد كان من بعد ملكا على الماسيسيليين، اختلق على ما يحتمل خرافة رجوعه على يد الرومانيين. ومن ناحية أخرى إذا صح أن فرمينا قد خلف أباه على الملك، فيصعب جدا التصديق بأن الأراضي الخاضعة لمَسنِيسّا قد

اخترقها فرمينا مرتين دون أن ينال جزاءه في المرتين معا. أولاهما عند مجيئه بجيش لمساعدة القرطاجيين والثانية حينما عاد فارا. والأكثر صعوبة هو قبول كون الرومانيين قد غفروا له سلوكه، وأنهم قد ضمنوا له ما بقي من مملكة الماسيسيليين بمعاهدة قطعية ضد أطماع مَسنِيسّا. فنحن نرى إذن كيف أن المعلومات المتعلقة بفرمينا لا تبعث على اليقين. وتيتْ ليڤ لا يبين أين جرت المعركة، ولماذا يكون سِپْيون اتجه إلى قرطاجة برغم اقتراب فرمينا، ولماذا اكتفى بأن يبعث ضده بقسم من جيوشه، ولم يقل إن مَسنِيسّا تدخل في هذه المعركة، مع أنه كان من الطبيعي مواجهة جيوش فرمينا بجيوش ملك الماسيليين [79].

كان بوبْليوس بتونس عندما وفد عليه ثلاثون مبعوثا قرطاجيا. وكان مظهرهم ولغتهم أكثر تواضعا مما كانا عليه في السنة السالفة، ولكن عوضا عن الشفقة، فإنهم لم يحركوا في الرومانيين سوى الشعور بالغضب والإهانة. ومع ذلك، فأثناء الاجتماع الذي عقده القائد اتفق الجميع على التفاوض. وقد زعم البعض، حسبما يرويه تيتْ ليڤ، أن أحد الأسباب التي دفعت بسِپْيون لاتخاذ قرار التفاوض هو خشيته من أن يستعاض عنه في قيادة الجيش وبهذا يفقد شرف إنهائه لهذه الحرب. ولكنه لم يكن يجهل أن الشعب في رومة وأكثرية أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يخلصون له كامل الإخلاص. وأنه إذا أمكن فيما مضى أن يشعر ببعض القلق، فإن الانتصار الحاسم الذي ناله من شأنه أن يطمئنه. أما الحقيقة فإن تيتْ ليڤ كان يعرفها، وهي أن بوبْليوس وحاشيته كانوا يعلمون مقدار الصعوبة وطول أمد الحصار لمدينة قوية جدا بموقعها وأسوارها. والرومانيون كانوا يريدون السلام أكثر من أي وقت مضى. وحيث إن الشروط التي يستطيعون فرضها عليها ستجعلها عزلاء، فماذا سيفيهم تدميرها ؟ ولكي يمنعوا الغير من الاستيلاء على هذا الموقع

الممتاز، يكون لابد لهم من الإقامة بإفريقيا، ولابد لهم من أن ينشئوا بها لأنفسهم قرطاجة أخرى جديدة. وذلك أمر لم يكن يشغل بالهم آنذاك [80].

أعلن سِپْيون للمبعوثين في خطاب مقتضب أن وطنهم الغادر لا يستحق أي رحمة. وأنهم وقد وقعوا الآن تحت طائلة أعدائهم، فعليهم أن ينتظروا منه أشد معاملة، ومع ذلك فإن رومة ستبدي عفوا وكرما. وبعد هذه المقدمة سرد شروطه، فكانت عبارة عن تنازلات تفرض على المغلوبين إلزامات مفروضة عليهم، وقد لخصها پوليب كما يلي : «إن القرطاجيين يكون لهم في ليبيا المدن التي كانت لهم قبل أن يشهروا الحرب الأخيرة على الرومانيين، وكذلك المقاطعة التي كانوا يملكونها فيما مضى، وكذلك ماشيتهم وعبيدهم وغير ذلك من أملاكهم. وابتداء من اليوم لن يلحقهم أي ضرر، وسيعيشون حسب قوانينهم وأعرافهم ولن يخضعوا لأية حامية... ولكنهم يعيدون إلى الرومانيين جميع ما انتزعوه منهم بغير حق أثناء الهدنة. يعيدون الأسرى والعبيد الآبقين من غير تحديد للزمن، ويسلمون جميع سفنهم الحربية، باستثناء عشر ثلاثيات، ويسلمون جميع فيلتهم. لا يحاربون أي شعب خارج ليبيا، أما في ليبيا فلا يحاربون إلا بإذن من الرومانيين، وعليهم أن يردّوا لمَسينيسّا المساكن والأراضي والمدن وجميع ما كان ملكا لهذا الملك أو لأسلافه، داخل الحدود التي ستبين لهم. وأن يزوّدوا الجيش بالقمح مدة ثلاثة أشهر، ويؤدّوا له الجراية أيضا إلى أن يأتي من رومة الجواب المتعلق بهذه المعاهدة، ويؤدوا 10.000 تالان أبويقي من الفضة في خمسين سنة، بمقدار 200 تالان سنويا. وعلى وجه الضمانة عليهم أن يسلّموا مائة رهينة يتخيّرهم القائد الروماني من بين الشبان الذين لا تقل أعمارهم عن أربع عشرة سنة، ولا تزيد عن ثلاثين».

زاد سِپْيون من الشدة في بعض شروط المعاهدة المبرمة قبل خرق الهدنة، بحيث أن التعويض المالي ضوعف بمثله، وعدد القوادس المسموح بها للقرطاجيين أنقص منه النصف. أما منع أي حرب إلا بإذن رومة، فلربما كان شرطا جديدا.

ويذكر أپْيان أيضا الشروط التي فرضها سِپْيون. فأما ما يتعلق منها بالسفن وبالفيلة وبإصلاح الخسائر الحادثة أثناء الهدنة وبالأسرى، والتعويض المالي والرهائن، وبالقمح والجراية اللذين يؤديان للجيش، فكله متفق تقريبا مع ما ذكره پوليب. أما الشرط المتعلق بما يلزم القرطاجيين، الذين أصبحوا حلفاء لرومة، أن يقوموا به تجاهها. فيسوغ الاعتقاد بأنه ورد في المعاهدة فعلا، ولو أن پوليب لم يشر إليه. وعلى النقيض من هذا، يحتمل أن شرطا آخر مختلفا، وهو الذي يقول : «في أثناء الستين يوما التي تتلو إبرام الصلح، يجب على ماگون أن يخلي ليغوريا». فقد رأينا من قبل، حسب خبر صحيح لاشك، أن أخا حنّيبَعْل كان قد دعي للعودة من إيطاليا سنة 203 وأنه مات أثناء عبوره البحر.

أما عن المقاطعة القرطاجية بإفريقيا، فإن سِپْيون يكون حسب أپْيان عبَّر كما يلي، «في الستين يوما التي تتلو إبرام الصلح،... يلزمكم أن تسحبوا حامياتكم من جميع المدن التي هي خارج الحفير الفينيقي، وأن تعيدوا جميع الرهائن الذين هم في قبضتكم والذين هم أصلا من هذه المدن... تحتفظون بمدينتكم وبالمقاطعة التي كنتم تملكونها إلى الحفير الفينيقي عندما نزلت بليبيا». ولا يعطي أپْيان أي إيضاح عما يجب أن يعاد إلى مَسنِيسّا.

وكما سبق لنا أن أوضحنا. لا يوجد برهان وجيه لادعاء أن "الحفير الفينيقي" هو نفسه الخندق الذي حفر سنة 146ق.م لتحديد المقاطعة

الرومانية بإفريقيا، وأن الشرط المتعلق بهذا الحفير يعزى لأحد المزيفين نتيجة لذلك، بل لدينا البرهان على أن هذا الحفير كان موجودا في عهد السيطرة القرطاجية، في عهد حنّيبَعْل على ما يحتمل. ومع ذلك فهناك صعوبة في أن نقول لماذا ذكرت الشروط المتعلقة بإفريقيا بألفاظ مختلفة جدا بين پوليب وأپْيان، وفي حالة ما إذا قبلنا أن الصيغ الصحيحة هي التي احتفظ لنا بها في پوليب، لماذا نجد أپْيان (أي الكاتب الروماني الذي اعتمد عليه) قد اقتحم هنا ذكر الحفير الفينيقي. فلربما أنه لا يروي لنا النص الحقيقي للمعاهدة، كما يؤكد ذلك، وإنما يورد تأويلا ناقصا لهذا النص. إن المغلوبين يحتفظون حسب پوليب بما كان لهم في إفريقيا عند بداية الحرب. فيمكن الافتراض بأن الخندق الذي حفر قبل سنة 218 بقليل، كان في هذه السنة هو الحد الرسمي لمنطقة شاسعة تملكها قرطاجة، ويكون هذا الحد منطلق نقطة نجهلها على الساحل الشمالي لبلاد البربر (إما بالشمال الشرقي للقطر الجزائري، وإما بالشمال الغربي للقطر التونسي)، إلى نقطة أخرى واقعة على الساحل التونسي الشرقي (نحو شمال سِدْرة الصغرى) ؟ ولكن خارج المنطقة التي يحدها الحفير كانت لقرطاجة ممتلكات في إفريقيا عند بداية حرب حنّيبعل، وهي المستعمرات التي تناثرت على السواحل الجزائرية والمغربية وكذلك ناحية سدْرَة المعروفة بمنطقة الأمبوريات les Empories. وفيما يتعلق بهذه الممتلكات التي لم تكن حدودها الترابية مخططة بوضوح، يبدو أن سِپْيون قرر القيام ببحث قبل إبرام العقد نهائيا. وبهذا يمكن تفسير الممتلكات التي نقرأها عند پوليب، وهي : «... بداخل الحدود التي ستبين لهم». ولعل نتيجة البحث نجد عنها شهادة في تيتْ ليڤ. فعندما استولى مَسنيسّا بعد ذلك ببضع سنين على منطقة الأمبوريات، أكد القرطاجيون، حسب قول المؤرخ اللاتاني، أن هذه المنطقة كانت داخلة في الحدود

التي جعلها سِپْيون ضمن سيطرتهم الترابية. وبهذا فإن سعة ممتلكات البونيقيين في سنة 218 تكون قد تحددت إما بالحجة المادية التي هي الحفير الفينيقي، وإما بتقدير بوبْليوس. فاضطرت قرطاجة للتخلي عن جميع المدن وعن جميع الأراضي الواقعة إلى الخلف، واستطاع الملك النوميدي الاستيلاء عليها فورا، غير أن المعاهدة أذنَت زيادة على هذا لمَسنِيسّا بأن يطالب، وداخل هذه الأراضي، بما كانَ على ملك أسلافه قبل سنة 218، ولربما أيضا بما كان گايا Gaïa أو مَسنِيسّا نفسه منذ ذلك العهد قد انتزعه من الجمهورية، ثم استرجعته هذه من بعد.

عاد المبعوثون من تونس إلى قرطاجة، حيث انعقد اجتماع لمجلس الشيوخ. ونعلم كيف أن حنّيبَعْل أسكت بشدة الرجل الذي شرع في هذا الاجتماع يتكلم ضد المعاهدة، فقد قبلت إذن شروط سِپْيون دون مناقشة، وفي الحال توجه وفد جديد إلى تونس لإخباره بذلك.

أرجع القرطاجيون سفن النقل التي كانوا قد استولوا عليها، كما أدوا عن حمولة هذه السفن تعويضا حددته تقديرات المتصرفين الماليين Questeurs، وعقدت هدنة لمدة ثلاثة أشهر [81]. وتقرر أن قرطاجة خلال هذه المدة لا تبعث بالموفدين إلا إلى رومة، وإذا ورد عليها موفدون فإنها تعرف سِپْيون بمن بعثهم إليها وبموضوع مهمتهم. وبالفعل فإن هؤلاء السفراء الذين اختيروا من بين أهم شخصيات المدينة، قد ذهبوا صحبة أخَيْ بوبْليوس واثنين من مساعديه.

وعند وصولهم طلبوا الاتصال بمجلس الشيوخ، فأجيبوا بأن المقالة سيسمح لهم بها القنصلان الجديدان. وكانت عوارض مختلفة قد أخرت الانتخابات، حتى إنه في منتصف شهر مارس، وهو التاريخ الذي تنتهي فيه سلطة الولاة، لم يكن الخلفان قد وقع تعيينهما. أخيرا اجتمعت

الهيآت Comices، وكان أحد القنصلين المنتخبين هو كْنايوس كُرْنيليوس لِنْتولوس Cn.C. Lentulus، الذي كان له أمل قوي، إذا صدقنا تيتْ ليڤ وأپْيان، في أن يُعيَّن للذهاب إلى إفريقيا كي ينال فخار إنهاء الحرب، وقد يكون حصل من مجلس الشيوخ على القرارات التي ربما جعلته يؤمل بلوغ أهدافه. ولكن هذه الأقوال يحسن التحرز منها، ومن جميع ما يتصل بالمناورات السياسية المزعومة ضد سِپْيون. وعلى كل حال فإن هذا الأخير قد وقع تمديد أجل قيادته.

مَثَلُ السفراء أمام مجلس الشيوخ، وتكلموا بتواضع كبير. وكان خطاب حَسْدربَعْل، الملقب بالجَدْي، هو الذي أدهش المجلس على الخصوص. ذلك أن هذا الشخص كان مع حنّون رئيسا للحزب المناوئ للبَرْكيين. فكان إذن أهلا لأن يلقي بالأخطاء التي لم يكن ينكرها على ظهر الذين كان دائما يصارعهم، كما كان أهلا لأن يرجو الغالبين الإبقاء على وطنه.

كانت جميع الأفكار، على قول تيتْ ليڤ، تميل إلى الصلح، ولكن القنصل كْنايوس لِنْتولوس تعرض على التصويت لاتخاذ القرار. غير أن اثنين من النقباء الشعبيين Tribuns عَرَضَا القضية على الشعب، فتقرر بالإجماع أن على مجلس الشيوخ أن يقبل هذا الصلح، وأن سِپْيون يكلف بإبرامه، ثم بإرجاع جيش إفريقيا إلى إيطاليا. على أن المتأكد هو أن مجلس الشيوخ كان يريد تصفية القضية، مثله في ذلك مثل الشعب. وقد كان رجال السياسة يتوقعون أن على رومة أن تخوض في المستقبل العاجل – ورغما عن عيائها – حربا جديدة ضد فيلِب المقْدوني Philippe de Macédoine. ولذلك لابد أن تكون حرة اليدين.

وعيّن مجلس الشيوخ عشرة متندبين لمساعدة سِپيون، أما السفراء فعادوا إلى إفريقيا. وأبرمت المعاهدة وفقا للشروط المحددة في اجتماع تونس.

سلمت قرطاجة سفنها الحربية، وفِيَلَتَها، والهاربين من الجيش والعبيد الآبقين والأسرى. وكان عدد هؤلاء الأخيرين 4000، وكان يوجد من بينهم عضو من مجلس الشيوخ هو كِنْتوس تيرِنْتيوس كولْيو Q. Terentius Culleo الذي أعلن بعد ذلك اعترافه لمحرره، إذ سار خلف عربة تمجيد بوبْليوس، وعلى رأسه طاقية المعتقين. أما السفن فقد جيء بها إلى عرض البحر وأشعلت فيها النيران، والقرطاجيون ينظرون، بينما أهْدِيَ إلى مَسنيسّا بعض الفيلة، وأرسلت الأخرى إلى رومة. وأنزل بالهاربين من الجيش عقاب رهيب، فمن كان منهم لاتانياً قطعت رأسه، ومن كان رومانيا صُلب، واضطرت قرطاجة لأداء القسط الأول من التعويض الحربي. وبينما كان الشيوخ يتألمون لمشاهدة الضائقة المالية للدولة، فإن حنّيبَعْل، حسبما ترويه الحكاية، أجاب بضحكة عالية عن تألم هؤلاء الرجال الذين لا قدرة لهم على فهم أن هذا هو أخف الشرور التي تجثم على وطنهم.

وأمام جميع الجيش وهب سِپْيون لمَسنيسّا مدينة سِرْتا (قُسّنْطينة) والمدن الأخرى، كما وهبه مناطق مملكة سيفَكْس التي سقطت في سلطة الشعب الروماني، وقد ضمها الأمير الماسيلي إلى مملكة أبيه.

وعاد السفراء القرطاجيون مبعوثين إلى رومة، حيث صادق مجلس الشيوخ والشعب على المعاهدة التي أبرمها سِپْيون بموافقة المنتدبين. وأخيرا غادرت الجيوش المنتصرة إفريقيا في صيف أو خريف سنة

201. أما بوبْليوس فبعدما اخترق قسما من إيطاليا وسط الهتافات، واحتفل بعد بضعة أشهر احتفالا تمجيديا باهرا [82]، أصبح يعرف باسم الإفريقي.

لقد نال سِپْيون جميع ما كان يتمناه، فقد انتزع حنّيبَعْل من إيطاليا، وفرض على القرطاجيين نهاية هذه الحرب الطويلة، مع اتخاذه الوسائل الضرورية التي تمنعهم من معاودة حرب أخرى.

أما قرطاجة، فإن احتياجها لأسطول قوي هو الذي لم يساعدها على تنحية الرومانيين عن إفريقيا، ثم على قطع مواصلاتهم مع صقلية. وكانت منذ 14 سنة وهي في المقاطعة الصغيرة التي تملكها في بلاد البربر، تجند تقريبا جميع الرجال الصالحين للخدمة العسكرية، بحيث أنها لم تكن تجمع الجيوش لمواجهة الغزو إلا بمشقة. وكذلك حليفها سيفَكْس، فإنه لم يأتها إلا بجموع غير مدربة، وذات قيادة سيئة، وعندما حطمت الانتصارات الرومانية الأولى هذه العوائق البالغة في الضعف، بذلت جهودا قصوى وهيأت جيشا منعدم الانسجام وفقيرا في الخيالة. ولم تستطع عبقرية حنّيبِعْل التعويض عن هذا الضعف المزدوج. كما أن عدم وجود الحصون القوية بداخل المنطقة البونيقية، وكذلك عدم اكتراث المحكومين الأهالي وكراهيتهم، واستحالة تجنيد رجال جدد من أرض منهوكة استولى العدو على قسم منها، كل ذلك منع المغلوبين من أية محاولة لمتابعة الصراع. أما رومة فإنها أنقذت بعد معركة كنس Cannes بفضل رسوخ سيطرتها في إيطاليا الوسطى، وبفضل الاحتياطي من الرجال الذين لم يعوزوها. بينما لم يعد بعد معركة زاما Zama للقرطاجيين ما يواجهون به سِپْيون غير أسوار مدينتهم وبعض المستعمرات التي على الساحل.

الفصل السابع

قَرْطاجة و رومَة ومَسِنيسّا

1

انتصرت رومة على قرطاجة، فاستدارت ضد الحلفاء القدماء لحنّيبَعْل، أي ضد أهل بلاد الغال القريبة وأخضعتهم نهائيا، وضد فيلبْ الذي ردّته إلى مملكته المقدونية. وفي أسبانيا احتفظت بفتوحاتها، التي هي فتوحات البرْكيين سابقا، ووسعت رقعتها رغما عن المقاومة الشديدة والمستمرة التي أبداها الأهالي.

بعد سنة 201 ق.م بقي شخص يحمل اسم عمِلكار بإيطاليا العليا، حيث استمر يحارب الرومانيين، فتنصلت منه الحكومة البونيقية، وأنكرته، وحكمت عليه بالنفي وصادرت أملاكه. وفي سنة 195 سلطت – بأمر من رومة – نفس العقاب على حنّيبَعْل العظيم الذي فر، وجنب بفراره هذا وطنَه من معرّة إصدار حكم بالغ في القسوة. كما بعثت الحكومة البونيقية سنة 193 سفارة إلى إيطاليا لتتنصل من أعمال شخص مبعوث من لدن حنّيبَعْل، هذا الذي مكث وحده من بين القرطاجيين على عداوته

الصريحة للرومانيين. ولكي يهزمهم، كان يعتمد على أنْتِيوخوس Antiochus الذي استقبله. غير أن ملك سوريا لم يكن مستعدا للمبارزة المميتة التي كان ضيفه يحثه عليها، لأنه إذا كان لا يريد السماح لروما بالتدخل في شؤون الشرق، فإنه لم يكن يقلقه أن تستولي على الغرب. فساند الصراع على مهل، بل إنه لم يعرف كيف يستفيد من المواهب العسكرية التي لحنّيبَعْل. وبهذا تبخر آخر آمال القائد البَرْكي، ولم يبق إلا قائداً مرتزقاً Condottière في خدمة ملك بيثونيا Bithynie، حين طالبت به روما لتثأر ثأراً دنيئا أو لخوف لا داعي له، لأنه لم يكن يهددها. ففهم أنه لم يبق له إلا الموت سنة 182 أو 183.

أثناء ذلك كانت قرطاجة التي استسلمت لانهيارها تدفع بانتظام أقساط التعويض التي فرضتها عليها معاهدة سنة 201. وبحكم أنها أصبحت حليفة رسمية لروما، فإنها كانت تبذل مساعدتها لمنافستها القديمة متى احتاجت هذه إليها. فأثناء الحروب ضد فيليب، وضد أَنْتِيوخوس، وضد بِرْصي Persée بادرت بإرسال كميات كبيرة من القمح والشعير لإطعام الجيوش المقاتلة أو للعاصمة الإيطالية. بل إنها أبدت الأسف على تقاضيها ثمن ذلك. وضد أنتيوخوس وضعت رهن إشارة الرومانيين ستة قوادس من العشرة التي تركت لها، وقد أسر واحد منها في معركة جرت عند سواحل آسيا الصغرى.

إنه ليستحيل التصديق بأن جميع القرطاجيين نسوا أحقاد الماضي. فلابد أن الحِزب الديمقراطي - وريث الحزب البَرْكي - كان يحركه شعور بالعداوة البالغة نحو روما. ولكن يبدو أن مقاليد الحكم لم تكن في يده في السنين التي تلت فرار حنّيبَعْل. وفوق هذا، فمن كان من الناس يرى أن موقفا متحديا أو مشبوها سيجر وطنه إلى الهاوية؟

حسب تيت ليف، فإن مَسِّنيسا اتهم سنة 174 السلطات القرطاجية بأنها استقبلت سرّياً وفداً مَقْدونياً، وأنها بعثت بدورها مبعوثين عنها إلى الملك بِرْصي Persée. وكان هذا الأخير يتهيأ للحرب ضد الرومانيين ويبحث عن الحلفاء. ومع ذلك فمن المشكوك فيه جدا أن يكون القرطاجيون تهوروا فأقدموا على التعهد له بشيء. ولكي يشاركوا في الصراع كان ضعفهم يفرض عليهم الانتصار حتى يميل الحظ عن رومة. إذن لم يكن هذا سوى وشاية على ما يحتمل من الملك النوميدي الذي كان آنذاك في خلاف حاد مع جيرانه، ويريد أن يلقي بالشبهة عليهم. وبعد ذلك بثلاث سنين، عندما كانت الحرب ضد برصي قد بدأت، فإن أحد أبناء مَسِنيسّا واسمه كُلوسّا Gulussa ورد على ما قيل على مجلس الشيوخ وقال إن القرطاجيين قرروا إصلاح أسطول قديم بحجة إهدائه إلى الرومانيين، ولكنهم بعد تجهيز هذا الأسطول سيميزون أعداءَهم من أصدقائهم. ولكننا نعلم أن قرطاجة لم يكن لها الحق في أن تملك أكثر من عشرة قواديس، ولهذا فلم تكن تستطيع الزيادة في ملاحتها ولم بسفينة ثلاثية واحدة دون أن تعرض نفسها لعقوبة سريعة. والنتيجة هي أن لا محل لقبول أنّها فكرت في اللعب على الحبلين ليفضحها كُلوسّا على ما قيل.

والحقيقة هي أن العلاقات بين الجمهوريتين كانت مستقيمة طوال خمسين سنة. ففي هذا العهد لم تكن الحكومة الرومانية تأخذ بسياسة الفتوح والاستيلاء. وقد برهنت على ذلك بعد انتصاراتها على فيلب، وعلى أنتيوخوس وبِرْصي. فلم تكن تريد إنشاء جهاز إداري، ولا الإنفاق على الجيوش الضرورية لولايات جديدة. بل كانت ترى أن الأنسب هو أن تترك على قيد الحياة دولاً تحمل اسم الحليفة وتصير عميلة وتابعة طيِّعة. وفي هذا الوضع كانت قرطاجة، التي كانت رومة لا تتمنى لها النهوض

من كبوتها، كما لا تتمنى دثورها على ما يظهر. وقد كانت تفرض عليها إراداتها، ولكنها كانت تحترم المظاهر الدبلوماسية. ففي سنة 188 قام شابان بعمل مهين لبعض المبعوثين القرطاجيين الذين كانوا في رومة، فأمر قاضي الحضرة Préteur urbain بإرسالهما إلى إفريقيا للبت في أمرهما، غير أن الذين وقعت عليهم الإهانة تخلوا تفضلا منهم عن الترضية التي خولت لهم.

ويبدو أن تبادل السفراء كان يقع على نطاق واسع، وأنه ساعد على ربط العلاقات بين الشخصيات البالغة الأهمية في الدولتين. كما أن التجارة أنشأت علاقات من نوع آخر، وكان الإيطاليون يزورون قرطاجة أو يقيمون بها. وكثيرا ما كان يتاح للإيطاليين أن يلتقوا في طرقهم بالقرطاجيين وأن يسمعوا حديثهم. ولاشك أنهم لم تكن غريبة عليهم صورة التاجر الإفريقي حنّون بجبته الطويلة، وبرائحة الثوم القوية التي تفوح منه، إذ أن الكاتب پْلوط Plaute أظهره في مسرحيته الشعرية "البونيقي الصغير" Poenulus، بل جعله ينطق ببعض الكلام باللغة الفينيقية الحقيقية. وكانت السفن البونيقية تتوقف في ميناء الحقيقة. وكانت السفن البونيقية تتوقف في ميناء أوستيا Ostie وتحمل منه البضائع أو المسافرين. إن الشعبين لم يكونا يتحابان، ونُكَت الكاتب پْلوط Plaute كافية للدلالة على ذلك، لكن كان كل منهما يحتمل الآخر.

2

في نهاية حرب حنّيبَعْل، كان عمر مَسِنيسّا يبلغ 37 سنة. وقد كان شبابه مليئا بالأعمال : ففي حياة أبيه كانت له بفرسانه جولات وجولات في إفريقيا وأسبانيا، ثم كانت مملكة الماسيليين التي ضاعت مرتين

واستعادها مرتين، ومغامراته وهو رئيس عصابة، ثم مغامراته وهو هارب مطارد، ثم كانت الانتصارات الرومانية التي ساهم فيها الأمير النوميدي بنصيب وافر، ثم سلطته المستعادة على الماسيليين، والممتدة على أراضي سيفكس، والتي اعترفت بها رومة رسميا. وقد طالت به الحياة من بعد أكثر من نصف قرن، حتى بداية سنة 148 ق.م.

إن النقود التي سكها هو نفسه، أو سكها أبناؤه وحفدته تقدمه لنا وعمره بين الأربعين والخمسين، له تقاطيع منتظمة، وعين واسعة تحت حاجب كثيف، وشعر غزير متجعد، ولحية تطول على شكل قرن. ولكن هذه الرسوم سيئة ولا تعرفنا بوجوه مَسِنيسًا إلا بصفة ناقصة.

لقد قيل لنا إنه كان جميل الخلقة في شبابه وله قامة عالية. وقد احتفظ حتى أبعد أيام حياته بنشاط عجيب، فكان يستطيع أن يبقى واقفا أو على ظهر فرسه طوال يوم بكامله. وبدون أي عون آخر كان يقفز على ظهر مطيته وهو في الثمانين من عمره، كما كان - على غرار باقي النوميديين - يأبى استعمال السرج، ويتصدى للبرد والمطر ورأسه عارٍ. وقد قاد جيشه، وهو في 88 من عمره، في إحدى المعارك العظيمة ضد القرطاجيين، وفي الغد وجده سِپيون الإيميلي Sc. Emillien واقفا أمام خيمته، وبيده كسرة من الخبز الجاف التي كانت كل وجبة طعامه. وقبل ذلك بسنتين ولدت إحدى نسائه ابنا، فلم يفكر مطلقا في إنكاره. وكان له 43 من الأبناء الذكور غير هذا. وكثيرا من بينهم ماتوا قبله، ومع ذلك بقي منهم عشرة عند موته.

كان رجلا لا يعرف الخوف، ولا تأنيب الضمير، وكان ذا طبيعة مليئة بالمتناقضات. ولم تكن مطامحه العريضة تمنعه عن المخاطرة بحياته في جرأة تبلغ حد التهور. وأحيانا كانت هذه المطامح تخلى

المجال لغرائزه المحتدمة، ولكنها لا تلبث أن تعلو من جديد وتنتصر بقوة بِماله من جرأة وتصلب ومن ليونة. وهي نفس المتناقضات التي في أخلاق هذا النوميدي الذي انسلخ قليلا عن باربارِيته. وإن من رآه في المعركة، وهو كآخر واحد من فرسانه، يعاني أنواع الحرمان والمتاعب وتحيط به الكلاب الشرسة التي كان ينيط بها حراسته كأحد شيوخ العشائر، بينما كان له قصر في سِرْتا Cirta يقيم به المآدب التي تتغطى فيها الموائد بأواني الفضة وبالسلال الذهبية، وتصدح الموسيقى التي يعزفها موسيقيون يأتون من البلاد الهيلينية. وكانت أمه واحدة من هؤلاء المتنبئات الشعبيات اللواتي كن من حين لآخر يظهرن في القبائل البربرية. أما هو فكان يعرف الحضارة الناعمة التي في قرطاجة، ولربما أنه قضى بضع سنين من شبابه بهذه المدينة. ولقد أغرم ببنت الأرستقراطي حَسْدربَعْل، التي كانت متعلمة وجميلة. وأعطى لابنه مَسْتَنَبَعْل Mastanabal تربية إغريقية. ولم يتردد طويلا في أن يرسل كأس الموت إلى سوفُنسْبي Sophonisbe. كما ضحى من أجل نجاح مقاصده بحياة الآلاف من الناس. ومع ذلك كان قلب الأسد قادرا على الحنو. لقد كان مَسنيسّا يحب الأطفال إلى حد العبادة. وكان من عادته أن يحتفظ بجانبه طَوال سنين عديدة بأبنائه وبناته. وقد قال ذات يوم لبعض الناس الذين قدموا إلى نوميديا لشراء القردة التي يتلهى بها بعض الأغنياء العاطلين : «ألا تَلِدُ لكم نساؤكم أطفالا ؟».

في عهد حرب حنّيبَعْل كان بشمال إفريقيا – كما سبق أن قلنا – ثلاث ممالك كبرى، هي مملكة الماسيليّين، ومملكة الماسيسيليين. ومملكة الموريّين. كما ذكر في هذا العهد أيضا وجود بعض الأمراء والرؤساء الذين يمكن أن بعضا منهم كانوا أتباعا للملوك، وأن الآخرين حافظوا على استقلالهم على ما يظهر.

بعد ذلك بخمسين سنة نشر مسنيسا سيادته على الأرض من حدود سرنيكا (برقة) بداخل سَدْرة الكبرى حتى حدود موريطانية على ضفة نهر مَلْوِيَّة. وحسب بوليب، فإنه في سنة 203-202 استولى على كل مملكة سيفكس التي كانت لها عاصمتان إحداهما هي سِرْتا (قسنطينة اليوم)، والثانية هي سِكَّا Sigga، غير بعيد عن المورين. لكن حسب تيتْ ليڤ، فإنه لم يستول إلا على قسم منها، وهو أغناها، وكان ڤِرْمينا Vermina قد استطاع على ما يظهر المحافظة على ما بقي منها. وكذلك فإن أحد حفدة سيفكس، واسمه أرْكوبرْزان Arcobarzane قد يكون تولى الملك ببلاد البربر في أواسط القرن الثاني، وكان له جيش قوي. فإذا قبلنا هذا النبأ لزم أن نقبل أن ڤِرْمينا أو من خلفه قد وقع تجريده في وقت لا ندريه عن منطقة الجزائر ولزم أن نبحث عن مملكة أركوبرزان بداخل الأراضي، بين منطقة التل والصحراء، أي في البراري التي كان يجوبها الجيتوليون الرحَّل الذين يظهر أنهم لم يخضعوا لمَسنيسّا (83). والمعتقد هو أن هذا الأخير قد قضى على الأمراء الآخرين المستقلين، أو أرغمهم على الاعتراف بسيادته، لأن رومة تركت له كامل الحرية في أن يقوم بالفتوح في إفريقيا الأهلية.

أصبح مَسِنيسّا مسيطرا على منطقة شاسعة، فعمل جادا ليكوّن دولة حقيقية. وإن كان سيفكس قد حاول ذلك قبله، لكنه أخفى وترك لمنافسه المحظوظ بعض الأمثلة التي بادر هذا للاقتداء بها. وعلى غرار ما فعله سيفكس، فإن مَسِنيسّا وضع على رأسه الإكليل مثلما كان الملوك الهيلينيون يفعلون، وسك النقود بصورته عليها، وجمع أموالا طائلة. وكان حينما تدعوه الحاجة، يجمع العديد من الجنود القادرين على القتال في نظام، وليس للنهب فقط. ففي سنة 202 ورد على سِپْيون وليس

معه سوى 6000 من المشاة و4000 فارس. لكنه في سنة 150 واجه القرطاجيين بأكثر من 50.000 رجل. وكانت له فِيَلته التي كان بعضها مما سلمته قرطاجة لرومة، كما أنه روض البعض الآخر منها دون شك. بل كان له أسطول يتعاطى القرصنة حيث لا يجد عملا شريفا.

وعدا هذا، فلا شيء يبرهن على أنه أنشأ جهازا إداريا قويا يحفظ من بعده التناسق الذي كانت تضمنه سلطته الشخصية. بل حتى هذه السلطة لم تكن محترمة دائما. فالنوميديون الذين اعتادوا الشغب وعدم الانضباط كانوا لا يسلسون قيادهم إلا بمشقة، كما أن رؤساء القبائل والعشائر كانوا يتحسرون على الزمن الذي كانوا فيه أحرارا فيما يعملونه بأراضيهم، وفي خصوماتهم مع جيرانهم. وقد ذكر لنا اسم شخص يدعى أفثير Aphther، ثار وذهب ملتجئا إلى سرنيكا (برقة) حيث كان الملك يعتزم مطاردته. وبعد ذلك، أثناء الحرب ضد قرطاجة، فإن اثنين من الضباط اللذين ربما كانا من الأتباع الغاضبين، قد انضما إلى العدو ومعهما 6000 فارس. ومع ذلك فإن مَسنيسّا استطاع - على ما يبدو - أن يفرض العيش في سلام على رعاياه، القدماء منهم والمحدثين. ونمى بينهم الزراعة التي ربطتهم بالأرض وضاعفت من رفاهيتهم. وبالسواحل فإن المستعمرات الفينيقية التي هيمن عليها قد أصبحت لمملكته أبوابا وأسواقا، أما بالداخل فإن الأمن الذي لم يكن معروفا حتى ذلك العهد، قد ساعد على نماء العلاقات التجارية.

فبواسطة هذه المدن، وبدون شك بواسطة المقاطعة البونيقية، تغلغلت الحضارة القرطاجية بين النوميديين، كما أن مَسِنيسّا ساعدها على الانتشار، بحيث يبدو أن استعمال اللغة الفينيقية كان واسع الانتشار في عاصمته سِرْتا. وكما فعل سيفكس، فإن مَسِنيسّا جعل هذه اللغة هي لغته الرسمية.

لقد أصبح الأمير الماسيلي الصغير ملكا شديد القوة، مشهورا في جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط، من أسبانيا التي لم تنس أعماله البطولية في شبابه، إلى المشرق البعيد حيث أوجد لنفسه بعض الصداقات، مثال ذلك أن نيقوميد Nicomède الذي تولى ملك بيثونيا Bythonie بزمن قليل قبل وفاة مَسِنيسّا قد أعلن أن هذا الأخير برهن على عواطف المودة والحنان الأبويين (84). وكان الإفريقي حريصا على أن يحسن في عين الإغريق، لأنهم مذيعون للشهرة وتجار ماهرون، ويمكن إجراء الصفقات الكبرى معهم. فقد وهب لجزيرة رودِس Rhodes خشب العرعر والعاج، ووهب لجزيرة ديلوس Délos كميات من القمح التي بيعت، وكان ريعها بضعة آلاف من الدراخْمات عادت إلى معبد أبولون. وأقيمت بالجزيرة المقدسة ثلاثة من التماثيل على الأقل، أقام أحدها تاجر أثيني كان يقول إنه صديق له، والثاني أقامه رودِسِي كان على ما يحتمل تاجرا كذلك، والتمثال الثالث أقامه نيقوميد الذي تحدثنا عنه. وأبدى المجاملات للمؤرخ پوليب عندما قدم لزيارته صحبة سِپْيون الأميلي Scipion Emilien. أما ابنه مَسْتَعْنَبَعْل، فإنه داهن كبرياء الأثينيّين حين بعث بخيول للمشاركة في السابق في أعياد الآلهة أثينا Panathénées.

وحافظ مَسِنيسّا تجاه رومة على وضع التابع المعترف المخلص. ويحتمل جدا أن سِپْيون ما كان لينتصر على حنّيبَعْل لولا مَسنيسّا، غير أن المؤكد هو أن قدوم الرومانيين إلى إفريقيا ساعد ابنَ گَايَا Gaïa على استرجاع مملكته. فقد دخل المملكة صُحبة الجيوش الرومانية، وصحبتها انتصر على سيفكس قرب سِرْتا، واستولى على أراضي هذا الملك. ولقد ادعت رومة لنفسها هذا الانتصار وهذه الفتوح. وأرادت أن تؤكد أن مَسِنيسّا مدين لها بكل شيء، فنصبته ملكا، وكأنه لم يكن ملكا

من قبل. وتنازلت له عن مملكة سيفكس، كما لو كان لها وحدها حق التصرف في هذه المملكة. أما النوميدي فاعتبر أن الأنسب هو أن يظهر تناسيه لما استطاع تقديمه من الخدمات وأن يتحدث عاليا بما حصل عليه. وعلى قول تيتْ ليف، فقد صرح بتواضع أنه إنما كان يتصرف في منطقة تبقى رومة هي المالكة الحقيقية لها.

وقد قام بجميع واجباته كحليف، بانتظام وضبط، ومع كثير من الجدية. بحيث إنه أثناء الحروب ضد فِليب، وأَنْتيوخوس وبِرْصي زود الرومانيين بالقمح والشعير كما فعلت قرطاجة. وجعل رهن إشارتهم إبان هذه الحروب الفرسان والفِيَلة. وأرسل ميسَجِين Misagène أحد أبنائه للمشاركة في الحرب ضد برصي Persée، وبعد هزيمة ملك مقدونيا بعث تهانئه للغالبين مع مسگابا Masgaba الذي هو ابن آخر له، وكلفه بإبلاغ رجائه في أن يأتي بنفسه ليقدم القرابين شكرا لجوبتير الكابتولي Jupiter Capitolin. ولعل مجلس الشيوخ أراد أن يجنبه عناء السفر (إذ كان عمره يتجاوز السبعين عاما)، أو لغير ذلك من الأسباب، بعث إليه قائلا يمكنه في أرضه أن يشكر الآلهة، وأن يكلف مسگابا Masgaba بمهمة تقديم القرابين. وقد ورد أيضا ذكر لوجود الفرسان النوميديين في إحدى المعارك التي جرب سنة 193 ضد الليغوريين، ولربما يكون هؤلاء المساعدون قد بعثهم مَسِنيسّا. كما أنه أعان الرومانيين في حروبهم بأسبانيا. ويذكر أَپْيان باختصار كبير أنه، بينما كان الرومانيون منهكين في الحرب ضد الكِلْتِبِريين Celtibères، كان غيرهم من الأسبانيين يطوقون أحد أبناء الملك، فقدم الملك لنجدة ابنه. ويمكن الافتراض بأن هذه الأحداث جرت في سنة 153. وحسب نفس الكاتب فإن بعض اللوزيتانيين (هم البرتغاليون اليوم) عبروا المحيط

آنذاك بقرب المضيق وهاجموا إفريقيا، وعلى هذا فلا لزوم للقول بأن مَسنيسّا قد ذهب للهضبة الإيبيرية. وفي نفس سنة 153 فإن القنصل فُلْفيوس نوبِلْيور Fulvius Nobilior الذي كان يحارب الكلتبريين توصل منه بالفرسان والفيلة. وبعد ذلك بثلاث سنين، فإن سِپْيون الإميلي، مساعد لوكينيوس لوكُلوس Licinius Lucullus في أسبانيا، قد كلفه هذا القائد بأن يطلب من جديد الفيلة من مَسنِيسّا. وبرغم أن الملك كان يخوض الحرب ضد القرطاجيين، فإنه بادر إلى الاستجابة لما طلبه منه سِپْيون الذي كان الحفيد بالتبني للقائد المنتصر في زاما [85].

وبالتأكيد فإن أسرة آل سِپْيون لم تكن الوحيدة من بين الأسر الأرستقراطية الرومانية التي كانت لها علاقات قديمة من الود مع الملك النوميدي العظيم. وقد كان أبناؤه يستقبلون أحسن استقبال عندما كان يبعثهم سفراء عنه. كما كان من جانبه يستقبل بنفس الصفة مبعوثي مجلس الشيوخ الذين يزورونه بسِرْتا. ورغما عن سكوت المصادر، فبرعايته – على ما يحتمل – كانت الحيوانات تصاد وترسل إلى إيطاليا، كالفهود والأسود والفيلة والنعامات التي كانت تظهر في عروض الملاعب طوال النصف الأول من القرن الثاني. وتلك هي أحسن وسيلة لاجتذاب عاطفة الشعب الروماني.

3

دقّقنا النظر في بعض المعلومات الغامضة، فمعاهدة سنة 201 تضمن للقرطاجيين الممتلكات الإفريقية التي كانت لهم سنة 218، والتي أوضح سِپْيون حدودها حيثما لم تكن محددة بالحفير الفينيقي. أما بداخل هذه الحدود، فإن مَسنِيسّا قد أذن له بالمطالبة بما كان على ملكه

هو أو على ملك أسلافه. وبهذا صارت المنازعات أمرا حتميا. ولم تعن رومة نفسها بوضع حد لهذه المنازعات بتسوية نهائية، تصير من بعدها طلبات الملك غير مقبولة. بل رأت لاشك أن من مصلحتها أن تترك أسبابا دائمة للعداء موجودة بين الدولتين الإفريقيتين. وبعد ذلك بثلث قرن فحسب، أي بعد سقوط پِرْصي Persée، نالت رومة في عالم البحر الأبيض المتوسط هيمنة لا جدال فيها. أما من قبل فلربما كانت تخشى من أن يحاول القرطاجيون الانضمام لحلف قد يتكون ضدهم. فأملت أن يتكلف مَسنيسّا بإضعافهم عن طريق تقليص مناطق نفوذهم. ولمدة طويلة، لم يَبْدُ أنها خشيت أن يصبح الملك الماسيلي الذي هو عميلها المخلص، بدوره قويا جدا.

ولقد كان لهذا الأخير أمل عظيم في التوسع على حساب جيرانه. لأن في سهول المجرى الأوسط لنهر مَجَرْدة وفي البسيط التونسي الأوسط، كما في جهات أخرى كذلك، كانت توجد أرياف خصبة ومستغلة بصفة حسنة، وهي تليق جدا بأمير قرر أن ينشر الزراعة في مملكته. ثم إن الأهالي الذين يسكنونها لم يكن لهم على ما يبدو أي سبب يجعلهم يفضلون السيطرة البونيقية عليهم، عوضا عن سيطرته هو. ومن ناحية أخرى، كان يزعم أنه يخرج رعاياه من الباربارية، وكانت أقرب حضارة منه هي الحضارة القرطاجية التي كان يريد فرضها عليهم. وستكون هذه المهمة سهلة عليه بالاستيلاء على المدن البحرية الفينيقية وعلى النواحي التي أخذت تتغلغل فيها اللغة والأخلاق الفينيقية.

وتدعيما لمطالبه، كان يسهل عليه أن يدلي بحجج لم تكن في حاجة لما يبررها. من ذلك مثلا ذكره لغزوات جرت في زمن غامض، وذكره لسلسلة نسب يعزو لأجداد مزعومين الأراضِيَ التي كان أهل "صُور" قد

انتزعوها من أهل البلاد الأصليين. ولم يكتف بالمطالبة، بل مد يده بجرأة إلى كل ما وجده يليق به. ولم يكن لقرطاجة حق في مقاومتها بالسلاح. والمؤكد هو أن معاهدة سنة 201، في إحدى موادها التي لا نعرف ألفاظها بدقة، قد منعت على الجمهورية أن تخوض ضد مَسِنيسّا الحرب، حتى ولو كانت دفاعية، وأن نزاعا من هذا القبيل هو الذي اعتبره مجلس الشيوخ الروماني في سنة 150 خرقا للمعاهدة. فلم يبق للقرطاجيين بعد السلب الذي وقع عليهم سوى أن يشتكوا إلى رومة ليطلبوا منها وساطتها. ولكن الملك كان يعلم جيدا أن حليفته ستقضي لمصلحته، أو على الأقل ستترك له ما أخذه.

إن هذه الاغتصابات المتوالية ستوصله ذات يوم إلى أبواب قرطاجة. وهي العاصمة التي كان يحلم أن يعطيها لدولة ليبية بونيقية، تكاد تشمل جميع الشمال الإفريقي. ولربما كان يتمنى أن لا يحتلها بالقوة، بل أن المدينة الماجدة تضمن استمرار وجودها بالانضمام إليه. ونعلم أن حزبا مستعدا للتفاهم مع مَسِنيسّا قد تكوّن في قرطاجة قبل أواسط القرن الثاني بوقت قليل.

وإنا لَنَجهل كيف ضاعت للقرطاجيين مستعمراتهم على الساحل الجزائري. أما الاغتصابات الأخرى التي قام بها الملك، فإن بعض النصوص تعطينا عنها معلومات ضئيلة جدا، يصعب التوفيق بينها.

فمن بوليب Polybe بقي لنا تلخيص مُدرج ضمن مصنَّف بيزنطي. وهذا التلخيص، نظرا للموقع الذي يشغله من الكتاب، يرجع للسنة الثالثة من الألعاب الأولمبية 154 (أي سنة 162-161 ق.م). يقول المؤرخ : «إن مَسنيسّا كان منذ زمن طويل ينظر إلى المدن العديدة الواقعة بساحل سدْرَة الصغرى وإلى الريع الكبير الذي يعود من هذه المقاطعة الجميلة

المعروفة باسم أرض الإمبوريات Emporia (المتاجر) وقبل الحقبة التي نتحدث عنها كان قد جعل يضع القرطاجيين موضع الامتحان. وسرعان ما أصبح مهيمنا على الأرياف العارية... لأن القرطاجيين كانوا خائرين بسبب عهد طويل من السلام. غير أنه لم يستطع الاستيلاء على المدن التي كانت جيدة التحصين. وقد نقل الخصوم نزاعهم أمام مجلس الشيوخ الذي كثيرا ما كانوا يبعثون إليه بالموفدين عنهم. وكان الرومانيون يعلنون دائماً أن القرطاجيين ليسوا على صواب... ولم يكن ذلك عدلا منهم، وإنما لأنهم كانوا يعتبرونه موفقا لمصلحتهم. وفعلا فإن مَسِنيسّا كان قبل ذلك بقليل يطارد من جيشه ثائرا يدعى أفثير Aphther، وطلب بنفسه من القرطاجيين أن يأذنوا له باختراق مقاطعة الأمبوريات. فلم يحصل على الإذن، ورفضوا له كل حق على هذه الأرض. ومع ذلك أرغمتهم قرارات مجلس الشيوخ في العهد الذي نتحدث عنه على التخلي عن ستّ مدن بأريافها، وعلى أداء 500 تالان تمثل الريع الذي حصلوا عليه منذ بداية الخلاف».

وفيما يخص العهد الذي ندرسه، فإن تاريخ تيت ليڤ Tite-Live قد وصل إلينا لغاية سنة 167. ونجد فيه في سنة 195 أول ذكر للمنازعات التي قامت بين القرطاجيين ومَسِنيسّا، إذ بعثت سفارة رومانية آنذاك إلى قرطاجة، بدعوى تسوية هذه المنازعات. وإن كانت الحقيقة هي أنها قَدِمت لتتهم حنّيبَعْل الذي فر عند وصولها.

وحسب قول پوليب، فإن الملك قام بعد ذلك بسنتين بتخريب المنطقة الساحلية للإمبوريات بسَدْرة الصغرى، وأرغم بعض المدن على أن تؤدي له الأتاوات التي كانت ستؤديها لقرطاجة. فبعثت هذه عنها وفدا للشكوى إلى رومة. ولما علم الملك بالخبر بعث أيضا عنه وفدا

ليبرهن على أن له الحق في جباية هذه الضرائب. وجرى النقاش أمام مجلس الشيوخ، فأكد القرطاجيون أن منطقة الأمبوريات داخلة في الحدود التي حددها سِپْيون لممتلكاتهم، وأدلوا باعتراف الملك أيضا، إذ كان يطارد شخصا يدعى أفْثير Aphter كان قد فر مع بعض النوميديين إلى سرنيكا (برقة)، فطلب الملك من قرطاجة الإذن بالمرور بهذه الأرض، وبهذا اعترف بحق ملكية الجمهورية لها. أما مبعوثو مَسِنيسّا فقد اتهموهم بالكذب فيما يخص تحديد سِپْيون. وفوق هذا، لم يكن بمستطاع خصومهم البرهنة على أنهم كانوا دائما مالكين للمقاطعة المختلف بشأنها منذ أن استولوا عليها، ولا أنهم ملكوها زمنا طويلا. فقد كانت تارة على ملك القرطاجيين، وتارة بيد الملوك النوميديين. حسب من كان هو الأقوى من الجانبين. فقرر مجلس الشيوخ إرسال ثلاث منتدبين عنه إلى إفريقيا، وكان سِپْيون أحدهم. وبعد البحث تركوا القضية موقفة. ويضيف تيتْ ليڤ : «لسنا ندري هل هذه هي التعليمات التي أعطيت لهم. وعلى كل حال ظهر أن الأصوب هو عدم جعل حد للخلاف، وإلا فإن سِپْيون وحده كان بمستطاعه فض المشكلة إما بمعرفته للوقائع، وإما بالنفوذ الذي كان يتمتع به لدى الجانبين».

هذه الرواية تتلو رواية أخرى تتعلق بدسائس أرسطون Ariston في قرطاجة، وهذه الأخيرة يحتمل أنها مأخوذة من پوليب. ولكن يشك كثيرا في كونها من أصل واحد. ولا نستطيع التصديق بأن تيتْ ليڤ استقى من النص الذي سبق لنا ذكره والتعلق بقضية الأمبوريات، وذلك لأن الكاتبين لايشتركان إلا في بعض المعلومات. لهذا يلزم القول بوجود روايتين لپوليب، إحداهما أوردها تيتْ ليڤ، والثانية هي المحفوظة في التلخيص، وهي تكرر الأولى جزئيا. ومع ذلك، فيحتمل جدا – إذا اعتبرنا

الكيفية التي يتحدث بها پوليب – أنه لم يسبق له الحديث عن هذه القضية. فهو يعرضها بكاملها، من أولها إلى آخرها. وهناك جزئية ذكرها تيتْ ليڤ ولا تتفق مع ما نقرأه في قطعة پوليب : فحسب المؤرخ الإغريقي لم يستطع مَسِنيسا الاستيلاء على المدن، وحسب تيتْ ليڤ فرض مَسِنيسا على بعض منها أداء الأتاوة له. ونعجب من كون پوليب بعدما حكى في سنة 193 بداية الخلاف، عاد فقال في سنة 162-161 : إن هذا الخلاف انفجر قبل ذلك بزمن قليل، وقال نفس الشيء عن حادثة أَفْثير، التي هي سابقة على سنة 193 حسب النص اللاتاني. ثم إن مبلغ 500 تالان الذي ذكره يكون ضئيلا جدا بالنسبة لحقبة تبلغ ثلث قرن.

وقد طُرِح هذا السؤال : ألا يكون المصنِّف البيزنطي قد أدرج تلخيص پوليب في مكان غير مناسب من مصنَّفه ؟ ألا يحسن إرجاعه لتاريخ أقدم، قريب جدا من سنة 193 ؟ وبهذا نكون بواسطة تيتْ ليڤ قد عرفنا البداية، وبواسطة پوليب قد عرفنا النهاية لخلاف يكون قد دام بضع سنين. ولكن پوليب يؤكد أن القرطاجيين كانوا قد وهنوا بسبب عهد طويل من السلام، الأمر الذي يدفعنا لقبول تاريخ سنة 162-161، لأن حرب حنّيبَعْل كانت قد انتهت قبل ذلك بأربعين عاما. ومن ناحية أخرى، لو أن تيتْ ليڤ عثر حول سنة 190 في مؤلف پوليب على الرواية الموجودة في المصنف البيزنطي، لاعتمد عليها على ما يحتمل. لكنه ما بين 193 و167 لا يقول شيئا عن الأمبوريات. فهل التاريخ الذي ذكره المؤرخ اللاتاني هو الذي يجب تركه لكي نأخذ بتاريخ أحدث، أي متقدم ببضع سنين فحسب عن 162-161 ؟ ليس لدينا من وسيلة لحل هذه المشكلة الصغيرة. ولا يوجد داع للشك في كون سِپْيون قد كلف بالقيام ببحث في إفريقيا في التاريخ الذي ذكره تيتْ ليڤ وكذلك دِيونْ كاسْيوس Dion Cassius. فإذا

كان الخلاف الداعي لقدومة لا يتعلق بالأمبوريات، فإننا لا نرى كيف أمكن حدوث اللبس الذي لابد من عزوه لمصدر تيتْ ليف.

ويحكي هذا الكاتب قصة تجاوز جديد قام به مَسِنيسّا سنة 182. وذلك أن گايا (هو أبو مَسِنيسّا) انتزع فيما مضى من القرطاجيين منطقة ردها إليهم سيفكس من بعد. ولكن ابن گايا (هو مَسِنيسّا) طردهم عنها. فاشتكوا لروما التي بعثت بعض المنتدبين عنها. ولم يتخذ هؤلاء أي قرار، بل اختفظوا بحق الحكم لمجلس الشيوخ. وفي السنة الموالية ضَمن الشعب الروماني – كما يقول تيتْ ليف – لقرطاجة السلام، لا من ناحيته فحسب، بل حتى من ناحية مَسِنيسّا. وكان هذا وعدا طيبا للمستقبل. أما المنطقة المختلفة في شأنها فقد بقيت لمَسِنيسّا. وأما الموفدون الرومانيون الذين زاروه ثم ذهبوا إلى قرطاجة سنة 174، فلا ندري هل اشتغلوا بأمر الخلاف أم لا، وإن كان المؤكد هو أن العلاقات كانت إذ ذاك سيئة للغاية بين مَسِنيسّا والجمهورية الإفريقية.

وفي سنة 172 حل سفراء قرطاجيون في نفس الحين مع گُلوسّا Gulussa ابن الملك، وقد اتهموا هذا الأخير بأنه استولى خلال السنتين السابقتين على 70 مدينة ومركز حصين على ملك وطنهم. (لم يذكر تيتْ ليف أين كانت تقع هذه المدن). فلما طلب من الأمير الإدلاء بالإيضاحات صرح بأنه بوغث بهذا الطلب، وبأنه لا علم له بالتشكيات التي كلف القرطاجيون بعرضها على المجلس، وبأنه لم يحصل من أبيه على تعليمات في هذا الموضوع، فطلب منه أن يعود إلى نوميديا، وأن يخبر أباه مَسِنيسّا ليبعث في أسرع وقت بالموفدين ليجيبوا على تشكيات قرطاجة، وكذلك فإن هذه تبعث وفدا للدفاع عن قضيتها. وقيل إن المجلس أضاف بأنه لن يقبل تجريد قرطاجة من ممتلكاتها ظلما.

فالرومانيون الذين كانوا سيبدأون الحرب ضد پِرْصي Persée أرادوا مراعاتها، لأنهم كانوا يخشون أن تتفاهم مع ملك مقدونيا. وفي سنة 171 قدم إلى رومة كُلوسّا كما وصلها وفد بونيقي، غير أن فجوة في مخطوطة تيتْ ليڤ تمنعنا من معرفة خاتمة هذه القضية، ولابد أن النوايا التي عبر عنها مجلس الشيوخ قد أحدثت بعض الغيظ في نفس مَسِنيسّا، إذا كان اعتبرها نوايا صادقة (86). ولكنه لم يبح بأي شيء، بل إنه لم يؤد في يوم من الأيام أكثر مما أداه من الخدمات في هذه الحقبة لحلفائه. ولا شك أن هؤلاء بعد انتصارهم لم يشغلوا بالهم ليعرفوا هل كانت تشكيات قرطاجة تشكيات مشروعة.

وحيث إن نص المؤلف تيتْ ليڤ نفسه مفقود، فإن خلاصات تاريخه تعرفنا بأنه كان لا يزال يورد ذكر الخلافات بين مَسِنيسّا والقرطاجيين في كتابيه السابع والأربعين (XLVII) والثامن والأربعين (XLVIII). فقد ذكر في سنة 157 بعثة رومانية ذهبت بقصد الوساطة، ثم عودة بعثة حول بداية 153 على ما يظهر، وكانت مكلفة بنفس المهمة. وفي السنة الموالية تعينت لجان أخرى بطلب من بوبْليوس كُرْنيلْيوس سِپْيون نازيكا P.C. Scipion Nasica، وقيل إنها حصلت من الملك على تخليه عن المنطقة التي كانت آنذاك موضع الخلاف. وعدا هذا، كما سنرى، فإن المعلومات التي أعطاها تيتْ ليڤ حول هذا الوفد كان قسم كبير منها غير صحيح لاشك.

ويبقى كاتب ثالث هو أپْيان Appien. وقد قال : بعد حرب حنّيبَعْل، اعتمد مَسِنيسّا على الرومانيّين واستولى على منطقة شاسعة تملكها قرطاجة، بحجة أنها كانت فيما مضى خاضعة له. فاتجهت الحكومة البونيقية لرومة التي بعثت بالمنتدبين، وأعطتهم التفويض بتفضيل الملك

أكثر ما يستطيعون. وبهذا احتفظ مسِنيسا بجميع ما استولى عليه، وعقدت بينه وبين القرطاجيين معاهدة دامت خمسين سنة [87]. فأپْيان Appien يظهر أنه كان يعتقد أن أي خلاف لم يحدث بين الدولتين الإفريقيتين مدة نصف قرن. والحقيقة هي أن قرطاجة لم تقرر الصراع العلني إلا بعد مضي إحدى وخمسين سنة على حرب حنّيبَعْل، أما قبل إعلانها لذلك فإن جارها قد تحداها وجردها من ممتلكاتها أكثر من مرة.

ثم يحكي أپْيان، إن الحاكم العسكري كَرْثَلون Carthalon قد هاجم، بتحريض من الحزب الديمقراطي المقاطعة التي سبق للملك أن اغتصبها، فحمل كرثلون منها مغانم أخذها من رعايا مَسِنيسّا المقيمين بها، وقتل بعضا منهم، ثم هيج الفلاحين الليبيين ضد النوميديين. هذه الأحداث قد تكون جرت في العهد الذي كان فيه الرومانيون في الحرب ضد الكِلْتيبيريّين Celtibères، وكذا ضد الإسبانيين الآخرين الذين قيل إن مَسِنيسّا ذهب لمحاربتهم، سنة 153 على ما يحتمل. ولكن يصعب جدا أن نقحم في مدة من الزمن لا تكاد تبلغ ثلاث سنين من 153 إلى ربيع 150 جميع الأحداث المتوالية، حتى بداية الحرب بين مَسِنيسّا وقرطاجة. فغزوة كَرْثَلون جَرَتْ دون شك ببضع سنين من قبل. ويبدو أن أپْيان ذكر لها تاريخا غير صحيح لخطأ نجهل سببه. وبعد هذه الغزوة، وقعت أخريات غيرها، قام بها النوميديون أو القرطاجيون. ثم قدم المبعوثون الرومانيون، الذين على غرار من سبقهم، كانت التعليمات المعطاة لهم هي محاباة مَسِنيسّا. فلم يبثوا في شيء، وبقيت الأرض المختلف فيها بيد الملك.

وبعد ذلك بقليل طالب «بالناحية المعروفة باسم السهول الكبرى، ومعها المنطقة التي تضم خمسين مدينة، وهي المعروفة باسم توسْكا Tusca». إن السهول الكبرى هي سهول "سوق الأربعاء" و"سوق الخميس"

التي يمر بها نهر مجردة. أما المنطقة المسماة باسم توسكا Tusca فلابد أن تكون حسب رأينا هي ناحية ثوكا Thugga، التي هي اليوم دقة Dougga. ومرة أخرى استعطف القرطاجيون مجلس الشيوخ، ولكنه لم يبادر بالجواب. وأخيرا بعث بالموفدين، وكان من بينهم كاتون الشيخ Caton. ولما وصل هؤلاء المحكومين إلى الأرض المختلف فيها طلبوا من الجانبين الموافقة مسبقا على ما سيقررونه. فأما مَسِنيسّا فقد وافق لأنه كان مطمئنا إلى حلفائه، بينما تذكر القرطاجيون سلوك المنتدبين الآخرين. وقالوا إنه لا جدوى في بحث جديد وأحكام أخرى، وأن الأحسن هو مشاهدة خرق معاهدة سِپْيون. وعقب ذلك انصرف الرومانيون. فيبدو أن هذا الوفد كان سابقا بزمن قليل على الحرب التي اندلعت سنة 150 بين قرطاجة والملك. ومع ذلك يجب التمييز بينه وبين الوفد الذي بُعث، حسب تيتْ ليف، سنة 152 باقتراح من الخصم السياسي لكاتون، وهو سِپْيون نازيكا، وترأسه نازيكا نفسه، وقد قيل إنه حصل من مَسنيسّا على التخلي عما كان يطالب به. ولربما أن هذا الوفد هو وفد سنة 153. وإذا صدقنا تيتْ ليف، فإن كاتون – قَبْل بعثة نازيكا – طالب بإشهار الحرب على قرطاجة، لأنه اقتنع حين رحل إلى إفريقيا بضرورة القضاء على المنافسة القديمة لروما.

ولا يعطي أپْيان تفصيلات مدققة عما استولى عليه الملك النوميدي في ناحية السدْرَتَين. غير أنه يذكر قولا لأحد القرطاجيين سنة 149 : «إن مَسنيسّا قد انتزع منا المنطقة المحيطة بالأمبوريون Emporion ثم هاجم أخرى غيرها». ويذكر أن قرطاجة وافقت سنة 150 على أن تتخلى للملك عن "المنطقة المحيطة بالأمبوريون". فإذا صح هذا وجب أن نستنتج منه أن قرطاجة لم تكن إلى غاية هذه السنة 150 تعتبر أنها فقدت المنطقة

نهائيا، برغم قرار مجلس الشيوخ الروماني الذي أعطى – حسب پوليب – هذه الأرض بمدنها وأريافها لمَسِنيسّا. ولكن لماذا يتحدث أپْيان بصيغة المفرد أمبوريون Emporion، عوضاً عن صيغة الجمع أمبوريات Emporia التي نجدها عند كل من پوليب وتيتْ ليڤ ؟ ربما كان مجرد تعبير في غير موضعه، ما لم يكن المقصود هو أهم هذه الأمبوريات، أي المدينة الرئيسية Chef- Lieu للمنطقة، وهي مدينة لِبْتيس الكبرى (لبدة) (88).

وختاما، فإن النصوص التي سبقت لنا دراستها لا تساعدنا على تمثل تاريخ العلاقات بين مَسِنيسّا والقرطاجيين أثناء النصف الأول من القرن الثاني. وإنما تخبرنا أنّ الملك قد صرح، في مناسبات عديدة أثناء هذه المدة الطويلة بمطالب غير مقبولة ولا مشروعة، وأنه انتزع من جيرانه مناطق شاسعة بساحل السدْرَتَيْن، وبغرب تونس وموسطتها، وأن قرطاجة التي لم تستطع صد تعسفاته بالقوة، كثيرا ما طالبت بوساطة رومة، وأن هذه كانت تخطئها أو تتلافى أن تعلن أنها على صواب.

4

لقد عيل صبر القرطاجيين الذين لم يذعنوا لتحمل كل ما يصيبهم به مَسِنيسّا. ففي شتاء سنة 151-150 كانت مقاليد الحكم بيد الديمقراطيين، فأصدروا حكم النفي على زعماء الطائفة التي كانت تشير بالتفاهم مع الملك. وقد ذهب هؤلاء المنفيون عند مَسِنيسّا، فبعث ابنيه مِسِبْسا Micipsa وگُلوسا Gulussa إلى قرطاجة ليطالبا بعودة أنصاره. ولكن الحاكم العسكري كَرْتَلون منع الأميرين من دخول المدينة، كما أن عَملكار السمناتي Amilcar le Samnite وهو زعيم آخر للحزب الديمقراطي، هاجم گُلوسا أثناء عودته عند أبيه، وقتل بعضا من حرسه.

وإذ ذاك قدم مَسِنيسّا وحاصر مدينة أورُوسْكوبا Oroscopa التي كان يطمع فيها دون حق له عليها. وبذلك تهيأ للحرب الحاكمون في قرطاجة، وأسند جيش يبلغ 25000 من المشاة إلى قائد انتخب حديثا، هو حَسْدربَعْل. ورغما عن الصورة المشوهة التي صوره بها پوليب، فإنه لم يكن رجلا تعوزه المواهب العسكرية، وقد برهن عليها من بعد أثناء الحرب البونيقية الثالثة. وعلى كل فقد تقدم لمواجهة مَسِنيسّا. وعند اقترابه فإن قائدين نوميديين هما أگاسيس Agasis وسوباس Soubas، وكانا غاضبين من أبناء الملك، قد تخليا عنه وصحبا معهما 6000 فارس، فكانت نجدة جاءت في الوقت المناسب إلى حَسْدربَعْل، الذي لم يكن معه من قبل سوى 400 فارس جندوا من بين المواطنين. وجرت بعض المناوشات التي حالفه فيها التوفيق، فتشجع وتقفى العدو الذي كان يتراجع على مهل، ويجره إلى بسيط واسع مقفر، تحيط به المرتفعات الوعرة من كل جهة. وهنا عسكر مَسِنيسّا ورجاله بالأرض المنبسطة، بينما استقر حَسْدربَعْل على أحد التلال بموقع رآه منيعا. وقد تضخم جيشه بجمهور من الناس قدموا من مقاطعة قرطاجة، حتى انتهت به الحال إلى أن بلغ 58.000 رجل. وكان الملك على رأس جيش يكاد يبلغ نفس العدد. وذات صباح صفف جيوشه للمعركة، وكذلك فعل حَسْدربَعْل. وقد دام القتال حتى الليل. وكانت الخسائر فادحة في كلا الجانبين، ولكن عند نهاية النهار، كان الفوز يبدو بجانب النوميديين.

في الليلة السابقة كان سِپْيون الأميلي قد وصل مبعوثا من إسبانيا ليطلب الفيلة من مَسِنيسّا. ولكن هذا كان منهمكا في استعداداته، فأمر عدة من أبنائه باستقباله. وقد وقف الروماني على أحد المرتفعات وشاهد المعركة، وكان فيما بعد يتذكر هذا المشهد ويحلو له أن يقارنه بموقف الإله زيوس Zeus فوق جبل إيدا Mont Ida، وموقف الإله بوسيدون Poseidon

على قمة جبل سَمُوثراس Somothrace أثناء حرب طروادة. ولما عاد من الملحمة الملك الشيخ تلاقى مع ضيفه وقابله بمودة كبيرة.

علم القرطاجيون بحضور سِپْيون فطلبوا منه مصالحتهم مع مَسِنيسّا. وقد أعلنوا خلال المذاكرات التي جرت أنهم مستعدون للتخلي إلى الأبد عن منطقة الأمبوريات ولأداء 1000 تالان فضية يدفعون 200 منها حالا. ولكنهم رفضوا تسليم الهاربين إليهم من الجيش، وبهذا لم يتم الاتفاق. أما سِپْيون فقد أخذ الفِيَلة وعاد إلى أسبانيا.

وبقي الجيشان أحدهما تجاه الآخر بمنطقة لا تغل شيئا. فتخلى الملك عن حرب المعارك المصفوفة، وحفر خندقا أحاط به التل الذي يحمل معسكر القرطاجيين، وبذلك منع عنهم وصول المؤن. وهو أيضا لم يكن يحصل على المؤن إلا بصعوبة شديدة. أما حَسْدربَعْل الذي كانت مؤنه كثيرة، فكان يؤمل أن خصمه ستصيبه المجاعة فيشرع أخيرا في الهجوم، ويقدر أنه سينتصر عليه ويفك الحصار. وأخذ في الانتظار. وفوق هذا، كان يعلم أن وفدا رومانيا سيصل لإبرام اتفاق على ما قيل. وفعلا فإن المبعوثين قد وصلوا. ولكنهم حسب أَپْيان كانوا مأمورين بإنهاء الحرب إذا كان مَسِنيسّا مغلوبا، وبتشجيعه على النقيض من ذلك إذا كان منتصرا.

وخلال ذلك كان القرطاجيون قد استهلكوا مؤنهم، فأكلوا على التعاقب دواب الحَمْل، ثم الخيول، ثم الجلود التي كانوا يطبخونها ويولعون لها النار بحطام أسلحتهم. وتفشت الأوبئة في هذا الجم من الناس الذين أضعفهم الجوع، وأنهكتهم حرارة الصيف، والذين كانوا متكدسين في مجال ضيق من الأرض، وسط عدد كبير من الجثث التي

تتعفن. وكان يستحيل نقل الموتى لأن العدو لا يسمح بمرور أحد، ولا بإحراق الجثث لأن الخشب منعدم الوجود [89]. حتى إن معظم الجيش كان قد قضى نحبه، أما الباقون على قيد الحياة فلم يكن لهم أي أمل في النجاة عندما أذعنوا للتفاوض مع مَسِنيسّا. وقد اشترط الملك أن تسلِّم له قرطاجة الهاربين من الجيش، وأن تستدعي المنفيين، وأن تؤدي تعويضا من 5000 تالان في مدة خمسين سنة. وقد اضطر جنود حَسْدربَعْل لمغادرة معسكرهم من باب واحدة، وليس عليهم سوى رداء واحد، واخترقوا الصفوف النوميدية وهم على هذه الصفة، غير أن گُلوسا لم ينس الهجوم الذي كان سيذهب هو ضحيته، فأرسل فرسانه ليقتلوا في هؤلاء التعساء العزل الذين حال ضعفهم دون فرارهم. حتى إن القليل من الرجال – كما يقول أپْيان – هم الذين نجوا من الموت ودخلوا قرطاجة مع حَسْدربَعْل وبعض النبلاء.

اشترط مَسِنيسّا دون شك أن ينال مدينة أورُوسْكوبا Oroscopa التي حاصرها في بداية المعركة، كما يحتمل أنه اشترط تنازلات أخرى. وإنا لنعرف بالتدقيق ما تركه في الأخير لجيرانه بعد نصف قرن من الاغتصابات. وذلك أن ولاية إفريقيا الرومانية التي تكونت سنة 146، كانت لها بالفعل نفس الحدود التي كانت للمنطقة القرطاجية عند بداية الحرب البونيقية الثالثة. وقد قام سِپْيون الإميلي بتوضيح هذه الحدود بحفره خندقا بين الولاية الجديدة والمملكة النوميدية. والخندق هو المعروف باسم "الحفير الملَكي" Fossia Régia، الذي بعد 220 سنة نصبت العلامات Bornes بمكانه في عهد الإمبراطور فِسْبَسْيان Vespasien. وتساعدنا بعض النصوص القديمة مع العلامات العديدة التي وقع اكتشافها، على أن نتمثل ولو جزئيا الحدود الرومانية لسنة 146 ونتيجة لذلك، الحدود القرطاجية في 149-150.

كانت الحدود تبدأ في مصب نهر توسكا Tusca (الوادي الكبير)، قريبا جدا من طبرّقة Tabarca، وتأخذ فورا على ما يحتمل وجهة الجنوب الشرقي. وتسير فتترك جانبا السهول الكبرى التي استولى عليها مَسِنيسّا أخيرا، كما تترك أيضا مدينة فاكا Vaga المعروفة اليوم باسم باجة بالشمال الشرقي لهذه السهول وعلى أقل من ثلاثين فرسخا من قرطاجة ثم تعبر مجردة وتسير سيرا ملتويا بين وادي سلْيانة ووادي خالد، وهما رافدان لمجردة من الناحية اليمنى. على أن بعضا من العلامات التي كانت فيما مضى منصوبة بمكان الحفير الملكي، قد وقع عليها العثور على بعد 18 و13 كيلومترا بالشمال الشرقي لِطبُرْسق Teboursouk، وعلى بعد 12 كيلومترا، بشرق الجنوب الشرقي لنفس المكان. وتنعطف الحدود بعد ذلك نحو الشرق كما تشهد بذلك علامة أخرى عثر عليها قرب خرائب أبْثوگْني Abthugni (هَنْشير الأسوار اليوم)، جنوب جبل زَغْوان، على نحو عشرة فراسخ غربي خليج الحمّامات. ثم تسير نحو جنوب الجنوب الشرقي، مبتعدة قليلا عن الساحل، ثم تتصل به في ثيناي Thaenae (هَنْشير ثينا) غير بعيد من صفاقس. وسير الحدود في هذا القسم الأخير من الحفير غير معروفة بصفة دقيقة، ولكننا نعلم أن ثيسْدروس Thysdrus (مدينة الجَمّ) بالجنوب الشرقي لسبخة سيدي الهاني كانت تقع ضمن الولاية الرومانية، بينما يبدو أن الضفة الغربية لهذه البحيرة الشاسعة كانت ملكا للمملكة النوميدية. إذن فقرطاجة التي كانت فيما مضى تملك سيگّا Sicca وثوقسْت Theveste (أي الكاف وتبِسّة)، لم تعد في أواسط القرن الثاني تملك سوى الزاوية الشمالية الشرقية من القطر التونسي مع حاشية ضيقة جدا على طول الساحل بين خليج الحمّامات وقابِس.

إن القرطاجيين بمحاربتهم لمَسنيسّا، قد خرقوا إحدى المواد بمعاهدة سِپْيون. وبذلك سوغوا لرومة أو أعطوها سببا للقطيعة. خصوصا وأن كثيرا من الرومانيين كانوا آنذاك يفكرون في تدمير قرطاجة، ولا ينتظرون سوى الفرصة المناسبة.

يحكي كل من أپْيان Appien وبلوتارك Plutarque أن كاتون Caton ورفقاءه رأوا أثناء بعثتهم حالة الازدهار التي كانت عليها المدينة الإفريقية الكبيرة والأرياف المحيطة بها، فبدا عليهم من ذلك قلق كبير، لقد نهض وطن حنّيبَعْل. بل كان في المستطاع ملاحظة أنها تتسلح، فكان لابد من تخليص رومة من هذا الخطر. وكان لابد أيضا - مثلما قيل في عهدنا نحن - من إراحة التجار وأصحاب البنوك الإيطاليين من هؤلاء المزاحمين الماهرين النشيطين. ومع ذلك فلا شيء يبرهن على أن كاتون كان يتمنى مثل هذا. ومن ناحية أخرى فإنه فيما مضى أبدى معارضته الشديدة لسياسة الفتوح، وهو بدون شك لا يعتقد بأن قرطاجة التي ليس لها أسطول عسكري، والتي حصرها مَسِنيسّا في منطقة ترابية ضيقة، تكون الآن قادرة على زعزعة القوة الرومانية.

إن السبب الحقيقي لمواقف كاتون وموقف الذين انضموا لرأيه قد ذكره أپْيان في خطاب قيل إن أحد أصدقاء سِپْيون الإفريقي نطق به في نهاية الحرب البونيقية الثانية (90). كان لابد أن لا يصبح مَسنيسّا مسيطرا على قرطاجة. إن الملك قد أدى لحلفائه خدمة بالزيادة في إضعاف مغلوبي معركة زاما Zama. ولكن يبدو أن مصلحة الرومانيين كانت تفرض بقاء نوميديا دولة ثانوية. إنهم لا يريدون أن تكون عاصمتها مدينة آهلة بالسكان، بالغة الثروة، ومركزا للحضارة، وتراقب المرور بين

حوضي البحر الأبيض المتوسط. إن كاتون وغيره من الرجال ذوي الحصافة اقتنعوا بقرب الساعة التي سيحاول فيها مَسِنيسّا تحقيق مطمحه الأسمى. فالقرطاجيون لم يعد لهم من القوة ما يمكنهم من مقاومته طويلا، ولربما أنهم سيرضخون لقبول سيطرته، أو وصايته على الأقل. وإذ ذاك يعسر إفهام الشعب الروماني أنه ينبغي الدفاع عن الأعداء التقليديين ضد حليف قديم. لذلك فإن أسهل وسيلة وأضمنها لانتزاع قرطاجة من أطماع مَسِنيسّا وذريته من بعد هي تدميرها. وفوق ذلك، فإن في هذا مغانم كبيرة تنال، وبالطبع لا يمكن الجهر بالحكم بالموت. ولابد من الاحتيال لإظهار الخوف من قرطاجة، بينما مَسِنيسّا هو الذي يخاف منه.

عاد كاتون من إفريقيا، وأخذ يطالب بعنف شديد باتخاذ القرار الذي كان يراه ضرورة ملحة. حتى إنه في مجلس الشيوخ، وكلما طلب منه الرئيس رأيه في إحدى القضايا، كان يستخدم الحق المخوّل لأعضاء المجلس بإضافة قضية إلى أخرى، ويقول : «وأنا كذلك موافق على أن قرطاجة يجب أن تمحى من الوجود». ونعرف الحكاية التي مفادها أنه حمل معه تينة طرية إلى قاعة الاجتماعات، وأبداها لزملائه قائلا إنها قطفت من قرطاجة منذ ثلاثة أيام، مضيفا قوله : «نعم ! إن لنا عدوا قريبا جدا من أسوارنا».

ومع ذلك وجد معارضا عنيدا، هو بوبْليوس كُرْنيلْيوس سِپْيون نازيكا P.C.S. Nasica صهر سِپْيون الإفريقي. لقد كانت هذه الشخصية التي زاولت أعلى المناصب تتمتع بنفوذ كبير في المجلس. وكان بعد كاتون دائما يقول : «وأنا موافق على أن قرطاجة يجب أن تبقى في الوجود». فقد كان - حسبما قالوا - يعتبر أن من الأحسن أن لا تتحرر

رومة من كل خوف. وبهذا تتلافى التردي في الوهن والضعف بالخلافات الداخلية، وتهتم أكثر بأن تكون عادلة وغير جائرة في حق رعاياها وحقوق الشعوب الأخرى. إن هذه الأفكار تبدو سخيفة، ولكنها لا تبرهن على أن عزوها لنازيكا كان فيه خطأ. فكِنْتوس كيكيلْيوس ميتلّوس Q. Caecilius Metellus صديق سِپْيون الإفريقي، وكذلك سِپْيون الإفريقي نفسه، سبق لهما أن عبرا عنها. وحتى كاتون في إحدى خطبه التي فاه بها سنة 167 قد ذكر برأي غالب حنّيبَعْل. ويسوغ أيضا الاعتقاد بأن نازيكا لم يكن يرضخ بسهولة للجريمة الكبرى التي كان كاتون يريد أن يثقل بها كاهل وطنه، وكان قلبه أقل قسوة. ولربما كان يعتقد أن حكومة رومة ستوقف مَسِنيسّا عند حدّه، وذلك بأن تقوم بدور الحكم بأمانة. ففي سنة 152 كانت البعثة التي اقترح تعيينها، ثم ترأسها هو قد طلبت من الملك أن يعيد للقرطاجيين المقاطعة التي انتزعها منهم.

كان نازيكا في هذه الحقبة يحبط مساعي كاتون الذي كانت اقتراحاته في هذا الموضوع تتجدد دائما، وكان أعضاء المجلس يسايرونها، ومن بينهم حتى الذين كانوا يوافقونه سرّاً عليها، لأن تديمر قرطاجة كان لابد فيه من سبب منكر ضدها. وإلى غاية سنة 150 لم تجد رومة هذا المطعن. فقد احترمت معاهدة سِپْيون طوال نصف قرن، وآخر قسط من التعويضات الحربية قد وقع أداؤه.

لكن هذه المطاعن اختلقها الإخباريون فيما بعد قصد تشويه سلوك قرطاجة. ونجدها معروضة باختصار في تلخيصات تيتْ ليف التي سنذكر منها بعض الفقرات :

فمن ذلك أن بعثة رومانية عادت من إفريقيا عند بداية سنة 153، وأعلنت أن قرطاجة قد جمعت المواد لبناء الأسطول، وأن اللجنة شاهدت

ذلك بنفسها. ثم انتشرت بعد ذلك شائعات تقول إن أركوبرزان Arcobarzane حفيد سيفكس موجود بالمقاطعة البونيقية مع جيش عظيم حُشد على ما يلوح لقتال مَسنيسا، بينما الحقيقة هي أنه مُعدّ لقتال رومة. فطالب كاتون إشهار الحرب على القرطاجيين، ولكن نازيكا عارضه، وبذلك تعينت اللجنة التي تحدثنا عنها، ولم تكن مهمتها مقصورة فحسب على تسوية نزاع ترابي بين الملك وجيرانه، بل تتعداها إلى البحث في شأن هذه الاستعدادات المخالفة للمعاهدة. وقد عاتبت اللجنة على ذلك مشيخة قرطاجة التي أبدت امتثالها الكبير. ولكن أحد الولاة، وهو جِسْكون ابن عَمِلكار، نادى بالحرب ضد رومة وهيج عواطف الناس إلى حد أن المَبعوثين اضطروا للفرار نجاة بأنفسهم من العنف.

ثم ذهب كُلوسا إلى رومة - عند نهاية 152 حسب سياق الأحداث - ليشكو القرطاجيين الذين قال إنهم كانوا يحشدون الجيوش ويكوّنون أسطولا. فاقترح كاتون من جديد إشهار الحرب عليهم. فألح نازيكا بعدم التسرع في اتخاذ هذا القرار الخطير جدا، وبذلك كلف مجلس الشيوخ عشرة مبعوثين بالذهاب للقيام بإجراء بحث. وقد عادوا في سنة 151، صحبة وفد قرطاجي، وكذلك صحبة كلوسا الذي كان قد منع من دخول المدينة، مع أنه حضر مع الرومانيين. وأكد هؤلاء وجود الجيش والأسطول. فطالب كاتون ومعه شخصيات كبيرة أخرى ببعث الجيوش حالا إلى إفريقيا. وعلى النقيض منهم، كان رأي نازيكا أن رومة لم يكن لديها بعدُ السبب المشروع للحرب. فقرر المجلس الامتناع عن القطيعة مع القرطاجيين إذا أحرقوا أسطولهم وسرحوا جيشهم، وإلا فإن القنصلين المقبلين سيطرحان قضية الحرب على بساط المناقشة. ثم يقص تيتْ ليف قصة الحرب التي شنتها قرطاجة على مَسِنيسا.

وهكذا، فحسب المرويات التي تلقاها المؤرخ اللاتاني، يكون القرطاجيون قد شرعوا في الاستعداد للحرب ضد رومة منذ سنة 154، وأنهم لم يتوقفوا عن هذه الاستعدادات برغم الإنذارات المتعددة. أما مجلس الشيوخ الروماني الذي كان ينحي اقتراحات كاتون ويوافق دائما على اقتراحات نازيكا، فإن ذلك كان من جانبه برهانا على صبره العجيب. بل إنه كما قيل ترك بدون عقاب جريمة وقع اقترافها بتحريض أحد الولاة ضد بعض المبعوثين الذين حصلوا من مَسِنيسّا على تنازل كبير جدا.

وترتبط بعض الكلمات الواردة عند زوناراس Zonaras بنفس المرويات [91] لكن معلومات تيتْ ليڤ لا توجد عند أپْيان الذي اعتمد بدون شك على پوليب، لذلك فليس لها قيمة تاريخية على ما يبدو.

إن الحكومة القرطاجية قامت لاشك باستعدادات عسكرية أثناء السنين السابقة على إشهار الحرب على مَسِنيسّا، إذ أنها استطاعت أن تسلح عددا كبيرا من الرجال دون أن تفرغ مخازنها. وكانت الحكومة تتوقع أن هذه الحرب لا مناص منها إذا هي أرادت المحافظة على استقلال الجمهورية. أما القول بأنها فكرت في مهاجمة رومة فمعناه القول بأنها فقدت رشدها. وليس صحيحا بأنها أخذت تصنع سفن القوادس Galères. لأن القنصلين ألحا سنة 149 بأن تسلم إليهما الأسلحة والآلات. ولو كان لقرطاجة أسطول قتال لطالبا به. ونحن نجهل هل كان لأركوبَرْزان وجود، كما نجهل هل كان ملكا على جهة ما بإفريقيا. ولكننا نستطيع التأكيد بأنه في سنة 150 لم يبذل مساعدته للقرطاجيين. ويقال إنه ساعدهم بالفرسان على الخصوص، غير أن حَسْدْربَعْل كاد أن يخلو جيشه منهم قبل أن يتلقى 6000 هارب من الفرسان النوميديين. وأخيرا،

كيف يمكن التصديق بأن رومة، وفقا لرأي نازيكا، قد استمرت على علاقتها الدبلوماسية مع حكومة مسؤولة عن الاعتداء الواقع ضد وفد كان نازيكا على رأسه ؟

إن أپْيانِ لا يعرف سوى سبب واحد للحرب البونيقية الثالثة، وهو الحرب ضد مَسِنيسّا، خرقا لمعاهدة سنة 201. وهذه هي الحقيقة. فالرومانيون الذين كانوا لا يزالون يترددون في اتباع نصيحة كاتون القاسية، لم يعد لهم ما يبلبل ضميرهم، لأن غلطة قرطاجة جاءت في الوقت المناسب لتبرر المصير المهيء لها. لقد كانت منهوكة القوة بسبب الكارثة الأخيرة التي حلت بها. وحيث إنها محكوم عليها، فلعلها ستنقاد للانتحار. أما إذا أرادت الضحية أن تقاوم فالجلاّد سيقضي عليها فورا. وليس هناك من وقت للضياع، فالملك النوميدي لم يسرح جيشه، ولو أنه أبرم الصلح. وهو يقف على مسافة قليلة من المدينة الكبيرة. بينما أنصاره كادوا يدخلونها. ولابد من الإسراع لمعاقبة قرطاجة على مهاجمتها لمَسِنيسّا، قبل أن يدافع عنها هو – مَسِنيسّا – بعدما يصبح سيداً عليها.

الفصل الثامن

نهاية قرطاجة

1

إن بعضا من الرومانيين المعاصرين للحرب البونيقية الثالثة، قد كتبوا عن هذه الحرب. ومن بين هؤلاء فانْيوس Fannius الذي نعلم أنه شارك في الزحف على قرطاجة. ولكن لم يبق لنا شيء مما كتب [92].

أما پوليب Polybe فإنه وصل – على ما يحتمل – إلى إفريقيا في السنة الثالثة من الحرب، صحبة صديقه سِپْيون الإميلي Scipion Emilien الذي كان قد أصبح قنصلا. وقد شاهد قسما من الحصار، كما حضر عملية الاستيلاء على المدينة. أما الأحداث التي لم يشاهدها بنفسه فلقد تلقى أنباءها إما من سِپْيون نفسه وإما من بعض الرومانيين الذين شاركوا في العمليات العسكرية. ونأسف على أن ما بقي من روايته إنما هو مقتطفات [93] وهي فقرات تمكننا من ملاحظة أن ديودور الصقلي Diodore de Sicile وأپْيان Appien قد اعتمدا على پوليب. وأپْيان يذكره باسمه. وإذا كان ديورور لم يبق منه إلا مقتطفات

هزيلة، فإن رواية أپيان لا تزال لدينا كاملة، وتعرفنا ببعض التفصيل بنهاية قرطاجة [94].

ولكن هل نقل هذان الكاتبان مباشرة عن پوليب وحده ؟ الأمر لا يُشك فيه بالنسبة لديُودُور Diodore الذي قد يلخص پوليب ولكنه أحيانا كان يستخدم تعابير پوليب بنفسها، ثم إنه لا يورد خبرا يفرض القول باعتماده على مصدر آخر. أما بالنسبة لأپْيان فقد افترض البعض له كاتبا واسطة، كأحد الإخباريين الرومانيين، الذي قد يكون أضاف لپوليب بعض الإضافات وإن كانت لا قيمة لها. ونحن لا نرى لزوما لهذا الافتراض. فانعدام التطابق اللفظي بين أپْيان وپوليب، إنما يبرهن على أن أپْيان - باعتباره كاتبا - كان يطمح إلى أن تكون له أصالته. ولا يجب أن نستغرب من وجود الخطب الطويلة فيما يرويه، ولا من إسهابه في وصف المشاهد الدرامية. فكل ذلك لم يأخذه عن پوليب وإنما كان من قبيل الرياضة القلمية التي كان يحلو له تعاطيها. وعلى النقيض من ذلك استحسن إلغاء الكلام عن بعض المشاهد الأخرى مثل المقابلة التي جرت بين القائد القرطاجي حَسْدربَعْل والملك گُلوسا Gulussa. ويحسن أن نترك على عهدته مختلف الأخطاء التي ارتكبها، لأن الدقة لم تكن صفته الواضحة. ولربما أنه كان أحيانا يسيء فهم نص قرأه بسرعة بالغة، ويأبى مع ذلك إلا أن يورده مع إدخال بعض التحوير عليه في الشكل. وقد حدث له أن غيّر مواقع بعض الجزئيات، بل وأضاف غيرها عن حسن نية مقتنعا أن الأشياء جرت كما حكاها هو، وأن روايته تكون أوضح إذا أخذت هذه الجزئيات مكانها فيها. ولكن، حسب رأينا، لا نجد بأي مكان عند أپْيان برهانا واضحا على أن أقوال پوليب تشوبها أخبار منقولة عن الغير. وبهذا يبدو أنه اعتمد على المؤرخ الإغريقي مباشرة، وعليه وحده.

كان بْلوتارك Plutarque قد كتب ترجمة لسِپيون الإميلي، ولكنها اليوم ضائعة. ويحتمل أنه فيما يخص الحرب البونيقية الثالثة، قد اعتمد على پوليب. ولدينا بعض المقتطفات من بلوتارك حول هذه الحرب، ولربما إنها مقتطفات مأخوذة من ترجمة حياة سِپْيون، بل إن أحد هذه المقتطفات مأذخوذ من پوليب بالتأكيد. ولا مانع من الافتراض بأن الفقرات الأخرى ترجع لنفس الأصل هي أيضا.

وكذلك، فإن الحرب الأخيرة بين رومة وقرطاجة، قد تحدث عنها تيتْ ليف Tite-Live في كتبه التاسع والأربعين (XLIX)، والخمسين (L) والواحد والخمسين (LI) وكلها لم تصل إلينا. ولكن بقيت لنا منها مختصرات، كتبت على ما يحتمل عن ملخص كتب بدوره في القرن الميلادي الأول. ويجب أن يظاف لما ذكر سابقا قطع قصيرة من فلوروس Florus، ومن كتاب عن "الرجال العظماء""De viris illustribus" ومن أوتروب Eutrope، وبول أوروز Paul Orose، وكلها اعتمدت بواسطة على تيتْ ليف. وبقدر ما نستطيع الحكم، فإن المؤرخ اللاتاني قد تابع هو أيضا پوليب، ولو أنه هنا وهناك يورد بعض الروايات المختلفة وبعض الجزئيات التي لاشك أنه لم يأخذها عمن عاصروا سقوط قرطاجة، وإنما أخذها عن كتاب من العهود الموالية مثل فاليرْيوس أنْتياس Valerius antias، وكْلوديْوس كادْريگاريوس C. Quadrigarius وغيرهما. وقد كانت هذه هي طريقته في روايته للأحداث العسكرية التي شاهدتها إفريقيا عند نهاية حرب حنِّيبَعْل.

ونجد عرضا سريعا عن الحرب البونيقية الثالثة في زوناراس Zonaras الذي لخص دِيون كاسْيوس. وهو عادة يكاد يتفق مع رواية پوليب التي اعتمدها كل من أپْيان وديودور الصقلي. ومع ذلك نجد لديه أختيارا من

أصل مغاير. إذ يبدو أن ديون كاسيوس أعطا أهمية أقل مما أعطاه پوليب للدور الذي لعبه سِپْيون أثناء السنة الأولى للحرب. وذكر رواية مغايرة لرواية أپْيان عن الهجومين الذين قام بهما الرومانيون بحي ميگارا Mégara في ربيع سنة 147. والمؤكد هو أنه لم ينقل مباشرة عن پوليب لأن المؤرخ الذي اعتمده كاسْيوس كان على أغلب الظن من الإخباريين الرومانيين. فهل يكون هذا الإخباري مزج بين رواية پوليب وبين معلومات أخرى مستقاة من مصدر واحد أو أكثر ؟ وهل كان شاهد عيان استطاع في أغلب الأحيان أن يعرف الحقيقة، واهتم بقولها ؟ وإنه لهذين السببين كان على العموم يتطابق مع المؤرخ الإغريقي العظيم پوليب ؟ نعتقد أن إيجاز زوناراس لا يساعدنا على الاختيار بين هذين الافتراضين.

2

بمجرد ما أُعْلم الرومانيين بما جرى بين مَسنيسّا وقرطاجة، حشدوا الجيوش من جميع إيطاليا، دون أن يعلنوا عن نواياهم. ولم يكن القرطاجيون يجهلون أنهم المقصودون بهذا التهديد، إذ كانوا يعلمون جيدا أنهم نقضوا معاهدة سِپْيون الإفريقي. ومع أنهم ارتكبوا ذنبهم هذا في ظروف تجعلهم مظنة للعفو، فإن رومة كانت تستعد لمعاقبتهم. فهل يستطيعون مقاومتها بعد الكارثة التي حطمت جيشهم ؟ لذلك حاولوا العمل لاستلانة جانبها.

فحكموا بالموت على الحاكم العسكري (Béotharque) حَسْدربَعْل، وعلى سلفه كَرْتَلون وكذلك على عدد آخر ممن كان لهم ضلع كبير في الأحداث الأخيرة، بقصد أن تقع عليهم مسؤولية الحرب ضد مَسِنيسّا.

فأما حسدربعل فقد فر. ويحتمل أن المساعدة بذلت له في ذلك. وبعد زمن قليل ظهر على مقربة من المدينة على رأس 20.000 جندي.

وأرسل إلى روما وفدا يتهم في آن واحد مَسِنيسّا وهؤلاء الرجال الذين حاربوه بعجلة وتهور، فعرضوا للخطر وطنهم بما فعلوه، وقد سأل أحد الشيوخ أعضاء الوفد قائلا : «ولماذا حكمتم عليهم بعد هزيمتكم، وليس بمجرد بدء الحرب ؟» فلم يجيبوا. فأعلن مجلس الشيوخ أن الإيضاحات التي قدمت له لا ترضي الرومانيين مطلقا. فأصابت السفراء الحيرة، وطرحوا هذا السؤال : «إذا كنتم تعتقدوننا مذنبين، فكيف السبيل لحصولنا على العفو ؟» فكان الجواب : «بإعطاء الترضية للرومانيين».

كان مواطنوهم - القرطاجيون - يتساءلون عن نوع الترضية المطلوبة بهذه الألفاظ الغامضة. هل المقصود إضافة مبالغ جديدة إلى التعويض الذي فرضته معاهدة سنة 201، والذي وقع أداؤه عن آخره ؟ أو التخلي نهائيا لمَسِنيسّا عن كل ما استولى عليه ؟ وذهب إلى إيطاليا موفدون آخرون يلتمسون من مجلس الشيوخ توضيح ما يريده، فكان الجواب، هو أن القرطاجيين يعرفون ذلك جيدا ثم صرفوا.

كانت روما لا تريد التعريف بقرارها القاضي بتدمير قرطاجة، إلا عندما يكون القرطاجيون غير قادرين تماما على الوقوف في وجه هذا القرار. فإذا كانت روما تحشد جيشا عظيما، وإذا كانت تنوي نقل هذا الجيش إلى إفريقيا، فإنها لم تكن تود استخدامه في القتال، وإنما كان ذلك عملية للتخويف، شأنها شأن هذه الأجوبة الغامضة التي يقصد بها مضاعفة البلبلة في نفوس من يأتون لطلبها. ولكي تخفف من حدة الغضب الروماني، فإن قرطاجة قد تقوم بتضحيات تحرمها من وسائلها

الدفاعية، وإذ ذاك يبلغ لها الحكم القاضي، وستخضع له دون شك، وبذلك فإن الفيالق الرومانية Légions لن يكون لها من عمل غير أن تدك المدينة التي غادرها سكانها. لقد كان القرطاجيون طبعا على علم بالاقتراح الذي كان كاتون Caton يكرره في كل الاجتماعات التي يعقدها مجلس الشيوخ، كما كانوا يعرفون عمليات حشد الجنود الواقعة بجميع أنحاء إيطاليا. فكان بالإمكان أن يقتنعوا أن رأي رجل الدولة – كاتون Caton – قد انتصر في الأخير، ولكنهم مع ذلك وقعوا في الشرك الذي نصب لهم.

وبينما القرطاجيون يتداولون فيما يجب اتخاذه إذا بأوتيكا Utique التي هي المدينة الثانية بشمال إفريقيا، تبعث عنها إلى رومة وفدا ليعلن أنها تهب نفسها للرومانيين. لقد كانت منذ أمد بعيد تحسد جارتها وتكرهها، ثم تخلت عنها لما اقتنعت بأنها مقضيٌّ عليها. ولربما أن رومة هي التي دفعت بها إلى هذا الانفصال، إذ كان في منفعتها أن تضمن لنفسها بجوار قرطاجة ميناء لإنزال جيوشها ونقطة ارتكاز لقواتها.

وانتهت الاستعدادات العسكرية. فاجتمع مجلس الشيوخ بالكابتول Capitole وأعلن الحرب على القرطاجيين، وأمر القنصلين بالذهاب، وذلك ما فعلاه. فذهبا إلى صقلية، ومنها يذهبان إلى أوتيكا عبر مدينة ليلبي. وكان ذلك في بداية ربيع سنة 149 (95).

كان الجيش يتألف من 80.000 من المشاة ومن نحو 4000 من الفرسان. فبينما كانت رومة، منذ سنتين من قبل، تجد صعوبة في العثور على الرجال المستعدين للذهاب لمواجهة الإسبانيين الأشداء، إذا بحشود المتطوعين يأتون اليوم للانخراط في الجيش، وللمشاركة في حملة لاشك

في نهايتها، وتعد بمنافع أكثر مما فيها من أخطار. أما الأسطول فكان يضم خمسين سفينة خماسية، ومائة سفينة حربية من حجم صغير، كما يضم عددا كبيرا من سفن أخرى غير مسلحة من ناقلات وسفن خفيفة.

كان القنصلان هما: أولاً مانْيوس مَنِلْيوس M. Manilius الذي أسندت إليه قيادة الجيوش البرية، والثاني لوكْيوس مَرْكيوس كِنْصورينوس L. Marcius Censorinus وإليه أسندت قيادة الأسطول. وكان الأول يتقن فن الخطابة، بينما الثاني كان له ميل إلى الفلسفة. وسنرى قريبا قيمتهما في قيادة الجيوش.

ومن بين الضباط العسكريين الذين صحبوهما، كان يوجد بوبْليوس كُرْنيليوس سِپْيون إمليانوس (سِپْيون الإميلي)، الذي سيهدم قرطاجة بعد ثلاث سنوات. وهو ابن لوكيوس إيميليوس باوْلوس L. Aemilius Paulus قاهر اللوزيتانيين (البرتغاليين)، والليغوريين، والملك پِرْصي Persée. وكان بوبْليوس هذا قد تبناه الابن الأكبر لسِپْيون الإفريقي. وكان قد اشتهر في سنة 151 بمعركته ضد الأسبان، كما أنه في السنة الموالية بعثه رئيسه في مهمة لدى مَسِنيسّا كما سبق أن أشرنا لذلك. وفي سنة 149 كان عمره يبلغ 35 أو 36 سنة، وكان يمتاز بصحة قوية، ويحب الحياة في الهواء الطلق والقيام بالتمرينات الرياضية، ويتحاشى الإفراط في كل ما من شأنه أن يضعف بدنه. وعلى غرار سِپْيون الإفريقي، كان بوبْليوس هذا في آن واحد مقداما ورزينا. وفي حياته الخاصة كان يبدو لطيف العشرة، بسيطا، نزيها وكثير التعلق بأصدقائه. أحب الدراسات الجادة وهو لا يزال يافعا، ولما اتصل ببوليب Polybe اتصالا وثيقا تلقى عنه الآداب الإغريقية، وأخذ من الحضارة الهيلينية أجمل جوانبها، دون أن يضيع الميزات الرومانية القوية.

وأستاذه پوليب هو الذي سيصبح مؤرخا له. فمنذ السنة الأولى للحرب نجد الأعمال البطولية التي قام بها سِپْيون طافحة في رواية أپْيان الذي استقى من پوليب. وكان هذا الأخير قد نبه قراءه إلى أنه لا يترك حيزا كبيرا لأعمال بوبْليوس وأقواله. والمتأكد هو أن پوليب كان على استعداد كبير لتمجيد الرجل الذي كان يبدي له الود الصادق، والذي كوّن له فطنته. ولكنه لم يكن يبالغ في ذلك كثيرا. وسلوك سِپْيون أيام كان ضابطا استحق التنويه الحسن من كاتون الشيخ Caton l'Ancien الذي قليلا ما ينوه بأحد. وبهذا التنويه نال بعد بضعة أشهر ثقة جميع الشعب الروماني.

من المحتمل أن پوليب، بعدما رافق صديقه إلى أسبانيا وإفريقيا، نال حول سنة 150 الإذن بالرجوع إلى بلاد الإغريق مع بضع مئات من مواطنيه الذين كانوا معتقلين في إيطاليا منذ 17سنة. وفي بداية ربيع السنة الموالية، طلبه مَنيلْيوس، الذي كتب إلى الآخيّين Achéens يرجوهم إرساله فورا إلى ليلبي، لأنه يمكن أن يقوم ببعض الخدمات هناك. فلاشك إذن أن سِپْيون نبه قائده إلى أن نصائح رجل عارف بالفنون العسكرية ستكون مجدية إذا أصبح القتال ضروريا. فأبحر الإغريق دون بطء. ولما وصل إلى كُرْسير Corcyre وجد بها رسالة بعث بها القنصلان إلى حاكم الموقع، يقولان فيها إن القرطاجيين قد سلموا لهما جميع الرهائن وأنهم مستعدون لطاعتهما في جميع ما يأمرانهم به. فاعتبر پوليب أن الحرب قد وقع تجنبها، ولم تعد هناك من حاجة تدعو لحضوره، فعاد إلى البِلوبُنيز Péloponèse. ويبدو جيدا أنه مكث هناك إلى أن أصبح سِپْيون قنصلا.

لم يكن القرطاجيون يظنون أنهم قادرون على مواجهة الصراع، ولا على تحمل الحصار، لأنهم لم يتزودوا بالمؤن الضرورية لإطعام مدينتهم.

وأفضت بهم خيانة جيرانهم إلى الاقتناع بأن حظهم الوحيد هو في غل أيدي الرومانيين عنهم بالاستسلام الكامل لهم – ولكن أوتيكا نزعت لهم فضل السبق لهذه التضحية، وبهذا سيكون عملهم مقتصرا على الاقتداء بما فعلت. وبعد مناقشات طويلة، عينوا وفدا من خمسة أعضاء خولت لهم كامل الصلاحيات، بحيث كان على هؤلاء السفراء أن يجاروا الظروف لاتخاذ الوسائل الكفيلة لحماية الجمهورية من الكارثة. وعند وصولهم إلى رومة علموا أن الحرب تقررت وأن القنصلين قد ذهبا مع الجيش والأسطول. فلم يعد للمواربة مكان. وقرروا أن يضعوا وطنهم تحت رحمة الرومانيين.

بعد إعلانهم بهذا التصريح، طُلب منهم على عجل أن يمثلوا أمام مجلس الشيوخ. ونظرا لتغيب القنصلين، فإن الرئيس الذي كان آنداك هو قاضي الحَضَر Préteur urbain أنبأهم بقرارات المجلس. وهي أنه اعتبارا للقرار الحكيم الذي اتخذوه، فالمجلس يترك للقرطاجيين حريتهم، وقوانينهم، ومقاطعاتهم الترابية، وتملكهم لجميع ممتلكاتهم الأخرى العمومية والخاصة. ولكن القاضي الرئيس أضاف قائلا إن هذه الإنعامات مخولة لهم بشرطين هما : أن يرسلوا قبل ثلاثين يوما إلى ليلبي بثلاثمائة من الرهائن، الذين يُختارون من بين أبناء مجلس الشيوخ القرطاجي ومن أبناء هيأته الإدارية، وأن يطيع القرطاجيون الأوامر التي سيعطيها لهم القنصلان. فانتابت السفراء الحيرة بعد سرورهم لما سمعوا الكلمات الأولى، وساءلوا أنفسهم عن هذه الأوامر ما هي.

وعادوا إلى قرطاجة، حيث جرت الموافقة على ما فعلوه، مع مشاركتهم في مخاوفهم، إذ كان السؤال المردد هو لماذا سكت مجلس الشيوخ عن ذكر المدينة ؟ وكان هناك شخص يُدعى ماگون ويحمل لقب

البروتي Bruttien. فقام وتجرأ على إسماع الحاضرين صوت العقل، قائلا : لقد وقع الاستسلام لرحمة رومة، ولكن في الإمكان الرجوع عن هذا القرار وقبول الحرب بجميع شرورها، وإلا فمن العبث البحث عن السبب الذي جعل المجلس يسكت عن المدينة، وكذلك البحث لمعرفة ما سيفرضه القنصلان. فليس هناك سوى طاعة جميع الأوامر الواردة، ما لم تكن قد بلغت قسوتها حدا غير منتظر. ونظيف أن هذا الاستثناء لم يكن له محل، لأن قرطاجة لم يعد لها من خيار إلاّ أن تستسلم حتى الانتحار أو أن تقاوم بتدفع اليائس.

كانوا جميعا يخشون عواقب الحرب، ولذلك انقادوا جميعا إلى الطاعة. فوقع الاختيار على ثلاثمائة شاب قادهم إلى الميناء أهاليهم وأصدقاؤهم باكين، وكان تحسر النساء اللواتي انضممن إلى الموكب يجعل المشهد أشد إيلاما. ولما نزلت الرهائن بليلبي، عَهِد بهم القنصلان مَنيليوس Malinius وكنْصورينوس Consorinus إلى قاضي صقلية الذي أرسلهم إلى رومة.

إن انقياد القرطاجيين جعل القنصلين يأملان أن لا يحتاجا لاستعمال القوة في فرض الأوامر التي كلفا بها. ولكن كان عليهما أن يكشفا القناع عن هذه الأوامر في إفريقيا وعلى رأس جيوشهما، ليُفهما الناس أن كل محاولة للمقاومة ستكسر في الحال. وقد عبرا المضيق، ونزلا في أوتيكا Utique واستقرا مع الجيش بالمعسكر العالي، الذي كان يشغله سِپْيون قبل هذا العهد بخمسين سنة.

وأصاب الذعر القرطاجيين، فبعثوا عنهم إلى القنصلين وفدا للتعرف على المصير المهيأ لهم، وليخبروا أنهم على استعداد للطاعة. فتكلم أكبر القنصلين سناً وهنأهم على حسن استعدادهم ثم أمرهم

بتسليم جميع أسلحتهم والاتهم الحربية. فأعلنوا أن هذا الأمر سينفذ، ولكن كيف يمكن للمدينة أن تدافع على نفسها ضد حَسْدربَعْل المحكوم عليه بالإعدام، وهو يهددها ومعه 20.000 رجل ؟ فكان الجواب هو أن الرومانيين سيتكلفون به. وعادت السفارة إلى قرطاجة صحبة بوبْليوس كُرْنيليوس سِپْيون نازيكا ابن خصم كاتون، وكذلك صحبة كنايوس كُرينيليوس سِپْيون هِسْبانوس Hispanus. فاستلما 20.000 من الأسلحة ونحو 2000 من الآلات، وحمل كل ذلك إلى معسكر أوتيكا، وبعد إنجاز هذه الأعمال طلب القنصلان من مجلس الشيوخ بقرطاجة أن يبعث إليهما ببعض أعضائه ليخبراهم بأوامر مجلس شيوخ رومة الأخرى. فتألف الوفد من ثلاثين شخصية من صدور المدينة. ولما حضروا عرّفهم أحد القنصلين بالقرار الذي مكث في السر حتى تلك اللحظة، وهو أن القرطاجيين يجب عليهم الجلاء عن مدينتهم التي قررت رومة تهديمها، وأن عليهم أن يذهبو للاستقرار حيث يشاؤون، بشرط أن يبتعدوا ثمانين اسْطاداً (أي 14200متر) على الأقل عن البحر.

حزّ اليأس في نفوس المبعوثين، فتمرغوا في التراب، وانطلقت من صدورهم التأوهات العميقة، ثم إن أحدهم وهو بانّو Banno طالب أن يُؤذن له بالكلام، ولربما أن پوليب لم يختلق تماما الخطاب الذي عزاه إليه، والذي يبدو أن أپْيان أورده بكيفية صادقة إلى حد ما. قال بانو : ليس الوقت وقت مناقشة القضية قانونيا، ففي هذه الساعة لا يخاطب القرطاجيون إلا شفقة الرومانيين. وهم جديرون بها، لأنهم طوال سنين عديدة حافظوا على معاهدة سِپْيون، وهم الآن يستسلمون لكل ما يطلب منهم. على أن مجلس الشيوخ الروماني كان من جهته قد تعهد بأن يترك لهم قوانينهم، فكيف يحافظ لهم على هذا التعهد إذا هدمت قرطاجة ؟ وماهي التكريمات التي تتقبلها الآن ألهتهم وموتاهم الذين هم برءاء ؟

وأي وسائل للعيش يجدونها بعيدا عن البحر الذي يعيش منه معظمهم ؟ إن رومة لن تريد تلطيخ مجادتها بعمل غير عادل كهذا. ثم التمس الخطيب من القنصلين مهلة لا أكثر، ليستطيع وطنه إرسال الموفدين إلى إيطاليا لمجلس الشيوخ.

فردّ كنْصورينْيون أو مانيلْيوس على بانّو، بادلاً جهده ليؤكد له أن البحر كان سبب شقاء مواطنيه، وأن الأحسن لهم هو الابتعاد عن المواطن التي تذكّرهم رأيتها بعظمتهم السالفة وتذكي فيهم الحسرة. ويمكن الاعتقاد بأن خطاب القنصل لم يكن طويلا جدا. إذ كان يكفيه أن يؤكد بأن أمر مجلس الشيوخ لا مرد له، وأنه مع زميله قد كلفا قبل مغادرتهما لرومة بتنفيذ الأمر مهما كانت الحال.

ودعي الموفدون إلى الذهاب لإبلاغ هذا الأمر إلى القرطاجيين. ولكن توقّعاً منهم لما سيحدث، قالوا : «سيحيق بنا الموت قبل أن نتمم كلامنا. فنتقدم إليكم برجاء، ليس لأنفسنا، فنحن مستعدون لتحمل كل الآلام، بل لقرطاجة. إذ يجب أن يدفعها الخوف لتقبل مصيرها. فابعثوا بسفنكم نحو المدينة عند عودتنا إليها. فبرأية هذه السفن وبالاستماع إلينا سيفهم الجميع ضرورة الرضوخ». وبعد ذلك ذهبوا، كما ذهب كنصورينوس للإرساء أمام قرطاجة بعشرين سفينة خماسية.

وخلال الطريق فر بعض الموفدين، أما الآخرون فوصلوا المدينة وهم واجمون. وكانت جماهير الناس تنتظرهم بلهفة فوق أسوار المدينة وعلى طريق أوتيكا. وكان الموفدون يتقدمون دون أن يجيبوا على الأسئلة، غير أن الأسى البادي على وجوههم، كان علامة شؤم جعلت الناس من حولهم يبكون ويتألمون. وعند باب السور كادت الجموع المحيطة بهم تخنقهم بالازدحام لكنهم أعلنوا أنهم لن يتكلموا إلا أمام

المشيخة. ففتح لهم وسط الزحمة ممر لكي يعرف الناس عاجلا ما يريدون قوله. ولما فاهوا بتقريرهم أمام المجلس علا صوت النحيب. فسمع الشعب ذلك من الساحة واقتحم القاعة. فكانت الحال أشبه بفورة جنونية عاتية. وجرى اتهام بعض الشيوخ بالخيانة، وحتى الذين حملوا الشنيعة أُخذوا ومُزقوا ورُجموا بالحجارة، وجُرّت جثثهم في الطريق. ثم انقض الناس على الإيطاليين الذين كانوا لا يزالون في قرطاجة وقتلوهم. ثم تجارى الناس إلى الأبواب فأغلقوها، كما لو أن الرومانيين قادمون فورا، وعلى الأسوار وضعت أكداس الحجارة لتكون قذائف.

في نفس اليوم أعلن مجلس الشيوخ القرطاجي الحرب، كما أعلن تحرير العبيد. وانتخب قائدان هما حَسْدربَعْل الذي حكم عليه بالموت من قبل، وحَسْدربَعْل آخر وهو ابن بنت مَسِنيسّا. والتمسوا من الأول أن ينسى الحكم الجائر الذي أملاه الخوف من الرومانيين، وأن ينقذ وطنه. وكلف بتسيير العمليات الحربية خارج المدينة، لأنه كان متوفرا على جيش صغير. أما الثاني فكلف بالدفاع عن المدينة. وحباً في ربح الوقت، طلبت من القنصلين هدنة بثلاثين يوما قصد إرسال بعثة إلى روما لكن هذا الطلب رفض. فجرى الاستعداد للحرب بحماس شديد، وتحولت الحوزات المقدسة، والمعابد وجميع الأمكنة المتسعة إلى مصانع يشتغل فيها الرجال والنساء ليلا ونهارا. بحيث كان يتم في كل يوم صنع 100 ذرع، و300 سيف و500 رمح وحربة، و1000 سهم للمنجنيقات، وما يستطاع صنعه من المنجنيقات. ولم تكن الحبال موجودة لهذه الآلات. فأعطت النساء شعورهن، كما وهبن حلاهن الذهبية قصد مضاعفة الموارد المالية للجمهورية. وبالطبع فإن سور المدينة جعل في حالة تمكن من الدفاع. وخشية من أن يستولي الرومانيون على المسطح الذي كان قرب مدخل الميناء ويستعمل محطا للنزول، فقد أقيم فوقه سور. أما حَسْدربَعْل الذي

كان مسيطرا على المقاطعة البونيقية، فكان يبعث بالزاد. وعلى ما يظهر فإن الرعايا الليبيين مكثوا على إخلاصهم. غير أن بعض المستوطنات البحرية المهمة اقتدت بما فعلته أوتيكا، وهي هدْروميت، ولِبْتيس، وثَبْسوس وأشولا، ولربما حتى أوسيلا Usilla وهناك مدينة أخرى وهبت نفسها للرومانيين وهي ثُدَلِيس Thudalis التي كانت تبعد قليلا عن ساحل البحر بجهة بِنْزَرت.

لم يسارع القنصلان في المبادأة بالحرب. لأنهما كانا مقتنعين بالدخول متى يشاءان إلى المدينة المجردة من السلاح. ولكنهما كانا يفضلان تجنب صراع غالي الثمن يفرضه الاستيلاء عنوة على قرطاجة وتدمير الجيش المسيطر على الأرياف، (أي جيش حَسْدربَعْل). وكانا يأملان أن الزمن والتبصر سيدفعان بالقرطاجيين إلى الطاعة. وكان طلب الهدنة علامة حسنة في حد ذاتها. ولخداع القنصلين بهذا الوهم، كان بعض الناس يأتون من المدينة، ويغامرون أحيانا حتى يصلوا للمعسكر الروماني لسبب أو لآخر، ويتصنعون الذعر وهم يقولون حيث إننا لا سلاح لنا، فلابد أن نختار من بين جميع الشرور أخفها.

كان لابد من تأمين التموين لجيش جرار، ولم يكن ذلك أمرا سهلا، لأن الطعام في إفريقيا لا يمكن أن يؤخذ إلا من المدن البحرية التي كانت موالية لرومة. وكان موقف مَسِنيسّا يسبب بعض القلق، لأن هذا الملك الذي حطم قوة قرطاجة، كان يرى أن غيره يتأهب لقطف ثمار جهوده الطويلة وانتصاره الأخير، وكان يأخذ على الرومانيين أنهم لم يخبروه حتى بمشاريعهم، خلافا لما سبق أن فعلوه أثناء الحربين السالفتين. فلما طلب منه القنصلان إرسال الجيوش المساعدة، أجاب: «سأبعث بها عندما أرى أنكما بحاجة إليها». وبعد ذلك بقليل بعث

يسألهما هل يريدان تلك الجيوش. فغضبا من وقاحته، وساورهما الشك فيه، وأجاباه قائلين : «عندما نحتاج إليها نعلمك بذلك». ولم يكونا يجهلان أن حفيذا لمسِنيسّا كان مكلفا بالدفاع عن قرطاجة.

وأخيرا فإن مانيلْيوس وكانْصورينوس ظهرا أمام المدينة بجيوشهما وأسطولهما، بزمن قليل قبل بداية الصيف على ما يحتمل.

في جميع عالم البحر الأبيض المتوسط، كان الناس يتحدثون عن الحدث العظيم الذي كان يتهيأ. ففي بلاد الإغريق - كما يقول پوليب - كانت الآراء مختلفة جدا حول سلوك رومة. فكان هناك من يحبذون عملها، قائلين إنها تحسن صنعا بتدمير المدينة التي طالما نافستها على السيادة، والتي يمكنها إذا واتتها الظروف أن تنازعها فيها مرة أخرى. وهؤلاء الرجال كانوا ينخدعون بملهاة كاتون Caton، ويتصورون أن رومة لاتزال خائفة من مواطني حنّبيَعْل. أما غيرهم فكانوا ينتقدون مطامعها التي تجاوزت الحد، وقسوتها على قرطاجة التي لم تقترف ذنبا لا يغفر، والتي انقادت لتطيع في جميع ما يفرض عليها. وكانوا يؤكدون أيضا أن الرومانيين قد تصرفوا تصرفا غير مستقيم عندما لم يعبروا بوضوح عن نواياهم. ولكن كان يجيب الغير بأن الرومانيين لم يعطوا للقرطاجيين أي وعد لم يفوا به.

3

تقاسم القنصلان العمل فيما بينهما. بحيث كان على مانيلْيوس من ناحية البرزخ، أن يملأ الحفير ويعبر خط الاستحكامات المثلث، وعلى كنْصورينوس أن يقتحم قسم السور الذي كان يربط هذا الخط

بمدخل الميناءين والذي كان يمر حول منطلق الحاجز الفاصل بين بحيرة تونس والبحر، لأن السور هنا كان أقل ارتفاعا وأضعف مما في الجهات الأخرى.

كان الرومانيون يتصورون أنهم يكاد يكفيهم أن ينصبوا السلالم على الأرض أو على سفنهم، وأن يوكئوها على الأسوار. فأي مقاومة يمكن أن يواجههم بها قوم يظنونهم مجردين من أي سلاح ؟ ولكن القرطاجيين خطّأوا ظنهم وأرغموهم على التراجع. ثم جرت محاولة ثانية للهجوم ولم يحالفها النجاح أيضا. وكان حَسْدربَعْل يعسكر وراء البحيرة، على مسافة قليلة خلف القائمين بالحصار. وفي هذا خطر كان لابد من أخذ الاحتياط منه. ولذلك أقام القنصلان معسكرين حصينين: فكان كنصورينوس على ضفة البحيرة، تحت أسوار المدينة. وكان مانيلْيوس على البرزخ. ثم عبر كنْصورينوس البحيرة وذهب للبحث عن المواد الصالحة لصنع الآلات. ولكن حيملْكَون المعروف بلقب فَمايَاس Phamaïas، وهو قائد الخيالة البونيقية فاجأ الرومانيين وهم يقطعون الأشجار وقتل منهم نحو خمسمائة فرد. ومع ذلك استطاع قائدهم أن يعود بكمية من الخشب وأن يصنع آلات وسلالم. وقام مع زميله بهجمات أخرى باءت بالفشل كسابقاتها. وبعد جهود جديدة استطاع مانيلْيوس بمشقة كبيرة أن يصل للسور الأمامي. فلما استحال عليه أن يسير قدماً تخلى عن عمليته.

أما كنْصورينوس فقد ردم البحيرة على طول الحاجز، لكي يتوفر له مجال أوسع. ثم قدّم بُرْجَين كبيرين بينهما الكباش الصادمة. وكان أحد البرجين – على قول أپْيان – يحركه 6000 من المشاة بقيادة الضباط، والثاني كان يحركه المجدفون تحت إمرة قادة السفن.

فانهدم قسم من السور. ولكن القرطاجيين رمموا في الليل ما تهدم، بل تجرأوا على القيام بغارة وأحرقوا الآلتين. ومع ذلك ففي اليوم الموالي توغل الرومانيون من ثغرة لم تكن قد سدت تماما. فوجدوا أمامهم مجالا واسعا عاريا وقد اصطف به الأعداء للمعركة، حيث كان الرجال المسلحون يكوّنون الجبهة، ومن خلفهم كان يقف آخرون يحملون العصيّ والأحجار، بينما غيرهم - وهم الأكثر عددا - كانوا على سطوح المنازل المحيطة بالساحة. فقام جيش كنصورينوس بحملة جريئة، ولكنه هوجم من كل جهة وتراجع للخلف. أما سِپْيون الإميلي فقد احتاط للأمر، فأبقى بجانبه الجنود الذين كانوا تحت إمرته، وجعلهم على الأسوار ليحموا الجيش المتراجع.

تخلى القنصلان عن الهجمات التي لا تجدي، وانقادا لضرب حصار طويل وشاق. وكان حَسْدربَعْل وفَماياس يراقبان عن كتب الأحواز التي كانت المغامرة فيها بالغة الخطورة. أما معسكر كنصورينوس، فكان الجنود فيه يتألمون كثيرا من حرارة الصيف، وكانت الروائح الكريهة تنبعث من المياه الآسنة في البحيرة، كما كان ارتفاع الأسوار يصد نسمات البحر عن الوصول إلى الرومانيين، وتكاثر عدد المرضى جدا. لذلك قرر القائد نقل معسكره إلى ساحل البحر، أي إلى الحاجز بالجنوب الغربي لخليج الكَرم، بينما السفن كانت راسية لاشك على طول الحاجز بجهة الشرق. وقد حاول القرطاجيون تدميرها، إذ أنهم كانوا عندما تهب الريح المواتية يرسلون القوارب بقلوعها المنشورة، بعدما يملأونها بالخشب اليابس ومشاقات الكتان، ويلهبون النار في ذلك بالكبريت والقار. وقد أحدثت هذه الحراقات خسائر عظيمة في أسطول العدو.

بعد ذلك بقليل عاد كنْصورينوس إلى إيطاليا ليرأس الانتخابات. وفي أثناء طريقه استولى على جزيرة إيجيمور Aegimure (زمبرة)، وهي صخرة واقعة عند مدخل خليج قرطاجة. ولم يكن هذا عملا عظيما.

وقام المحصورون بدورهم بالهجوم. إذ تقدموا ذات ليل، وكان فيهم المسلحون وآخرون يحملون ألواحا، واجتازوا خندق معسكر مانيليوس وشرعوا ينتزعون سياجه. فبوغت الرومانيون وكانوا في وضع حرج. غير أن سِپْيون خرج بفرسانه من باب ينفتح على الجهة المقابلة للجهة التي هوجمت، ثم هجم على القرطاجيين الذين أصابهم الخوف ودخلوا لمدينتهم.

وكان هذا الإنذار درسا للقنصل الذي قوّى معسكره، وعوّض عن السياجات بالأسوار، كما أقام بجهة البحر حصنا صغيرا لحماية عملية إنزال الأطعمة التي كانت السفن تأتيه بها.

وقد قام بعد ذلك، صحبة 10.000 من المشاة و2000 من الفرسان بحملة على الأراضي الداخلية ليتزود بالخشب والعلف والأطعمة. وكان الضباط يتناوبون – كل في دوره – على قيادة الفرق المأخوذة من معظم الجيش لتلقي هذه المغانم. وكانوا يحسبون الحساب لفَماياس Phamaïas الشاب المقدام قائد خيالة قرطاجة، لأنه كان يكمن في الأدغال والشعاب، ويهاجم بغتة من لا يحترسون، ويوقع بهم أشد ما يمكن من الأذى ثم يختفي. على أنه لم يكن يظهر عندما يكون سِپْيون هو القائد، الأمر الذي جعل الضباط الآخرين يقولون – حسدا منهم لزميلهم – إن هذا السلوك لفماياس يمكن تفسيره بروابط التكريم بين أسرته وأسرة آل سِپْيون. بينما الحقيقة كانت أسهل من ذلك. وهي أن بوبْليوس كان

يتجنب المباغتات بمنع جنوده من التشتت أثناء السير، وكذلك بمراكز الحراسة وبالدوريات التي كانت تحمي الرجال المشتغلين في الحقول. وأخذت شهرته تعظم في الجيش. بل إنه كان يبعث الثقة حتى في نفوس الأهالي، لأنه كان يحترم بدقة ما يعدهم به، وكثيرا ما كان زملاؤه يعثرون على بعض الناس الذين سبق لهم أن اختفوا في بعض الملاجئ وأنهم عادوا فاستسلموا، ونالوا الإذن بالرجوع إلى منازلهم.

وكانت الحملة قد انتهت عندما حاول المحصورون أن يستولوا ليلا على الحصن الصغير المجاور للبحر. وكان ضجيج الهاجمين يجيبه ضجيج القرطاجيين الذين كانوا على أسوار المدينة، وكان القصد من هذه الضجة إثارة الذعر في نفوس الرومانيين، حتى إن مانيليوس لم يستطع أن يتبين موقع الخطر، وأبقى جيوشه بالمعسكر وإذ ذاك أخذ سِپْيون عشر كتائب، وأخذ المشاعل المتألّقة، وأمر هؤلاء الفرسان بعدم الهجوم، بل ينطلقون جرياً هنا وهناك، فيظن الأعداء أنهم سيواجهون قوات عديدة. وخوفا من أن يحاط بهم، فإنهم سيتراجعون، وذلك ما حصل فعلا.

أقام حَسْدربَعْل معسكره قريبا من نِفريس Néphéris. وهو اسم حلة Bourg واقعة على نحو ثلاثين كيلومترا بالجنوب الشرقي لمدينة تونس، على تل وعر يشرف من الغرب على "خنقة الحجاج" khangat el hedjaj التي هي شعب عميق وطويل ذو شكل بيضوي. ومن هنا كانت تمر الطريق المباشرة بين قرطاجة وخليج الحمّامات. فكان حَسْدربَعْل بذلك يتحكم في طريق المواصلات مع الساحل البحري الشرقي حيث مكثت مدينة نيابوليس Néapolis على وفائها. فكان بموقع أجادت الطبيعة تحصينه، كما زاد هو في تحصينه، وبذلك يستطيع في منجىً من

الرومانيين أن يراقبهم عن قرب، وأن يهاجمهم من الخلف إذا واتته الفرصة، لذلك قرر مانيليوس أن يذهب لمهاجمتهم.

فلما توغل الجيش في "الخنقة"، قلق سِپْيون مما كان يراه من عراقل الأرض، ومن الأجراف والشعاب والأدغال، بالإضافة إلى أن القرطاجيين كانوا بالمرتفعات. وكان الجيش قد وصل إلى حيث لا يفصله سوى ثلاث اسطادات عن حَسْدربَعْل، ولكن للوصول إليه كان لابد من الانحدار لعبور مجرى مائي، ثم الصعود من الجهة الأخرى. فاعتبر سِپْيون العملية خطيرة، وألح في النصح بالتراجع. غير أن الضباط الآخرين صاحوا بأن التراجع يكون خسّة وغلطا أيضا، لأن الأعداء سيتجرؤون بهذا الفرار وسينقضون على الرومانيين، فأشار سِپْيون برأي آخر. وهو أنه يحسن أن يقام المعسكر قبل المجرى المائي. بحيث إذا وقع فشل يكون هناك على الأقل ملجأ للجنود. ولكن زملاءه سخروا منه، بل إن أحدهم هدد برمي سيفه إذا كان سِپْيون هو الذي يقود دائما، وليس مانيليوس. وأخريا، فإن القنصل، وهو رجل ليس له خبرة في شؤون الحرب، أمر جيوشه بعبور النهر. فجرت معركة خلفت كثيرا من القتلى لدى الجانبين، ثم انسحب حَسْدربَعْل إلى معسكره الحصين، حيث لم يكن يخشى شيئا وحيث كان على أهبة لينقض على الرومانيين في حالة تراجعهم للوراء. وذلك هو ما فعلوه. وعند مرورهم ثانية بالشعب الذي كانت معابره قليلة وممراته صعبة الاستعمال، انحل نظامهم. فانتهز حَسْدربَعْل هذا التفكك وانقض عليهم، وقتل منهم جمعا كبيرا من الرجال الذين أصابهم الهلع ولم يدافعوا حتى على أنفسهم. وكان فيمن ماتوا ثلاثة من الضباط الذين سبق أن أشاروا بالهجوم. ولقد حافظ سِپْيون على رباطة جأشه في هذا الظرف العسير، إذ انتصب على رأس عدة مئات من الفرسان، وقسمهم إلى فصيلتين أمرهما أن تهاجما بالتناوب.

أي بمجرد ما ترمي إحدى الفصيلتين برماحها على العدوّ وتتراجع، تهبّ الأخرى لتفعل نفس الفعل، فلا تترك هذه المناورات للقرطاجيين مهلة، وترغمهم على صرف النظر على الجيوش الأخرى. وبالفعل استطاعت هذه الأخيرة أن تمر بالشعب، ثم عبره فرسان سِپْيون من بعد بمشقة كبيرة.

على أن أربع فرق (نحو 600 رجل) مفصولة عن النهر، كانت في بداية المعركة قد التجأت إلى أحد التلال، فجاء حَسْدربَعْل وأحاط بها. ولما تنبه الرومانيون لتغيبها ارتأى البعض ترك هؤلاء الرجال لمصيرهم، وعدم تعريض الجميع للضياع في سبيل سلامة بعض الأفراد. لكن سِپْيون صرح أنه سيخلصهم أو يموت معهم. ثم ذهب ومعه عدة كوكبات من الفرسان، وحمل معه من الطعام ما يكفي ليومين. ولما وصل إلى تل مجاور للذي كان عليه المحصورون، قام بمناورة ماهرة سببت فرار الأعداء الذين صار الحصار يهددهم. إذن فلقد كللت بالنجاح عمليته الجريئة. ولما التحق بالجيش نال تكريما عظيما، وهو الإكليل النباتي الذي كان الرومانيون يكللون به الأبطال الذين أنقدوهم بعدما يئسوا. غير أن الفرحة بهذا الحدث، لم تدم، ذلك أن الموتي، ومن بينهم عدة ضباط لم يدفنوا. فأطلق سِپْيون بعض الأسرى وبعثهم إلى حَسْدربَعْل يرجوه الأمر بدفن الضباط الثلاثة. فوافق حَسْدربَعْل على ذلك، وكان الضباط يُعرفون بالخاتم الذهبي الذي يحملونه (بينما الجنود ليس لهم سوى حلقات من حديد).

وعاد مانيليوس لمعسكره بالبرزخ. وفي الطريق واجه بعض هجمات فَماياس، بل واجه عند وصوله غارة قام بها القرطاجيون الذين لم يستطيعوا سوى قتل بعض الخدم.

وقدم بعض المنتدبين الذين كلفوا باجراء بحث، لأن رومة كانت بالطبع تعتبر أن الأشياء لا تسير على ما يرام في إفريقيا. فتلقوا الشهادات التي أجمعت على التقدير الذي يحضى به سلوك سِپْيون، حتى أن زملاءه أصبحوا يعترفون بمواهبه التي قل نظيرها. فأخبر الموفدون مجلس الشيوخ بهذا الثناء المجمع عليه، بالإضافة إلى أن الرسائل التي كانت تتلقاها أسَرُ الجنود وأصدقاؤهم قد سبقت وأذاعت شهرة الضابط سِپْيون. وكان كاتون Caton قبل موته بقليل يقول عنه متمثلا ببيت شعري لهوميروس: «هو وحده اللبيب والآخرون يتحركون كالأشباح».

على أن مجلس الشيوخ قد تأثر للإخفاق المتكرر الواقع بهذه الحملة، وقرر دعوة مَسِنيسّا لأن يساند القوات الرومانية مساندة فعالة.[96] ولكن السفراء الذين بعثوا إلى نوميديا وصلو متأخرين جدا. فقد كان مَسِنيسّا عند بداية سنة 148 أحس بمرضه [97]، فدعا إليه سِپْيون لمدينة سرْتا، قصد استشارته في كيفية تسوية خلافته، لأنه كان يشعر بالود الصادق لسِپْيون، الحفيد بالتبني لمن نصبه على مملكته. ونعلم أنه زاره قبل ذلك بسنتين، ولربما أنه رآه بعد ذلك. ومهما كان غضب مَسِنيسّا على رومة فلابد أن يشعر أنه يرتكب الخطأ بتفلته من وصايتها. ولذلك كان لا يجعلها تدخل رسميا، وإنما يشركها فيما يعتزم القيام به، عن طريق استشارته رجلا من أعلى الأسر الرومانية، لاشك في مستقبله الرفيع.

لما وصل بوبْليوس إلى سرتا كان الملك قد مات قبل ذلك بيومين. وكان قد نصح أبناءه قبل أن يلفظ نفسه باتباع قرارات سِپْيون. وبذلك فإن هذا الأخير الذي دعي للاستشارة، صار حكما وفقا للإرادة الأخيرة للهالك. فنحّى عن الحكم أبناء الجواري بعد أن ضاعف لهم ما كان

أبوهم وهبه لهم. أما الأبناء الشرعيون فكان عمر أكبرهم لا يقل عن خمسين سنة. وكانوا ثلاثة، هم : مِسِبْسا Micipsa وكُلوسا Gulussa، ومَسْتَنبعْل Mastanabal [98]. فقرر بوبْليوس أنهم - ثلاثتهم - يرثون الثروات التي خلفها مَسِنيسّا، ويتقاسمون المداخيل العمومية. ثم حدد لهم اختصاصات مختلفة، حسب مواهب كل واحد منهم. فنال مِسِبْسا العاصمة وإدارة المملكة، ونال كُلوسا قيادة الجيوش، بينما نال مَسْتَنَبَعْل السلطة القضائية.

وليس بمستطاعنا القول بأن هذه الترتيبات كانت مطابقة لما أراده مَسِنيسّا. فحسب القاعدة المعمول بها في الأسرة، كان بإمكان مَسِنيسّا أن يتولى بعد أبيه، لأنه أكبر أبنائه. ولكنه كان رجلا مسالما، منعدم الجرأة على ما يبدوا، وقد برهن على ذلك من بعد بسلوكه اتجاه يوغرطة Jugurtha. وأخوه الذي كان يصغره سنا، كان ذا مواهب عسكرية، وما كان ليرضى بمرتبة أقل. فمن الحيطة إذن إعطاؤه قسما من السلطة الملكية، ولعل مَسِنيسّا فكر في ذلك [99] أما أن تكون لرومة مصلحة في تقسيم السلط بين عدة أمراء، فذلك أمر لا جدال فيه، وقد فهمه سِپْيون لاشك.

وبمجرد ما سوى هذه القضية المهمة، عاد مع كُلوسا ومع النجدات النوميدية. وعرف الملك الجديد كيف يكون نافعا. فقد كان ذا خبرة بحرب المناوشات التى كان فَمايَاس يقوم بها . وبذلك فإن بعض الأهالي الذين مكثوا حتى ذلك العهد أوفياء لقرطاجة، قد خضعوا للرومانيين عن طواعية أو اضطرار. واستولى منيلوس على تازگا tezaga ونهبها. وهى مدينة يجهل اليوم مَوقعها.

وذات يوم التقى صدفة سِپْيون وفَماياس على جانبي شعب عميق كان يفصل بينهما ويجعل أي قتالا مستحيلا. وكان الضابط قد تقدم على فرسه في حراسة ثلاثة من الرجال قصد التعرف على المواقع. فانفصل فماياس عن رجاله، واقترب صحبة رجل واحد. ففعل بوبْليوس مثل ذلك، ظنا منه أن القرطاجي يود المحادثة، فلما كانا على مدى الصوت، تكلم بوبْليوس أولاً وقال : «حيث إنك لا تستطيع إنقاذ وطنك. فَلِمَ لا تفكر في سلامتك أنت ؟ فأجاب فماياس : وأين تكون سلامتي، في الحالة الراهنة التي عليها القرطاجيون، وبعد كل الشر الذي أوقعتُه بالرومانيين ؟» فقال سِپْيون : إذن إذا أردت أن تضعَ فِيَّ ثقتك فإني أعدك بسلامة حياتك وبعفو الرومانيين بل وباعترافهم» فأجاب فَماياس بأنه يطمئن إلى سِپْيون أكثر من أي أحد غيره، وإنه سيفكر في الموضوع ويخبره بما قد يستطيع فعله. وعلى هذا افترقا.

أثناء الربيع، أراد مانيليوس أن يأخذ بثأره، فزحف من جديد على حَسْدربَعْل الذي كان لا يزال قرب نِفريس Néphéris. ولما اقترب من العدو أقام معسكرا حصينا، كما سبق أن أشار عليه بذلك سِپْيون أثناء الحملة السابقة. ولكن التوفيق لم يحالفه، وأخذ يفكر في التراجع، وإن كان يخشى هذا التراجع، لأنه كان ينتظر أن العدو سيتبعه وسيهاجمه. وبينما هو في هذه الحيرة، إذا بنوميدي من رجال گُلوسا يحمل رسالة إلى سِپْيون ففتحها أمام قائده وقرأ فيها هذه الكلمات : «سأكون يوم كذا بمحل كذا. اصحب معك ما تريده من عدد الرجال، ونبِّه الحرس أن يفسحوا لمرور من سيفد بالليل». ولم يكن عليها توقيع باسم من أرسلها، ولكن سِپْيون سرعان ما فهم أن الرسالة وردت من عند فماياس. فخشي مانيليوس أن تكون هناك خدعة، ومع ذلك سمح للضابط بالذهاب

وأوصاه أن يعد فماياس بوعد قاطع واحد، هو أنه سيبقى حيا سليما. وقد حضر القرطاجي الموعد، وحصلت المفاهمة من غير عناء، وصرح أنه فيما يخص حياته فهو مطمئن إلى وعد سِپْيون، أما المكافأة التي سيتلقاها فإنه يدع للرومانيين أمر تقديرها. فقد كان هذا الخائن يبدي المشاعر الرقيقة. وفي الغد صفف فرسانه على نظام المعركة، ثم تقدم إلى الجبهة مع الضباط الآخرين، وفاه بهذا الخطاب : «لو كان لايزال من الممكن إنقاذ الوطن، لكنتُ مستعدا لمحاولة ذلك معكم، لكن، في الحالة الراهنة أرى لزاما عليّ أن أفكر في سلامتي. إن لديّ ضمانات لنفسي وكذلك لجميع الذين يريدون أن يتبعوني. إن الوقت قد حل لتختاروا الجهة التي يبدو لكم أنها هي الأحسن». فانضم إليه من الرومانيين نحو 2200 من الرجال، أما الباقون فقد منعهم حنون الملقب بالأبيض.

ولما رأى الجنود سِپْيون يعود ومعه فماياس، تقدموا إلى الأمام واستقبلوه استقبال الفاتحين. وسر مانيليوس واطمأن، ثم تراجع بالجيش على عجل، لأنه تيقن أن حَسْدربَعْل لن يجرؤ على المهاجمة بعد أن تخلى عنه مساعده. وكان يحتاج إلى الطعام، لأنه لم يحمل منه سوى ما يكفي لخمسة عشر يوما، بينما مضى سبعة عشر يوما منذ شرع في حملته، ولايزال أمامه ثلاثة أيام أخرى للعودة. فقام سِپْيون وأخذ معه فماياس وگلوسا وفرسانهما، كما أخذ قسما من الفرسان الإيطاليين، وذهب مسرعا إلى سهل يدعي باسم الهاوية الكبرى، وجمع من هناك الكثير من المغانم والطعام، وجاء بذلك إلى الجيش مع نزول الظلام.

بعد ذلك بقليل وصل إلى مانيليوس خبر القدوم المقبل للقنصل كَلْبُرْنيوس بيزون Calpurnius Pison، الذي سيخلفه. فبعث سِپْيون أمامه إلى رومة صحبة فماياس. وعند ذهابه حيّاه جميع الجنود وتمنوا عودته

وهو في منصب قنصل، لاعتقادهم أن الآلهة قضت أنه وحده الذي يستطيع الاستيلاء على قرطاجة. وقد نوه مجلس الشيوخ ببوبْليوس، أما فماياس فقد نال الهدايا الفاخرة وأعطي له الوعد بما هو أفخر إذا قام بخدمات كبيرة فيما بقي من الحرب [100]. فواعد بذلك وعاد إلى إفريقيا للمعسكر الروماني.

كان شطر كبير من السنة قد مر عندما قدم لوكيوس كلبرنيوس بيزون كَيْصونينوس L. C. Pison Caesoninus لاستلام قيادة الجيش. وكان معه لوكْيوس هُسْتيلْيوس مَنْكينوس L. Hostilius Mancinus الذي أسند الأسطول إليه. كان بيزون هذا قائدا رديء القيمة العسكرية، وقد سبق له أن اندحر أمام اللوزيتانيين (البرتغاليين) في أسبانيا منذ ست سنين خلت. ولم يرد أن يجدد المحاولات الفاشلة التي قام بها كل من كنصورينوس ومانيليوس ضد قرطاجة وضد حَسْدربَعْل، وإنما قرر مهاجمة المستعمرات البحرية ومهاجمة الأفارقة الذين كانوا لم ينفصلوا بعد عن قرطاجة. وكان يعتقد أنه بهذا العمل سيحرم العاصمة والجيش البونيقي من مواردهما في الرجال والطعام. غير أن تنفيذ هذه الخطة كان يتطلب وقتا طويلا، كما أنه لم يكن سوى تهيئة للنتائج الحاسمة التي لابد من بلوغها.

اتجه بيزون ومَنْكينوس أولاً إلى كلوبيا (القليبية) في شبه جزيرة الرأس الطيّب. وهاجما هذا الموقع برا وبحرا. ولكن مساعيهما فشلت في الاستيلاء عليه. بينما استسلمت نيابوليس لبيزون، وقد نهبت رغما عن الوعود التي قطعت للسكان. ثم اتجه القنصل إلى بِنْزَرت التي كان ينطلق منها القراصنة وينقضون على سفن المؤن المرسلة إلى الرومانيين، فحاصرها طوال أشهر الصيف دون جدوى، بل إن الأعداء

أغاروا مرتين وأشعلوا النيران في الآلات. فتخلى القنصل عن عملياته، وعاد إلى أوتيكا حيث قضى فصل الشتاء.

وعاودت الجرأة نفوس القرطاجيين الذين لم تعد مدينتهم محاصرة[101]. فقد استطاعوا أن يبذلوا مساعدتهم القوية للمدافعين عن بنزرت، كما أن معظم مقاطعتهم الترابية كان لايزال ملكا لهم. وكانوا يُشْهرون عاليا بالإخفاق المتكرر الذي مُني به خصومهم، حتى بدأ الأهالي يشكون في قدرة رومة. من ذلك أن أحد القادة النوميديين، وهو بيثْياس Bithyas ترك گلوسا وانضم للقرطاجيين مع 800 فارس. وكذلك فإن مسِبْسا ومستنبعل أخَوَيْ گلوسا، اللذين قد واعدا الرومانيين بالمال والسلاح أصبحا ينتظران الأحداث. فقد كانت الحكومة البونيقية تبعث إليهما وإلى الموريين الرسل لمحاولة إقناعهم بأن رومة ستخضعهم بدورهم إذا انتصرت. كما أن بعض الموفدين ذهبوا لمخاطبة أَنْدرِسْكوس Andriscos، المغامر الذي ادعى أنه ابن پرْصي Persée واستولى على مقدونيا، وهزم الرومانيين واقتحم ثيساليا Thessalie.

ولكن لسوء الحظ، لم يستمر الوفاق بين الأحزاب السياسية، فقد وشى حَسْدربَعْل قائد جيش نِفريس Néphéris بزميله حَسْدربَعْل الآخر الذي تلقى ضربة قاضية وسط مجلس الشيوخ نفسه. وكان حَسْدربَعْل القتيل ابن أخت گلوسا الذي كان متهما بالتواطئ معه، كما كان ابن أخت مِسِبْسا ومَسْتَنَبْعل اللذين كان يراد استمالتهما.

عند عودة الربيع ذهب كَلْبورنْيوس لمحاصرة بعض الحلل الواقعة بالداخل. وبينما كان منكينوس يرابض بحرا أمام قرطاجة، لاحظ أن السور بجهة ميگارا لم تكن حراسته جيدة في مكان تحد البحر فيه سلسلة من الصخور الوعرة التي يصعب تسلقها. ولربما أن هذا كان

حول سيدي بوسعيد. فقد كان الأعداء يظنون أنهم لن يخشوا شيئا من هذه الناحية. فظهرت لمنكينوس فكرة تسلق الجرف بالمباغتة. وحين كان بعض رجاله ينصبون السلالم - قياما بالمغامرة - شاهدهم بعض القرطاجيين. ففتح هؤلاء بابا كان يؤدى إلى الصخور وانقضوا على المهاجمين مستهينين بقلة عددهم. ولكن الرومانيين طاردوهم وتابعوهم، واقتحموا الباب خلفهم، ودخلوا المدينة منادين بالنصر. فبادر منكينوس والذين كانوا يصحبونه بمغادرة سفنهم يجرون، وأكثرهم بدون سلاح. ونظرا لنزول الظلام فإنهم لم يستمروا في السير للأمام، بل استقروا بموقع قوي قرب السور. وكان الطعام يعوزهم، فبعث قائدهم يطلب من حاكم أوتيكا ومن بيزون موافاته به في أسرع وقت وأن تبعث إليه النجدات، وجعله تهوّره في موقف حرج، لأنه كان مهددا بأن يُطرد في الغد وأن يرمى به على الصخور. وبالفعل فإنه منذ الفجر هوجم مرتين من جميع الجهات، ولم يكن معه من الرجال المسلحين سوى 500 رجل، رتبهم حول 3000 رجل آخرين كانوا هناك. وقد أثخن الرومانيون بالجراح، وطوردوا حتى بلغوا السور، فكان القضاء عليهم وشيكا لولا أن أنقذهم تدخل غير منتظر.

4

أخفق بيزون مثلما أخفق قبله كنْصورينوس ومانيليوس، فسبّب كل ذلك غضبا شديدا في رومة، حيث كان عجز هؤلاء القادة يقابل بالأعمال البطولية التي قام بها سِپْيون أخيرا، ويتمنى الناس لو يذهب للقيادة في إفريقيا. ولما حل وقت انعقاد الجمعيات الشعبية الناخبة Comices رشح بوبْليوس نفسه لمنصب حسبة الكرسي Edilité curule، إذا لم تكن له السن المطلوبة لمنصب القنصلية. ومع ذلك انتخبه الشعب لهذه الولاية،

غير أن القنصل القائم بالأعمال رفض أن يعلن نتائج تصويت غير قانوني. وكادت الأحوال تسوء لولا أن مجلس الشيوخ عمل باقتراح النقباء الشعبيين tribuns، فألغى القانون مع تقرير العودة للعمل به في السنة المقبلة.

وكان لوكْيوس ليفْيوس دروزوس C. Livius Drusus هو الذي انتخب أيضا في نفس الحين مع سِپْيون، فطلب بإلحاح أن تجرى القرعة كالمعتاد لاختيار من سيذهب إلى إفريقيا، وإذ ذاك طلب النقيب أن يترك أمر هذا الاختيار إلى الشعب، وبالطبع فإن أصوات الشعب أعطيت لسِپْيون. وسمح له بحشد الجنود لإتمام عدد الرجال بالفيالق، وبأن يجند من الحلفاء الإيطاليين ما شاء من المتطوعين، وبأن يطلب النجدات باسم الشعب الروماني ممن يرى وجوب مشاركتهم من الملوك والمدن. وكان من بين مساعديه صديقه الأعز كايوس لايليوس C.Laelius، ابن لايليوس الذي كانت تربطه صداقة متينة مع سِپْيون الإفريقي. كما صحبه أيضا إغريقيان نابهان هما پوليب وبَنايْتيوس الرودسي Panaetius de Rhodes الذي هو أحد الوجوه البارزة في المذهب الفلسفي الرواقي Stoïcisme.

ولما أتم استعداداته ذهب إلى صقلية، ومنها إلى أوتيكا. فنزلها في نفس الساعة التي كان فيها الرومانييون يدخلون قرطاجة. وفي وسط الليل سلمت إليه الرسالة التي كتبها منكينوس. فأصدر فورا أمره بتجميع كل الرجال الذين جاء بهم من إيطاليا، وكل من كان بأوتيكا في سن الحرب، كما أمر غيرهم من السكان بنقل الأطعمة إلى السفن، وأطلق سراح بعض الأسرى ليعلموا بخبر قدومه. وبعث الفرسان تلو الفرسان إلى بيزون يدعوه للقدوم عليه دون توان. وفي نهاية الليل أقلع، وأوصى جنوده أن يقفوا عند اقتراب السفن من قرطاجة ليظهر أن

عددهم كثير. وسار الأسطول مسرعا حتى اقترب من المكان الذي كان فيه منكينوس يستميت في القتال. فلما رأى القرطاجيون الأسطول، وقد سبق لهم الإنذار بواسطة الأسرى المسرحين، شرعوا يتراجعون، واستطاع سِپْيون أن يحمل على سفنه الجيوش التي خاضت هذه المغامرة الخرفاء. ثم بادر بإرسال منكينوس إلى رومة، وخلفه سيرّانوس Serranus. وذهب من بعد ليعسكر على مسافة قليلة من قرطاجة، فقابله الأعداء بمعسكر آخر أقاموه على بعد خمسة اسْطادات (900 متر) من المدينة، وبه أقام حَسْدربَعْل مع جنوده المتعودين على الحرب، وكانوا ستة آلاف من المشاة ومائة فارس لابد أن أكثرهم كانوا من النوميديين مثل رئيسهم بيثياس Bithyas.

هذه هي رواية أپْيان Appien. أما زوناراس Zonaras مختصِر دِيون كاسْيوس فيورد صيغة مخالفة عن الأحداث التي تلت قدوم بوبْليوس لإفريقيا. ويقول إن القرطاجيين الذين كانوا يضيقون الخناق على منكينوس قد قلقوا لرؤية الأسطول الروماني، ولكنهم تابعوا هجماتهم مع ذلك، فلما علموا بواسطة الأسرى الذين سرحهم سِپْيون بخبر وصوله، خمدت جرأتهم وانسحبوا. فَدُعي حَسْدربَعْل للحضور، وحفرت الحفائر وأقيمت السياجات لتقوية خط الدفاع المتكون من السور المعترض القائم أمام المدينة. وأناط القنصل بمنكينوس حراسة ميگارا Mégara، وذهب بنفسه ليلتحق ببيزون Pison مثل سلفه على قيادة الجيوش ليحوزها منه. وأثناء ذلك كان حَسْدربَعْل قد دخل قرطاجة وشدد الخناق على منكينوس، ففكّه سِپْيون الذي أسرع لنجدته بجيوش خفيفة. فنحن نرى – حسب الكاتب الذي نقل عنه كاسيوس – أن منكينوس تمسك بعض الوقت بموقفه في ميگارا. وعلى النقيض من ذلك، فحسب أپيان – والمقصود

هنا هو پوليب صديق بوبليوس – فإن منكينوس لم يمكث في ميگارا سوى ليلة واحدة لم يجن فيها أي فخر. وعلى كل حال فإنه لم ينس أن يذكر بأنه (أي منكينوس) كان أول من دخل قرطاجة عنوة. ولما استولى عليها سِپْيون، عرض منكينوس بالفوروم وهو الضابط المساعد السابق لبيزون، لوحة تمثل تصميم مدينة قرطاجة وهجمات الرومانيين. وكان هو يقف بجانبها ويعطي الشروح للناس المتجمهرين. فغضب سِپْيون من هذا النوع من التطاول، غير أن الشعب – كما يقول بلين Pline – جامل منكينوس وكافأه بانتخابه قنصلا عندما انعقدت الجماعات الانتخابية الموالية Comices Curules.

أهمل النظام كثيرا في الجيش الروماني الذي لم يحارب مطلقا في عهد قيادة بيزون. فكان الجنود يخرجون متى شاؤوا ليجمعوا المغانم، وليبيعوها للعدد الكبير من التجار الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم ويحضرون لهم كل ما يودونه. وكانت المشادات الدموية في الغالب تقع عندما يراد اقتسام دخل هذه السرقات. فكان على سِپْيون أن يعيد النظام إلى نصابه، مثلما سبق لأبيه بول إميل Paul- Emile أن فعل أثناء الحرب ضد پِرْصي، ومثلما سبق له هو أن فعل أمام نومَنْصا Numance في أسبانيا. فطرد الدخلاء عن المعسكر، ولم يأذن للباعة أن يبيعوا المواد التي لم ير لزوما لمنعها إلا في ساعات معينة وتحت رقابة مشددة. كما هدد بإيقاع العقاب الصارم بكل عمل يخرق النظام.

صار الآن مطمئنا لجيوشه فقدم بها إلى العدو. وفي إحدى الليالي هاجم حي ميگارا من الجانبين، وعلى غير انتظار من القرطاجيين لذلك. فقد سار أحد الطابورين إلى المكان الذي حدده له، بينما الطابور الثاني الذي كان هو على قيادته، تقدم سائرا في صمت تام وقطع مسافة

عشرين اسْطادا، وكان رجاله يحملون الفؤوس والسلالم والعتلات. ولم ير حرّاس السور الطابور إلا بعد ما اقترب كثيرا. فتصايحوا منذرين بالخطر، فأجابتهم جلبة عالية من الأصوات التي بعثها رفقاء بوبْليوس والذين يتكون منهم الطابور الأول. فأصاب الذعر الشديد القرطاجيين أول الأمر، لأنهم بوغتوا بالهجوم من جهتين بقوات عديدة في الظلام الحالك. ومع ذلك فشلت محاولات سِپْيون لتسلق السور. ولحسن حظ الرومانيين، كان بهذا المكان برج على ملك أحد الخواص، وكان مبنيا وراء السور، وله نفس علوه، وكان خاليا. فصعده بأمر من القائد بعض الشبان الشجعان، ومنه أمطروا حماة السور المقابلين لهم بوابل من السهام حتى أبعدوهم، وكوّنوا جسرا من الجائزات الخشبية والألواح، وبذلك استطاعوا المرور إلى البدنة Courtine، ومن هنا تسارعوا إلى باب صغير فكسروه وأدخلوا منه سِپْيون، فتقدم هذا الأخير إلى ميگارا ومعه 4000 رجل. وقد أصاب الهلع القرطاجيين ففروا إلى القلعة كما لو كان العدو قد سيطر على باقي المدينة. أما جيوش حَسْدربَعْل التي بالمعسكر خارج السور، فإنها لما عملت بما جرى تسارعت هي الأخرى بالالتجاء إلى بورسا Byrsa.

أما القنصل فلم يجرؤ على متابعة انتصاره. فقد كان حي ميگارا – كما سبق أن قلنا – مليئا بالبساتين التي تفصل بينها الجدران والسياجات الشائكة، وتمر خلالها عدة أقنية عميقة وملتوية. لذلك ارتأى بوبْليوس أن الأفضل هو عدم التغلغل ليلاً بهذه الجهة الصعبة التي لا يعرف الرومانيون مسالكها، والتي لابد أن يخشوا فيها الكمائن، فتراجع بجنوده. كان لهذه العملية الجريئة نتيجة واحدة، هي ترك القرطاجيين لمعسكرهم الخارجي.

فلما ظهر النهار، جاء حسدربعل غاضبا يسوق على السور جميع الاسرى الرومانيين حتى كانوا على مرأى واضح من جيش سِپْيون. ومثّل بهم على كيفيات مختلفة، أو ذبحهم ثم رمى بهم من فوق السور وهم لايزالون أحياء. وكان بعمله هذا يريد أن يمحو من نفوس مواطنيه كل أمل في التصالح مع رومة، وأن يضاعف من حماسهم في القتال، الأمر الذي يمكن به وحده أن ينقذهم. وقد استنكر الكثير من الناس هذه الجريمة، فكان الموت نصيبهم، بينما سكت الآخرون.

أما سِپْيون فقد أحرق المعسكر الذي أخلاه الأعداء. وقرر الحصار لأنه في الأخير فشل في محاولته الهجومية، وحيث أنه مسيطر على البرزخ فقد شطره إلى قسمين بحفير واقع على مدى رمية السهم من السور البونيقي. وقد بلغ طول هذا الخندق خمسة وعشرين اسْطاداً (نحو أربعة كيلومترات ونصف) حفرت رغما عن الهجمات المتوالية. ثم أمر القنصل بحفر خندق بجهة اليابسة مماثل للأول ويبعد عنه قليلا، وكذلك بحفر خندقين آخرين معترضين على ضفة البحر والبحيرة. فكان الشكل عبارة عن حفير رباعي مستطيل كبير نضدت فيه أوتاد مستدقة الرؤوس. ومن الخلف أقام سِپْيون سياجات على ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة المقابلة لقرطاجة فقد بنى فيها سورا عرضه ست أقدام وعلوه اثنتا عشرة قدماً باستثناء الشرفات. وبين مسافة وأخرى أقيمت الأبراج التي يتوسطها هو ويعلوها جميعا، وفوقه هيكل خشبي من أربعة طوابق، فكان مرقبا يشاهد منه ما كان يجري في المدينة. وكما قال أپْيان، فإن عشرين يوما بلياليها كانت كافية لصنع كل هذا. وكان الجميع، كل حسب دوره، يشتغل ويقاتل ويأكل وينام. ثم استقر الجيش في هذا الحصن الذي قد كان يمنع المحصورين من أي اتصال بالقارة، لأن بوبْليوس أراد تجويعهم.

ولم يكونوا يستطيعون الحصول على المؤن من إفريقيا، لأن الحرب حالت دون التعامل مع التجار الأجانب. فكان بيثياس قائد الخيالة يجتهد في إيصال الطعام لهم. وحيث إن البرزخ أصبح المرور منه غير ممكن، فإنه كان يقود القوافل من طرق ملتوية حتى الساحل، حيث تحمل على السفن. وقد كان الأسطول الروماني يراقب أحواز قرطاجة، غير أن الوقوف بالبحر كان فيه خطر إذا حدث الهياج البحري، الذي يمكن أن يرمي بالقوادس إلى الضفة حيث ينتظرها الأعداء الواقفون على أسوارهن، فلذلك كان لابد أن يبتعد. أما البحارة المكلفون بنقل الزاد الذي جمعه بيثياس، وكذلك بعض التجار المتعطشين للأرباح الكبيرة، فكانوا على النقيض من ذلك يستفيدون من الرياح التي تهب بقوة من عرض البحر. فكانوا ينشرون قلوعهم ويتجهون على عجل إلى الميناء دون أن تستطيع السفن الرومانية اللحاق بهم. على أن هذه الرياح الموافقة لم تكن تهب دائما، وبذلك فإن المؤن التي تدخل المدينة كانت قليلة. وفوق هذا فإن حَسْدربَعْل كان يخصص هذه الأطعمة لرجاله المسلحين الذين كان عددهم 30.000 رجل، ولم يكن يهتم بآلام بقية السكان.

لكن سِپْيون قرر أن يعطل للقرطاجيين آخر حيلة بقيت لهم، وذلك بأن يغلق في جون الكَرم مدخل الميناء المزدوج. فانطلاقا من الحاجز الرملي الذي نصب عليه معسكرا، بني سداً يسير (في اتجاه هذا المدخل) أي – حسب بقية رواية أپْيان التي يبدو أنها تؤكد ذلك – في اتجاه أقصى جنوب الجنوب الشرقي للمحط الكبير Débarcadère الذي كانت السفن تسايره عندما تدخل الميناء الداخلي. وقد أقيم السد بأحجار عظيمة تستطيع نظرا لعددها وحجمها أن تقاوم صدمات الأمواج ولو لبعض الوقت. وقد بلغ عرض هذا السد 24 قدما (7 أمتار

و10 سنتمترات) في القمة، ولا شك أن هذه كانت هي سعة الممر في الأعلى، بينما القاعدة كانت أعرض أربع مرات. ولابد أن هذا العمل قد تطلب إنجازه عدة شهور، وشغل آلاف السواعد ليلا ونهارا.

ولابد أن سد سِپْيون قد تقلقل جيدا، إن لم نقل تضعضع، خلال القرن الذي مر بين خراب قرطاجة وإعادتها للحياة. وبالطبع فإن مدخل الحوضين الداخليين قد أخلي عندما استعملا ميناءين من جديد. وعلى كل حال فيسوغ الافتراض بأن المرفأ (أو السد) لم يتعزعز بكل مكان، إذ كان يكفي للملاحة فتح ممر بجهة المحط، في اتجاه شرق جون الكرم، أما في غير هذا المكان، فإن المنشأة (السد) التي بنيت سنة 147، كان من الممكن أن تستخدم بعد ترميمها رصيفا يقف في وجه الأمواج أو الرمال، أو أن تكون أحد جوانب الحوض الخارجي الواقع على طول الحاجز الرملي. لذلك فإن بعض علماء الآثار قد تساءلوا عن البقايا التي لوحظ وجودها أو ظن أنها موجودة في قعر البحر، أما في الجون أو أبعد منه إلى الجنوب، فهل كانت في الأصل تنتمي لهذا السد ؟ فأما هانتس Hantz فيقول إن المرفأ يبدو أنه انفصل عن الحاجز الرملي جنوبي "خير الدين". وبالنسبة لأوهْلر Oehler، فالمرفأ قد يكون استعمل في العهد الروماني ليتكون منه، على طول 950 مترا، الجانبان الجنوبي والشرقي لميناء كبير أنشئ أمام الحاجز عند الشمال الشرقي لنفس المكان. أما رأي كورْتي Courtet فهو أن السد كان بعيدا إلى الشمال، أي في المكان الذي – حسب هانتس Hantz – كان يوجد به المرفأ المكون للجانب الشمالي لهذا الميناء. وأخيرا فإن شولْتِن Schulten وكَهْرِشْتِيت Kahrstedt يريان أن السد digue هو الخط المزدوج المسنم الذي يمتد بداخل جون الكرم بصفة تكاد توازي الساحل. وطبعا يجب أن لا ننسى أنه لم يقع أي برهان على وجود مرفأ بهذه الأمكنة. ولذلك

فليس من هذه الافتراضات المذكورة ما هو صحيح. وسنرى أن أكثرها غير محتمل الوقوع.

مما لا مجال فيه للشك هو أن سِپْيون عندما شرع في بناء منشأته العظيمة هذه، قد عمل على إنهائها بسرعة، وعلى عدم تضييع المواد التي تقتلع بعناء ثم تنقل ليرمى بها في البحر. وكان القصد من ذلك تكوين سد بقدر الإمكان، يكون غير عميق ما أمكن أيضا، ويكون بعيدا بعدا كافيا عن سور الأعداء حتى لا يكون العمال معرّضين جدا لسهامهم. إننا لا نعرف بالضبط خط سور المدينة، ولكن المتأكد هو أن الحاجز الرملي كله كان خارج السور. فمن الممكن إذن أن بداية السد كانت عند منطلق هذا الحاجز، بين "خير الدين" و"الكرم"، في مكان أقرب إلى الكرم منه إلى خير الدين. ولابد أن السد اتجه نحو الشمال الشرقي ليربط بين قاصيتي الحد. فهل كان يسير في خط مستقيم ؟ لابد من القول بذلك إذا أعطينا للألفاظ التي يستخدمها أپْيان معانيها الدقيقة. غير أنه يستخدم فعل Euthuno الذي ربما لا يحتمل أكثر من معنى فعل "يتجه" فالسد بين مبدئه ومنتهاه، يكون أكثر طولا عند اقترابه من الساحل الذي له خط منحنٍ، ويكون قد مر ببعض الأماكن التي هي أقل عمقا، ولذلك فمن المحتمل أن يكون سِپْيون رأى من الأنسب أن يحرف الخط المستقيم.

هذه الملاحظات تساعد على تنحية الخطوط التي اقترحها كل من هانْتس وأوهْلِر وكورْتي. فالأولان يبتدئان بعيدا عن جنوب منطلق الحاجز الرملي، ويكون تخطيطهما طويلا جدا، ويضطران لعبور أعماق تتجاوز أربعة أمتار. أما تخطيط أوهْلِر فبانطلاقه من الحاجز، يكون قد سار نحو الجنوب الشرقي. وليس هذا هو الاتجاه المقصود. أما تخطيط كورْتي فيكون هو أيضا طويلا ومتقدما في المياه العميقة جدا. وعلاوة على ذلك

فإن هانْتس ينكر صحة الملاحظات التي اعتمد عليها افتراض سلفه كورْتي. ويبقى المسنم المزدوج الذي يمر اليوم بمياه يقل عمقها عن متر واحد ونصف. وهو خط يكون مقبولا لو ظهر البرهان على أن هذا النتوء كان بقية من مرفأ. وفي هذه الحالة يكون طوله قد بلغ 850 مترا.

ولا يبدو أن سِپْيون أثناء بناء السد قام بأي محاولة للهجوم. لأن استيلاءه على البرزخ لم يكن من أجل الهجوم. ولا شك أن الفشل المتكرر الذي لقيه مانيليوس قد أقنع سِپْيون بأن السور الثلاثي سيقاوم جميع المحاولات. وإذا كان سِپْيون لم يتخلى عن فكرة اقتحام السور من جهة غير هذه، فإنه أراد الانتظار حتى ينهك الجوع القرطاجيين.

5

رأى المحصورون أعداءهم وقد أخذوا يرمون الصخور في البحر أمام الحاجز الرملي، فلم يتأثروا مطلقا بما رأوا، لاعتقادهم أن العملية لن تبلغ نهايتها. ولكن تتابع التقدم في بناء السد برهن لهم على غلطهم. لذلك قرروا أن يحفروا مدخلا جديدا للميناءين، على الساحل الشرقي، وبمكان لا يستطيع سِپْيون أن ينشأ فيه سدا مماثلا. فشمّر للعمل الرجال والنساء والأطفال، واشتغلوا ليلا ونهارا، مبتدئين عملهم في أبعد جانب في البحر حتى لا ينتبه الرومانيون لما يفعلون. وفي الوقت نفسه كانت السفن تُصنع من مواد قديمة. وكانوا جميعا يتبارون في بذل الجهود. ولما تم صنع الأسطول وكمل حفر القناة أحدِثت فتحة في السور الموالي للساحل. ومن هنا خرجت خمسون سفينة ثلاثية وخماسية وعدد آخر من السفن الصغيرة.

وكان الرومانيون يجهلون كل شيء، حتى المنفذ الذي فتح. وقد أصابهم الذعر لما رأو هذه السفن العديدة الكاملة التجهيز، خصوصا وأن سفنهم كادت تكون خالية لأن رجالها كانوا قد غادروها ليساهموا في أعمال الجيش المحاصر. وكان بمستطاع القرطاجيين لو قاموا بالهجوم فورا أن يستولوا على جميع القوات البحرية التي كانت لسِپْيون. ولكنهم اكتفوا بعرض للتخايل ثم عادوا من حيث أتوا. وبعد ثلاثة أيام عادوا للظهور، وكان ذلك للحرب هذه المرة. غير أن الرومانيين كانوا قد توفر لهم الوقت لأخذ أهبتهم، ولذلك تقدموا لملاقاتهم. فكان القتال طويلا وعنيفا، أوقعت فيه السفن البونيقية الصغيرة كثيرا من الضرر بقوادس الأعداء، لأنها كانت تنفلت من بينها، فتنخر مقادمات السفن وتنتزع دفاتها ومجاديفها، وتتراجع ثم تعود بنفس الحدة. ولما حل المساء ارتأى القرطاجيون إيقاف هذه المعركة، التي مكثت نتيجتها غير واضحة، على أن يعودوا لها في الغد. وكانت السفن الصغيرة أول عائد إلى مدخل الميناءين، الذي لم يلبث أن ازدحم بها، فلما جاء دور السفن الكبيرة لم تجد مكانا للمرور. فالتجأت إلى الجنوب على مسافة قليلة ووقفت مصطفة على طول المحط، موجهة مقدماتها نحو الخارج بمواجهة الأسطول الروماني الذي جاء لمهاجمتها، وفي هذه المعركة لقي جنود السفن البونيقية المساعدات من الجنود الذين تجاروا إلى الرصيف الممتد من وراء، وحتى من المدافعين الموجودين بأسفل السور القائم وسط المسطح بموازاة الرصيف. وقد كانت مهمة الرومانيين سهلة لمّا هاجموا هذه السفن التي لم تكن قادرة على تجنبهم. لكن عندما كان الرومانيون يتراجعون ليهاجموا من جديد كانوا يقعون في وضع يضر بهم جدا، لأن قواديسهم الطويلة كانت عندما تستدير تعرّض جوانبها لمناخيس السفن البونيقية. غير أن حيلة ماهرة ابتدعها آنذاك بحارة سيضي Sidé. فقد

ذهبوا بعيدا ورموا بمراسيهم في البحر وقد شدوها إلى حبال طويلة جدا، ثم ساروا يتقدمون بالمجاديف. وبعد أن ينزلوا ضرباتهم كانوا يتراجعون من غير أن يستديروا على الجانب، وإنما كانوا يجذبون الحبال ويثنوها على كواثل Poupes سفنهم. فاقتدى بهم الأسطول كله، وكبد خصومه خسائر جسيمة. وبنزول الظلام انتهى القتال، واستطاعت الدخول السفن القرطاجية التي لم تغرق.

في صباح الغد بدأ سِپْيون بمهاجمة المحط الذي أراد أن يحوله إلى قاعدة لعمليات ضد الميناءين. وكان لابد من طرد المحصورين عن السور الذي بنوه به، وقد كان بمستطاع الرومانيين بلوغ هذا المسطح بسلوكهم الطريق الواقعة في أعلى السد الذي كان بناؤه قد تم، ولذلك قدموا الآلات والكباش التي فتحت ثغرة في السور. لكن جمعا عظيما من الناس خرجوا من المدينة ليلا، وهم عراة تماما وارتموا في البحر، وعبروه سائرين أو سابحين في مياه غير عميقة، ثم اقتحموا المحيط من الجانب الذي كان تحت سيطرة الأعداء الذين لم يروهم قادمين. وكانوا قد حملوا المشاعل وأوقدوها وأحرقوا بها آلات سِپْيون. إن هؤلاء الرجال الذين كانوا يتميزون غيظا بسبب الجوع والألم، كانوا ينقضّون وكأنهم الوحوش، بل أشد ضراوة منها عندما تجرح السهام أجسامهم العارية، الأمر الذي أذهل الرومانيين. فلم تطل مقاومتهم كثيرا. وفروا عن طريق السد إلى المعسكر حيث أشاعوا الذعر. فاضطر بوبْليوس للخروج مع فرسانه وللجري هنا وهناك ليوقف المتسارعين إلى الخارج، وأمر بقتل بعض هؤلاء المذعورين بينما عاد الآخرون. وقضت الجيوش الليل حاملة أسلحتها من هجوم يائس يقوم به القرطاجيون. غير أن هؤلاء، عادوا من حيث أتوا بعدما أحرقوا الآلات.

ولما وضح النهار سدّ المحصورون من المسطح ثغرات السور الأسفل، ونصبوا على طوله، بين مسافة وأخرى، عدة أبراج. وصنع الرومانيون من جانبهم آلات أخرى، وأنشأوا أمام الأبراج أكمات كانوا منها يقذفون أوعية مليئة بالكبريت والقار وقطع الخشب الملتهبة نارا. وبهذا أحرقوا كثيرا من هذه الأبراج، ثم تقدموا للهجوم وطردوا حماة السور، الأمر الذي جعل سِپْيون مسيطرا على المحط كله. وعلى بعد قليل من سور المدينة حفر سِپْيون خندقا وبنى بالآجر سورا له علو سور المدينة، لتستطيع سهام جنوده إصابة الأعداء الواقفين للمواجهة. وترك هناك 4000 رجل. وهكذا انقضت أشهر الصيف.

وعلى ما يبدو، ففي فصل الخريف حاول حَسْدربَعْل الحصول على الصلح. وقد قص علينا پوليب دون مجاملة خبر اللقائين الذين أجراهما القائد القرطاجي مع گُلوسا ملك النوميديين وحليف الرومانيين.

قال إن حَسْدربَعْل كان سمينا بالطبع، ولكن سمنه زاد منذ بداية الحصار وكان وجهه محتقناً. فبينما كان مواطنوه يموتون جوعا، كان هو يتعاطى الخمر ويتناول الأطعمة الفاخرة. وكان يشبه أحد هذه الثيران التي يأتى بها للسوق. وقد جاء للموعد الذي كان طلبه من گلوسا وهو مسلح من رأسه إلى قدميه، وعليه رداء من الأرجوان، صحبة عشرة من الحراس، بحيث كان في كبريائه الخرقاء، وكأنه يريد أن يفوق طغاة التمثيليات المأساوية. وقد ترك حرسه على عشرين قدما خلفه، وتقدم حتى وصل السياج والخندق. (كان هذا هو خط الدفاع الخارجي من جهة البرزخ). ودون أن يهتم بالاحترام الواجب عليه للملك، أشار إليه أن يتقدم. وكان گلوسا قد جاء وحده، وفي لباس النوميديين البسيط ولما اقترب من حَسْدربَعْل سأله : ممن تخاف حتى تتسلح على هذه الصفة ؟

فأجابه : «إني أخاف الرومانيين»، فقال كلوسا : «ذلك هو ظني، وإلا فما كنت لتحبس نفسك دون داع في قرطاجة. ولكن ماذا تريد مني ؟» فقال حَسْدربَعْل : «أريد أن تكون شفيعنا لدى سِپْيون، وأن تعِدَه عنا بطاعتنا في جميع ما يأمر به. وأن تشفقوا فحسب على هذه المدينة التعيسة !» فقال الملك : «إنها لسذاجة ! إن الرومانيين يحاصرونك برا وبحرا، وأوقعوك في وضع قريب من اليأس وتتصور أنك ستنال منهم ما سبق لهم أن رفضوه لسفرائك، حين كان الرومانيون لا يزالون في أوتيكا، وقواتك آنذاك سليمة !». فأجابه الآخر قائلا إن فهمكم لأحوال القرطاجيين فهم سيء، لأنهم يعتمدون كثيرا على حلفائهم، (وكان حَسْدربَعْل يجهل بالفعل ما جرى عند الموريين)، وتابع قائلا إن قواتهم الخارجية لاتزال سالمة، وهم يثقون بالآلهة على الخصوص، وفوق هذا فقد وطدوا العزم على الموت عوض تسليم مدينتهم.

وعند الافتراق قرر كل من حَسْدربَعْل وگُلوسا أن يلتقيا مرة أخرى بعد ثلاثة أيام. فلما قص الملك خبر هذه المذاكرة على سِپْيون، أخذ يضحك قائلا : «كيف ؟ هذا ما يطلبه الرجل الذي كبد أسرانا تلك المعاملة الخسيسة ؟ وبعد هذه الجريمة يرجوا أن تساعده الآلهة !» ولكن گلوسا – إذا صدقْنا پوليب – طلب من بوبْليوس بإلحاح كبير إنهاء هذه الحرب، إذ بغض النظر عما قد يحدث من المفاجآت، فلابد أن يتذكر بأن الانتخابات القنصلية قد اقتربت، وأن يخشى أن غيره قد يأتي في نهاية الشتاء ليسلبه فخاره. وإذ ذاك كلفه سِپْيون بإخبار حَسْدربَعْل بأنه يهبه الحياة، وكذلك لزوجته وأبنائه، ولعشر أسَرٍ من قرابته وأصدقائه، وأنه يسمح له زيادة على ذلك بحمل عشرة تالانات يأخذها من ثروته الخاصة، وأن يصحب معه مائة من العبيد يختارهم. فأبلغ گلوسا هذه المقترحات إلى قائد العدو أثناء اجتماعه الثاني. فضرب حَسْدربَعْل على أفخاده عدة

مرات، وأشهد الآلهة والقدر، ثم صاح قائلا : «لن يأتي أبدا اليوم الذي أرى فيه، في آن واحد، نور الشمس وحريق قرطاجة. إن الرجل المقدام يجد القبر الكريم في خرائب وطنه» (102).

لقد سبق أن رأينا أن القرطاجيين كانوا في السنة السالفة قد بعثوا الموفدين عنهم إلى الموريين. وفي قصة پوليب عن الاجتماع الأول الذي جرى بين گلوسا وحَسْدربَعْل، وردت جملة قصيرة تفيد أن حلفا سبق أن أبرم مع هؤلاء الأهالي، لكن في العهد الذي حصل فيه الالتقاء، لم يكن بمستطاع الموريين أن يقوموا بأي عمل لصالح قرطاجة. فماذا كانت المدينة تنتظر منهم ؟ الهجوم على المملكة النوميدية ؟ ولكن قرطاجة حاولت في نفس الوقت أن تفصل عن الرومانيين كلاً من مِسِبْسا ومستَنَبَعْل، إذن فلم يكن هذا الوقت مناسبا لإثارة المشاكل لهما. أو كانت تريد منهم هجوما على إسبانيا يدفع برجال الهضبة إلى حمل السلاح من جديد ضد رومة ؟ (103) إننا نجهل ذلك. ونجهل أيضا الأحداث التي أشار لها پوليب. ولا شيء يؤكد أن هذه الأحداث كانت لها علاقة بإرسال سِپْيون بعض السفن إلى السواحل المورية.

يقول بلين الشيخ (القديم) Pline l'Ancien في وصفه لموريطانيا : «في العهد الذي كان فيه سِپْيون الإميلي Scipion Emilien القائد في إفريقيا، حاز المؤرخ پوليب منه أسطولا ليكتشف هذه الناحية من العالم (104). ثم يورد بلين Pline المعلومات التي ذكرها الإفريقي پوليب عن جبل الأطلس. كما أن پوليب نفسه، في كتابه الثالث يذكر الرحلة التي قام بها في المحيط، على طول ليبيا، وذلك بقصد تعرفه هو وقرائه، وتخبرنا إحدى البرديات المخرمة أن بَنايتيوس Panaetius قد بعثه في رحلة علمية أحد القادة ومعه سبع سفن (105) وحيث أننا نعلم أن هذا الشخص كان

صديقا لسِپيون، وأنه صاحبه في الحرب، فلن نخطئ إذا قلنا إن الأمر يتعلق بنفس الرحلة البحرية. وقد افترض البعض أن بوبْليوس كان يريد الحصول على معلومات دقيقة عن المستوطنات البونيقية التي على ساحل المحيط. والحق أن دراسات هؤلاء العلماء الأصدقاء يمكن أن تتطابق مع مثل ذلك البحث، كما يمكن أن تتطابق مع مهمة دبلوماسية. لكن التأكيد بأن «هذه المرحلة لم تكن لغاية استكشافية»، يكون معناه القول بنقيض الغاية التي تخبرنا بها النصوص. ولربما أن سِپْيون تذكر الإسكندر وأرسطو فعزم على أن يساعد أستاذه پوليب في بحوثه.

إن الرحلة التي طالت على ما يحتمل عدة شهور، قد جرت في الفصل المشرق من سنة 147 أو 146 لأن التعابير التي يوردها بلين عنها تبرهن على أن بوبْليوس كان آنذاك قائدا عاما للقوات بإفريقيا، وليس ضابطا عسكريا تحت إمرة مانيليوس، ويضاف لهذا أن مجرد ضابط لا يكون له الحق في فصل بعض السفن عن الأسطول وإرسالها إلى بعيد. ونعتقد أن سنة 147 هي التي يجب الأخذ بها. لأن السنة الموالية هي التي سقطت فيها قرطاجة في بداية الربيع، وفيها بادر پوليب على ما يبدو بالعودة إلى بلاد الإغريق، حيث كان موجودا بعد ذلك بقليل، أي أثناء تدمير مدينة كورانث Corinthe. أما سنة 147 فكان فيها سِپْيون منهمكا أثناء الصيف في بناء السد البحري Digue ولم يقم بأي هجوم. لذلك فإنه لم يكن في حاجة إلى نصائح پوليب العسكرية آنذاك، بل كان بمستطاعه أن يجعل رهن إشارته بعض السفن التي لم يكن محتاجا إليها.

ولا نعلم عن هذه المرحلة الاستكشافية شيئا دقيقا. ولا شك أن المعلومات الجغرافية لتي تجمعت لپوليب قد احتواها كتابه الرابع والثلاثون (XXXIV) الذي هو اليوم ضائع. على أن هناك نصا إضافيا

عند بلين [106]، يورد فيه سلسلة من المعلومات على الساحل الغربي للقارة الإفريقية، ويبدأ النص بقول لپوليب يتلوه قول لأكْريبا Agrippa ولكن الباقي، هل هو من كلام پوليب أو أكريبا ؟ إن الآراء تختلف في هذا، ولكن الأقرب إلى الصحة عزوه إلى أكريبا. ويبرر هذا كون الجمل متسلسلة، بالإضافة إلى أن النص المعني يشتمل فيما يخص الأطلس على تأكيد مخالف لما سبق أن كتبه پوليب عن هذا الجبل. إذن ليس لدينا هنا وثيقة تزودنا بعلومات واضحة عن رحلة صديقي سِپْيون.

إن پوليب – حسب شهادة بلين – قد ذكر جزيرة صِرْني Cerné (القَرْن)، وقال إنها كانت تقع على بعد ثمانية اسْطادات من القارة، بمقابلة جبل الأطلس، في أقصى موريطانيا. فإذا كانت هذه الجزيرة هي صِرْني التي أسسها حنّون، فيحسن حسب رأينا أن نبحث عنها بجهة الصحراء بين رأس جوبي Cap Juby و"بوجدور". ولكن هل كان پوليب يمتد بموريطانيا حتى هذه الجهة ؟ وهل كان يجعل جبل الأطلس في هذه النواحي ؟ يمكننا أن نشك. ولپوليب قول آخر نجده عند بلين [107]، يقول: في غرب الأطلس توجد غابات مليئة بالوحوش الضارية، وهذا الجبل يبعد 496 ميلا (نحو 735 كيلومترا) عن نهر أناتيس Anatis الذي هو نفسه يبعد 205 أميال (أي أكثر بقليل من 300 كيلومتر) عن لِكْسوس Lixux. ولاشك أن لكسوس – كما في نصوص أخرى – هو وادي لكّوس Lekkous، كما يبدو جيدا أن أناتيس هو النهر الذي سمي أيضا باسم أسانا Asana أو أنيدس Anides، أي "وادي أم الربيع" الذي يقع مصبه فعلا على 300 كيلومتر من مصب وادي لكّوس. لهذا فيجب البحث عن الأطلس على بعد أكثر من 700 كيلومتر عن وادي أم الربيع الأمر الذي يدفع بنا إلى خارج المغرب Maroc [108]. إلى مسافة قليلة جنوبي "دَرْعة"

أو إلى الجهة الجبلية المعروفة باسم "الأطلس الصغير" إذا قلنا بوجود مبالغة في الأرقام تصل لنحو 100ميل او 150 كيلومترا. وبهذا فإن صِرْني (القرن) التي ذكرها پوليب قد تكون بهذه الناحية، ويجب التمييز بينها وبين مدينة صرني التي أسسها حنون، وإن كان لم يبق أي أثر لا من هذه ولا من تلك. ولكن هل رقم 496 رقم صحيح ؟ إننا في الختام لا نستطيع القول أين كان موقع الأطلس وصرني اللذين تحدث عنهما پوليب ورآهما هو ورفاقه أثناء رحلتهم.

كان لايزال للقرطاجيين بخارج مدينتهم جيوش عديدة، مكثت تقريبا مسيطرة على جميع المقاطعات البونيقية، واستمرت تبعث ببعض المؤن إلى المحصورين وتستطيع ذات يوم أن تهاجم معسكر البرزخ. فأراد سِپْيون أن يقضي عليها وفي بداية الشتاء جالت فصائل من الجيش الروماني البلاد في مختلف الاتجاهات. وقام القنصل نفسه بحملة على معسكر نِفِريس Néphéris الذي كان به معظم جيش الأعداء تحت إمرة قائد يسميه أپْيان "ديوجين Diogène"، الذي حل محل حَسْدربَعْل منذ عودة هذا الأخير إلى قرطاجة. ويحتمل أن القنصل لم يكن يريد إضاعة الوقت لذلك اتجه إلى نِفِريس بعدما عبر بحيرة تونس، بينما دار معها لايليوس مع معظم القوات الرومانية. وأقيم المعسكر على بعد اسْطادَيْن (355 مترا) من معسكر القرطاجيين، وصدر الأمر إلى لايْليوس وگُلوسا بتسيير العمليات بشدة. أما سِپْيون الذي كان يود تسيير الكل، فكان يغدو ويروح بين نفريس وقرطاجة.

وقد فُتحت ثغرتان واسعتان بين الأبراج في واجهة المعسكر البونيقي، فقرر سِپْيون الاقتحام. واختار لذلك 4000 جندي من الأشداء، منهم 1000 جعلهم كمينا خلف موقع العدو، ثم أمر الآخرين وهم 3000

بالزحف نحو الثغرتين، لا على شكل كتلة واحدة متراصة، بل على شكل أفواج، بحيث إذا وقع صد الأولين فإنهم لا يجدون سبيلا للفرار. فجرت معركة عنيفة. وبينما الأفارقة متوجهون بنظام كامل لهذه الجهة، إذا بالفريق المتكون من 1000 رجل ينفذ تعليمات القائد وينقضّ على السور من الواجهة المقابلة وينتزع السياجات ثم يدخل بغتة. فظن جنود دِيوجين Diogène أن هؤلاء المهاجمين أكثر عددا مما كانوا عليه في الواقع، وانطلقوا هاربين. فتابعهم گلوسا مع فرسانه وفيلته. وكانت مجزرة عظيمة.

ثم استولى بوبْليوس بعد ذلك على مدينة نِفِريس، عقب حصار دام 22 يوما، كما كان بالغا في الشدة، إذ بالإضافة إلى الموقع الذي كان صعب المنال، فإن الرومانيين بهذه الناحية الجبلية قد آلمهم البرد لأن الفصل كان فصل الشتاء.

وقد كان لنجاح هذه الحملة تأثير كبير في سقوط قرطاجة. فالليبيون الذين كانوا حتى ذلك الوقت لم يتخلوا عنها، فقدوا شجاعتهم لما علموا بتحطيم آخر جيش لها، واستسلموا لضباط سِپيون، أو قابلوهم بمقاومة ضعيفة أخمدت دون عناء. ولم يعد يصل للمحصورين أي ركب من الزاد، لأن إفريقيا لم تعد يوجد بها من يريد أو من يستطيع إرسال المؤن لقرطاجة [109]. فاشتدت عليه الضائقة يوما بعد يوم، حتى أصبح عدد الذين يموتون من الجوع أو يستسلمون للعدو عددا لا يحصى.

6

حافظ سِپْيون على قيادته بعد انتهاء قنصليته. ولما عاد الربيع رأى أن الوقت المناسب قد حل أخيرا لتنفيذ الحكم الصادر قبل ذلك بثلاث

سنين ضد قرطاجة. فقد كان تحت يده جميع جيشه، لأن الجيوش التي كانت أثناء الشتاء قد بعثت إلى هنا وهناك، كانت قد أدت مهماتها.

إن الاستيلاء على المدن في الحروب الرومانية كانت تسبقه طقوس دينية. فقد حافظ لنا ماكْروب Macrobe - وهو كاتب من القرن الميلادي الرابع - على دُعاءين كان القادة يقولونهما. فأحدهما كان يدعو الآلهة حامية المدينة العدوة إلى التخلي عنها وإلى الانتقال لرومة حيث ستجد المأوى وتقدس بالعبادة. والدعاء الثاني يتجه إلى آلهة الجحيم ويقول: «ندعو جمعك لإشاعة الفرار والخوف والذعر في هذه المدينة التي هي... وفي الجيش الذي أسميه عن وعي، والذين يحملون الأسلحة ويرمون القذائف على فيالقنا وجيشنا، ندعوك أن تقضي عليهم. ولتحرمي من نور السماوات هذا الجيش، وهؤلاء الأعداء، وهؤلاء الرجال، ومدنهم، وحقولهم، وسكان هذه المواقع، والمناطق والحقول، والمدن. ولتعتبري جيش هؤلاء الأعداء، ومدن وحقول من أسميهم عن وعي، ومدن وحقول وذوات وأجيال هؤلاء وكأنها موقوفة مكرَّسة وفقاً للأحوال التي سبق تكريس الأعداء لها بكل شدة... إلخ...».

هذان الدعاءان نقلهما ماكْروب عن مؤلّف للكاتب سِمُّونيكوس سيرنوس Samonicus Serenus الذي أخذهما بدوره من كتاب قديم جدا كتبه فوريْوس Furius. ويحتمل أنه هو لوكْيوس فوريْوس فيلوس L. F. Philus الذي كان قنصلا قبل سنة 136 ق.م، وصديقا لسِپْيون الإميلي، ويبدو أن الدعاءين صحيحان. ولكن، هل النصان اللذان أوردهما ماكروب ذكرا اسم قرطاجة حقا؟ في الأمر شك. إن الأمثلة المعروفة من الابتهالات المتجهة للآلهة لا تعني - على ما قيل - إلا المدن المجاورة لرومة. ومن ناحية أخرى ليس لدينا قبل عهد سِبْتيم سِڤِير Septime Sévère أي برهان

على وجود طقوس رسمية تقام بروما تمجيدا للمعبودة كيلِست Celeste الراعية الكبرى للقرطاجيين. وعلى هذا، يكون سمّونيكوس سيرِنوس، وهو معاصر لهذا الأمير (أي سِبْتيم سِفْير) قد أخطأ وطبق الدعاء على قرطاجة ليوهم الناس أن عبادة كيلِسْتيس Caelistis قديمة، ومعروفة منذ ثلاثة قرون ونصف بعاصمة العالم، وأنها لم تدخل لها حديثا على يد الإمبراطور الإفريقي. إن هذا الافتراض قريب من الصحة، وعلى كل حال فإنه يعتمد على ملاحظات صحيحة. وقد أكد الغير أن الدعاء الثاني لم يقع النطق به ضد قرطاجة. إذ المدن التي يرصدها الدعاء لآلهة الجحيم كانت تدمر، وبعدما يتم تنفيذ ذلك فإن الحياة يمكن أن تنبعث من جديد على خرائبها. بينما اللعنات المهولة منعت من سكنى تراب قرطاجة. إن هذه الحجة لم يظهر لنا أنها حاسمة، لأن اللعنات التي استنزلت بعد الاستيلاء على المدينة، لم تكن حسب ما نرى لتتعارض مع الصيغة التي يكون سِپْيون قد تلاها قبل دخول المدينة، وإنما تكون لكي يعظم أثرها فحسب.

وذات يوم من شهر مارس أو أبريل أصدر بوبْليوس أمره بالهجوم. وكان أحد صهريه هو تِبِريوس سمْبرونْيوس گْراكوس Ti. Sempronius Gracchus قد جاء ليلتحق به، وعمره لا يتجاوز ست عشرة سنة. فكان تبريوس هذا – وهو أكبر سنا من أخيه كايوس – أول من اعتلى السور وصاحبه في هذا العمل فانيوس الذي صار قنصلا من بعد، وكان الهجوم يهدف الكوثون Cothon أي الميناء الداخلي المزدوج. ولاشك أن الهجوم انطلق من المسطح الذي كان المحاصرون الرومانيون قد بنوا به سورا من الآجر قرب سور المدينة. وخَلْف هذا القسم من السور كان يقع الحوض التجاري ذو الشكل الرباعي المستطيل. فظن حَسْدرَبَعْل

أن جهود الأعداء ستتوجه إلى هذا الجانب فأمر بإشعال النار ليلا في المباني التي لاشك أنها عنابر Hangars خشبية كانت مقامة على الأرصفة.

وبينما كان القرطاجيون منهمكين على هذه الصفة، اتجه لايليوس على غير علم منهم إلى الحوض المستدير الذي هو الميناء الحربي، والذي كان على قول أپْيان يحيط به سوران. وقد استطاع الجنود الذين كان يقودهم أن يتخطوا العراقل بخفة على جسور هيئت على عجل. ولم يقاومهم الرجال الذين كانوا هناك لأنهم كانوا منهوكين جوعا ومرتبكين.

سقط الميناء العسكري في أيدي الرومانيين. وبالقرب منه كانت توجد ساحة كبيرة استولى عليها سِپْيون. وأمر جنوده أن يقضوا الليل بها وأسلحتهم في أيديهم، لأن الظلام منع من التقدم إلى الأمام. وعند بزوغ الفجر دعا 4000 جندي آخرين، وكانوا مستريحين تمام الراحة، فاقتحم هؤلاء الرجال معبد أبولون Apollon الذي كان تمثاله الذهبي منصوبا في قبة تزن 1000 تالان، وتغطيه رقائق الذهب. فأزالوا هذه الرقائق برؤوس حرابهم وتقاسموها فيما بينهم غير عابئين بأوامر رؤسائهم.

التجأ إلى قلعة بويرسا Byrsa كل من استطاع ذلك من القرطاجيين. فتأهب سِپْيون للهجوم. من الساحة كانت تنطلق ثلاث طرق تصعد إلى القلعة. وعلى جوانب هذه الطرق تقوم منازل لها ستة طوابق، كان الرومانيون يتلقون منها وابلا من القذائف. فاستولوا على المنازل المجاورة للساحة، وتقدموا من فوق السطوح والسقوف، وطردوا كل من كانوا يلاقونهم. وعبروا الفراغ بين الأزقة (الدروب) على الألواح الخشبية. وبينما كانت المعركة تجري من فوق، كانت معارك أخرى تقع في الطريق. وفي كل مكان كان الأنين والعويل والصياح، وجميع صور الألم والموت. فكان البعض يقضي نحبه في القتال، وآخرون يُرمى بهم

أحياء من فوق السطوح فيتهشمون على الأرض أو تتلقاهم السيوف ورؤوس الرماح والحراب [110].

وأمر بوبْليوس بإشعال النار في هذا الحي عندما وصل المهاجمون أمام بويرسا Byrsa. كما أمر بتسوية الخرائب مع الأرض تسهيلا لمرور الجيوش التي ستحارب بالمناوبة. فكان أيضا مشهد لا يقل شناعة عن سابقة. فالنيران تنتشر وتلتهم كل شيء، والرومانيون يحطمون، ويهدمون الأسوار التي تنقض بهديد، والجثث العديدة تسقط مع سقوط الأحجار، وتصل الآذان صيحات الألم الذي يمزق الأحشاء وهي تنبعث من جماهير التعساء الذين أثخنتهم الجراح، ولفحهم لهيب النار : من شيوخ ونساء وأطفال لبثوا في زوايا البيوت. على أن آلاما أخرى قاسية كانت تنتظر من لم يموتوا لما سقطوا. ذلك أن الرجال الذين كلفهم سِپْيون بفتح المجال جاءوا يحملون الشواطير والكلاليب. فكانوا يجرّون الموتى والأحياء إلى حفر يملأونها بهم، ويكدسون الأحجار والأخشاب من فوقهم كيفما اتفق. فمن هنا ترى ساق خارجة من التراب وهي لا تزال تتحرك، ومن هناك تبرز رؤوس، بينما الخيول المتراكضة كانت تسحق الوجوه وتطير الأدمغة. ولم يكن الرومانيون يرتكبون هذه القساوة عن عمد. إنهم لم يكونوا ينتبهون لما يفعلون. فقد كان الانفعال بالمعركة، والأمل في النصر القريب، وغدوات الجنود وروحاتهم تحت قيادة الضباط وقادة المئة، ونداءات الذين يعطون الأوامر والذين يرددونها، وأصوات الأبواق كل ذلك كان يغوص بهم في تهوس يجعلهم غير شاعرين بما يرون. أما بوليب فإنه كان يرى كل ذلك، وبالتأكيد فإن روايته هي التي استقى منها أَپْيان هذه التفاصيل المرعبة.

ستة أيام وست ليال تقضت، والجيوش يخلف بعضها البعض حتى لا ترهق بالسهاد والتعب. ولكن سِپْيون كان يراقب كل شيء، ويجري دون راحة بكل مكان، لا ينام ولا يتوقف حتى عندما يأخذ القليل من الطعام. وأخيرا أنهكه التعب فذهب وجلس على مرتفع كانت عيناه تريان منه عملية التخريب.

وفي اليوم السابع خرج بعض الرجال من بويرسا Byrsa، وعليهم شارات الضراعة. لقد جاءوا يبحثون عن القائد متوسلين له أن يهب الحياة، الحياة وحدها لمن يستسلمون. فقبل سِپْيون، ولكن باستثناء المنشقين عن الجيش الروماني. وفي الحال بدأ خروج موكب طويل من باب ضيق في القلعة، موكب 50.000 رجل وامرأة وقع تسليمهم للحرس. أما المنشقون الذين بلغ عددهم نحو تسعمائة رجل، فقد أسحبوا إلى فناء معبد إسْكولاب Esculape مع حَسْدربَعْل وزوجته وابنيهما. إذ كان بمستطاعهم أن يصدوا من هذا المكان العالي والوعر هجمات الأعداء، لكنهم، بسبب إنهاك التعب وعذاب الجوع والأسى، لم يلبثوا أن فهموا أن الحين قد حان، فدخلوا المعبد وصعدوا على سطحه.

أما حَسْدربَعْل فقد توارى عن الأعين، وحمل غصن الضراعة وذهب يلتحق بسِپْيون. وقد لثم قدميه واسترحمه. فأجلسه بوبْليوس عند أقدامه معرضا لأنظار المنشقين. فطلب هؤلاء من الجنود المواجهين لهم أن يوقفوا الهجوم قليلا، فأذن سِپْيون لهم. فاستدار المنشقون نحو القائد القرطاجي وأوسعوه بالشتائم، ثم أوقدوا النار في المعبد وماتوا وسط اللهيب. أما زوجة حَسْدربَعْل فقد تزينت كما لو كانت في يوم عيد، وانتصبت مع ابنيها أمام بوبْليوس وأمام زوجها، ونادت الزوج التعس، ولكنه لم يجب، وكانت عيناه مركوزتين إلى الأرض، فدعت الآلهة،

وشكرت سِپْيون الذي واعدها بالحياة هي وابنيها. وبعد برهة قصيرة من الصمت، خاطبت حسْدربَعْل ووبخته على خبثه وخيانته. ولما أنهت كلامها قذفت بابنيها في النيران ثم ارتمت فيها هي. لقد قضي على القرطاجيين. أما قرطاجة فقد استمرت من بعد تحترق مدة عشرة أيام.

كانت المهمة طويلة وشاقة على هؤلاء الرومانيين الذين نزلوا إفريقيا بقصد النهب أكثر مما نزلوها بقصد القتال. وقد كان القادة غير أكفاء ولكنهم معتدون بأنفسهم، وكان الجنود لا يتقيدون بنظام، وقليلي الجرأة على ما يبدو، فاصطدموا برجال لهم استعداد للتضحية بكل شيء قبل أن يموتوا، رجال جُرّدوا بطريقة غير شريفة من أسلحتهم فصنعوا أسلحة أخرى، وصمدوا بمهارة في صراع بطولي. حتى إن سِپْيون لم يستطع إنجاز مهمته إلا بعد سنة، وكانت المجاعة على الخصوص هي التي أوقعت قرطاجة في يده.

ولقد أذن لجيوشه أن تقوم بالنهب عدة أيام، وإن كان نحى جانبا الذهب والفضة والأشياء المكرسة بالمعابد. ولم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم. ووزع المكافآت على الجميع باستثناء الذين سطوا على معبد أبولون. أما أسلحة المغلوبين وآلاتهم وسفنهم فقد أهديت للمعبودين مارس Mars ومينرڤا Minerve حسب الشعائر الرومانية، ثم أوقد القائد فيها النيران التي التهمتها. ودعى الصقليون ليميزوا ويأخذوا الأشياء الثمينة التي سبق للقرطاجيين أن سلبوهم منها، كأوعية النذور Ex-voto من الذهب والفضة، والثور البرنزي الشهير الذي كان بيريلاوس Périlaos قد صنعه لفَلاريس الأكْريجَنْتي Phalaris d'Agrigente. وهو الثور الذي كان الطاغيةَ يحرق ضحاياه في جوفه. أما محتويات الخزائن العلمية فقد تركت للملوك النوميديين (111).

وبمجرد ما علمت رومة بالنبأ السعيد قرر الشعب إرسال وفد ليتخذ الوسائل المتحتمة مع سِپْيون وعيّن مجلس الشيوخ عشرة من أهم أعضائه في هذا الوفد. ولما وصل إلى إفريقيا أَمَرَ سِپْيون أن يهدم نهائيا ما بقي قائما في قرطاجة، كما دعا سِپْيون بإشارة من الوفد على تراب المدينة باللعنات الخالدة، التي تمنع على الناس استعمال تلك الأرض. والدعاء لم يمنع ولوج هذه الأرض، ولكن لن يسكن بها من بعد أي إنسان.

أما المدن التي أبت إلا أن تستمر على وفائها للقرطاجيين فقد تقرر إبادتها [112]، بينما التي انضمت إلى الرومانيين عن طواعية، فقد أعلن أنها مدن حرة، ونالت قسما من الأراضي المفتوحة. وأوتيكا التي أعطت بالخصوص مثالا للانفصال عن قرطاجة، أصبحت ممتلكاتها تمتد حتى هيبو Hippo (بِنْزرت) عند الشمال وحتى قرطاجة عند الجنوب [113]. كما وزعت الأراضي على بعض المنشقين. وضمت رومة لممتلكاتها المقاطعة التي كان القرطاجيون لا يزالون مسيطرين عليها في بداية الحرب. ولم يكن ذلك للزيادة في قوتها وثرواتها، وإنما كان بقصد تنحية مطامع الملوك النوميديين عن موقع المدينة الهالكة. وهكذا تكونت ولاية إفريقيا (أفريكا Africa).

وعاد الوفد إلى إيطاليا بعد إتمام مهمته. أما سِپْيون فمكث بإفريقيا لتنفيذ القرارات التي اتخذت، وعلى الأخص منها التدمير الكلي لقرطاجة، وتكوين خندق (حفير) كبير بقصد تبيين حدود الولاية الجديدة. وبعد ذلك عاد إلى رومة، حيث أقام احتفال التمجيد الذي شوهدت فيه مجموعة من التماثيل والأشياء النفيسة. ونال سِپْيون لقب أفْريكانوس (الإفريقي)، على غرار الرجل الشهير الذي كان هو حفيدا له بالتبني.

أما الباقون من سكان قرطاجة فقد بيعوا بأسواق النخاسين، ولم يُستثن من هذا المصير إلا قلة من النبلاء، وهم الشبان الذين سلموا رهائن في ربيع سنة 149، وكذلك بعض الأسرى الذين تقرر الإبقاء عليهم، فقضوا حياتهم في الخمول بمختلف جهات إيطاليا التي عينت لإقامتهم.

وكان آنذاك يعيش في أثينا Athènes فيلسوف من أصل قرطاجي، اسمه البونيقي حَسْدربَعْل، ولكن كان يدعى باسم كْليتوماخوس Kleitomachos. وكان تلميذا لِكَرْنياد Carnéade رئيس الأكاديمية الحديثة، ثم صار رئيسا للمدرسة بعد أستاذه. ونال الشهرة والتقدير، ونشر مؤلفات اعتمدها كثيرا سِيسرون Cicéron من بعد. وكان له في رومة أصدقاء لهم حول وطول، من بينهم لوكْيوس مركيوس كِنْصورينوس L.M. Censorinus القنصل الذي رفض في معسكر أوتيكا توسّلات بانو Banno التي طلبت الإشفاق على قرطاجة. وقد تذكّر كليتوماخوس مسقط رأسه عندما علم بسقوط المدينة. فشارك مواطنيه شقاءهم وكتب كتابا يواسيهم. ولربما أنه لم يهتم بمعرفة هل يستطيع الكثير منهم أن يقرأوه ويستفيدوا منه، ولكن الرومانيين الذين كانوا يقدرون هذا الرجل الحكيم استحسنوا لاشك خاطرته الفكرية الكريمة.

وكانت للقائد المنتصر خاطرة فكرية أخرى. فبعد الاستيلاء على بورسا Byrsa، وبينما الجنود يتابعون إحراق قرطاجة، دمعت عينا سِپْيون. ومكث بعضا من الوقت غارقا في تأملاته. ثم فاه بصوت عال يردد هذه الأبيات الشعرية للشاعر العظيم هوميروس [114] : «سياتي يوم تضمحل فيه إيليون المدينة المقدسة، وفيها يهلك بْرِيام، الذي يجيد استعمال الرمح». وكان پوليب Polybe حاضرا يسمع كلامه، فسأله عن معنى العبارات التي نطق بها. فأخذه صديقه من يده وقال : «لست أدري

لماذا أخاف أن يردد الدهر هذه العبارات ذات يوم عن وطني». لقد كان يفكر في تقلب الحظوظ، وهي خشية غامضة، ممتزجة - ربما - بتأنيب خفيف للضمير. ولقد تساءل بعد ذلك بعض الرومانيين ممن شهدوا الخزايا والفوضى التي عمت القرن الأخير من عهد الجمهورية : ألم يكن من الأحسن ترك العدوّة القديمة حية ؟ وذلك عن اقتناع منهم بأن روما صارت تفعل ما تريد، إذ لم يعد لها شيء تخشاه [115]. وقالوا إن الانهيار بدأ بالنسبة لروما مع سقوط قرطاجة... فأخلاقهم على ما يحتمل لم يكن لها من أفق غير مصلحة الدولة. وبهذا فقد كانوا يلومون أجدادهم على غلطهم، وليس على الجريمة التي ارتكبوها.

شروح وإحالات

1) دِيودور : ك 20 , 6-18 و30 و 34 و 38-44 و 54-55 و 57-61 و 61-70.

2) جُستان : ك 22 , 5-8 اما أوروز Orose في مؤلفه (نقد الباربار Adversum gentes) ك 4 , 6 , 24-32 فإنما نقل عن جستان. وانظر بولْيان Polyen ك 5 , 3 و 4 و5.

3) دِيودور في ك 20 , 8، ولم يذكر هذا الكتاب ما فعله أگاطُكليس بين استيلائه على هاتين المدينتين وبين المعركة التي سيرد ذكرها على هاتين المدينتين وبين المعركة التي سيرد ذكرها بعد، أما جستان في ك 22 , 6 , 5 فقد قال أن الإغريق هو مواكل ما كانوا يلاقونه، وأنهم أحرقوا المزارع والقرى.

4) يروي الكاتب في تعليق له عن تيسّو قوله : في اللغة الجغرافية عند الإغريق والرومانيين، يعني تعبير ليبيا العليا جنوب ليبيا، كما يروي عن ملتزير قوله، ليبيا العليا يمكن البحث عنها في اتجاه الجنوب الغربي (انطلاقا من تونس)، ثم يعقب اگْصيل قائلا : يظهر لي أن هذا التعبير على لسان ديودور ينطبق على الأراضي المرتفعة، كشمال تونس وقسم من موسطتها، وربما أيضا حتى الشمال الشرقي من الجزائر.

5) ديودور : ك 20 ، 38، 2 ذكر اسم هذه القبيلة التي علق عليها المؤلف قائلا أن اسمها لم يذكر في غير هذا المكان وأنه لا يعلم موقعها.

6) هذه هي الظاهرة التي تطبع عقلية بعض المؤرخين الأوربيين الذين لا يرون في الأهالي سوى مجرد مساعدين إذا انضبطوا لنظامهم، أو ثائرين ومشوشين إن خالفوهم. فالنوميديون في هذه المعركة كانوا حلفاء حينما كان أگاطُكليس راضيا عنهم ويستخدمهم. غير أن الكاتب لم يعد يعتبرهم سوى نهابين لما انضم جمعهم لقرطاجة في خطة محكمة هي الانتظار للهجوم على المعسكر الإغريقي في الوقت المناسب. ومع ذلك فالمؤلف يلح ليوهمنا أن هذا العمل لم يكن خطة نوميدية قرطاجية، وإنما هي حيلة غادرة من النوميديين جميعا ضد قرطاجة والصقليين في آن واحد، مع أن الواقع يكذب هذا، لأن النوميديين العاملين مع أگاطكليس انضموا لبني عمهم في الجيش القرطاجي عقب الفتنة التي حصلت في المعسكر الإغريقي، بل إن الإغريق أنفسهم تخلى بعضهم عنه ووالوا الجيش القرطاجي كما سيأتي بعد.

7) حسب بولْيان Polyen في ك 5، 3، 4. وحسب جُستان في ك 7، 5، 22 فإن ابن أگاطُكليس تبناه أوفلاس، أما ديودور فلم يعرض لهذا الموضوع بشيء. ونضيف نحن أن من معاني التبني ما هو (خاص) عند الإغريق.

8) ديودور: ك 20، 56، 3 و71، 1 أما جُستان في ك 22، 8، 3 فيقول عن خطأ بأن القرطاجيين قد طردوا من صقلية، وإن أگاطكليس أصبح مسيطرا على الجزيرة كلها. ونحن نعلم بخبر من ديودور في

ك 3، 20، 69 أن من بين المدن القرطاجية التي احتفظ بها أصحابها القرطاجيون توجد مدينة صولُنْت Solonte.

9) ديودور: ك 20، 64. كما ذكر جستان هذه الهزيمة : ك 22، 8، 7 قائلا أن أگاطكليس ضاع له فيها معظم جيشه.

10) كان المعسكر الإغريقي على بعد عدة كيلومترات، ويقول ديودور إنهم رأوا النيران وسمعوا الأصوات فكيف حدث هذا ؟ إن الكاتب لم يذكر أي أيضاح.

11) ما يقارب 7800 كيلو من الفضة، لأن التالانات هنا أوبْويقِية Euboiques.

12) تيتْ ليڤ : ك 7، 27، 2. وپولْ أوروز في : مؤلفه (Adv. Paganos إنقاد الوثنيين) : ك 3، 7، 1-3. وديودور: ك 16، 69، 1. وأيضا تيتْ ليڤ : ك 9، 43، 26. وكذلك ديودور ك 22، 7، 5.

13) پوليب : ك 3، 22، 11، 13.

14) لقد افترض البعض أن المعاهدة الثانية عقدت في وقت كانت فيه رومة تواجه ثورة كبيرة قام بها اللاتانيون ضدها، ولذلك كانت ملزمة بأن تقوم ببعض التنازلات لقرطاجة، غير أن هذا الافتراض لا تدعمه حجج قوية. والملاحظ هو أن قرطاجة كانت سنة 243 تخوض الحرب في صقلية، ولم تكن في وضع يجعلها تفرض إرادتها على رومة.

15) إشارة للكلمة التي فاه بها پِرْهوس على ما يقال عند مغادرته لصقلية، وهي : «إنه لـمَيدانٌ للصراع نتركه للقرطاجيين وللرومانيين!». انظر بْلوتارك في ترجمته لپرهوس، الفصل 23.

16) إن أهم المراجع القديمة عن الحرب البونيقية الأولى هي بوليب ك 1، 64-10 الذي اعتمد على بعض الكتاب وذكر من بينهم (ك 14، 1) المؤرخ الروماني فابْيوس بِكْتور F. Pictor وفلينوس الأكْـريجَنْتي الذي كان له ميل إلى قرطاجة. أما ديودور الصقلي الذي لم يبق منه سوى بعض الملخصات (ك 23 و24) فإنه اعتمد على فلينوس. وقد ذكره في ك 23 ، 8 و17 وكذلك في ك 24، 11، 1 وربما أنه لم يستق منه مباشرة. أما تيتْ ليڤ فقد روى قصة هذه الحرب في الكتب 26-29 ولكنها اليوم ضائعة. لكن اعتمد عليه فلوروس ك 1، 18 كما أن مؤلف كتاب : (عن الرجال العظماء Deviris illustribus) اعتمده في 37-41، وكذلك أوتروب Eutrope ك 2، 18-17، وكذلك أوروز في (انتقاد الوثنيين Adv. Pagan) ك 4، 7، 11 وكذلك فيلير مكسيم وفْرونتان Frontin في بعض الفقرات منها، فكل هؤلاء اعتمدوا على تيتْ ليڤ. أما ديون كَسْيوس فلم يبق منه في هذا الموضوع سوى فقرات نشرها مَـلْبير Malber، وكذلك مختصر زوناراس Zonaras ك 8، 8-17 أما الدراسات الحديثة والمعاصرة عن هذا الموضوع فكثيرة جدا، ويصعب حصرها في مجال ضيق كهذا.

17) حول هذه الحملة، انظر بوليب : ك 1، 29-36 وديودور: ك 23، 11-16 وديون كاسيوس فقرة 43، 20-25 وزوناراس : ك 8، 12-14 وفلوروس: ك 1، 18، 17-23 وعن الرجال العظماء 40. وأوتروب : ك 2، 21-22 وپول أوروز : ك 4، 8، 7-16 و9، 1-8.

18) هذا هو قول پوليب في : ك 1 , 29 , 1-3 , 5-6 بينما يذكر زوناراس : ك 8، 12 بأن أهل كلوبيا قد فروا من مدينتهم وغادروها. انظر أيضا فلوروس : ك 1، 18، 19 وأوتروب: ك 2، 21، 2 وپولْ أوروز : ك 4، 8، 7 .

19) هذه الخرافة رواها : ك. آيليوس توبيرو Q. Aelius Tubero الذي كان معاصراً لقيصر.

20) كما رواها فيبْيوس سِكِسْتِر Vibius Sequester.

21) ذكر هذا كل من پوليب في : ك 1، 31، 5 وديودور : ك 23، 12، 1 (ثلاثة نواب أهمهم هو حنّون ابن عَملِكار).

22) يؤكد أپْيان Appien أن عدد الجيش الروماني كان 30.000 رجل. لكن أوتروب : ك 2، 21، 4، وكذلك أوروز : ك 4، 9، 3 يذكران نفس العدد ولكنه للقتلى الرومانيين في المعركة. غير أننا نعلم أن ريگلوس في بداية الحملة لم يكن معه سوى 15.500 جندي. ولا مجال للاعتقاد بأنه دعا رجال سفنه وبحارتها الذين كانوا في كلوبيا (القليبية) على ظهر 40 قادسا.

23) هذا قول پوليب في: ك 1، 33، 3-7 عن هذه المعركة. أما فرنتان Frontan في مؤلفه (منوال الخطبة العسكرية Stratégica) : ك 2، 3، 10 فيعطي توضيحات مخالفة لما ذكره پوليب، ويقول إن كْسانْتيب جعل الجيوش الخفيفة في الخط الأول، أمام المشاة الثقال، وأمرهم بالتراجع بعد أن يرموا قذائفهم، وأن يسارعوا إلى الجناحين ليحيطوا بالأعداء حينما يكون هؤلاء مشتبكين مع المشاة الثقال.

24) ديودور : ك 24، 12 فعلت زوجة ريگلوس ذلك لأن زوجها مات بسبب عدم عناية القرطاجيّين به، وتدعي الأسطورة أن مجلس الشيوخ سلم هذين السجينين لأسرة ريگلوس لتنتقم منهما بسبب ما لقيه القنصل السابق من عذاب. انظر سَمْبرونْيوس توديانوس S. Tudiannus في أولوجيل Aulu - Gelle : ك 7، 4، 4 وكذلك زوناراس Zonaras : ك 8، 15 صفحة 395 C.

25) ديودور : ك 23 ، 19 يقول على النقيض من ذلك إن الرومانيين لم يستطيعوا النزول لأن القرطاجيين كانوا يمنعونهم.

26) بوليب : يسميها حرب ليبيا، انظر: ك 1، 13، 3 و70، 7 و88، 5 وك 2، 1، 3 وك 3، 27، 7. وتيتْ ليڤ يسميها حرب إفريقيا. انظر : ك 21، 1، 4 و2، 1 و41، 12.

27) هذا العدد وهو 70.000 إنما هو عدد تقريبي كما هو الشأن في جل ما يرويه القدماء عن أعداد الجيوش. ومع ذلك فلا يبدو أنه غير صحيح. ففي معركة نهر بَكْرادا كانت قوة الثوار – حسب بوليب – 25.000 رجل، وكانت لهم جيوش أخرى في تونس وعند بنزرت، وربما في أمكنة أخرى.

28) يفصل معسكر عَمِلكار عن معسكر حنّيبَعْل جيش ماثوس وتونس التي كانت موقعا مسلحا محصنا، ولهذا فالمرور من هذه الجهة كان مستحيلا. فكان على عَمِلكار لكي يتصل بحنّيبَعْل أن يدور مع سبخة سجومي من جهة الشرق والجنوب والغرب، وأن يخترق بذلك الأراضي الوعرة الواقعة بالشمال الشرقي من الباردو Bardo، وفي كل هذا مسيرة نحو سبعة فراسخ.

29) لاشك أن المقصود بِلِبْتيس هنا هي لمطة المدينة الواقعة بالقرب من هَدْروميت أي سوسة، وليس لِبْتيس الكبرى التي هي لَبْدة الواقعة بين السدرتين الكبرى والصغرى.

30) في بداية روايته عن الحرب الإفريقية، يقول إن قرطاجة قد خاضتها ضد المرتزقة وضد النوميديين والليبيين الثائرين معهم: ك 1، 65، 3 وبالطبع فإن هذا الكلام يعني الأهالي الذين حاربوا قرطاجة في نفس الحقبة التي جرت فيها ثورة المرتزقة.

31) لقد حاول ذلك السيد فاريز Varese في كتابه : (Studi di Storia antica) (الجزء الثالث ص 47-48 طبعة 1902). ويعتقد أن العمليات التي قام بها حنّون قد جرت في السنة الأولى للحرب أي 240، وأن عَمِلْكار نال قيادة أحد الجيوش في السنة الثانية منها وهي سنة 239، ويجعل السنة الثالثة منها أي 238 قد وقعت فيها المعركة التي أدت إلى حادثة المنشار وكذلك إلى حصار تونس، وأخيرا يكون ماثوس قد انهزم في ربيع 237، وهذا لا يَدَعْ مجالا للأحداث التي جرت بين انهزام الثائر الليبي وذهاب عَمِلكار إلى إسبانيا.

32) وقعت هذه الأحداث بين 237 وهو تاريخ وصول عَمِلكار إلى إسبانيا، وبين 229-228 وهو تاريخ وفاة عَمِلكار.

33) كانت السيطرة المادة والمعنوية على شمال إفريقيا مفيدة جدا، بل وضرورية أيضا لقرطاجة. غير ان عَمِلكار اعتبر لاشك أنه سيكون أكثر جدية في العمل حسب هواه في إسبانيا، خصوصا وأن هذه هي الأكثر غنى وستزوده كثيرا وسريعا بالخيرات التي يحتاج إليها. ومع ذلك فإنه لم يكن يعادي فكرة نشر السيطرة البونيقية على ليبيا.

34) پوليب في ك 2، 1، 6 يقول إن عَمِلكار قد أصلح في إيبيريا أحوال القرطاجيين، فإذا صح هذا القولَ أمكن الافتراض بأن عددا ما من المؤسسات الساحلية كانت قد اختفت أو كانت قد أصابها الوهن.

35) يظهر أن المؤلف وقع له التباس في الاسم، ذلك أن المدينة التونسية كانت حقيقة تدعى قَرتْ حَدَشْت أي القرية أو المدينة الجديدة أو الحديثة، بينما كان اسم المدينة التي أنشأها حَسْدربَعْل في إسبانيا تدعى قَرَتْ جَنت أي المدينة الجنة، وعلى هذا نميز نحن بينهما بأن

ندعو الأولى باسم قرطاجة أو قرطاج كما يسميها إخواننا التونسيون اليوم، وندعو الثانية قرطاجنّة، وهي التي يدعوها العوام عندنا حتى اليوم باسم قرطاخنة – بالخاء – كما في الإسبانية.

36) يمكن تفسير سبب هذا التنازل من جانب الرومانيين بخوفهم من زحف الغاليّين على إيطاليا الوسطى (وهو زحف وقع بالفعل سنة 225). فلاشك أنهم كانوا يريدون الاطمئنان من الجهة الإسبانية.

37) حينما ناقش الرومانيون من بعد هذه المسألة القانونية أكدوا أن معاهدة سنة 241 لم تقصد فحسب حلفاء رومة وقرطاجة إبان عقد هذه المعاهدة، ولكن قصد بها حتى حلفاؤهما في المستقبل أيضا. (پوليب ك 3، 29 وتيتْ ليڤ ك 21، 19). وهذا الرأي لا يمكن قبوله حتى ولو كان هذا الشطر مذكورا في المعاهدة. فإذا كان غير مذكور فالأمر مخالف للحق لأنه يؤدي إلى تطبيق المعاهدة من جانب واحد على حالة لم تذكر في سنة 241، ويؤدي الأمر في الأخير إلى أن أحد الجانبين يعرقل الآخر في كل ما قد يقوم بعمله في الميدان السياسي أو العسكري وغير ذلك من الميادين بإعلان نفسه حليفا للشعوب التي يهددها الآخر أو يحاربها.

38) يقول پوليب في ك 7، 9، 12-13 : «إذا طلب الرومانيون الصلح فإننا – أي القرطاجيين – لا نوافقهم عليه إلا بهذه الشروط، وهي أنكم – أي المقدونيين – تشملكم أيضا صداقتهم، ولن يؤذن لهم أيضا بإشهار الحرب عليهم، ولا أن يملكوا كُرْسير Corcyre إلخ...» ويقول في الفقرة 15: «إذا دخل الرومانيون في حرب، سواء ضدكم أو ضدنا، فإننا – حسب الضرورة – نتبادل العون في هذه الحرب». وبالطبع فإن النص الأصلي الذي حافظ لنا عليه پوليب هو وحده

الذي يؤخذ بعين الاعتبار. وقد قال بعض المؤرخين الرومانيين زورا إن هذه المعاهدة قد نصت على أن تكون رومة وإيطاليا ملكا للقرطاجيين. انظر تيتْ ليف : ك 23، 33، 11 وزوناراس : ك 9، 4.

39) حول هؤلاء الكتّاب انظر مولَرْ G. Muller في Fragm. Hist. Gracc. ج 3 ص 99-102.

40) تيتْ ليف : ك 26، 16، 13.

41) وقع إعلامه بالكارثة حسبما يحكي، بأن القنصل الروماني نيرون رمى برأس حَسْدربَعْل في معسكر أخيه حنّيبَعْل.

42) البريطور Preteur- Praetor نظام إداري وقضائي أنشئ في رومة سنة 367 ق.م. وكان في رومة بريطور واحد ثم أحدث بعده نظام بريطور الغرباء المكلف بالدعاوى بين الغرباء أنفسهم أو بينهم وبين المواطنين الرومانيين. ومهمة البريطور أصلا هي تنظيم الدعاوى ووضع المسطرة وطريقة الترافع والحكم. فهو لا يحكم وإنما يبعث بالقضية إلى هيأة للحكم من بعد. على أن للبريطور مهام أخرى تدخل في نطاق عمله بحيث يمكن أن ينال قيادة أحد الجيوش، وأن يدعو مجلس الشيوخ للانعقاد، وكذلك الكوميسات، وأن يقترح إصدار بعض القوانين، وأن يكون واليا حاكما على إحدى المقاطعات أو الولايات. وعلى كل فالبريطور في النظام الروماني، هو من أصحاب الولايات (المهام) الكبرى وله السلطة Imperium. أما البروبريطور Propreteur - Propraetor فهو أيضا وال مزود بالسلطة ويقوم مقام البريطور في جميع الأعمال، ولكن خارج مدينة رومة وحوزتها. فهو إذن بريطور بالنيابة. وغالباً ما يكون في الأصل

بريطورا انتهت مدة عمله في رومة، ثم وقع له التمديد ليعمل في المقاطعات أو في مناطق النفوذ.

43) بين ليلِبي وأوتيكا 200 كيلومتر، وهي مسافة تتطلب على الأقل يومين وليلتين للذهاب والإياب، ولاشك أن 130 سفينة للحمل قد فرضت السير ببطئ، فكيف يمكن أن تكون الحملة وقعت كلها في ثلاثة أيام؟ فلابد إذن أن يكون تيتْ ليڤ أخطأ أو بالغ.

44) لكن بْلين الطبيعي : ك 5، 19 يذكر نهرا باسم Mulucha، وكان حدا بين بوكوس ملك موريطانيا والماسيسيليين. لهذا، فإذا صحت المعلومات الجغرافية التي يوردها بلين فنهر ملوشا (ملوكا) هذا لا يمكن أن يكون هو نهر مَلْوية. (وعليه فهل يكون هو نهر ملاك Mel-legue الذي ينبع في الجزائر ويدخل تونس ؟).

45) هي Sicca Vénéria أي سِكّا الفينوسية (نسبة إلى المعبودة فينوس) وهي المعروفة في عهد الفتوح الإسلامية باسم شق بنارية، واسمها اليوم مدينة الكاف في القطر التونسي.

46) يشير أپْيان في (Lib 10) إلى وقعة حربية قام بها بعد ذلك سيفَكْس بالمقاطعة القرطاجية (بين 212-206 على وجه التقريب)، وكان سببها غضب الملك لما علم أن حَسْدربَعْل ابن جسكون قد واعد مَسنيسّا بإعطائه بنته سوفُنِسْبي Sophonisbé زوجة، وكان سيفَكْس يريدها لنفسه لأنه كان مغرما بها. ولكن سنرى من بعد أن أپْيان قد أدخل سوفُنِسْبي في القصة قبل الأوان.

47) ديودور الصقلي : ك 26، 23.

48) يذكر تيتْ ليڤ: ك 28، 16، 12 أننا لا نعلم بوضوح الأسباب التي دفعت بمَسنيسّا لأن ينقلب فجأة. وهناك رواية أپْيان (في Lib. 10، Iber 37) وفي دِيون كَسْيوس أن حَسْدربَعْل ابن جسكون كان واعد مَسنِيسّا ببنته سوفُنِسْبي (صفونة بعل) ولكنها تزوجت بسيفَكْس على يد أبيها حسب ديون كسيوس، أو على يد القرطاجيين دون علم حَسْدربَعْل حسب أپْيان. والقصد من هذا الزواج ضمان مساندة ملك الماسيسيليين لقرطاجة ضد رومة. لكن ذلك هو ما أغضب جدا مَسنِيسّا الذي انتقم بانضمامه للرومانيين. غير أن هذا ليس صحيحا لأن زواج سيفَكْس من سفونسبي وقع في تاريخ متأخر كما يذكر ذلك تيتْ ليڤ. ولما قدم حَسْدربَعْل في نفس الوقت الذي ورد فيه سِپْيون لزيارة سيفَكْس لم يكن صهرا آنداك للملك، بينما كان مَسنِيسّا قد دخل في المفاوضات مع سيلانوس Silanus. تيتْ ليڤ : ك 28 , 16-17، وأپْيان نفسه في Lib 10 يجعل زواج سيفَكْس مع سوفُنسْبي بعد زيارة سِپْيون لسگا. أما ديون كسيوس فيدّعي سببا آخر لَتخلي مَسنيسّا عن القرطَاجيين، وهو أن حَسْدربَعْل ساعد سيفَكْس في الاستيلاء على مملكة الماسيسيليين بعد موت ملكها گايا أبي مسِنيسّا. ولكن حسب رواية تيتْ ليڤ التي سنذكرها من بعد فإن سيفَكْس لم يقم بهذا الاستيلاء على الأراضي القديمة لگايا إلا من بعد.

49) تيتْ ليڤ : ك 17، 19، 8-12 يجعله ابنا لإحدى بنات گايا. فهو إذن حفيده. وفي مكان آخر : ك 28، 35، 8، يجعله نفس المؤرخ ابنا لأحد أخوة گايا ويؤكد هذا القول.

50) تيتْ ليڤ : ك 27، 19، 8-12. ولعل هذا جرى بعد معركة بايكولا Baecula سنة 208، وانظر فالير مكسيم : ك 5، 1، 1.

51) تيتْ ليف : ك 29 , 30 , 1 ربما كان ذهابه من إسبانيا دون موافقة القرطاجيين الذين لم يكونوا يودون عودته إلى وطنه كما سنرى. ولربما أنه ذهب أثناء تغيب ماگون عن قادس في رحلة بحرية حول الساحل الجنوبي الشرقي لاسبانيا (خريف : 206 تيتْ ليڤ ك 28، 36). ويقول أپْيان في (Lib 10-11) إن حَسْدربَعْل ابن جسكون علم بالاتفاق الحاصل بين مَسنيسّا وسِپْيون، فأصحبه أثناء عودته لمملكة أبيه بفرسان أصدر عليهم الأمر سرّاً بقتله فأحس مَسنِيسّا بالمؤامرة وتلافاها. ولاشك أن هذه الرواية يجب تنحيتها ورفضها، مهما يكن قول أپْيان، لأن حَسْدربَعْل لم يكن في إسبانيا. وقد سبق أن رأينا أنه بعد معركة ايليا بقليل أبحر إلى قرطاجة من قادس.

52) جميع هذه الأحداث رواها تيتْ ليڤ في : ك 29، 29، 6-13، وكذلك الأحداث التي تلتها حتى إقامة مَسنِيسّا بجنوب السدرتين، في ك 29، 30-33 فهل يكون الكاتب اعتمد في ذلك على پوليب ؟ ربما. وهل پوليب نفسه استقى معلوماته مباشرة من مَسنِيسّا الذي عرفه شخصيا ؟ ربما. ويمكن أيضا الافتراض بأن مَسنِيسّا روى هذه الأحداث بنفسه لسِپْيون الإفريقي، أو لسِپْيون الإميلي، أو رواها للأيليوس إلخ...

53) كان له ابن هو فِرمْينا Vermina الذي سبق أن رأيناه سنة 205 يقود الجيوش. وإذا صح ما يقوله أپْيان في (Lib. 17) فيكون له سنة 204 ثلاث بنات في سن الزواج.

54) سوفُنسْبي Sophonisbé هذه هي الصيغة الفرنسية المتداولة لاسم هذه المَرأة، بينما اسمها الحقيقي في اللغة البونيقية هو صَفَنْ بَعْل Safanbaal أي مصونة بعل. وقد عرفت لهذا الاسم عدة صيغ أخرى منها صفونة بعل.

55) تيتْ ليڤ : ك ٢٠، ٢١، ١.. ولا يحتمل أن يكون حسدربعل قد واعد بها مَسنيسّا قبل أن يعد بها سيفَكْس أيضا. وكما سبق أن رأينا (انظر التعليق رقم ٤٨) فإن انقلاب مَسنيسّا ضد القرطاجيين لم يكن بسبب زواج سيفكْس من بنت حَسْدربَعْل. كما أن ديودور الصقلي (ك 27، 7) كان وحده الذي ادعى أنها تزوجت مَسنيسّا قبل زواجها بسيفَكْس، ويُشير في (ك 30، 12، 11) إلى أنها رأت مَسنِيسّا لأول مرة في مدينة سرِتْا سنة 203.

56) نجدها في : ك 14، 1-10 وك 29، 1-19.

57) تيتْ ليڤ : ك 28، 40-45، و ك 29، 19-22، وانظر بْلوتارك في ترجمة فابْيوس، ف 25، وترجمة كاتون القديم ف 3. وانظر ديودور الصقلي: ك 27، 4، 5. وأپْيان Lib 7. ودِيودون كاسْيوس، فقرات 56، 65. وزوناراس ك 9 , 11 ص d , 436.

58) لمعرفة مكانة سوفُنِسْبي الممتازة عند زوجها، وهي مكانة كادت تبلغ حد الهيمنة عليه، انظر پوليب : ك 14 , 1 , 4.

59) تيتْ ليڤ : ك 29، 24، 2-6. وكذلك فرونتان : ك 2، 7، 4 Frontin : Strat ، وبوليان Polyen ك 8، 16، 7. وزوناراس : ك 12، 9 ص 437-438. ولكن كيف كان سِپْيون ينوي أن يفسر هذه الأكذوبة لجنوده حين يجدون أنفسهم بأفريقيا وجها لوجه مع جيوش سيفَكْس ؟

60) تيتْ ليڤ : ك 29، 26، 3. وانظر كذلك : ك 29، 25، 10 وك 30، 41، 7. وحسب أپْيان في Lib 13 كان معه 52 سفينة حربية و400 للنقل وكثير من السفن الصغيرة.

61) تيتْ ليڤ : ك 29، 27، 13-15.

62) الذي قال : ك 29، 27، 14 على ما يظهر أن سپيون انحرف عن طريقه بسبب رداءة أحوال الطقس، ثم عاد فأخذ طريقه الأول.

63) هي الفقرة رقم 41 عند : H. Peter في Histor. Poman. Fragm، ص105. وقد أوردها نونيوس مركيلوس N. Marcellus مستقاة من الكتاب السادس من مؤلف كويبيوس عن الحرب البونيقية الثانية.

64) ربما في هَنْشير الْباي الواقع غرب الجنوب الغربي من أوتيكا، وعلى نفس المسافة المذكورة.

65) يسوغ الاعتقاد بأن عملية التذبيح قد وقعت فعلا. ولا نعتقد أن كاتبا إخباريا يتقول على الجيش الروماني عملا ليس له فيه تشريف ولا فخر.

66) پوليب : ك 14، 5، 15.

67) لم يذكر هذه المدينة پوليب ولا تيت ليْف. أما أپْيان في Lib 24 فيذكرها، ولا يرى تيسّو Tissot مانعا في أن تكون بالمحل المعروف اليوم باسم مركب النبي، على الضفة اليمنى لنهر مجردة، غربي الجبل الأحمر.

68) پوليب : ك 14 , 6 , 12 يسميها أبا Abba، بينما تيتْ ليڤ في ك 30، 7، 10 يسميها أوبا Obba.

69) كان المشاة أصحاب السلاح الثقيل موزعين بين هذه الأصناف الثلاثة حسب أقدميتهم في الخدمة العسكرية، وكان الترياري (المثالث) هم أكثرهم أقدمية في العمل. وقد سوغتُ لنفسي ترجمة الهستاتي بالأوائل، لأنهم دائما في الخط الأول المواجه للعدو،

يتلوهم من الخلف الـ Principes دائما في الصف الثاني فدعوتهم بالمثاني، ثم دعوت الخط الأخير بالمثالث، وهاتان التسميتان المثاني والمثالث = اقتباس من علم الموسيقى ولا أظن أن مانعا يمنع منه.

70) أوفيد : التقاويم Fasti، القسم الرابع، البيت 769.

71) ألباموكنس هي مدينة Alba Fucentia الإيطالية بجبال البروز Abruzzes وفيها سجن سيفَكْس، كما سجن بها الملك بيرصي Persée، وسجن بها أيضا بِتْويتوس Bituitus، أما تيبور Tibur فهي المعروفة اليوم باسم تيفولي Tivoli. وعن موت سيفَكْس ذكر تيتْ ليف: ك 30، 45، 4-5 أنها حدثت قبل تمجيد سِپْيون، بينما يذكر پوليب: ك 26 , 23 , 6 إن الملك مر به في هذا الموكب على عادة القادة المنتصرين حين يعرضون على الشعب الروماني في موكب للتمجيد أعداءه المغلوبين مهانين صاغرين.

72) البواصو Boisseau مكيال قديم للمواد الجافة يزن نحوا من 13 كيلو.

73) لم تكن القوات إعانة للحليف مَسنيسّا، وإنما كانت وسيلة للتأكيد بأن هذه الفتوح، (كما جرى في المعركة السابقة التي كان فيها الملك تبعا للأيليوس) هي ملك الشعب الروماني الذي يجب على مَسنِيسّا أن يدين له بالاعتراف.

74) لا ندري شيئا عن قبيلة الأرياكيين Areacides ولا عن مسالكهم. أما الميزوتيلي Mesotyle الذي ذكره تيتْ ليف باسم مازيتلوس، فيذكرنا بما سبق أن رأيناه عن هذا الشخص الذي سبق له أن حارب مَسنيسّا ثم تعالج معه، فهل يكون الآن انشق مرة أخرى على مَسنِيسّا وانضم للقرطاجين ؟

75) كما نطرح روايات رومانية أخرى متقاربة إلى حد ما مع أپيان. فقد تحدث فاليريوس أنتياس V. Antias الذي ذكره تيتْ ليف : في ك 30 , 29, 6 عن معركة أولى انتصر فيها حنّيبعْل نفسه على الرومانيين، ومكث الجيشان عدة أيام متواجهين، ثم أظهر سِپْيون أنه يولي نحو أوتيكا ليبحر القائد القرطاجي الذي تبعه فعلا مع فرسانه، وفجأة هاجمهم بوبْليوس وهزمهم واستولى على أمتعتهم. ويقول فرونتان Frontin في Str. ،III 6, 1 إن سِپْيون أراد الاستيلاء على بعض المدن التي بها حاميات قوية. فأظهر الفرار، فتابعه حنّيبَعْل ومعه حتى المدافعون عن هذه المدن التي هاجمها مَسنِيسّا بأمر بوبْليوس واستولى عليها بسهولة. وفي نفس المصدر : ك 1، 8، 10 منوكيوس ثيرموس M. Thermus يهاجم رتْلاً يقصد حنّيبعْل. وفي أوتروب : Eutrope ك 3، 22، 2 إن سِپْيون هزم حنّيبَعْل في عدة من المعارك. فطلب حنّيبَعْل منه الصلح، فوقع الاجتماع وأثناءه تمسك بوبْليوس بشروطه السابقة، ولكنه فرض زيادة هي 100.000 لبرة فضية عقابا للقرطاجيين على خيانتهم، لكنهم لم يوافقوا على هذا وأصدروا الأمر لحنّيبَعْل بالحرب.

76) كرنيليوس نيبوس C. Nepos في ترجمة لحنّيبَعْل فصل 6، فقرة 3.

77) تيتْ ليف : ك 30، 39، 1-3. وزوناراس : ك 9، 14 ص c-441 يذكر أن كلوديوس منعه سوء الأحوال الجوية أول الأمر، فذهب إلى صقلية وفيها علم بخبر انتصار سِپْيون.

78) انظر مولَرْ في Numismatique de l'Afrique ancienne ج 3 ص 88 والملحق ص 69. وانظر أيضا : هيد Haed في : Historia numorum، الطبعة 2، الرسم 398 ص 129 p، Mélanges numismatiques, I, 1892

وأيضا 1889 P. 403-6، (Revue numismatique) فقد أوضح أن هذه النقود هي حقا لفرمينا ابن مسيفكْس.

79) مهما يكن شكّنا في إرجاع الرومانيين لفرمينا وتوليه الملك بموافقتهم، فيبقى مع ذلك الاحتمال قائما. ويبرره ما يحدث بعد ذلك بزمن طويل في حالة تكاد تشبه هذه، وهي إرجاعهم ليوبا الثاني Juba II إلى الملك بعد موت أبيه يوبا الأول Juba I الذي حاربهم. وكذلك الأمر بالنسبة لكيلوبترا الصغيرة التي أفرجوا عنها وذهبت مع يوبا الثاني ملكة على موريطانيا بموافقتهم. ولربما يكون الرومانيون في معادلاتهم السياسية فضلوا الإفراج عن فرمينا ليتألفوه وليجتذبوه إليهم، أما ليكفيهم شر حرب الاستيلاء على أراضيه ويكفيهم نفقات هذه الحرب، وإما تحسبا لما قد يبدر من مَسِنيسّا تجاه رومة التي لاشك أنها كانت تنظر إليه بحذر، منها كانت مظاهر التودد التي تبديها نحوه.

80) من هو "الغير" الذي يراد منعه من الاستيلاء على (الموقع الممتاز) الذي هو مدينة قرطاجة ؟ لاشك أن المؤلف قد اكتنه طَوِية نفس سِپْيون، ومن خلاله طوية جميع الرومانيين الذين لم يكونوا مستعدين لأن يستسيغوا استيلاء مَسِنيسّا وسيطرته على المدينة الإفريقية العظيمة، وذلك مهما بلغت صداقتهم له وعونه وإخلاصه لهم.

81) حددت القيمة للتعويض ب : 25.000 لبرة فضية، أي 8186 كيلو من الفضة.

82) تيتْ ليف : ك 30، 45، 3 دفع سِپْيون لخزينة الدولة مما غنمه 133.000 لبرة فضية، أي ما يعادل 43.616 كيلو من الفضة. ولربما يكون في الخبر بعض المبالغة.

83) كان قسم من الجيتوليين - وليس جميعهم - خاضعين ليوغرطه Jugurtha، بعد موت جده مَسنِيسّا بنحو أربعين سنة حسب سالُسْت في : 9، 7. ويقول تيتْ ليف في Epit. L 48 (سنة 152) إن الشائعات روجت أن أرْكوبَرْزان ذهب بجيشه إلى المقاطعة البونيقية، خصوصا وأن أراضي مملكة مَسنِيسّا تتوسط بين هذه المنطقة وأراضي أرْكوبَرْزان.

84) انظر 1909, 484، Bull de corresp. Hellénique وRoussel et Hatzfeld حول تكريس لتمثال مَسنِيسّا الذي أقامه له نقوميد Nicomède بجزيرة ديلوس Délos كما أن بطلمي إيفَرْجيت الثاني Ptolémée Evergète II كان يهتم بأخبار وأعمال مَسنِيسّا .Ergm. Hist. Cracc ج 3، ص 187-188، رقم 7 و8.

85) سِپْيون الإميلي (185-129) Scipion Emillien هو ابن پولْ إميل P. Emile كما أنه الحفيد بالتبني لسِپْيون الإفريقي عدو حنّيبَعْل وقاهره في زاما. وسِپْيون الإميلي هو المنتصر في نومَنْصا Numance بإسبانيا سنة 133، وقبلها انتصر على قرطاجة ودمرها سنة 146، ويلقب بالإفريقي الثاني. وقد كان زعيما للحرب الأرستقراطي برومة، ومات في ظروف غامضة أثناء مناقشة القانون الزراعي برومة والذي اقترحه تيبيوس گراكوس وكنايوس أخوه.

86) تيتْ ليف : ك 42 , 29 يزعم أن مَسنِيسّا كان يسره جدا انهزام الرومانيين في حربهم ضد پِرْصي، وإذ ذاك لن يعود هناك من يمنعه من بسط يده على جميع أفريقيا.

87) تيتْ ليف : ك 30, 37, 4 يورد مادة يزعم أنها من المعاهدة التي فرضها سِپْيون على القرطاجيين، وبمقتضاها يجب عليهم عقد

تحالف مع مسنيسا (مع أن بوليب الذي ينقل عنه المؤرخ اللاتاني لا يشير لشيء من هذا). ورغما عما يذكره كل من تيتْ ليف وأپْيان، فيمكن الشك في وجود عقد بالتحالف بين الملك وقرطاجة بعد صلح سنة 201، لأن علاقاتهما كانت على العموم تسير وفق المعاهدة البونيقية الرومانية، ولم يكن من مصلحة مَسنِيسّا تنحية أوجه الخلاف الممكنة لأنه هو المستفيد منها.

88) إذا كانت منطقة الأمبوريات هي ساحل سدرة الصغرى، فإن لبدة لم تكن واقعة وسط هذه المنطقة. فلابد من القول بأن المنطقة التي تكون لبدة مدينتها الرئيسية، وتحيط بالمدينة كما يقول أپْيان تمتد من فتحة سِدرة الصغرى شمالا إلى حدود برقة. وقد وصلت مملكة مَسنِيسّا إلى هذا الحد.

89) وطبعا لا يمكن دفنها في التربة لأنها صخرية بالجبل.

90) أپْيان : Lib 61. ولايمكن أن يكون هذا الخطاب من إنشاء أپْيان لأننا نجده عند ديودور الصقلي وليس مستحيلا أن يكون المصدر المشترك للكاتبين معا راجعا في الزمن إلى حقبة قريبة من الحرب الثالثة. وبهذا يمكن أن تعزَى لأحد الأموات فكرة يفضل أحد الأحياء أن لا يذكرها معزوة لنفسه هو.

91) زوناراس : ك 9، 26 ص : c 462 قرر القرطاجيون قتال النوميديين فحشدوا الجيوش الحليفة (ربما يشير بهذا إلى أرْكوبَرْزان) والسفن مخالفين المعاهدة بذلك. فبعث إليهم الرومانيون سِپْيون نازيكا ليلومهم على هذه الاستعدادات وليأمرهم بإيقافها. – أما فلوروس : ك 1، 31، 3 الذي يعتمد على تيتْ ليف، فيقول إن سبب الحرب

البونيقية الثالثة كان هو تكوين جيش وأسطول قام به القرطاجيون ضد النوميديين خرقا للمعاهدة المبرمة مع رومة. - وكذلك فليوس باتركلوس : ك 1, 12, 2 فإنه يشير لهذه المطاعن المزعومة قائلا : «إن مجلس الشيوخ قرر تدمير قرطاجة لأن الرومانيين كانوا يريدون تصديق جميع ما يقال لهم عن القرطاجيين، لا لأن ما كان يقال لهم هو حري بأن يصدق».

92) كان فانيوس قنصلا سنة 122. ويذكر عنه بلوتارك Plutarque في ترجمة تيبريوس گراكوس أنه كان أول من صعد على أسوار الأعداء (أي في قرطاجة). ومع ذلك فلا يلزم من هذا القول أن يكون فانيوس قد كتب حقيقة كل ما يتعلق بقصة الاستيلاء على المدينة. هذا ومن بين من روى قصة احتضار قرطاجة وموتها : لوكْيوس كلبورْنيوس بيزوفْروجي L. C. Piso Frugi الذي كان قنصلاً سنة 133، وكنايوس جيليوس Cn. Gellius.

93) هي الفقرات الباقية من الكتاب 36 (XXXVI) والكتاب 38 (XXXVIII) من نشرة Buttner - Wobst.

94) أپْيان : Lib 74-135.

95) كان پوليب في بلاد الإغريق، ومنها ركب البحر في بداية الربيع ذاهبا إلى ليلبي التي كان القنصل مانيليوس Manilius قد ضرب له موعدا بها. وفي جزيرة كرسير Corcyre أخبر بأن القرطاجيين قد سلموا الرهائن التي تسلمها القنصلان في ليلبي. وعلى هذا فالقنصلان كانا بهذه المدينة حول شهر فبراير. وكانا قد تحملا مسؤولية القنصلية في فاتح شهر يناير من السنة الرسمية

التي كانت في عهد الحرب البونيقية الثالثة تتطابق تقريبا مع السنة الحقيقية.

96) زوناراس : ك 9 , 27 ص 464 d يقول إن مانيليوس أعلم رومة بتمنع مَسنيسّا.

97) عُثر في مدينة Oxyrhynchus المصرية على ورقة للبردى تجعل موت مَسنِيسّا في عهد قنصلية البيونوس Albinus وبيزون Pison الذين تنصبا في مسؤوليتهما القنصلية يوم فاتح يناير 148 بالتوقيت الرسمي. عند وفاة مَسنِيسّا كان مانيليوس وهو أحد قنصلي سنة 149 في منصب بروقنصل حسب فاليرمَكْسيم في (ك Ext. 4, 2, 5)... ويتأكد من مجموعة رواية أپْيان (Lib 107) أن الملك مات في فصل الشتاء.

98) كان گُلوسا Gulussa أصغر سنا من مسبْسا Misipsa، وكان قد بُعث في سفارة إلى رومة سنة 172، ولاشك أن عمره في هذا التاريخ كان يتجاوز 20 سنة. وترتيب أعمال الأبناء الكبار عند المؤلف هو كما ذكره أپْيان وتيت ليڤ. ولكن زوناراس يعكس بين گُلوسا ومَسْتَنْبَعل، بينما يوحنا الأنطاكي يعكس بين مِسبْسا ومستنبعل.

99) إذا كان مَسنِيسّا قبل موته قد أعطى خاتمه لمسبسا – كما يذكر ذلك زوناراس – فهذا يبرهن على انه لم يكن يفكر في نزع الولاية عن ابنه الاكبر، لكن اهتمامه بتسوية خلافته يبرهن – على ما يبدو – بأنه كان ينوي التقسيم.

100) أپْيان : (109)، كانت الهدايا كما يليك رداء أرجواني بمشبك ذهبي، وفرس مجلل بالذهب وشكة سلاح كاملة، و10.000 دراخما فضية،

و100 مين من الفضيات (أي أكثر من 43 كيلو)، وخيمة بجميع أثاثها. وحسب زوناراس فإن فَمَاياس قد أذن له بالحظور في المجلس بين الأعضاء. (لكن ليس معنى هذا طبعا أنه أصبح من أعضاء المشيخة).

101) لأنهم بعثوا عن طريق البحر بالنجدات إلى بنزرت. ولاشك أن المعسكر الذي كان مانيليوس قد أقامه على البرزخ قريبا جدا من أسوار المدينة كان قد أخلي.

102) زوناراس: ك 9، 30 ص 468 لم يتكلم على الدور الذي قام به گلوسا في هذا الموضوع. لكنه ذكر بغير تدقيق أن حَسْدربَعْل بعث الموفدين محاولا التفاوض. فلما لم يحصل على ما أراد سجن زوجته في القلعة، لأنها أرسلت عنها أحد المبعوثين إلى القنصل ترجوه السلام لنفسها ولأبنائها.

103) في سنة 147 قام اللوزيتانيون (البرتغاليون) بمعاودة الحرب بعد هدوء دام ثلاثة سنين.

104) بلين الشيخ : في التاريخ الطبيعي : ك 5، 9.

105) بَرْدي هِرْكولَنوم Herculanum (Inde des Stoïciens) ص 476 سنة 1904.

106) بلين : التاريخ الطبيعي ك 5 , 9-10.

107) القول الأول عند بلين في: ك 6، 199، والقول الآخر عنده أيضا في: ك 5، 9.

108) عبر الكاتب بكلمة المغرب Maroc صراحة، ولا ننسى انه من زعماء الطائفة المفكرة الاستعمارية التي كانت تجهد نفسها في التفكير لتجد ما تستطيعه ظلما من المسوغات لتصغير رقعة المغرب وتضييقها، وحسبنا هذا التنبيه هنا، أما مناقشة اگْصيل في مجمل آرائه فنرجو أن نفرد لها بحثا إضافيا بعد إتمام الترجمة إن شاء الله.

109) يقول زوناراس : ك 9، 30 ص 469 إن بيثوياس كان قد ألقي عليه القبض. ولكنه لم يذكر الظروف التي تم بها ذلك وقد قال أيضا في نفس المصدر، ص 468 أنهم أكلوا لحوم البشر.

110) أپْيان : 128 وكذلك زوناراس : ك 9، 30، ص 469 a.

111) بلين الشيخ : ك 18، 22.

112) أپْيان في : 135 يعبر فيما يفيد بان التدمير المادي لهذه المدن هو الذي جرى، وليس إلغاء النظام البلدي. بينما سترابون : ك 3 , 16 17 يذكر بالتتابع نِفِريس وتونس ونيابوليس وأسْبيس (القليبية Clupéa) ويضيف قائلا : «هذه المدن دمرها الرومانيون في نفس الوقت مع قرطاجة» وهذا ينطبق إما على المدينتين الأخيرتين وإما على الأربع كلها. وقد سبق أن رأينا أن سِپْيون استولى على نفريس بأسابيع قليلة قبل استيلائه على قرطاجة، وأن نيابوليس أخذت سنة 148، وفي هذا العهد نهبت أو دمرت رغما عن استسلامها. أما القليبية فقد قاومت آنذاك بنجاح، ويمكن أنها تضامنت مع قرطاجة لمدة سنتين من بعد، ويبدو لي أن من الممكن أن تكون تونس سقطت في يد الرومانيين قبل ذلك بكثير، لأن الرومانيين لم يكونوا

يستطيعون حصار قرطاجة وتونس تهددهم من الخلف، ولا أن يأخذوا في حملتهم على نِفِريس وتونس تعرقل طريقهم. ورأينا لايليوس أثناء الحملة الثالثة سنة 147 قد دار مع بحيرة تونس، فلابد أنه مر تحت المدينة.

113) على أن هذه الأراضي لم تدمج في مناطق تراب المدن الحرة، لأن الشعب الروماني سلمها وبقي يعتبر نفسه مالكا لها. وكذلك الشأن في الأراضي المسلمة للمنشقين، وهم هنا فِماياس وجنود حَسْدربَعْل على ما يحتمل – الذين انشقوا عن قرطاجة ووالوا الرومانيين.

114) الألياذة لهوميروس : النشيد 4، الأبيات 164-165، والنشيد 6 الأبيات 448-449.

115) ذلك هو ماكان يخشاه سِپْيون نازيكا الذي كان يعارض كاتون في طلبه بتدمير قرطاجة.

الفهرس